البروفة الثالثة

شرح العقيدة الواسطية

فضيلة الشيخ الدكتور

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



الإسكندرية - أبو سليمان - شارع عمر - أمام مسجد الخلفاء الراشدين

الإدارة: ٠١٠٠٥٠١٣١٥١ المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦


راسلونا على صفحتنا على الفيس بوك: «دار الخلفاء الراشدين»


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، أما بعد.

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد:

فكتاب (**العقيدة الواسطية**) لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ من أكثر كتب العقيدة اختصارًا مع بيان، وأكثرها استدلالًا على أصول العقائد بآيات القرآن وأحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيحة، وهذه الأصول هي التي جمعها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإيمان: «**أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خير وشره...**»[(١)] الحديث.

---

(١) جزء من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه. وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا**»، قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**». قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: «**أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة، العالة، رعاء الشاة، يتطاولون في البنيان**». قال: ثم انطلق. فلبثتُ مليًّا، ثم قال لي: «**يا عمر، أتدري من السائل؟**»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» رواه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٤٩٩٠) عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه العقيدة التي كتبها استجابةً لأحد قضاة بلدة واسط (في العراق)؛ حيث طلب منه كتابة هذه العقيدة، فكتبها رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وضَمَّنها الأدلة الثابتة من الكتاب والسنة على كل مسألة من المسائل التي ذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومعلوم منزلة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحياء العقيدة السلفية والانتصار لها، بعد أن كادت تذهب عن أكثر أهل زمانه، وصار علم الكلام والمنطق اليوناني هو المسيطر على عقول الناس وكلامهم فيما يتعلق بعلم التوحيد، وكان حال نصوص الكتاب والسنة كما يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن خليفة المسلمين في زمانه: «هو مجرد اسم وأما حقيقة الأمر والنهي فبيد غيره». فصارت نصوص الكتاب والسنة في ذلك الزمان مجرد اسم يُتبرك به ، كما صار القرآن في زماننا عند كثير من المسلمين مجرد شيء يُتبرك به، ويوضع في صدور المجالس، أو يعلق على الجدران في لوحة واحدة أو غير ذلك، ويعظمه بعض الناس تعظيمًا ظاهريًّا، وأما حياة الواحد منهم فبعيدة كل البعد عن هدي القرآن إلا من رحم الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي زماننا هذا صارت نصوص الكتاب والسنة عند كثير من المتكلمين في مجال العقيدة يَصْدُقُ فيها هذا الوصف، فربما تجد كتابًا منسوبًا إلى علم العقائد والشريعة، وتجد فيه ندرة في ذكر نصوص الكتاب والسنة، مع كثرة ما يتعرض له الكتاب من مسائل، وهذا نتيجة أن هؤلاء المتكلمين أصَّلوا وقَعَّدوا أن نصوص الكتاب ظنية الدلالة ولا تفيد القطع ولا اليقين، وأن نصوص السنة ظنية الثبوت، فهي -في زعمهم- لا يحتج بها؛ لأنها أخبار آحاد، ولا شك أن كلا القولين باطل.

فإن وضوح أدلة الكتاب والسنة وبيانها لا يَشُكُّ فيه عاقل يؤمن أن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ هو الكتاب المبين، كما قال عَزَّوَجَلَّ في وصف كلامه في أكثر من موضع في القرآن: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾.

ولما كان ذلك الوصف لتناول العقيدة موجودًا في زمن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان ذكر هذه العقيدة على طريقة السلف منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيئًا غريبًا عجيبًا، إلا أنه بذلك قد أحيا تلك الطريقة السلفية، وهي التي كانت وما زالت يجب على كل مسلم اتباعها فيما يتعلق بأمر الاعتقاد، الذي هو أعظم أمر، وأول أمر يجب البدء به، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليها صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(١) الحديث.

فبدأ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمر التوحيد، والإيمان في الدعوة قبل أن يبدأ بالصلاة التي هي أعظم أركان الدين بعد التوحيد والشهادتين.

وإذا كان الأمر كذلك، علمنا أنه يجب الاستدلال بما أتى به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، ومعنى (مبين) أي: يتبين، ويظهر لمن اطلع عليه أنه الحق.

وهذا يهدم ما قاله أهل البدع، وأهل الكلام من أن القرآن والسنة لا يتبين ولا يظهر منهما الحق، وأن الحق -على زعمهم- في الأدلة العقلية.

وعند التأمل نجد أن هذه الأدلة العقلية التي يحتج بها أهل البدع هي في الحقيقة ليست عقلية، بل تدل على ضعف العقول التي ابتدعتها واخترعتها وأما الطريقة العقلية الفطرية السليمة التي يدركها كل ذي لبٍ من قوم يعقلون، ويدركها ذوو الألباب فهي

---

(١) رواه البخاري (٤٦٢٩)، مسلم «الإيمان» (١٩)، أبو داود «الزكاة» (١٥٨٤)، أحمد (٢٣٧١)، الدارمي «الزكاة» (١٦١٤)، الترمذي «الزكاة» (٦٢٥)، النسائي «الزكاة» (٢٤٣٥).

طريقة القرآن، وطريقة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهي متضمنة بلا شك أحسن الطرق في الاستدلال النقلي والعقلي.

وفي الحقيقة ليس هناك تعارضٌ بين النقل والعقل، إذ النقل الصحيح لا يتعارض أبدًا مع العقل الصريح، وإنما ينشأ الخلل من أحد شيئين: إمَّا نقل غير صحيح، وإمَّا عقل فاسد غير صريح، وقد ألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتاب «**درء التعارض بين العقل والنقل**» في بيان ذلك.

ومنهج الاستدلال الذي كان موجودًا عند السلف -رضوان الله عليهم- أنهم يتلون الآية من القرآن، ويذكرون أحاديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان كتاب العقيدة الواسطية إحياءً لهذا المنهج السلفي.

وهذا الكتاب يمثل نقطة تحوُّل تاريخية؛ إذ أنه قبل تأليف هذا الكتاب، وقبل المناظرة عليه، كان أهل السنة يُتَّهمون في عقيدتهم: أنهم مشبهة، وحَشْوية، ومجسمة؛ فلمَّا وقعت مناظرة تاريخية في هذا الكتاب بين شيخ الإسلام ابن تيمية وبين خصومه بعد اتهامهم له عند السلطان أنه يقول بعقائد فاسدة، وأنه يشبه صفات الله، ويلبس على الناس -زعمًا وافتراءً منهم-، فأتى، وناظرهم عليه كلمةً كلمةً، وما استطاعوا أن يجدوا شيئًا يطعنون به عليه، فذاع صيت هذا الكتاب واشتهر، وصارت هذه المناظرة انتصارًا لمنهج السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وعقيدة أهل السنة والجماعة.

وأصبحت هذه العقيدة يقبل الناس عليها ويتعلمونها، وأعرض الناس عما خالفها من الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، ولا يزال منهج شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤثرًا في عهود بعث الأمة التي يقدّر الله عَزَّ وَجَلَّ فيها بعث من يجدد للأمة أمر دينها، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤثرٌ عبر العصور في كل من أتى بعده ممن يريد الإصلاح في هذه الأمة المباركة.

ولا شك أن الصحوة الإسلامية المعاصرة لها نصيبها من التأثر بمنهج شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بل أصبح فرقًا بين المناهج المختلفة، فمن يحب شيخ الإسلام، ويتولاه، ويحتج بطريقته، ويعتد بكلامه صار ذلك من علامة التزام الإنسان بالمنهج السلفي، ومنهج أهل السنة والجماعة، وصار من يعاديه ويخالفه مطعونًا عليه بالبدعة والضلالة.

وما زال أهل الصحوة الإسلامية -بفرقها المختلفة- ينتفعون بكلام شيخ الإسلام ويحتجون به، ويشرحونه، ويدرسونه، ولا شك أن أسعد الناس من يأخذون بطريقة شيخ الإسلام في اتباع الدليل وطريقة الاستدلال، وليس أن يأخذوا فقط من كلامه ما يوافق طريقتهم أو هواهم.

وهذه هي طريقة الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، وهذا هو المنهج الصحيح في فهم الإسلام.

وهذا المنهج الذي سار عليه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يؤسسه هو، بل من جاء به هو النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان عليه الصحابة -رضوان الله عليهم- ومن تبعهم بإحسان، وشيخ الإسلام من هؤلاء الذين اتبعوهم، ونرجو له أن يكون من المحسنين.

وكتبه

د. ياسر برهامي

في الإسكندرية / / هـ

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **[بسم الله الرحمن الرحيم].**

في هذا اقتداء بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كتابة البسملة، والبدء بها في الرسائل، فإن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما أرسل إلى هرقل، وكسرى، وملوك الأرض، كتب «بسم الله الرحمن الرحيم» وهذا في الحقيقة امتثال لسنة سليمان عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ عن بلقيس: ﴿ **إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ** ﴾ [النمل:٣٠] وهذا جزء من آية في سورة النمل.

و﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ من كلام الله عَزَّوَجَلَّ مجمع على أنها جزء آية من سورة النمل، وهي على الصحيح من أقوال أهل العلم إحدى آيات الفاتحة كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إذا قرأتم الحمد لله فاقرأووا** ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، **إنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني،** و﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ **إحداها**»[(١)].

وقال البعض من أهل العلم إنها آية مستقلة في أول الفاتحة وفي كل سورة، ودلَّ على أنها كانت تنزل في أول كل سورة قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنه أنزلت عليَّ آنفًا سورة: بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ... ﴾»[(٢)] الحديث.

ولذا يجب أن يُقرأ بها في الفاتحة على أصح أقوال العلماء، سواء كانت معدودة أو غير معدودة في عدد الآيات السبع للفاتحة كما هو الخلاف بين القراء في عدِّ آيات الفاتحة، فعند حفص تُعدُّ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ آية من الفاتحة، وتُعَدُّ ﴿ **صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ** ﴾ آية واحدة، وعند ورش لا يعدها آية من الفاتحة،

(١) **صحيح**: رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٣٨٩)، والدارقطني في «السنن» (١/ ٣١٢)، «السلسلة الصحيحة» (١١٨٣)، و«صحيح الجامع» (٧٤٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) رواه مسلم رقم (٤٠٠) عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ويعد أول آية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ويجعل ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، و﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آية أخرى.

وهذه الكلمة العظيمة التي علمها ربنا لنبيه سليمان أن يبدأ بها رسالته، وأنزلها على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أوحى الله، تتضمن ثلاثة أسماء من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ الحسنى: **الأول**: اسم (الله)، **والثاني**: اسمه عَزَّوَجَلَّ (الرحمن)، **والثالث**: اسمه عَزَّوَجَلَّ (الرحيم).

واسم (الله) عَزَّوَجَلَّ على أصح أقوال أهل العلم مشتق من كلمة (الإلهة) أي: العبادة وهي المصدر، والفعل الماضي (أَلَه)، والاسم (الإله) بمعنى المألوه أي: المعبود.

فتكون (الله) بمعنى الإله، وأدغمت لام التعريف واللام الأصلية، وحذفت الهمزة تخفيفًا فيكون نطقها (الله)؛ ويدل على ذلك قراءة ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[الأعراف:١٢٨]فقرأها: ﴿و إلاهتك﴾: أي عبادتك، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣]. وبإجماع المسلمين أن الله عَزَّوَجَلَّ فوق العرش، ومعنى (وهو الله) أي وهو المعبود كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

وبعض العلماء يقولون أن اسم (الله) غير مشتق، بل هو علم على ذات الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والأول أصح للأدلة التي ذكرنا.

وهذا الاسم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ الحسنى؛ هو الاسم الذي تضاف إليه كل الأسماء الحسنى فيُقال مثلًا: السميع، العليم، القدير من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يُقال: الله من أسماء السميع، العليم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **[الرحمن الرحيم]** اسمان يدلَّان على صفة الرحمة لله عَزَّوَجَلَّ، فالله عَزَّوَجَلَّ هو (الرحمن) وهذه الرحمة العامة التي يرحم بها جميع الخلق؛ مؤمنهم وكافرهم، وهذا

الاسم العظيم علم على ذات الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا يجوز أن يتسمى أحد من الخلق بهذا الاسم، ولا خلاف بين العلماء في ذلك، ومن تسمَّى به أذله الله عَزَّوَجَلَّ كما كان من مسيلمة الكذاب لما تسمَّى بالرحمن، فنزل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ** ﴾ [الفرقان:٦٠] وقالوا: لا نعرف إلا رحمن اليمامة يقصدون: مسيلمة، فأذلَّه الله عَزَّوَجَلَّ وجعل اسمه الكذَّاب علمًا عليه، فلا يُذكر ولا يعرف إلا بمسيلمة الكذاب.

فهذا الاسم العظيم دلَّ على صفة الرحمة العامة اللازمة لذات الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكما هو معلوم أن صفة الذات غير معلقة على المشيئة، ولا تتعلق بفعل معين من المخلوق، فلا يلزم الإيمان لنيل الرحمة العامة؛ بل تنال الرحمة العامة المؤمن والكافر، والبر والفاجر، بل لا يلزم الإنسانية؛ فهي تعمُّ الخلق جميعًا، كاسم الله عَزَّوَجَلَّ الخالق فهو سبحانه خالق، وكل ما سواه مخلوق وهو عَزَّوَجَلَّ الرحمن فكل ما سواه مرحوم تناله الرحمة العامة(١).

وأما اسم (الرحيم) فهو الاسم الدال على صفة الفعل، وهو المتعلق بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، أي: يرحمه إذا شاء، ولا يرحمه إذا شاء كما قال تعالى: ﴿ **يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ** ﴾ [العنكبوت:٢١]، فهذا الاسم أخص من اسم (الرحمن) الدال على الرحمة العامة الشاملة، واسم (الرحيم) يدل على الصفة الفعلية الخاصة بعباد الله المؤمنين الذين يرحمهم الله.

و﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إجمالًا أي: باسمه عَزَّوَجَلَّ الرحمن الرحيم ابتدائي، أو استعانتي، أي: أبدأ ذاكرًا اسم الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ألا أعلمك دعاءً تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحدٍ دَيْنًا لأدَّاه الله عنك؟ قل يا معاذ: اللهم مالك الملك تؤتي الملك مَن تشاء وتنزع الملك ممَّن تشاء، وتعز مَن تشاء، وتذل مَن تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها تعطيهما مَن تشاء، وتمنع منهما مَن تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك**» أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (٥٥٨)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (٢٦٣٣)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٢١).

وينبغي على العبد وهو يقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أن يستشعر لزوم التوجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ في كل وقت بأنواع العبادة كلها، والمؤمن يشهد أن كل المخلوقين فطروا على أن يتوجهوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

فالخلق فُطِروا على أن يتعبدوا لله، ولذا فالمشرك في شقاءٍ وعنتٍ؛ لأنه يعاند ما فُطِرَ عليه، وخُلِقَ من أجله، والله عَزَّوَجَلَّ هو الإله المعبود الذي تشتاق إليه القلوب، وتميل إليه، لأن معنى (الإله): المعبود الذي تتألهه القلوب بالحب والخوف والرجاء، والله عَزَّوَجَلَّ خلق عباده حنفاء، والحنيف هو المائل إليه المعرض عن غيره، والعبد يتعلق بالله الرحمن الرحيم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن الأبوين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧].

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلَّا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة**»[(١)].

والعبد إذا تلا هذه الأسماء الحسنى عليه أن يعامل الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمقتضاها من توجهه إليه وحده، ورجائه لرحمته، وتعرضه لتلك الرحمة، بفعل ما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به، لعله أن تصيبه الرحمة.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وإن من أعظم ما يُستجلب به رحمة الله: توحيده عَزَّوَجَلَّ، وذِكْر (لا إله إلا الله) وتحقيقها. وتأمَّل قول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن فرعون: «فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسُّه في فِيه مخافة أن تدركه الرحمة»[(١)].

فجبريل يخشى أن تدرك فرعونَ رحمة الله، بسبب أنه ذكر كلمة التوحيد، لكن لما قالها بعد معاينة العذاب، لم يتقبلها الله عَزَّوَجَلَّ، ولذا قال سبحانه: ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٩١].

ولذلك كان من دعاء ذي النون عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي هو دعاء يفرج الله به عن كل مكروب: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧].

كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب، أو بلاء من بلايا الدنيا دعا به يفرج عنه؟**»، فقيل له: بلى، فقال: «**دعاء ذي النون**: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾»[(٢)].

وهذا الترتيب بين هذه الأسماء (الله، الرحمن، الرحيم) ترتيب بديع وعظيم، فإنه من تأله وتعبد لله عَزَّوَجَلَّ، وتوجَّه إليه وحده رحِمَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ الرحمة العامة، والرحمة الخاصة، لأن الله هو الرحمن الرحيم، وتظهر آثار رحمته عَزَّوَجَلَّ العامة والخاصة في الدنيا والآخرة.

❁ ❁ ❁

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» (٢١٤٤)، والترمذي (٣١٠٧)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢٠١٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) **صحيح**: رواه الحاكم (١٨٦٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٤٤)، ورواه الترمذي بلفظ: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت...**» برقم (٣٥٠٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق.

قوله: [**الحمد لله**] البدء بالثناء والحمد، كما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبدأ خطبه كلها بحمد الله عَزَّ وَجَلَّ.

والحمد لله هي أفضل الدعاء، كما جاء في الحديث: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله**»[(١)]، وأمرنا عَزَّ وَجَلَّ أن نذكر هذا الذكر والدعاء في اليوم على الأقل سبعة عشرة مرة في قراءة الفاتحة.

والحمد: هو الثناء مع الحب والتعظيم، وفرقٌ بين الحمد والمدح -مع أن كليهما ثناء- أن المدح يمكن أن يكون من غير محبة، ويمكن أن يكون بدون تعظيم، كمَن يمدح غيره نفاقًا، كما يفعل أكثر مَن يمدح الملوك، والرؤساء، والأغنياء، نفاقًا ومداهنة، لكن لا يقال حمدهم إلا إذا كان محبًّا معظمًا.

والله عَزَّ وَجَلَّ له الحمد على جلاله وجماله، وعلى نعمه وإحسانه، هو عَزَّ وَجَلَّ حمد نفسه وأثنى على نفسه، وهو عَزَّ وَجَلَّ الذي يحصي ثناءً على نفسه، لأنه أعلم بنفسه عَزَّ وَجَلَّ، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[(٢)].

والخلق لا يحصون ثناءً على الله، لأنهم لا يعلمون عن الله إلا ما عَلَّمَهُم، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا**﴾ [طه:١١٠]، أي: ولا يحيطون بأنواع الكمال والجلال.

والحمد يكون على صفات الكمال الذاتي، وإن لم يتعلق بها نفع للمادح أو للحامد، ويكون على الإحسان، وعلى النعم التي يفعلها المحمود للحامد.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٣٨٣)، والنسائي في «السنن» (٦/ ٢٠٨)، وابن حبان (٣/ ١٢٦)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (٧٥١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فيُقال في الأول مثلًا: حمدته على شجاعته، حمدته على جماله، ويُقال في الثاني: حمدته على إحسانه أو معروفه.

ولذا فالحمد أعمُّ من الشكر في ذلك، لأن الشكر يكون على الفعل المتعدي فقط، لكن الحمد يكون على الذاتي والمتعدي.

وقد ورد لفظ (الشكر) في القرآن في مواضع، ولفظ (الحمد) قد ورد أكثر في كتاب الله.

ومن انشغل بحمد الله عَزَّوَجَلَّ والثناء عليه سبحانه، أعطاه عَزَّوَجَلَّ أفضل مما يعطي السائلين الذين لم يحسنوا الثناء عليه عَزَّوَجَلَّ.

❁ ❁ ❁

❁ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **[الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا]**.

هذا الكلام من شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حكايةً للآية الكريمة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا** ﴾ [الفتح:٢٨].

والمقصود في الآية هنا هو الرسول محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ. وبوجه عام فإن الرسول في الشرع هو كل من أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إليه بشرعه وأمره بتبليغه، والفرق بين الرسول وبين النبي عند كثير من أهل العلم أن النبي لم يؤمر بالتبليغ، والذي يظهر والله أعلم أن كل الأنبياء مأمورون بأن يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، ويبلغوا ما أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ بتبليغه، ولا يلزم من ذلك أن يكونوا رسلًا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗا** ﴾ الآية [البقرة:٢٤٧]، فلا يقتضي أن يكون رسولًا.

ومع ذلك أُمر أن يبلغهم، فالصحيح أن النبي يُبلِّغ لكن لا يأتِ بشرع جديد، والرسول يبلغ ويأتي بشرع جديد، أي مستقل عن الذي قبله ولو جزئيًّا في بعض المسائل وهذا هو الفرق، والله أعلم.

ولفظ الرسول إذا أُطلِق فالمراد الرسول محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خاتم الأنبياء والرسل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**بالهدى ودين الحق**] هذا يبين **تعدد الصفات** وتنوعها، **وليس تعدد** الأشياء، فإن دين الإسلام هو الهدى، وهو كذلك دين الحق الذي لا حق سواه، وليس لأن كل وصف منها شيء مستقل بذاته.

والإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد صرفًا ولا عدلًا إلا به، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ** ﴾ الآية [آل عمران:١٩]، وقال: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾ الآية [آل عمران:٨٥].

ولذلك فإنَّ مَن اعتقد أن ملة غير ملة الإسلام، وغير اتباع النبي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقبل من إنسان في الآخرة عند الله -كمَن يقولون: إن الأديان كلها حق، وهم يعلمون تحريفها وتبديلها- فهذا تكذيب لصريح القرآن.

ومن هنا تعرف خطأ عبارة (الأديان السماوية)، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ لم ينزل من السماء إلا دينًا واحدًا وهو الإسلام، دين الأنبياء جميعًا، وإنما تعددت الشرائع.

والبعض يُلَبِّس على الناس ويقول: إن الإسلام يعترف بالأديان السماوية. وهذا باطل بلا شك لفظًا وموضوعًا، إذ أنه لا يوجد شيء اسمه الأديان السماوية، وهذه لفظة لم ترد في الكتاب والسنة، وإنما هو دين واحد جاء به الأنبياء جميعًا، والأدلة على ذلك كثيرة.

ثم الزعم بأن الإسلام يعترف بهذه الأديان، فما معنى ذلك الاعتراف؟! وكلمة «يعترف» توحي للسامع أن هذه الأديان المخالفة للإسلام حق، وليست باطلة، فهل مَن يعتقد نسبة الصاحبة والولد إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومن يعتقد كذب الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومن يعتقد نسبة النقائص إلى الله عَزَّوَجَلَّ، هل هؤلاء على حق؟ كيف يكون ذلك؟! وكيف يعتقد إنسان أنه لا إله إلا الله ويعلم شرك اليهود والنصارى، وأنهم يعبدون غير الله، ويشركون به، وينسبون له عَزَّوَجَلَّ الصاحبة والولد، وأنهم يقولون: «عزير ابن الله»، أو: «المسيح ابن الله»، أو: «المسيح هو الله نفسه» ثم يرى صحة ذلك ويسوغه، ويقول أنهم على الحق، فهذا في الحقيقة لم يشهد ألَّا إله إلا الله.

وكذلك من يعلم أنهم يكذبون الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم يقول هؤلاء على حق، فهو بذلك قد كَذَّب الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مثلهم، وتناقض في قوله، إذ كيف يعتقد أن محمدًا رسول الله، وفي نفس الوقت يقول: أن من كَذَّب الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على الحق؟! فهذا جزمًا أقل أحواله أنه شاكٌّ في شهادته أن محمدًا رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وبيان ذلك وتفصيله حالان: **الأول**: أن يظن ظانٌّ أن اليهود والنصارى أو غيرهم من غير المسلمين يدينون بالتوحيد، وتصديق الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لكنهم لا يتبعونه، فهذا يحتمل أن يحتاج لبيان ولا يكفر، إلا بعد بيان الحجة، وزوال الشبهة.

والثاني: أن يعلم شرك اليهود والنصارى، وعبادتهم لغير الله، ونسبة الصاحبة والولد له، ومع ذلك يقول أنهم على حق، وأنهم ناجون عند الله، فهذا لا يتصور فيه أنه محتاج لقيام الحجة.

والله عَزَّوَجَلَّ علَّمنا ماذا نقول لمن دانَ بدينٍ غير الإسلام في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون].

ومن يشهد حقًّا ألَّا إله إلَّا الله لا يمكن أن يُقرَّ بآلهةٍ تُعبد من دون الله، ولا أن يصوِّب من يعبد غير الله. ومن يشهد أن محمدًا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا يمكن أن يُصوِّب من يكذبه، أو مَن لا يتبعه، ويخالفه، وقد قال عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[1].

❁ ❁ ❁

وقوله رَحِمَهُٱللَّهُ: [**ليظهره على الدين كله**].

الظهور: هو بمعنى الغلبة، والانتصار. وكلمة (الدين) هنا اسم جنس أي: ينصره على كل الأديان؛ لأن كل الأديان المخالفة للإسلام هي أديان باطلة، وسوف يظهر عليها، وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣].

وهذا الإظهار وَعْدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، ولابد أن يوقن به كل مؤمن ومؤمنة، وهذا له أثره العظيم في نفس المؤمن، لأن المسلم قد يرى المسلمين مغلوبين، أو مهزومين في بعض المواقع والأحوال، فلا يتنازل أبدًا عن شيءٍ من دينه، ولا يصحِّح ولا يُصوِّب طريقة من غلب وانتصر من الكفرة في جولة أو جولات، كما يقع هذا من المنهزمين نفسيًا عندما غلبهم الغرب، فقالوا إذن الغرب الكافر هو الحق، والذين انتصروا علينا أفضل منا، وبناءً عليه يجب اتباعهم، وتقليدهم، والتشبه بهم.

---

(١) رواه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

وفي مجتمعاتنا من يصرح بذلك بلسانه، ومن يفعله فعلًا وحقيقةً بسلوكه، لكن المؤمن الموقن بانتصار الإسلام وظهوره يتمسك بالإسلام، حتى في أحلك الظروف، وفي أشد الأوقات، حتى يأذن الله.

وظهور الإسلام نوعان:

النوع الأول: ظهور الحجة والبيان بإقامة حجج الله عَزَّوَجَلَّ بما معنا من آيات القرآن، وما معنا من حديث النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فنغلب من خالفنا في الحجة، ونعتقد أنَّا على الحق، وعدونا على الباطل، وهذا من الانتصار، لأن أعداء الإسلام يريدون أن يهزموا النفوس بعد أن هزموا الجيوش، وهذه بغيتهم الحقيقية، وهدفهم الأكبر، أن ينتزعوا ذلك الشعور من نفوسنا.

ولنتأمل موقف خبيب رَضِيَاللَّهُعَنْهُ مع أبي سفيان، فقد أخذ المشركون خبيبًا غدرًا، وباعوه لمشركي قريش ليقتلوه بمن قتلهم هو يوم بدر، فأخذوه، وأخرجوه إلى خارج الحرم، وجعلوه على صليبٍ، وهو في كل الأحوال أيقن أنه مقتول، وأبو سفيان يريد أن يرى الهزيمة النفسية فقط من خبيب رَضِيَاللَّهُعَنْهُ فيقول له: «أيسُرُّك أنك في بيتك، ومحمد صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مكانك؟»، فيقول خبيب: «ما يسرني أني في بيتي معافًى في أهلي، ومحمد صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مكانه تصيبه شوكة فما فوقها».

فتأمل هذه العزة العجيبة، وأنه لا يتنازل نهائيًّا، وليس عنده استعداد أن يتفاوض على الدين، وعلى محبة النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ثم قال رَضِيَاللَّهُعَنْهُ:

مـا أُبَـالِـي حِـينَ أُقْـتَـلُ مُسْلِمًا ... عَلَـى أَيِّ شِـقٍّ كَـانَ لِلهِ مَصْرَعِي

وَذَلِـكَ فِـي ذَاتِ الْإِلَـهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُـبَـارِكْ عَلَـى أَوْصَـالِ شِلْـوٍ مُمَـزَّعِ

وبلا شك، أن خبيبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان هو المنتصر في هذا الموقف وهذا المشهد، بل وأثَّر في كل مَن حوله وهم يشهدونه يصلي ركعتين قبل قتله، ويدعو على المشركين بكل قوة غير خائفٍ، ولا مرتجفٍ، ويقول: «اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تبقِ منهم أحدًا»(١).

بل لم يزل هذا المشهد في قلب بعض شباب ونساء قريش حتى كان سببًا في إسلامهم بعد ذلك مثل سعيد بن عامر الجمحي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

ولنتأمل موقف الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ في فتنة القول بخلق القرآن كان هو الظاهر المنتصر على الرغم أنه سُجِن وعُذِّب وضُرِب ضربًا شديدًا، بل كان يغمى عليه من شدة الضرب، لكنه كان منتصرًا رَحِمَهُ اللَّهُ على خصومه من أهل البدع، وكان موقفه سببًا لحفظ الدين والعقيدة.

ومَن تأمَّل القرآن يجد الآيات مليئة بالقوة العظيمة، وامتلأت قلوب الصحابة الكرام بهذه القوة العظيمة، سواء في فترات التمكين، أو فترة العهد المكي التي كانوا فيها مضطهدين اضطهادًا شديدًا، ويُعذَّبون ويُقتَلون وتنتهك حرماتهم، وعلى الرغم من ذلك لم يقفوا موقفًا في منتصف الطريق، بل كان موقفهم واضحًا تمام الوضوح، لا يحتمل المساومة أو التنازل، بل ربما خرجوا يقرأون القرآن على مسامع قريش حتى يُضربوا، ويُغشى عليهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يصيبه ما يصيب باقي المسلمين، فكان يخرج يغيظ المشركين، يقرأ عليهم القرآن ليضربوه ويضربهم، فالقرآن يعطي قوة عظيمة بلا شك، وهذا ظهور الحجة والبيان كما قال تعالى لنبيه موسى

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٣٨٥٨) في كتاب المغازي في باب: غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة، وحديث عضل القارة وعاصم بن ثابت وخبيب وأصحابه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وذكر القصة الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٥٢).

عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾الآية [القصص:٣٥]، فمن معه آيات الله عَزَّ وَجَلَّ فلابد وأن ينتصر بلا شك بمقدار ما معه من آيات الله.

وإننا في العصر الحديث نلحظ ذلك في كل مناظرة، فنجد مَن هو -ربما- قليل العلم في أهل الإسلام يغلب أساطين الكفر، ويغلبهم في الحجة والمناظرة بأدنى نظر واعتبار، ويفضح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَن واجهوا أهل الإسلام في المناظرات والمحاورات، ويبيِّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خبث طويتهم؛ بل فضائحهم، وتكون في العالم كله، كما نرى ونسمع ويظهر للعالم صدق ما وعد الله به.

والنوع الثاني من الظهور: هو ظهور القوة والسنان، وقدكان منه ما شاء الله أن يكون، كما فتح الله عَزَّ وَجَلَّ على نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جزيرة العرب، وفتح على أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ العراق، والشام، ومصر، وأفريقيا، وبلاد ما وراء النهر، ووصلوا إلى المشارق والمغارب، وكذلك التابعين؛ نشروا الإسلام في كل مكان، ثم توقف مدة من الزمن وعاد للانتشار مرة أخرى ثم توقف بعد ذلك، وهذا الأمر سوف يكتمل اكتمالًا نهائيًا بنزول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليُوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، وإمامًا عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية**»(١). وفي هذا الوقت، يكون كمال ظهور الإسلام؛ حيث تكون الكلمة الواحدة، وتكون الملة واحدة.

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو ذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلًّا يذل به الكفر**» (٢)، وبيت المدر والوبر يعني: بيت الأحجار والطين اليابس، وبيت الشَّعر والصوف، وهذا كناية أن الإسلام يعم الأرض كلها، وكان تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول:

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ١٠٣)، والطبراني (٢/ ٥٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٧): رجاله رجال الصحيح، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٣) من حديث تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

«قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب مَن أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب مَن كان مِنهم كافرًا الذل والصغار والجزية».

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بعثْتُ بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعْبَدَ الله وحده لا شريك له**»[1]، ولأجل ذلك لابد أن يوقن المؤمنون أن وعد الله حق، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الروم:٦٠]، وإذا أيقنوا بذلك صبروا على الالتزام بالإسلام رغم العقبات والمتاعب.

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ [الفتح:٢٨].

فهو سبحانه يشهد بذلك في كتابه، وعلى لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويشهد بذلك كونًا وقدرًا بنصر المسلمين على عدوهم في كل مكان يتمسك فيه المسلمون بالإسلام وبالإيمان في مواجهة أهل الكفر والنفاق والعصيان، فإنه عَزَّ وَجَلَّ ينصرهم ويؤيدهم رغم قلة عددهم وضعف عدتهم، ورغم كثرة عدوهم، ومهما اجتمع عليهم من بأقطار الأرض، فإنهم لا يتمكنون من المسلمين منهم ما دام يتمسكون بدينهم.

ومَن عنده مسحة من عقلٍ شهد قطعًا برسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الله أيَّده، وأيد أصحابه وأتباعه بما لم يؤيد به أحدًا قبلهم، ونصرهم أعظم النصر، وفتح لهم البلاد وقلوب العباد في أقل مدة زمنية عرفها التاريخ، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب مصداقًا لما وعد الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها، وإني أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض**»[2]، وكان

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤٨٦٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٣١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٤) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ذلك في حياة خلفائه الراشدين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ففُتِحتْ مدائنُ كسرى وبلادُ قيصر، وأعتى البلاد حينئذٍ وقعت في أيدي المسلمين، وأُنْفِقتْ كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

وكما وعد سبحانه بظهور الإسلام على كافة الملل، شرع سبحانه وأمر أن يظهر هذا الدين، فإن إظهار الله عَزَّوَجَلَّ للإسلام إنما يكون من خلال عمل المسلمين، وليس أن ينتظر الناس الوعد بلا عمل، وحينما ينزل عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ؛ ليقتل الدجال، ويكسر الصليب، وعلى الرغم من ذلك، ومع علم المؤمنين بهذا الوعد من الله، فإنه ينزل على أمة قائمة لهم إمامٌ، ويسوون صفوفهم للقتال، ويعدون عدَّتهم لقتال الدجال، وهم يعلمون أنهم ليسوا هم من يقتلونه، لكنهم أخذوا بالأسباب لنصرة الإسلام، وليسوا ينتظرون نزول ذلك عليهم من السماء من غير عمل، وليس كما يتوهمه البعض أنهم يتركون العمل من أجل نصرة الإسلام، ويرون أن التمكين وعد من الله لا يحتاج إلى عمل، وكأن الخلافة تنزل على المسلمين من السماء، أو أن انتصارهم على عدوهم لن يكون بجهد منهم، وهذا بلا شك فَهْمٌ منكرٌ يخالف ما كان عليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وما كان عليه الأنبياء الذين أمروا بالقتال في سبيل إعلاء كلمة الله منذ نزلت التوراة على موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وقد كان الأمر قبل التوراة للأنبياء بالدعوة إلى الله، وبالصبر حتى ينصرهم بخوارق من عنده سبحانه، فلما أنزل التوراة أنزل فيها الأمر بنصرة الدين قتالًا وجهادًا، وإعلاءً لكلمته ووعده، ولذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ** ﴾ الآية [القصص:٤٣]، فصار بعد ذلك تكليفًا للمؤمنين وليس وعدًا منتظرًا بلا عمل.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارًا به وتوحيدًا.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**وأشهد أن لا إله إلا الله**] هذه شهادة التوحيد، وشهادة الحق التي بُعث بها كل الأنبياء، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ** ﴾ [النحل:٣٦].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وهذا دليل أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد بعث كل الرسل بدعوة التوحيد، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجعلها في بداية خطبه، وفي خطبة الحاجة بعد الحمد، وهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته للناس كان يدعوهم أول شيء إلى هذه الكلمة، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألَّا إله إلَّا الله**»[(١)] وفي رواية: «**أن يوحدوا الله**»[(٢)].

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألَّا إله إلا الله وأني رسول الله؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابهم على الله**»[(٣)] الحديث.

فبهذه الكلمة يصير الكافر مسلمًا، ويصير مباحُ الدم معصومًا، وبها يفرق بين أهل الإيمان وأهل الكفر ممن استحقوا سخط الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه الشهادة النطق بها ركن من أركان الإيمان، ولا يكون العبد مسلمًا ولا مؤمنًا لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا إذا نطق

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٥٢، ٣٦٩، ٣٨٠)، ومسلم (٣٧، ٣٨)، وأبو داود (١٥٨٤).
(٢) رواه البخاري (٧٣٧٢).
(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري كتاب الإيمان حديث (٢٥)، ومسلم برقم (٢٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

بها إذا قدر على ذلك، وأما إن كان عاجزًا -كالأبكم، أو مَن كان أعجميًّا ولا يحسن أن يقولها كما هي باللغة العربية فقال معناها بلغته- فإن ذلك يقبل منه، ويُكَفُّ عنه، ويصير بذلك مسلمًا في الدنيا. وإن قصد مع نطقها معناها، وعَلِمَه باطنًا؛ فيكون مؤمنًا عند الله كذلك.

ولا نزاع بين المسلمين أن هذه الكلمة العظيمة هي أصل الدين، ووجودها يعني وجود أصل الإيمان في القلب، وزوالها أو نقضها يعني زواله ونقضه من القلب بالكلية، وقد يتصور عدم وجود أي أصل من أصول الإيمان إلا هذه الكلمة، فيُمكن أن يجهل الإنسان بعض صفات الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويمكن مثلًا أن يجهل الملائكة تفصيلًا، ويمكن أن يجهل بعض رسل الله تفصيلًا، أو حتى يجهل بعض كتب الله، فذلك كله يمكن أن يقع مع كون الإنسان عنده أصل الإيمان؛ أنه يشهد أن لا إله إلا الله.

والمقصود بثبوت أصل الإيمان أي: الأصل الإجمالي لها أنه لا يعبد إلا الله، ويعلم الشخص أنه سبحانه المعبود المحبوب المطاع، فهذا إجمالًا، وأما اشتراط تفاصيل في قبول هذه الكلمة، أو في صحة الإسلام والإيمان بها حتى يصل الأمر بالبعض أن يدخل تفاصيل التوحيد كله، فهذا مما أحدثه أهل البدع.

وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألَّا إله إلا الله وأني رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة...**»(١) الحديث.

نفهم من ذلك أن «**يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**» هذه ليست شرطًا في أصل العصمة للدم والمال، بل تثبت العصمة بمجرد النطق بالشهادتين، وإنما يكون استمرار العصمة بعد ذلك بأداء الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإذا أمر بهما بعد ذلك وأبى أن يصلي أو يزكي، ورفض الالتزام بذلك قوتل عليها.

(١) سبق تخريجه.

وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة، أن عصمة الدم والمال تتم بمجرد النطق بشهادة ألَّا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن المعلوم بالضرورة أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقبل الإسلام مِن كل مَن جاءه يريد الدخول في الإسلام بالشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك ويجعله مسلمًا»[١].

بل لو قال «لا إله إلا الله» ولم يكن قبل ذلك يقولها، كمن كان وثنيًّا أو ثنويًّا -يقول بإلهين اثنين- فقد دخل في الإسلام، ووجب الكفُّ عنه، ووجب عصمة دمه وماله، ويجبر على أن محمدًا رسول الله، وهذا هو الصحيح من كلام أهل العلم، ومنهم من يشترط الشهادتين معًا.

وأما إن كان كتابيًّا كيهوديٍّ، أو نصرانيٍّ، يشهد ألَّا إله إلا الله فقط، فهذا باتفاق العلماء لا يصير مسلمًا حتى يضيف إليها شهادة أن محمدًا رسول الله.

وكذلك كل مَن كان كفره بسبب أمر آخر غير جحد الشهادتين، فهذا يكون إسلامه بأن ينطق الشهادتين، ويقر بما كان جاحدًا مع نطق الشهادتين، كمن أنكر اليوم الآخر، أو أنكر فرضية الصلاة، أو أنكر حرمة الزنا مثلًا فارتدَّ بذلك، فهذا إسلامه أن ينطق الشهادتين، ثم يقر بما كان منكرًا له.

- ومعنى (لا إله إلا الله) أي: لا معبود بحقٍّ إلا الله، فكلمة (إله) يعني المعبود مطلقًا، ثم غلب الاستعمال على المعبود بحقٍّ، فلا إله أي لا معبود بحقٍّ إلا الله.

وأيضًا الإله هو الذي تألهه القلوب، وهو نفس تفسير معبود، فالمألوه أي: المعبود، وتأله القلوب ليس تفسيرًا مستقلًا، وإنما تفصيل لمعنى المعبود، فعبادة القلب معلومة

---

(١) «جامع العلوم والحكم» في شرح حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس...**» (ص١٠٠) ط. دار الكتب العلمية.

وهي: الحب، والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والشكر، والصبر، والرضا، وغيرها من عبادات القلوب.

وأيضًا معنى الإله أي: الذي تحار فيه العقول، وأيضًا الإله: بمعنى الذي يُشتاق إليه، وتميل إليه النفوس، والقلوب، يُقال: (وَلَه الفصيل إلى أمه) إذا مال إليها، وهو سبحانه قد فطر عباده أن يميلوا إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠].

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»[١].

فهذه الأدلة دلَّت على أن الشخص يولد على الإسلام، والحديث صريح؛ فلم يقل «أو يسلمانه»؛ فلو تُرِكَ الإنسان ومقتضى فطرته، ولم توضع بينه وبين الإيمان الموانع والحواجز، لاختار هذا الدين بلا شك طائعًا مختارًا دون ما سواه من الأديان والملل، لأنه وَافق الفطرة التي فَطَرَ اللهُ الناسَ عليها.

- وكما أن الأبدان مفطورة على الحاجة إلى الطعام والشراب، وتطلبها إذا فقدتها، كذلك القلوب مفطورة على الحاجة الضرورية للتأله، وكل مخلوق فيه هذه الحاجة للتعبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك ترتاح النفوس وتسعد أشد السعادة بتلك العبادة؛ لأنها وجدت حاجتها الضرورية، كما أن الأبدان تسعد بتنفس الهواء، ونيل الطعام والشراب، ولو حُرِمَت من ذلك هلكت، كذلك النفوس فُطِرت على أن تطلب العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، والتوجه إليه وحده، ولو لم تفعل ذلك أصاب النفس الشقاء، والتعاسة في هذه الحياة،

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٢٥٤)، ومسلم (٤٩٣٨)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ومن هنا نعلم أن العبادة ليست مجرد تكليفات فقط، وإنما هي حاجة الإنسان لأجل قلبه وروحه، يحتاجها كما يحتاج النَفَسُ الذي يتنفسه.

- وهذه الكلمة العظيمة (لا إله إلا الله) تضمنت النفي والإثبات، أي نفي الألوهية عن غير الله، وإثباتها لله وحده، فتضمنت الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ الآية [البقرة:٢٥٦].

وتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله لأنه لا يحصل الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت، وهذا السياق ظاهر الموافقة لكلمة التوحيد في البدء بالنفي ثم الإثبات، وهذا فيه ردٌّ على من جهل وضل من منحرفي المتصوفة الذين يقولون أن الذكر باللفظ المفرد بقول (الله .. الله) أفضل وأصح من (لا إله إلا الله)، بدعوى أنه يخاف أن يموت بين النفي والإثبات.

وهذا من الضلال المبين، لأن الإنسان لو عزم أن يقول: (لا إله إلا الله) فمات بين النفي والإثبات، ستكتب له نيته وصار عند الله عَزَّوَجَلَّ مقبولًا، ولو كان الأمر كما يقول هؤلاء المبتدعة، فلماذا كان الرسل جميعًا يدعون الناس إلى قول لا إله إلا الله؟! ذلك أن هذه الكلمة العظيمة تتضمن هدم الباطل والشرك، والبراءةَ منه، وإثباتَ التوحيد والإيمان، فلا يكفي أن يؤمن الناس بربهم أنه إله وفقط، بل لابد أن يؤمنوا به إلهًا واحدًا لا شريك له.

❁ ❁ ❁

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**عبده ورسوله**]، الجمع بين وصف العبودية ووصف الرسالة فيه ردٌّ على الفريقين الذين أفرطوا، والذين فرطوا. فمن الناس من غالى في النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما غالت النصارى في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم؛ فإنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله**»[(١)].

وكذلك وصفه بالرسالة ردٌّ على من كذبوه وخالفوه: كاليهود، والنصارى، وكل من لم يتابعه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فمعنى أنه عبدٌ لا يقتضي ترك طاعته، فهو عبد الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا دليلٌ على ارتفاع منزلة العبودية، ولذا مدحه الله عَزَّ وَجَلَّ في أعلى مقاماته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال في مقام الوحي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الكهف:١]، وفي مقام التحدي: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ**﴾ [البقرة:٢٣]، وفي مقام الدعوة: ﴿**وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا**﴾ [الجن:١٩] وفي مقام الإسراء: ﴿**سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا**﴾ الآية [الإسراء:١]، ولما خُيِّر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أن يكون ملكًا نبيًّا، أو عبدًا رسولًا، اختار أن يكون عبدًا رسولًا، لأن هذه العبودية أعلى مقامات المخلوقين.

۞ ۞ ۞

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا مزيدًا.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**صلى الله عليه**] الصلاة من الله عَزَّوَجَلَّ الثناء والرحمة، ونحن لا نحصي ثناءً على رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فنطلب من الله عَزَّوَجَلَّ أن يثني عليه هو.

ونحن مأمورون بالصلاة عليه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب:٥٦].

قال العلماء: الصلاة من المخلوقين الدعاء، فنحن إذ أمرنا بالصلاة عليه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ندعو الله عَزَّوَجَلَّ، ونطلب منه أن يثني على نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ أعلم به صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولهذا اجتباه واصطفاه.

والأمر هنا في الآية ظاهره الوجوب، وهو يقتضي على الأقل وجوبه في الصلاة، بل ظاهر الأحاديث الواردة في ذلك أن الصلاة عليه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ واجبة كلما ذُكِرَ اسمه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

كما في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**رَغِم أنف رجل ذُكِرتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ...**»[1].

وأما الملائكة فالصلاة منها الدعاء أيضًا، وهم يترحمون ويستغفرون لمن صلوا عليه.

۞ **وقوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وعلى آله**».

الآل هم الأهل، والذي يظهر من الآل في هذا الموضع، والذي أُمِرْنا به في كل موضع هم الذين حُرِّمت عليهم الصدقات، وهم: بنو هاشم، وبنو المطلب -المؤمنون

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٢٥٤)، ورواه الترمذي (٣٥٤٥)، وابن خزيمة (١٨٨٨) وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٩٢٧)، وقال: حسن صحيح، وفي صحيح الجامع (٣٥١٠). وفيه: «... **رِغِم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له، ورغِم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبرُ فلم يدخلاه الجنة**».

منهم- وبذلك ليس من آله: أبو لهب، ولا أبو طالب، رغم أنهم من أهله في القرابة والنسب، لكن كما قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه نوح عن ابنه: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ الآية [هود:٤٦]، وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«ألا إن آل بني فلان ليسوا بأوليائي، إن وليَّ الله وصالح المؤمنين»**[(١)]، وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»**[(٢)].

وبعض العلماء قالوا: إن الآل المقصودين هم كل من تبع دينه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. والقول الأول هو الصحيح، أن آله المقصودين في هذا الموضع هم آل بيته المؤمنون الذين حُرِّمت عليهم الصدقة.

❁ **وقوله** رَحِمَهُٱللَّهُ: **[وصحبه]**.

الصحب: هم أصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **والصحابي**: هو من لقى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مؤمنًا ومات على ذلك، ولذا لا يدخل في ذلك المنافقون، وقد عصم الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه أن يتصدر فيهم المنافقون؛ لأن الله فضح صفاتهم، وعلم النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه أعمالهم، وحذرهم منهم، فَحَذَرُوهُمْ، وما صدَّروهم في علم أو فتيا، أو في جهاد وغزو، أو ولاية وإمامة وخلافة، بل ما تصدى لهذه الوظائف السامية في ذلك الزمن الفاضل إلا أهل الإيمان والإخلاص.

ومن لقى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مؤمنًا به، ثم ارتدَّ بعده صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -ككثير من الوفود الذين أتوا له صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حياته، فلما مات صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منهم من ارتد، ومنهم من منع الزكاة وغير ذلك- فهؤلاء ليسوا من الصحب، لأن شرط الصحبة أن يموت على الإيمان.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٩٩٠)، ومسلم (٢١٥) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

۞ **وقوله:** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**وسلم تسليمًا مزيدًا**] التسليم من الله عَزَّوَجَلَّ أن يبرئه ويسلِّمَهُ من كل نقصٍ وكل عيبٍ على ما يليق بالمخلوقين، و[**مزيدًا**] أي: يطلب المزيد من الصلاة والسلام عليه وعلى آله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



أما بعد فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة.

الاعتقاد ما يَعْقِدُ عليه القلب، ويعزم عليه، وهو مشتق من العقدة، أي: مربوط عليه، لا يقبل الشك.

واستعمل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لفظ (الفرقة) وهي تعني الطائفة والجماعة، فالمؤمنون طائفة وليسوا مجرد آحادٍ من الناس، وهم على عقيدة واحدة، ومنهجٍ واحد، وقواعد كلية في الفهم والاستدلال والاستنباط، وهناك أعمال واحدة أيضًا اجتمعوا عليها من أعمال الإسلام، وأخلاق واحدة من أخلاق الإحسان، وهذه كلها أصول الدين التي بُعث بها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا المعنى هو الذي قصده شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو مأخوذ من حديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة؛ فواحدة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة؛ فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نفسي محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين واحدةٌ في الجنة وثنتان وسبعون في النار**» قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: «**الجماعة**»[(١)].

وجاء من رواية معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «**وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا واحدة**»، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[(٢)].

فمَن سمَّاها فرقة ناجية هو النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن من سواها ليس بناجٍ، وهذا الحديث المذكور تكلم بعض أهل العلم في سنده ومتنه، ومنهم من طعن فيه، وهذا ليس

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد (٣/ ١٢٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» من حديث عوف بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٢٦٤١) وحسَّنه ابن العربي في «أحكام القرآن»، والحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ٢٨٤)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي».

بشيء، إذ أنه من ناحية السند فالحديث حسنٌ بطرقه الكثيرة التي تدل على ثبوت أصله، ومن ناحية المتن فمن شغب عليه بدعوى أن ذلك يقتضي التنفير عن أمة الإسلام، لأن أكثرها -على زعمهم في ظاهر الحديث- هالكٌ، وقال بذلك الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا التصور خاطئ بلا شك، إذ أن الحديث لا يتضمن أن أكثر الأمة من أتباع الفرق المخالفة وقد يمكن أن تكون جماعة أو جماعات مجتمعة على بدعٍ مخالفة، لكن السواد الأعظم من الأمة ليسوا كذلك، بل السواد الأعظم للأمة في الفرقة الناجية بفضل الله سبحانه.

وحتى لو وقعت المعاصي من عموم أمة الإسلام، لكن أصول الاعتقاد واضحة إجمالًا عند السواد الأعظم من أمة الإسلام.

فليس في متن الحديث ولا سنده أي نكارة.

وذِكْرُ أن هذه الفرق في النار لا يلزم من ذلك أن يكون أصحابها مخلدين فيها، ولكن من مات منهم على الكفر والنفاق، ومن كان منافقًا في الباطن كان مخلدًا في النار، وأما من مات على التوحيد فإنه لا يخلد في النار مهما كان خطؤه.

ولذلك يُقال عن الثنتين وسبعين فرقة أنها فرق نارية، أو من أهل القبلة، أي يستحق أصحابها الذين يعتقدون اعتقادات مخالفة لاعتقاد أهل السنة والجماعة دخول النار لكن لا يلزم الخلود بالعموم، إلا إذا وُجِدَ نفاقٌ أكبر، أو كفرٌ أكبر، فبهذا يستحق صاحبه الخلود في النار كما ذكرنا.

والفِرَقُ المخالفة لأهل الحق أنواع، وكذا البدع أنواع: منها ما يكون ضمن الثنتين وسبعين فرقة، ومنها ما يكون خارجًا من الثنتين وسبعين فرقة حتى وإن انتسبوا للإسلام، لأنهم كذبوا وجحدوا المعلوم من الدين بالضرورة، كطوائف الدروز، والبهائية، والبابية والإسماعيلية، وفرق الباطنية، والقرامطة الزنادقة، وكذا النصيرية العلوية. فكلُّ هذه فرقٌ تخالف عقائد التوحيد والأصول الكبرى لملة الإسلام.

- فالدروز يعتقدون أن الحاكم بأمر الله هو الله، وأنه مَظْهرٌ ظَهَرَ فيه الإله، فيعتقدون فيه لاهوتًا كما اعتقد النصارى في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا مناقضٌ لأصل كلمة التوحيد بلا شك.

- والطائفة العلوية النصيرية يعتقدون أن عليًّا هو الله، ولا يُشَكُّ في كفر من اعتقد ذلك نوعًا وعينًا.

والطوائف الباطنية؛ تعتقد الإلهية في الإمام الذي تدين بالتبعية له على اختلافهم في الطوائف الإسماعيلية، ومن قديم كانت هذه الفرق الباطنية تؤله الإمام القائم، كما تذكر كتب التاريخ أن الشاعر ابن هانئ الأندلسي نظم القصيدة للخليفة المزعوم عندهم -المعز لدين الله الفاطمي- فقال له:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم أنت الواحد القهار[1]

وهذا صريح في اعتقاد الألوهية والربوبية في هؤلاء الأئمة، وقد جمعوا مع ذلك التحلل من الشريعة بالكلية؛ فلا يرون صلاةً، ولا صومًا، ولازكاةً، ولاحجًّا.

فهؤلاء خارج الاثنتين وسبعين فرقة بلا شك، وليسوا من أهل القبلة، بخلاف الفرق الأخرى التي عندها الاعتقاد الباطل، وهي ضالة، مثل فرق الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، فإنهم عند جمهور علماء الأمة ضمن الثنتين وسبعين فرقة النارية، وهم من شر أهل البدع، وهم ضالون لكن ليسوا بكفارٍ خارجين من الملة بالعموم، لأنهم في الجملة يقولون: لا إله إلا الله، ولا يقولون بألوهية عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإن كانوا يغالون جدًّا في علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي أهل البيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويصفونهم بصفات الألوهية، لكن هذا يحتاج إلى إقامة حجة ليُبيَّن لهم أنهم بذلك يصفون عليًّا أو الأئمة بالألوهية.

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (١٥/ ٣٤١) ط. عالم الكتب.

- والضابط في ذلك: أن من صرح بألوهية عليٍّ أو غيره، فهذا كافرٌ خارجٌ من الملة، أما من يلزم من كلامه أنه يؤلهه، ويتخذه ربًّا، فهذا يحتاج إلى إقامة الحجة والبيان عليه.

ولأجل ذلك نقول: إن الراجح في هذا الباب أن هذه الفرق مثل: الرافضة، والشيعة الإمامية الإثنا عشرية، وكذلك الخوارج، وكذلك طوائف المعتزلة، أن أقوالهم أقوال كفرية لكن لا يُكفر المعين منهم حتى تُقام عليه الحجة، وهو ضمن الثنتين وسبعين فرقة وقد ينجو بعضهم إذا مات موحِّدًا، كما ورد في الحديث الصحيح أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر من يُرَدُّون عن حوضه، ثم قال: «**فتؤخذ بهم ذات الشمال، فلا أرى ينجو منهم إلا مثل همل النعم**»[1] الحديث.

ومعنى هَمَل النعم أي: مريض البهائم، والسياق هنا يدل على القلة والندرة؛ لأن أهل البدع الغالب عليهم الهلاك، والنادر من ينجو ويموت على التوحيد، وهو في مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له، ولذلك نعلم لماذا امتنع جمهور الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وجمهور أهل العلم من بعدهم عن تكفير الخوارج، لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال عن الخوارج: «**يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فينظر في النصل فلا يرى شيئًا فينظر في النضى فلا يرى شيئًا فيتمارى في الفوق**»[2] [3] الحديث.

ولأجل هذا الاحتمال أن يكون واحد من هؤلاء بقي معه شيء من الدين، ولو ذرة صغيرة امتنع الصحابة عن تكفيرهم، وهم بلا شك من رءوس البدع والنفاق، ومنهم منافقون في الدرك الأسفل من النار، لكن لا يلزم أن كل الباقي كذلك، بدليل أن ابن

---

(١) رواه البخاري (٦٥٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (١٠٦٤)، (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **النصل**: هو حديدة السهم، **والنض**: هو عود السهم، **والفوق**: هو مؤخرة السهم الذي يوضع في وتر القوس، والمعنى أنه كما يدخل السهم في الرمية ويخرج بلا أثر للدم فكذلك قلة الدين عند الخوارج.

عباس رضي الله عنهما لما ناظر الخوارج ردَّ نصفهم أو أكثر، وهناك من رأى رأي الخوارج في مدة من عمره ثم رجع عن هذا الرأي.

يبقى أن نقول: إن هذه الفرق الضالة النارية، والتي هي داخلة في الثنتين وسبعين فرقة، والتي جمهور العلماء على عدم تكفيرها، يستثنى منهم الغلاة: كغلاة الرافضة الذين يعتقدون ألوهية علي، أو غلاة الجهمية والمعتزلة والقدرية، أو يعتقدون بنبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم كالبابية، والدروز، والباطنية.

ومن العلماء من يخرج هذه الفرق النارية كالخوارج، والقدرية، والمعتزلة، والرافضة من الثنتين وسبعين فرقة، لكن الصحيح أن الواحد منهم لا يَكْفُر بعينه إلا الغلاة كما ذكرنا.

المنصورة إلى قيام الساعة، أهل السنة والجماعة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **[المنصورة إلى قيام الساعة]** هذا مأخوذ من قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى تقوم الساعة**»[١].

وهذا تفسير الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الحديث؛ حيث أورده في كتاب «الاعتصام بالسنة»، حيث قال: «باب قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين وهم أهل العلم» اهـ.

وكما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم» اهـ[٢].

وهذا صنيع كثير من العلماء؛ يجعلون تفسير هذا الحديث هو في الناحية الاعتقادية بمعنى: المنهج، والاعتقاد.

ومن العلماء من يجعل هذا الحديث بمعنى الطائفة المقاتلة التي تقاتل في سبيل نصرة الإسلام، كما صنع الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث أخرج حديث «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين**» الحديث .. في كتاب الإمارة في صحيحه، خصوصًا أن له طرقًا هي في الحقيقة عدة أحاديث، وليست حديثًا واحدًا، وهي أحاديث مستفيضة عن نحو سبعة من الصحابة ذكرها مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الإمارة، وبعض هذه الأحاديث «**لا تزال عصابة من امتي تقاتل عن هذا الدين**».

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٩٧٥)، ومسلم (٣٦٦١) من حديث ثوبان، والمغيرة، وجابر بن سمرة، وجابر بن عبد الله، ومعاوية، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وسعد بن أبي وقاص، وعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) فتح الباري (١/ ٨٥).

ولا تعارض بين الأمرين؛ فإن الأمة لا يخلو منها ظهور الحجة والبيان، وهم أهل السنة والجماعة، وظهور القوة: وهي العصابة التي تقاتل عن هذا الدين، وبفضل الله سبحانه لا يضمحل الإسلام بالكلية عن التمكن من الأرض مهما خالفها المخالفون، ولكن لأن المقام هنا في مقام بيان العقيدة الصحيحة استعمل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لفظ المنصورة في المعنى العلمي المنهجي.

- وهذه الطائفة المنصورة بالمعنى العلمي المنهجي ليس لها إمام إلا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبر العصور وليس لها قائد معين سواه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن هناك مجددون يجددون هذه العقيدة الصحيحة ويبينونها للناس.

وحتى الطائفة بمعنى القتال عن هذا الدين فشرط أن تقاتل عن هذا الدين، وليس في سبيل بدعة، كمن يقاتل عن عقيدة التشيع الضالة، وسب الصحابة. فهؤلاء -وإن أقاموا دولةً- لا يكونون داخلين في الطائفة المنصورة الظاهرة التي عناها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوضح بقوله: «**تقاتل عن هذا الدين...**»[(١)] الحديث، أي هذا الدين الذي كان عليه هو، وأوصى به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- ولا يزال هناك من ينصر هذا الدين -بحمد الله- وإن كان هناك نوع من التأويل أو الخطأ فهذا لا يمنع من أن يكون مقاتلًا عن الدين طالما كان عذره محتملًا، وطالما كان اجتهاده سائغًا محتملًا، والله أعلى وأعلم.

وآخر هذه الطائفة -في آخر الزمان- بالشام كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وهم بالشام**»[(٢)]، وفي رواية «**في بيت المقدس**»[(٣)] الحديث... وهذا ظاهر في وصف آخر هذه الطائفة في آخر

---

(١) تقدَّم تخريجه.
(٢) تقدَّم تخريجه.
(٣) تقدَّم تخريجه.

الزمان في زمن نزول المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وعند ظهور الدجال أنهم يكونون بالشام على الدوام في كل الأوقات؛ ذلك أنهم إذا وقعت الملحمة الكبرى بعد غدر الروم، فيأتون تحت ثمانين راية، تحت كل راية اثنا عشر ألفا من الروم، فيغدرون فينزلون بالأعماق، أو بدابق، وكلاهما من أعمال حلب، فيخرج إليهم جيش من المدينة هم خير جنود الأرض أو من خير جنود الأرض، كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة.

- فعن أبي قتادة العدوي عن يسير بن جابر قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجلٌ ليس له هِجِّيرَى إلا: يا عبد الله بن مسعود، جاءت الساعة. قال: فقعد، وكان متكئًا فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقْسم ميراث، ولا يُفْرح بغنيمة. ثم قال بيده هكذا ونحاها نحو الشأم، فقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام. قلت: الروم تعني؟ قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة، فيشترط المسلمون شُرطَةً للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدَّبْرَةَ عليهم، فيَقْتُلُون مقتلة -إمَّا قال: لا يُرى مثلها، وإمَّا قال: لم يُر مثلها- حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يُخَلِّفُهُمْ حتى يخر ميتًا، فيتعادُّ بنو الأب كانوا مائة، فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يُفْرح، أو أي ميراث يُقاسم! فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأسٍ هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ: إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم. فيرفضون ما في أيديهم ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال

رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أسماءهم، وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم؛ هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ**»(١).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذٍ، فإذا تصافوا، قالت الروم: خلُّوا بيننا وبين الذين سَبَوْا منَّا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا، والله لا نُخَلِّي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلثٌ لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويُقتل ثُلُثُهُمْ، أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلثُ، لا يُفْتَنُون أبدًا، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يَقْتسمون الغنائم، قد علَّقُوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاءوا الشأم خرج، فبينما هم يُعِدُّون للقتال، يُسَوُّون الصفوف، إذ أُقِيمتِ الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم** ﷺ، **فأمَّهُم، فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب المِلح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيُرِيهم دَمَهُ في حربته**»(٢).

- وعن عوف بن مالك قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أَدَم فقال: «**اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مُوتانٌ يأخذ فيكم كَقُعَاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا**»(٣).

والطائفة بمعنى المنهج لا يلزم أن تكون مجتمعة في مكانٍ واحد، ولا يلزم أن تكون في بلدٍ واحد؛ بل في كل مكان يوجد فيه أحدٌ من أهل السنة، وفي كل مكان يكون إمامه

(١) رواه مسلم (٢٨٩٩)، وأحمد (١/ ٤٣٥).
(٢) رواه مسلم (٣٤).
(٣) رواه البخاري (٤٧٦١)، وأحمد (٦/ ٢٢).

النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حقًّا وصدقًا فهم من هذه الطائفة، حتى ولو كان واحدًا مغلوبًا في بلد فهو من هذه الطائفة المنصورة.

ولا يقدح في كون الإنسان من أهل السنة أن يكون قد خالف في بعض المسائل جاهلًا، أو متأولًا تأويلًا يُعذر فيه، وهذا لا يخرجه بالكلية إلى طوائف البدع النارية أو الفرق النارية، فقد نجد بعض أهل العلم قد وقع في أقوال من أقوال أهل البدع، ولكن جملة سيرته في نصرة السنة، والدفاع عنها، وتعظيمها، يجعلنا لا نستطيع أن نصفه بأنه أحد رؤوس البدع، بخلاف من عاش عمره ينصر البدعة، وينتصر لها: كجهم بن صفوان، والجعد بن درهم، وبشر المريسي، وغيرهم ممن نشر البدعة وعاش بها ولها.

بل إذا كان الأمر كذلك لمن كان من أهل العلم، ووقع في زلات -ولكلِّ عالمٍ زلة- فضلًا عمَّن ليس من أهل العلم كالقادة المجاهدين، الذين -ربما- كان بعضهم لا يحسن كثيرًا من المسائل، ولكنه محب للإسلام في الجملة، وربما كان له عذرٌ في عدم البيان له، فلا يقدح في كون الإنسان من أهل السنة أن يخطئ في بعض المسائل حتى قد يكون خفى عليه هذا الاتفاق، كما أن ما دل عليه الدليل من الكتاب والسنة قد يخفى على البعض؛ فيكون معذورًا بحكم ما خفي عليه إذا لم يقصر في طلب العلم الواجب، أمَّا من قصَّر في طلب العلم فلا يكون معذورًا عند الله في الإثم، ومثال على ذلك: في عصر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ كان الحكام المماليك عندهم من التجاوزات، حتى سجنوا شيخ الإسلام ابن تيمية في فتوى تتعلق بشد الرحال للقبور، ونهيه عن شد الرحال لزيارة قبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ومع ذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية يصف هؤلاء بأنهم هم الطائفة الظاهرة، وأنه لو لم تكن هذه الطائفة هي التي تقف في و جه التتار لضاع الدين،

وأنهم أولى الناس في زمنه بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين»**(١).

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يلتمس الأعذار بالجهل والتأويل، خصوصًا لمن لم يكن من أهل العلم ممَّن كان من أهل القوة والجهاد والسنان.

ومثال آخر: صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد يحلو للبعض أن يبحث في كتب التاريخ، أن صلاح الدين الأيوبي كان أساتذته من الأشاعرة، فيقرر أن ما فعله صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ اللَّهُ ليس نصرة للإسلام؛ لأنه كان أشعريًا ومبتدعًا، وهذا بلا شك من سخافات بعض من لا يعطي الأمور حقَّها أو حظها، إذ لا يوجد منصفٌ إلا ويثني على هؤلاء الأفاضل مثل: نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُمَا اللَّهُ، ويرى فتحهما للبلاد، وأخذها من الصليبين جهادًا في سبيل الله، ونصرةً للإسلام، وأنهم ممَّن وعدهم الله عَزَّ وَجَلَّ بنصرته في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تزال عصابة من أمتي تقاتل عن هذا الدين»**(٢) الحديث، لا سيما أنهم لم يكونوا متصدِّين للعلم، ووثقوا فيمن علَّمهم بعض الأمور التي فيها مخالفة -وهذا إن ثبت- وإلَّا فكثير جدًّا ممَّا يُذكر هي أقوالٌ مرسلة بلا أسانيد، والله أعلم على أيِّ أمرٍ كانوا في حقيقة أنفسهم، إلَّا أنهم في الجملة من أهل الإيمان والإسلام -الناصرين للدين-.

ونستفيد من ذلك كله أن كل طائفة تعمل من أجل الإسلام وتجاهد من أجله، إنما تُنصر بقدر ما معها من هذا المنهج؛ لأنه منهج علم وعمل، وليس فقط مجرد اعتقاد نظري دون سلوك عملي، بل هو قول وعمل، واعتقاد ونية، وإن تمسك الناس بهذا المنهج ظهروا بإذن الله؛ لأن هذا هو الدين الذي جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبقدر التزام

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) تقدَّم تخريجه.

هذه الطائفة وهذه العصابة بالسنة يكون انتصارها كما تقدَّم في الحديث: «**تقاتل عن هذا الدين...**»[(١)].

- والتسمية بـ(أهل السنة والجماعة) تسمية صحيحة لا ينازع فيها إلا جاهل، وهي ليست بديلة عن اسم الإسلام، بل هي تفسير صحيح الإسلام.

وكما أن مصطلح (أهل الحديث) صار من المتأخرين الذين انشغلوا بعلوم الأسانيد أو مجرد سردها والتكلم على رواتها دائمًا، واشتهر أهل العلم الأوائل بذلك أمثال: الإمام أحمد، والشافعي، ومالك، وإسحاق بن راهويه، وسفيان الثوري، وغيرهم، ومن بعدهم كالبخاري، ومسلم، والترمذي، وهؤلاء جميعًا من أئمة الحديث، والفقه، ولم يكن علمهم متوقفًا على الأسانيد دون متونها؛ بل كانوا يعلمون الأمرين جميعًا، بتفاوت بينهم بلا شك في ذلك؛ فالاقتران بين الحديث والفقه حاصل مع سلامة الاعتقاد، وسلامة السلوك، وكانوا مع ذلك أئمة الزهد، والوعظ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإفتاء بالحق، ويدعون إلى الله عَزَّوَجَلَّ السلاطين والحكام فمن دونهم، ويقولون الحق ويثبتون عليه، ومواقفهم مشهورة، وهذا كله داخل في مصطلح أهل الحديث.

ومن ذلك أيضًا مصطلح (السلف) فهو ليس بديلًا عن اسم الإسلام، فليس هناك ما يمنع من التسمي بالأسماء الشريفة أو أسماء تنتسب إلى الخير والحق كما قدمنا، وليس هذا من العصبية المذمومة، بل التعصب المذموم هو التقليد الباطل لمجرد التسمي بالاسم، فَتَنْصُر إنسانًا لمجرد الانتساب للاسم، أو تخذل آخرَ لمجرد التسمي باسم، أو تعادي إنسانًا بمجرد التسمي باسم، وحتى لو كان ذلك الاسم مما يجوز بل يستحب، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمجاهرين والأنصار لما قال المهاجرون: يا لَلَمهاجرين،

---

(١) تقدم تخريجه.

وقال الأنصار: يا لَلأنصار: «**دعوها فإنها منتنة، أَبِدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم**» الحديث[١].

فأنكر عليهم العصبية الجاهلية لمجرد الانتساب للطائفة، لكنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينههم عن التسمي باسم المهاجرين، أو الأنصار، وهي تسمية شريفة واردة في كلام الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

كما أنه لا حرج في الانتساب إلى البلدان، أو الأشخاص ما دام لم يكن هناك عصبية لمجرد الاسم، وكم رأينا من العلماء من يتسمى بأسماء البلدان، أو القبائل: كالمكي، والمدني، والعراقي، والمصري، والمروزي، أو الانتساب للأشخاص: كالنووي الشافعي وغيره، أو أبي عمر بن عبد البر المالكي وغيره، أو ابن أبي العز الحنفي -صاحب شرح الطحاوية- وغيره، أو ابن رجب الحنبلي وغيره، حتى وإن كان ذلك دلالة على اتباع مذهب معين في التفقه، بشرط عدم مخالفة السنة، كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «**أجمع المسلمون أن من استبانت له السنة لم يكن له أن يدعها لأحد من الناس كائنًا من كان**»[٢].

والضابط في ذلك كله أن أهل الحق عندما تفترق الأمة سوف يكونون متمسكين بالسنة بفهم الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومن كان على طريقتهم، وهذه وصية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «**فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا؛ فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهدين...**»[٣].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٨٢).

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

۞ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **[إلى قيام الساعة]**، أي: إلى قرب قيام الساعة، وذلك إلى زمن وجود الريح الطيبة التي تقبض روح كل مؤمن كما في رواية ابن سمعان عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**فتأتي ريح طيبة تقبض روح كل مؤمن، حتى لو كان في جوف جبل لدخلت عليه**»(١) فيكون ظهور المسلمين إلى قيام الساعة.

۞ **وقوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **[أهل السنة والجماعة]**.

وأما وصفهم بالجماعة؛ فلأنهم يجتمعون على هذا الحق، ويأمرون بالاجتماع عليه، ويحرصون عليه، بخلاف أهل الفرقة والاختلاف، كما قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قول الله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ الآية [آل عمران:١٠٦].

قال: «تبيض وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل البدعة والاختلاف»(٢).

والمفارقة للجماعة على أنواع: فقد تكون مفارقة للمنهج والطريقة لمن خالف في معتقد ومنهج أهلِ السنة والجماعة، ولو كان في نفس المكان. فهذه مفارقة مذمومة، وتكون هنا الجماعة بمعنى: المنهج والطريقة اللازمة لكل مسلم.

وتأتي الجماعة بمعنى الطائفة المجتمعة على إمام للمسلمين، فإن ذلك من الاجتماع المأمور به، فإذا وُجِدَ ذلك الإمام يحرم مفارقة جماعته، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من فارق الجماعة شبرًا فمات فميتته جاهلية**»(٣).

وأيضًا من ذلك الاجتماع الذي رغبت فيه الشريعة: ما أمر الله به من التعاون على البر والتقوى لإقامة واجبات الإسلام؛ فإن ذلك مأمور به، وكذا الرجوع إلى أهل العلم في فترات الفتن عندما لا يكون للمسلمين خليفة في الأرض، أو غابت الخلافة عند

---

(١) رواه مسلم (١١٦)، (٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه اللالكائي في «شرح أصول أهل السنة» (١/ ٧٢)، وأورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٢).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧١٤٣)، ورواه مسلم (١٨٥١) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

المسلمين، وغاب السلطان، فيجب على الناس أن يرجعوا إلى أهل العلم، وليس رجوع استفتاء فقط، بل رجوع إلى تحقيق التعاون على البر والتقوى لإقامة فروض الكفاية.

كما اجتمع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في غزوة مؤتة رغم قتل الأمراء الثلاثة الذين أمَّرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاجتمعوا على خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كقائد لهم، وقد مدحه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أخذ الراية خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح الله عليه**»(١).

وسمى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك فتحًا؛ لرجوعه بالجيش إلى المدينة سالمًا.

وأجمع العلماء على أن إقامة الخلافة واجب شرعي، فإذا عجز الناس فلا بد أن يستفرغوا وسعهم في الأخذ بأسباب إقامة هذا الواجب الشرعي، ولا شك أن أعظم ما ينتصر به المسلمون هو هذان النوعان من الاجتماع؛ بأن يكونوا على منهج واحد، واعتقاد واحد وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة، فهذا من أعظم أسباب تحقق الكرامات ونيل ولاية الله عَزَّوَجَلَّ، ثم أن يكونوا مؤتلفين مجتمعين، ويتركوا الفرقة والخلاف.

ولا شك أن سبب الفرقة والخلاف بين من ينتسبون إلى أهل السنة والجماعة مرجعه إلى إرادة الدنيا، وإرادة نصيب منها؛ إمَّا من مال، أو شهرة، أو رياسة. وكلَّما كثُرتْ المعاصي تفرقت الكلمة، وعجز أهل الحق عن الاجتماع، ودبَّت الهزيمة بلا شك، كما قال تعالى عن المسلمين في يوم أحد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

❁❁❁

(١) رواه البخاري (٢٨٩٨) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو الإيمان بالله.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**وهو الإيمان بالله**] أي: الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ربًّا وإلهًا، والإيمان بأسمائه وصفاته كما وصف نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكلمة الإيمان عظيمة الشأن، وهي أكثر من أن تحصى في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وهي أشمل وأوسع من كلمة التصديق؛ فالإيمان تصديق مع حبٍّ، وتعظيم، وانقياد.

وشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر ذلك مأخوذًا من حديث جبريل في الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[(١)].

ونستطيع أن نقول: إن هذا الحديث هو فهرس الإسلام؛ الذي يحدد لنا المعالم الأساسية فيه، والتي يجب أن يزِن الإنسان نفسه وأن يزِن الناس وفق هذه المعالم، وكذلك يعرف موقفه من الناس حبًّا وبغضًا، ثم الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ علمًا، وعملًا، وحبًّا، وخضوعًا، وخوفًا، ورجاءً لله عَزَّوَجَلَّ، وكل أركان الإيمان ومنازله لا يكون تحقيقها بمجرد المعرفة أو التصديق المجرد.

والإيمان بالله يتضمن الإيمان به ربًّا -أي: خالقًا، رازقًا، مدبرًا، مالكًا- لكل ذرة من ذرات هذا الكون، وآمرًا ناهيًا سيدًا مُطاعًا، وهذه كلها معاني توحيد الربوبية، وهي مأخوذة من الشرع واللغة، فكلمة (رب) تأتي في اللغة على ثلاثة معاني:

١- المعنى الأول من معاني الربوبية: مشتق من رَبَبَ أي: أصلح، يَرُبُّ الأمر: أي يقوم به ويصلحه، وكذا ربى يربو أي: نما وزاد.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي خلق الخلق ورزقهم، وما يُصلِح وجودهم راجع إليه سبحانه، فالماء الذي يشربون، والزرع الذي يأكلون، والنار التي يورون، وغير ذلك من وسائل حياتهم هي بأمر الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الآية [يونس:٣١].

٢- المعنى الثاني من معاني الربوبية: المالك المتصرف في ملكه، فكلمة الربِّ تأتي بمعنى مالك الشيء، كما قال عبد المطلب لأبرهة لما طلب منه الإبل التي أخذها، فقال أبرهة: «أتأتي تطلب الإبل، وأنا أردت هذا البيت الذي تعظمة أنت وآباؤك؟! فقال عبد المطلب: أنا ربُّ الإبل، وللبيت ربٌّ يحميه»(1).

والله عَزَّوَجَلَّ هو رب العالمين، المالك لكل ذرة في هذا الكون، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر].

٣- والمعنى الثالث من معاني الربوبية: السيد، الآمر، الناهي، المُطاع، يُقال: رَبَبْتَ الناس: سُسْتهم إذا كنت فوقهم، كما قال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لصاحبه في السجن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ الآية [يوسف:٤٢]، أي: عند سيدك المُطاع.

والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يشَرِّع للناس، وهو ربهم الذي يأمرهم وينهاهم، وتَلْزَمُهم طاعتُه.

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (٣/ ١٣٩).

- ومن مظاهر الشرك في الربوبية: اعتقاد أن مع الله مَن يخلق، أو يرزق، أو من ينفع ويضر.

وكذلك من مظاهر الشرك في الربوبية: مَن جعل من يملك مع الله مُلْكًا مستقلًا أو مشاركًا له سبحانه، كمَن يعتقد أنه يملك نفسه، وأنه حرٌّ يفعل ما يريد أمام أوامر الله.

وكذلك من الشرك في الربوبية: مَن رأى أنه له أو لغيره أن يشرع، ويأمر وينهى خلاف أمر الله وشرعه، أو أن يسوس الناس بما يراه من غير رجوعٍ إلى أمر الله، فهذا كله شركٌ في الربوبية، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الآية [التوبة:٣١].

وقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعدي بن حاتم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**ألم يحلوا الحرام ويحرموا الحلال فاتبعتموهم؟**»، قال: بلى، قال: «**فتلك عبادتهم**»[(١)] الحديث.

- والإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ إلهًا: بمعنى معبودًا تألهه القلوب، وتميل إليه سبحانه، وقدمنا قبل ذلك التفصيل في الاشتقاق والصحيح فيه.

وهو سبحانه لا شريك له، يُركَع ويُسجَد له وحده، ويُحبُّ ويُخاف منه سبحانه وحده، ويُتوَكل عليه، ويُصمد إليه في الحوائج سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحده.

- وأمَّا الإيمان بالأسماء والصفات: كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ الآية [الأعراف:١٨١] فهو أصل الإيمان بالربوبية، والألوهية، والذي يُبني عليه.

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي (٣٠٩٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٠٨٤٧)، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

فمعرفة العبد بأن الله هو: الخالق، البارئ، المصور، الذي بيده النفع والضر، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القابض، الباسط، وأنه عَزَّوَجَلَّ الذي يُعطي ويمنع، هذا يجعل العبد يؤمن بالله ربًّا، وكذا معرفة العبد أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الأحد الصمد، وأنه مالك الملك، تجعله يؤمن بالله إلهًا، ويعبده، ويلجأ إليه، ويُبطِل عبادة من سواه.

وتقسيم التوحيد إلى توحيد ربوبية، وتوحيد ألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات من باب التقسيم الاصطلاحي وليس تقسيمًا شرعيًّا، والفرق بينهما أن التقسيم الشرعي يكون واردًا في الكتاب والسنة، ومثال ذلك تقسيم الذنوب إلى شرك وما دون ذلك، فهذا واردٌ في القرآن في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ...﴾ الآية [النساء:٤٨].

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» فسُئل عنه فقال: «**الرياء**»[(١)].

وأما التقسيم الاصطلاحي أي: اصطلح أهل العلم عليه استنباطًا من الأدلة الشرعية، كتسمية العلوم الشرعية بعلم التفسير، وعلم الفقه، وعلم العقيدة...

وليس هناك مشاحة في الاصطلاح -كما يُقال- أي ليس هناك إشكال أو منع في التسمية أو التقسيم، بشرط عدم بناء الأحكام على التقسيم الاصطلاحي، وإنما الأحكام تُبنى على التقسيم الشرعي.

وأهل البدع والجهل وقعوا في هذا الخطأ البيِّن، أنهم بنوا أحكامًا على التقسيم الاصطلاحي، مثل من يقرر أنه لا يُعذر الشخص بجهلٍ، أو بعدم بلوغه مسائل من توحيد الألوهية، لكن يُعذر في توحيد الأسماء والصفات، وهذا لم يقُل به أحدٌ من أهل

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٤٢٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٥٥).

العلم، بل ومن العجب العجاب، إذ العذر عمومًا يكون متفاوتًا بحسب العلم، وليس في فرع من الدين دون فرع، أو قسم من العلوم الشرعية دون الآخر.

وكما قررنا يتضح أنه لا إشكال في الاصطلاح، أو في تقسيم أنواع التوحيد ما دمنا لم نبن على هذا التقسيم أحكامًا، وإذا فهمنا ذلك تمَّ حلُّ كثيرٍ من الإشكالات، وإنهاء كثيرٍ من المعارك التي تحدث بين بعض المعاصرين في مسألة تقسيم أنواع التوحيد، والأمر فيه سعة؛ لأنه مستنبط من كلام المتقدمين.



وملائكته.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**وملائكته**] الملائكة جمع: ملك، وأصله مَلَأك من الأَلُوكة وهي الرسالة وحُذِفت الهمزة تسهيلًا، فصارت ملاك ومَلَك أي: رسول. والملائكة رسل الله بينه وبين خلقه.

والإيمان بالملائكة يكون كما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، وكما بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفتهم، فهم يفعلون ما يؤمرون من أوامر الله عَزَّوَجَلَّ، ولهم قدرة وإرادة وقوة لا تتوجه إلا إلى الخير، قال تعالى: ﴿**لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ الآية [التحريم:٦]، وقال تعالى عن جبريل: ﴿**عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ**﴾ [النجم]، وعلَّمهم الله عَزَّوَجَلَّ مِن علمه ما شاء: ﴿**قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ [البقرة:٣٢]، وهم ينفذون أوامر الله عَزَّوَجَلَّ بأنواع عبادته المختلفة، قال تعالى: ﴿**يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٠].

وهم لا ينامون، ولا يتكاسلون أبدًا عن أنواع العبادات التي كُلِّفوا بها، ومنهم المُوكَّل بالوحي وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد يُؤمر غيره بتبليغ بعض الوحي، ومنهم المُوكَّل بالقطر وهو ميكائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد يأتي بالوحي أحيانًا، ومنهم إسرافيل المُوكَّل بالنفخ في الصور، ومنهم مالك خازن النار قال تعالى: ﴿**وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**﴾ [الزخرف:٧٧]، ورضوان[1] خازن الجنة كما اشتهر عند كثير من أعلم العلم، وإن كان الاسم ليس ثابتًا ثبوتًا واضحًا كثبوت مالك خازن النار.

---

(١) ذكر تسمية خازن الجنة (رضوان) ابن القيم في «حادي الأرواح»، وابن كثير في «البداية والنهاية»، وورد الاسم في بعض الآثار الضعيفة.

ومنهم ملك الموت، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، وله أعوان في قبض الأرواح ورد في وصفهم أنهم بيض الوجوه للمؤمنين، وسود الوجوه للكافرين، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد:٢٧]، ومنهم فتَّانا القبر (منكر ونكير) كما ثبت التصريح باسمهما في الحديث الصحيح، ومنهم الموكلون بمراقبة بني آدم وكتابة الأعمال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار]، قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق]. فكلًّا من الملكين عن يمين الإنسان وعن شماله رقيب أي: يراقب العبد، عتيد أي: معتدٌّ بذلك وموف له لا يفوته شيء من عمل الإنسان.

- ومن الملائكة سجودٌ أبدًا، ومنهم ملائكة قيامٌ أبدًا، ومنهم ملائكة رُكَّعٌ أبدًا، قال تعالى عن الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات]، قال ﷺ: «**أَطَّتِ السماء، وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله تعالى**»[(١)] الحديث.

والإيمان بالملائكة يشمل: معرفة وجودهم، وصفة خلقهم كما قال النبي ﷺ: «**خُلِقت الملائكة من نور، وخُلِق الجان من مارجٍ من نار، وخُلِق آدم مما وُصِف لكم**»[(٢)].

ويشمل الإيمان بما ورد في القرآن، وفي سنة النبي ﷺ من أعمالهم، وصور خلقهم، وصفاتهم الحميدة، ومحبتهم على ذلك؛ فالمؤمن يحبهم ويواليهم، وأمَّا من أقرَّ بوجودهم، وأبغضهم، أو عاداهم فقد كفر بهم، كما كفر اليهود؛ وكان سببًا من أسباب

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٣١٢)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

كفرهم أنهم عادوا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فكفروا بالله، رغم أنهم يقرون بوجود جبريل، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ الآية [البقرة].

وكما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أن اليهود سألوا النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عن أشياء لا يعلمها إلا نبي، فلمّا أجابهم قالوا: صدَقت، فمن يأتيك بالخبر من صاحبك؟ قال: جبريل. قالوا: جبريل! ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب، ذاك عدونا من الملائكة، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر. فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ... ﴾ الآية** [البقرة:٩٧][(١)].

فتبيَّن بذلك كفر اليهود الذين عَادَوا جبريل على الرغم من إقرارهم بوجوده، فمن يستهزيء بالملائكة، ويسخر منهم، أو يبغضهم، أو يعادهم فكلُّ ذلك من الكفر.

❁ ❁ ❁

(١) رواه الإمام أحمد في «السنن» (١/ ٢٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٦٦).

وكتبه.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**وكتبه**]؛ أي: الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهي الوحي الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ على رسله الكرام، وقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن نؤمن بها جميعًا، قال تعالى: ﴿ **ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ...** ﴾ الآية [البقرة:٢٨٥]، وأخبرنا بذكر اسم خمسة منها، قال تعالى: ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ** ﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿**وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا** ﴾ [النساء:١٦٣]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ** ﴾ [الأعلى]، ويُحتمل أن تكون الصحف التي أوتيها موسى هي التوراة كتبت في صحف، ويحتمل أن تكون شيئًا آخرَ غير التوراة المكتوبة في الألواح جملة وتفصيلًا، ونؤمن بخاتمة هذه الكتب، وهو القرآن العظيم إجمالًا وتفصيلًا.

ولا يصح إيمان عبدٍ إلا أن يؤمن بهذا القرآن آية آية، وأنه كلام الله كما أخبر عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ** ﴾ [التوبة:٦].

وأما الكتب المتقدمة، وكذا التي لم يخبرنا الله عَزَّوَجَلَّعن أسمائها، فنؤمن بها إجمالًا، قال تعالى: ﴿ **قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ** ﴾ [البقرة:١٣٦].

وكذلك نؤمن بما ورد فيه بعض التفصيل في الكتب المتقدمة، كالتوارة والإنجيل مثل قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ الآية [المائدة:٤٥].

فهذا ممَّا كُتب في التوارة، وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ الآية [الشورى:١٣].

فالقرآن يخبرنا عن بعض ما كان موجودًا في الكتب المتقدمة أن إقامة الدين بإقامة التوحيد، فما وُجِد من ذلك فنحن نجزم بصحة معناه من توحيد الله، وإن كانت الألفاظ لا نستطيع الجزم بها، وإنما ورد في القرآن ترجمة هذه الكتب لأنها لم تنزل باللغة العربية.

❁ ❁ ❁

فصل: تفصيل الاعتقاد
في التوراة والإنجيل والزبور الموجودة اليوم

أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ بوقوع التحريف في الكتب المتقدمة التي في أيدي أهل الكتاب، وهذا التحريف الذي وقع على أنواع، فمنه: تحريف الكتابة، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩].

ومنه: تحريف اللسان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الآية [آل عمران:٧٨].

ومنه: تحريف المعاني -وهو أكثر-، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ الآية [المائدة:٤١].

عن عبد الله بن عمر أنه قال: «إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأة زَنَيَا فقال لهم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟**»، فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم فقالوا: صدقت يا

محمد فيها آية الرجم! فأمر بهما رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرُجِمَا، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة»[(١)].

فقد بدَّل اليهود الأحكام مع بقاء الألفاظ، كما ورد في سبب نزول هذه الآية.

ولهذا فالإيمان بهذه الكتب المتقدمة يكون إجمالًا؛ لأن أصلها من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ونؤمن بأنها قد وقع فيها التحريف بأنواعه كما ذكرنا، والمطالع فيها اليوم يجد ذلك جليًّا واضحًا من مخالفة توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، وما لا يليق بأنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام- من الطعن فيهم، والكفر بهم، والافتراء عليهم.

وقد بيَّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك حين رأى صحيفة في يد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: «**أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، لقد جئتكم بها بيضاء نقية**»[(٢)].

فهذا فيه التعريض بهذه الكتب أنها ليست بيضاء، ولا نقية لما فيها من الشوائب، بل إنهم يعترفون بذلك ويقرون به في مجامعهم المعاصرة[(٣)].

فهم حرَّفوها، وبدلوها، وزادوا فيها، ونقصوا منها، وأدخلوا فيها ما ليس منها، ولذا قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ الآية [المائدة:٤٨]، فالقرآن: رقيب، شهيد، حفيظ على هذه الكتب، يشهد لما فيها من الحق، ويبيِّن ما زيد فيها وما نقص.

ومَن طالع الإنجيل الموجود بأيدي النصارى اليوم يظهر له، ويتبين له من طريقة كتابته أنه ليس الإنجيل الذي أنزله الله على نبيه عيسى؛ لكن فيه من الحق الذي تكلم به

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٦٠٧)، ومسلم (١٦٩٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) **حسن**: رواه أحمد (٣/ ٣٨٧)، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (١٥٨٩) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) [آخر قرارات مجمع الفاتيكان الثاني سنة ١٩٧٥م أن العهد القديم فيه شيءٌ من الشوائب وأشياء من البطلان]، ولا شك أن العهد الجديد أولى بذلك.

المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويؤكد ذلك أن النصارى عندهم أنَّ أول ما كُتِب منها كان بعد زمن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بزمن طويل، أي: بعد رفعه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بعَشرات السنين.

وكان إنجيل متى هو أول الأناجيل كتابة، وبعد ذلك مرقص، ثم لوقا، ثم يوحنا، وكلها كتبت بعد رفع المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وعلى ما يعتمدونه أن أقصى ما ذكر أنها كتبت بعد ستين سنة من رفع المسيح. وهذه الأناجيل يتضح لمن طالعها أنها ليست كتابًا واحدًا؛ بل هو روايات حياة المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وممَّا يؤكد ذلك أنهم يقولون في هذه الأناجيل أن المسيح قال: «توبوا إلى الله، وآمنوا بالإنجيل»، فدلَّ ذلك على أن الإنجيل كان كتابًا موجودًا يتكلم به المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويدعو الناس إلى أن يؤمنوا به، وعقلًا كيف يأمرهم بالإيمان بشيء هو غير موجود بين أيديهم إلا بعد ستين سنة؟! بل والأشدُّ من ذلك أنه حتى بعد ستين سنة لم يكن اكتمل، بل عندهم أن (الكتاب المقدس) العهد الجديد يتضمن جملة من الكتب والرسائل التي كتبها الحواريون وغير الحواريين أيضًا، مثل رسائل بولس المسمى عندهم (بولس الرسول)، فدلَّ ذلك من تأريخهم هم لكتابة هذه الأناجيل أنه -أي: الإنجيل- مجموعة من المؤلفات، وليس هو الذي حدَّث به المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقال عنه: «توبوا إلى الله، وآمنوا بالإنجيل».

وعلى ذلك فالإنجيل الموجود فيه شيءٌ من الحق، وفيه من الباطل، كما أيضًا التوراة كذلك.

وقد نصَّت نصوصٌ من الأناجيل على دعوة المسيح الواضحة للتوحيد، وهذا مما لا يُشك في صحة معناه، ومن ذلك ما ورد في إنجيل يوحنا أن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته).

وأيضًا من ذلك ما ورد في إنجيل متى، ولوقا أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لإبليس لما جرَّبه: «اخسأ يا شيطان، فإنه مكتوب للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد».

وكما ورد في إنجيل متى أيضًا أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لما سأله أحد تلامذته وقال: «أية وصية هي أول الكل» فقال: «إن أول الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى».

وهذا كله يؤكد جزمًا أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قد دعا إلى هذا المعنى، وأن الإنجيل تضمن هذه المعاني لتوحيد الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك نرى أن الخلاف الذي وقع بين المتقدمين في أن التوراة والإنجيل لم يحدث فيهما تحريف كتابي، وأن أهل الكتاب يحرفون المعاني فقط؛ فهذا خلاف غير سائغ، قد صدر ممَّن لم يطلع على ما في أيدي أهل الكتاب اليوم؛ لأن مَن يطلع على ما في أيديهم يجزم ويقطع بحصول التبديل والتحريف في الكتابة بوجود المتناقضات والاختلافات، فضلًا عمَّا لا يجوز من الصفات التي يصفون بها الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتبهم التي بين أيدهم: كالعجز، والضعف، والجهل، والمرض، والبكاء، والندم، والموت، والتعدد، وغير ذلك من الأوصاف المنكرة التي وصفوا الله عَزَّ وَجَلَّ بها -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا-.

فنحن نؤمن بالتوراة والإنجيل إجمالًا التي أنزلها على رسله موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وتضمنت كلامه؛ لأنه أنزلها سبحانه، مع إيماننا بأن التحريف وقع فيها بعد ذلك.

❁ ❁ ❁

ورسله.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**ورسله**]؛ الرسل جمع رسول، وهم الذين أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إليهم بالوحي، وأمرهم بالتبليغ وعند الإطلاق في الإيمان بالرسل يدخل فيه الأنبياء أيضًا وليس ثم تفريق في هذا المقام بين النبي والرسول، قال تعالى: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ**....﴾ الآية [الحج:٥٢].

وقال تعالى: ﴿**كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ**...﴾ الآية [البقرة:٢٨٥].

وهذا يشمل كل الرسل، والأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، فمَن كفر بواحد منهم فهو كافر بهم جميعًا.

وأما الفرق بين الرسول والنبي: فقد عَرَّفَ البعضُ الرسول أنه أوحي إليه وأمر بالتبليغ فيكون النبي بهذا التعريف أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ.

وهذا التعريف فيه قصور، والصحيح أن الرسول أوحي إليه وأمر بتبليغ شرع جديد عمَّن سبقه، ويمكن أن يكون هذا الجديد مبني على القديم، لكن أحل بعض ما حُرِّمَ في القديم؛ فهو تشريعٌ جديد.

وأمَّا النبي فإنه يُوحى إليه لكن لا يأتي بشرعٍ جديد. ولا يُتصوَّر أن الأنبياء غير مأمورين بتبليغ ما أراده الله، ولا يأمرون بالمعروف، أو ينهون عن المنكر.

والمتفق على نبوته خمس وعشرون نبيًّا، قال تعالى: ﴿**وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلٌّ**

مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الآية [الأنعام].

فهؤلاء ثمانية عشر نبيًّا والباقون: إدريس، وشعيب، وصالح، وهود، وذو الكفل، وآدم ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتمهم عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

وهؤلاء الخمسة وعشرون نبيًّا المذكورون بأسمائهم في القرآن، وهناك رسل وأنبياء لم يقصصهم الله عَزَّ وَجَلَّ على النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ الآية [النساء:١٦٤].

وهناك اختلاف في بعض غير المذكورين في القرآن، هل هم أنبياء أم لا؟

وهذه مسائل محل اجتهاد، وهي من مسائل الخلاف السائغ كما هو الخلاف في نبوة الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فهناك من قال بنبوته، وهناك من قال هو ليس بنبي، والراجح التوقف في ذلك.

كما أن هناك خلافًا في نبوة بعض النساء، وإن كان المشهور عند الجمهور من أهل السنة أنه ليس في النساء نبية، والآية الكريمة نصَّت على نفي الرسالة عنهن في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ الآية [يوسف:١٠٩].

فأفادت الآية أن الرسل كلهم رجال، وأنهم من أهل القرى لا من البوادي، وأنهم من البشر وليسوا ملائكة، كما أن خلقتهم مثل بقية البشر، وهذه نصوص قاطعة الدلالة وليس كما يزعم غلاة الصوفية أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُلِقَ من النور ولم يُخلق من الطين، وهذا من الغلو المنكر، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الكهف:١١٠].

ومن قال بنبوة مريم وحواء فهذا فيه خلاف، والصحيح التوقف في ذلك لأنه لم يرد دليلٌ يثبت، ولا دليلٌ ينفي.

والقرآن أثبت خطاب الله عَزَّوَجَلَّ لآدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، وكذا أثبت خطاب الملائكة لمريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ.

لكن النبوة منزلة أخصُّ من ذلك؛ لا تثبت بمجرد الخطاب أو حتى مجرد إثبات الوحي؛ لأن لفظ «أوحى» تأتي على معانٍ عدة، ودرجات ومنازل مختلفة.

- كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى...﴾ [المائدة:١١١]، والحواريون ليسوا بأنبياء باتفاقٍ بنص كلام النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم إذ ليس بيني وبينه نبي**»[1] الحديث.

وكذا طَلَبُ الحواريين: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:١١٢] وهذا الطلب من الحواريين لا يصدر من نبي.

- وقال عَزَّوَجَلَّ عن أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ...﴾ الآية [القصص:٧].

- وكما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا...﴾ الآية [النحل:٦٨].

- ومن المختلف فيه أيضًا في هذا الباب: من هو «تُبَّع» المذكور في القرآن في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ...﴾ الآية [الدخان:٣٧]، وقوله: ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ الآية [ق:١٤].

---

(١) **صحيح**: رواه ابن حبان في صحيحه (٦٤٠٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فالخلاف فيه هل هو نبي أم رجل صالح خالفه قومه فأهلكهم الله، أم كان زعيمًا لهم فأهلكوا جميعًا؟ وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أدري تبع ألعينا كان أم لا**»[1]، وفي بعض الروايات: «**ما أدري أتبع نبيًّا أم لا، وما أدري ذا القرنين نبيًّا أم لا**»[2] فإذا كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد توقف فهذا هو الواجب، أن نقف عند حدود الكتاب والسنة، ونكيل بكيلهما.

- ويجب الإيمان بأن الرسل بلغوا جميع ما أرسلوا به. قال تعالى: ﴿ **رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ...﴾ الآية [النساء:١٦٥] فأخبر سبحانه أنهم بلغوا، وبشروا، وأنذروا -صلوات الله عليهم أجمعين-، ويجب الإيمان أنهم معصومون من الكفر والشرك بلا نزاع، ومن كتمان الرسالة، أو الكذب في التبليغ فيها أو الخيانة، وكذلك هم معصومون من الكبائر بلا نزاع معتبر، ومن الصغائر المزرية، فهم معصومون منها أيضًا.

وأما الصغائر غير المزرية -أي: غير المعيبة- التي لا تحطُّ من قدرهم: فعلى زعم من يُجَوِّز ذلك فهذه تحتمل الاجتهاد، وكثير من السلف أطلق وقوع الذنوب منهم، ولا شك في وقوع ما سماه الله عَزَّوَجَلَّ ذنبًا ومعصيةً، قال تعالى عن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ **وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ** ﴾ الآية [طه:١٢١]، وقال عن نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أفضل الأنبياء: ﴿ **لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ...﴾ الآية [الفتح:٢] فسمَّى بعض أعماله ذنوبًا، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**»[3].

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٦٧٤)، وصحَّحه الألباني (٢٢١٧) في «السلسلة الصحيحة» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: رواه الحاكم (١/ ٩٢)، والبيهقي (٨/ ٣٢٩) وصححَّه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢١٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذكر النبيُّ ﷺ في حديث الشفاعة الطويل أن كلَّ نبي يذكر خطيئته التي أصاب، وأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يذكر ذنبًا، فدلَّ ذلك على وقوع ما يُسمى خطيئة وذنبًا ومعصية من الأنبياء، وهذا لا يجوز فيه الخلاف من حيث التسمية لأنه مذكور في القرآن كما في الآيات المذكورة آنفًا، لكن ما يكون محل الاجتهاد هو نوع هذا الذنب؛ فمن يقول بعصمة الأنبياء من الذنوب كلها كبيرها وصغيرها يقول أن الأنبياء لا يتعمدون المعصية، وما سُميَ في حقهم ذنبًا هو من باب الخطأ والنسيان، وترك الأولى، والفتور عن الذكر، والخطأ في الاجتهاد، وهذا هو القول الأقوى والأظهر والله أعلم؛ أن الذنوب في حقِّهم -صلوات الله عليهم- من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، فما كان نسيانًا يغفر لغيرهم يمكن أن يؤاخذوا هم به، ويُسمَّى في حقهم ذنبًا.

كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن معصية آدم: ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا** ﴾ [طه:١١٥] وهذا نسيان بنص الآية.

وكذلك حين قاسم إبليس آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ إنه لهما لمن الناصحين، ظنَّ آدم أن أحدًا لا يحلف بالله كاذبًا، وهذا من الخطأ في الاجتهاد.

وكذا خطيئة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كما في حديث الشفاعة قال ﷺ: «**وإنه قد كان لي دعوة دعوتها على قومي، اذهبوا إلى غيري، نفسي نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم**»(١) الحديث.

أو أن الخطيئة التي أصاب «**سؤال ربه ما ليس له به علم**»(٢) في قوله تعالى عن نوح: ﴿ **رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ** ... ﴾ الآية [هود:٤٥].

---

(١) رواه البخاري (٧٥١٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري (٤٢٠٦) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فعل خلاف الأولى في تعجل دعوته على قومه، وهذا ليس بمعصية بمعنى تعمد مخالفة الشرع، وكذلك إنما سأل ربه عَزَّوَجَلَّ عن حكمة عدم إنجاء ابنه، وأنه من أهله حتى بيَّن عَزَّوَجَلَّ له ذلك، فسارع بالإنابة والرجوع والتوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يتوبون من ترك المستحبات، ويتوبون من فعل خلاف الأولى، ويتوبون إلى الله عَزَّوَجَلَّ من الخطأ، ويتوبون من الفتور عن الذكر، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر في اليوم مائة مرة**»(١) الحديث.

وكذا سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر خطيئته: «**قال إني قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها**»(٢)، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يقصد قتل القبطي بل قصد دفعه فقط فقتله، وهذا القبطي كافر غير معصوم إلَّا أن قتله ليس فيه مصلحة، ولم يؤمر موسى بقتله، قال تعالى: ﴿**فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ**﴾ الآية [القصص:١٥].

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما قتل موسى الذي قتل خطأً**»(٣).

وكذلك يونس عليه السلام ظنَّ أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يضيق عليه، قال تعالى: ﴿**وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [الأنبياء:٨٧].

فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أخطأ في اجتهاده أن خرج وترك قومه بعد أن بلَّغ دعوته، فما كان خروجه إلا أنه ظنَّ أنه يسعه.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) رواه مسلم (٤٧) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وخطايا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ التي يقول عنها «**إني كذبت ثلاث كذبات ثنتين منها في ذات الله**»[١] فسمَّى ذلك كذبًا على الرغم أنه تعريض، واستثنى الثالثة رغم أنها تعريض أيضًا، وكانت لأجل تحصيل مصلحة هي -في النهاية- من ضمن مصالح الشرع، لكن كان حفظ النفس فيها مقدمًا، وهي قوله عن سارة عَلَيْهَا السَّلَامُ أنها أخته وهو لم يكذب، وقد قصد أخوة الدين بقوله أنها أخته، لأنه ليس على أرض مصر حينئذٍ مسلم غيرهما، ومع ذلك عدَّ ذلك من الخطايا تأدبًا مع الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولذلك سائر ما نُسب إلى الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من خطايا تكون من جنس أن الواحد منهم ظنَّ أنه يسعه الاجتهاد في ذلك.

والصحيح كما ذكرنا أن الأنبياء معصومون من الصغائر والكبائر، فضلًا عمَّا أُجمع عليه في العصمة من الكتمان، وتغيير الرسالة، أو تبديل شيء منها، أو الخيانة، أو الشرك، أو الكفر، حاشاهم جميعًا -عليهم الصلاة والسلام-.

وليس كما يزعم اليهود المجرمون -وهذا من كفرهم بالأنبياء- في اعتقادهم -لعنهم الله- أن الأنبياء يكفرون أو يشركون، أوأنهم يرتكبون أعظم الكبائر؛ بل حتى الأنبياء المعظمين عندهم كداوود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ فيقولون عن داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنه قَتَلَ، وزنا، ونسب ولد الزنا إلى نفسه، وأن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر عمره كان يعبد الأصنام، وهذا الهيكل المزعوم الذين يسعون في إقامته يريدون به إقامة الشرك والكفر مكان التوحيد والإيمان زعمًا منهم أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعبد الأصنام فيه.

وكذا نسبوا لنبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه زنى ببناته أو بإحدى بنتيه، وشرب الخمر وثمل، ونسبوا إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان يشرب الخمر ويخرج عريانًا، وهذا كله من

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إجرامهم وكفرهم، بل الأنبياء جميعًا -عليهم الصلاة والسلام- هم أكمل الناس خُلُقًا وإيمانًا، وأعلاهم قدرًا.

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ الآية [الأنعام:٩٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ الآية [الأنعام:٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ الآية [الأعراف:١٨١].

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن نبيه صالح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ الآية [هود:٦٣]..

والمعنى: إن عصيته أدنى معصية لانتقم الله، وما انتصر لي أحد. وذلك لم يقع مع صالح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ولا مع أي نبي من الأنبياء، فدلَّ ذلك أنهم ما عصوا الله عَزَّوَجَلَّ قط.

وقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للذي قال: اتق الله واعدل، فقال له النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ويحك فمن يتقِ الله إن عصيته**»[(١)] الحديث.

فإذا كان لا يمكن أن يتقي الله أحد إذا عصاه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تبيَّن أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يَعصي، وفي لفظ قال: «**ويلك ألست أحق أهل الأرض أن يتقي الله**» فهو صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يتقي الله في كل تصرفاته.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. والرجل هو ذو الخويصرة التميمي.

وأما: النسيان، والخطأ في الاجتهاد، والفتور، وترك الأولى: كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سها في الصلاة كما في حديث (ذو اليدين) لما قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا رسول الله أقُصِرت الصلاة أم نسيتَ»(١).

وكذلك ما وقع في أسرى بدر عندما اختار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر الفداء -على أصح الأقوال- وكان الأحب إلى الله عَزَّوَجَلَّ القتل، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية [الأنفال:٦٧].

وكما في نهيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تأبير النخل(٢)، ثم بعد ذلك لما لم يثمر قال: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»(٣).

ولمَّا نزل في بدر منزلًا، وسُئل: أهذا أمر من عند الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**»(٤)، فقالوا: ليس هذا بمنزل، فتحوَّل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بناءً على مشورة أصحابه.

وغير ذلك كثير، وهذا كله محتمل، لا يعصم الأنبياء منه، وكذا لا يعصمون من المرض، ولا من الجرح، ولا من القتل، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ الآية [البقرة:٨٧].

۞ وكذلك نعتقد أن الأنبياء أفضل من كل الأولياء، ونبي واحد أفضل من جميع الأولياء، وليس عند أهل السنة ترددٌ في تكفير من فضَّل الأولياء على الأنبياء، أو من

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أي: يُلقحون إناث النخل بطلع ذكورها.

(٣) رواه مسلم (٤٣٥٨) من حديث رافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٤٨٢).

رفع منزلة أحدٍ فوق الأنبياء -عليهم جميعًا الصلاة والسلام- وهذا إجماع لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ الآية [الأنعام:٩٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية [الحج:٧٥]، فمن يزعمون بعد ذلك أن الأولياء أفضل، أو يخترعون مرتبة عندهم تسمى (خاتم الأولياء) -كما فعل ابن عربي- أو كقوله: «إن الولي في برزخ فويق النبي ودون الرسول» فهذا كله من الكلام الباطل، وهذه الاعتقادات في الحقيقة من عقائد الشيعة التي تسربت إلى بعض الطرق الصوفية.

والاعتقاد الحق أن الأنبياء أفضل من جميع الأولياء، وأفضلهم على الإطلاق نبينا **محمد** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، **قال** عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[(١)] الحديث.

ولما قال له رجل: «يا خير البرية» قال: «**ذاك إبراهيم** عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ»[(٢)]، وهذا قبل أن يُوحى إليه أنه سيد الناس.

فأفضل الخلق نبينا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ثم إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، ثم موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ كما دلَّ عليه حديث المعراج، ومن العلماء من يذكر في الفضل بعد ذلك عيسى، ثم نوح عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، لكن لا يوجد دليلٌ ظاهرٌ على هذا التفضيل، والتوقف أحوط.

لكن تفضيل هؤلاء الخمسة مذكور في غير موضع، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ...﴾ الآية [الأحزاب:٨].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ...﴾ الآية [الشورى:١٣].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٢) رواه مسلم (٢٣٦٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... ﴾ الآية [الأحقاف:٣٥]، والأشهر عند المفسرين أن أولى العزم هم هؤلاء الخمسة، وتكون (مِن) في الآية للتبعيض.

ومن العلماء من قال أن كل الرسل أولو العزم؛ ويجعل (مِن) في الآية بيانية وليست تبعيضية، لكن هذا ليس بظاهر لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه:١١٥].



والبعثُ بعدَ الموتِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**والبعث بعد الموت**] هذا هو الإيمان باليوم الآخر، وأصل كلمة البعث: الإثارة والتحريك، والمراد به في الشرع: إخراج الموتى من قبورهم أحياءً يوم القيامة لفصل القضاء بينهم.

قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ**﴾ [الحج:٧]، وقال تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف:٥٧].

وغير ذلك من الأدلة الواردة في سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما في حديث جبريل في رواية في الصحيح: «**وتؤمن بالبعث الآخر...**» الحديث(١)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر**»(٢) وهذا البعث هو الركن الركين في الإيمان باليوم الآخر، الذي لا يصح إيمان عبد إلا به.

والأمم في إثبات البعث وإنكاره طوائف متعددة؛ فمنهم من ينكر المبدأ والمعاد وهم الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿**وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ...**﴾ الآية [الجاثية:٢٤]، وردَّ عليهم سبحانه فقال: ﴿**وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ [الجاثية:٢٤].

وهذه الطوائف تسمى عند أهل العلم: بالدهرية؛ وهم ينسبون حدوث الأحداث إلى مرور الوقت المجرد، وليس هناك ابتداء، بل الحياة هكذا بلا بداية، ونشأت صدفة

---

(١) تقدَّم تخريجه وهذه رواية أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٢١٤٥)، وابن ماجه (٨١)، وأحمد (١/ ٩٧)، وصحَّح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٢/ ١١١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وليس هناك معاد ولا جزاء، وهؤلاء في العصر الحديث: طوائف الشيوعيين، واللادينيين، ومنهم الطبائعيون وهم أصل العلمانيين وهؤلاء أشد الكفرة شرًّا، ومن أفسد الاعتقادات، وهذا منتشر في كثير ممن لا يدينون بأي دين من: أهل أوروبا، وأمريكا، وغيرها من بلاد المشرق والمغرب، وكثير من هؤلاء يزعمون أن الطبيعة العمياء هي التي بخبط عشواء وُجِدت فيها هذه الحياة بلا موجد، وهذا كله مما يتناقض مع بداهات العقول التي لا تقبل أن الفعل يتم بلا فاعل، وأن الفعل إذا كان متقنًا محكمًا ومقصودًا فلا بد من قدرة وإرادة وعلم لمن فعله، وهم يعلمون عجز الطبيعة، وينسون أنها عمياء صماء لا تعي ولا تدرك؛ لأن الطبيعة عندهم هي هذه المادة التي هي الأرض والسماء والشمس والقمر، ويقولون إن المادة الجامدة نشأت فيها الحياة بتفاعلات مجهولة، مع أن أبسط العقول ترد هذا الاعتقاد أبين رد، ولأجل هذا الاعتقاد الفاسد -بالتالي- هم ينكرون الشرائع، وهذا بداية فصل الدين عن الحياة، وإنكار الحساب والجزاء.

- وهناك من يثبت المبدأ وينكر المعاد، أي يثبت أن الله خلق الخلق، ولكنه ينكر الإعادة، وكان مشركو قريش من هذه الفرقة، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩].

وفي نفس الوقت ينكرون البعث بعد الموت، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس].

فالمبدأ أوضح دليل على المعاد، ووجود هذه الحياة أول مرة دليل قاطع على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ على إعادتها، بل هو أهون؛ لأن الذي ابتدأها وأبدعها من غير مثال سابق أقدر على أن يعيدها على نفس المثال.

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له العلم التام، والقدرة التامة، فأنى تعجزه الإعادة! وبذلك كَثُر الاستدلال في القرآن بهذا الدليل العقلي الذي يُلزم كل عاقل أن يقر به، وتقوم عليه الحجة بالاستدلال على المعاد، وأن الذي خلق الخلق أول مرة قادر على أن يعيده.

وأيضًا من الاستدلال الذي تشهده بداهة العقل: ما نراه من البدء والإعادة مرات متتابعة في الكائنات؛ كما يقع في النبات، وفي أجيال البشر جيلًا بعد جيل.

قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ...﴾ الآية [الروم:٢٤].

- وكذلك من الأدلة العقلية: أن الإحكام، والإتقان، والحكمة البالغة التي في هذا الكون جعلها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ دليلًا على ثبوت صفات الحكمة له سبحانه، ويأبى سبحانه بحكمته أن يجعل المسلمين كالمجرمين، وأن يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ولا يجعل سبحانه المتقين كالفجار أبدًا.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون].

فهو سبحانه منزه عن مثل ذلك، وما أودع سبحانه في الكون من أدلة حكمته وعلمه وقدرته -سبحانه- تأبى هذه الأدلة إنكار البعث، والمساواة بين المحسن والمسيء، وأن يظل الناس في الظلم الذي وُجِد في هذه الدنيا دون أن يرد الحق إلى نصابه، قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧]، فمَن زعم أنه لن يُبْعَث فهو كافر بنص الآية.

- وهناك من يثبت البعث لكنه بعث غير الذي جاءت به الرسل، وهؤلاء هم الفلاسفة الذين أثبتوا بعث الأرواح فقط دون الأجساد.

وأهل الإيمان يثبتون أن الأرواح لا تفنى، وإنما تنتقل من حال إلى حال، وتظل متغيرة، والموت هو انفصال الروح عن الجسد، وعودة الجسد إلى التراب، ثم تظل الروح متصلة به أو متصلة بأجزاء منه على ما يشاء الله عَزَّوَجَلَّ، على أن تعود إلى هذا الجسد الذي يجمع الله عَزَّوَجَلَّ أجزاءه المتفرقة من الأرض، ويُنْبَت مرة أخرى من التراب، ويعيده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كما كان بقدرته، لكن الفلاسفة يثبتون بعث الأرواح وينكرون بعث الأجساد، ومنهم من ينتسب إلى الإسلام، وقد كفَّرهم العلماء بذلك كما كفَّرَ الغزاليُّ رَحِمَهُٱللَّهُ ابنَ سينا من أجل إنكار بعث الأجساد. وتلك عقيدة مبتدعة، مشابهة لاعتقاد النصارى؛ فإنهم لا يثبتون بعث الأجساد، بل يزعمون أن الأرواح تكون في نعيم أو في عذاب، وينكرون أيَّ نعيمٍ حسيٍّ كالطعام، والشراب، وغيره.

كما قال سعد بن أبي وقاص في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ...﴾ الآية [الكهف]؛ قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكفروا بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأما النصارى فكفروا بالجنة؛ فقالوا ليس فيها طعام، ولا شراب، وكلا الفريقين كافر بالله عَزَّوَجَلَّ»(١).

وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس].

فهذا دليل أن العظام هي التي تحيا، وهذه الأبدان تحيا مرة أخرى، وقال تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة:٢٨] ولو كان البعث مجرد أن الروح تنتقل إلى أحوال أخرى، فهذا

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب تفسير القرآن (٤٤٥١).

ينافي معنى ﴿يُحۡيِيكُمۡ﴾ وهذا -بلا شك- منافٍ لما جاءت به الرسل من إثبات بعث الأجساد، ولا يكون الإنسان مؤمنًا إلا بأن يؤمن بهذا الاعتقاد.

- ومن الطوائف الضالة في هذا الباب: الجهمية الذين أقروا ببعث الأجساد، لكن قالوا هي أجساد أخرى غير التي بليت، أي أن الله عَزَّوَجَلَّ ينشئ أجسادًا أخرى غير التي كانت، ويجعل هذه الأراوح فيها.

لكن الاعتقاد الصحيح الذي عليه أهل الإيمان أن هذه الأجساد نفسها هي التي تحيا، كما أثبتت السنة ذلك أن جزءًا من الإنسان لا يبلى، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**... ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق**» الحديث[١].

وأما كيفية تلك الإعادة فنحن لا نعلمها. والله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء قدير، وإنما نؤمن بما ورد في أدلة الكتاب والسنة.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**ينزل الله مطرًا كأنه الطل -أو: الظل** (شكَّ الراوي)- **فتنبت منه أجساد الناس...**» الحديث[٢]، وهذه الأمطار التي ينزلها الله عَزَّوَجَلَّ تنبت منها أجساد الناس، فبذلك تعود أجسادهم مرة أخرى.

- ومن الطوائف الضالة: طائفة (الدهرية الدورية) وهم ينكرون المعاد، ومنكرون للخالق، يعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة تعود الأشياء وتدور. وهذا الاعتقاد الفاسد دخل إلى كثير من الفرق الضالة؛ ولذلك يعتقدون تناسخ الأرواح أي: انتقال الروح من صورة إلى أخرى، بمعنى أنها تحل في جسد آخر، وتأخذ شكلًا آخر، فإن كان صالحًا ارتقى إلى رتبة أعلى، وإن كان مفسدًا نزل في رتبته الخلقية، وهذه العقائد الفاسدة لدى الهندوس وغيرهم؛ فيقولون: إن غاية الإنسان أن ترتقي روحه في نهاية المراتب

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٥٣٦)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) رواه مسلم (٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

إلى الاتحاد بالإله، وإذا كان مفسدًا يتحول إلى روح محتقرة ككلب، أو قطة، أو فأر، فإن أحسن في هذا الدور انتقل إلى رتبة أعلى، والموت عندهم مجرد انتقال من حال إلى حال.

فصل

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بوجود حياة برزخية، وهي ما بين الموت والبعث، ومنه الإيمان بسؤال القبر، وعذابه، ونعيمه.

وإذا ذُكِرَ القبر فالمقصود به: الأغلب الأعم في أحوال الناس، وإلَّا فمَن غرق في بحر، أو أكلته السباع فهذا قبره، وأيضًا يحيا حياة برزخية أيًّا ما كان مستقره، والله سبحانه يعلم مستقر كل نفسٍ ومستودعها، وهو عَزَّوَجَلَّ يعلم كيف تكون هذه الأجساد، وهو قدير عَزَّوَجَلَّ أن يجعل العذاب أو النعيم لأجزاء هذا البدن المتفرقة، ولو كانت في أودية مختلفة أو في عالم البحار أو بطون السباع.

وفي هذه الحياة البرزخية تتصل الروح بالبدن اتصالًا خاصًّا، لا ندري كيفيته خلال هذه المدة ما بين الموت والبعث، ثم تعود الأرواح مرة أخرى عند النفخ في الصور، والقيام لرب العالمين، وتظل بعد ذلك في البدن إلى أبد الآباد.

ولربما عظم البدن، ولربما صغر حسب ما يأمر الله عَزَّوَجَلَّ به، أو في أوقات مختلفة. فإن المتكبرين قد قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عنهم: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جنهم يسمى بُولَسَ، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال**»[1].

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٤٩٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٤٠) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

وقال ﷺ: «**ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع**»[١]، وفي رواية: «**ضرس الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث**»[٢].

- ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بما يقع من أهوال يوم القيامة كلها، ومن نصب الموازين للحساب، ومن نصب الصراط على جهنم، ومن تطاير الكتب، وأخذها بالأيمان أو الشمائل، والحشر، والعرض، والحساب، والشفاعة التي يجعلها الله عَزَّوَجَلَّ لمن شاء من خلقه، ومنها الخاصة بالنبي ﷺ، والعامة له سبحانه وللرسل والملائكة والصالحين، وكذلك أمر الحوض، ولواء الحمد للنبي ﷺ.

- وكذلك من الإيمان باليوم الآخر: ما يكون من أنواع النعيم الحسي والمعنوي في الجنة، أو العذاب الحسي والمعنوي في النار.

- ومن الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالبعث بعد الموت: الإيمان بما يقع في الأرض قبل اليوم الآخر مباشرة أي: علامات الساعة؛ وهي أمورٌ ثابتةٌ بالكتاب والسنة، وهذه الأشراط منها الأشراط التي مضت، ومنها الأشراط التي من جنس الأمور المعتادة من أمور الفتن المتكاثرة المتتابعة التي تظل تزداد إلى أن تأتي الأشراط الكبرى التي أولها: ظهور المهدي، ثم ظهور الدجال، ثم نزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذلك الملاحم الكبرى، وهي المعارك الكبرى التي يكثر فيها القتل حتى يعمَّ الإسلامُ الأرضَ كلها، منها ما يكون قبيل الدجال كالملحمة مع النصارى، ومنها ما يكون بعده كالملحمة مع اليهود، وكذلك طلوع الشمس من مغربها، وذكر خروج الدابة، وقبل ذلك خروج يأجوج ومأجوج كما ورد في الكتاب والسنة، وكذلك ما ورد في الأدلة من وقوع الخسوف، والزلازل وكل ذلك من أشراط الساعة الكبرى.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٥٥١)، ومسلم (٢٨٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (٢٨٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ وخلاصة القول أن الإيمان باليوم الآخر يشمل ثلاثة أجزاء:

- الإيمان بالموت، وما بعده من عذاب القبر ونعيمه، وفتنة القبر وسؤاله.

- الإيمان ببعث الأجساد بعد تفرقها في الأرض، وما يتبع ذلك من أهوال القيامة، وما يكون في الجنة والنار.

- الإيمان بأشراط الساعة.

وهذه الثلاثة أجزاء لابد من معرفتها كما ورد في الكتاب والسنة.

۞ وكثيرًا ما يقترن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله سبحانه، قال تعالى: ﴿ **وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ** ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

۞ وكثيرًا ما كان يذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر...**» في الأمر بشيء أو النهي عن شيء، وذلك كله تعظيمًا للإيمان باليوم الآخر، وأنه قرين للإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ومن أنكر الإيمان باليوم الآخر كان منكرًا لألوهية الله عَزَّوَجَلَّ، وليس مؤمنًا بالله سبحانه، وإن أقرَّ بوجود الله؛ لأن كفار قريش كان من ضمن كفرهم إنكار البعث فصاروا كافرين بالله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك من كُفْرِ اليهود اعتقادُهم أن النار تمسسهم أيامًا معدوداتٍ ثم يَخْلُفهم المسلمون في النار، قال تعالى عنهم: ﴿ **وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة:٨٠].

روى ابن جرير عن عكرمة قال: (خاصمتْ اليهود رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا فيها قوم آخرون -يعنون محمدًا وأصحابه- فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده على رؤوسهم: «**بل أنتم فيها خالدون، لا يخلفكم فيها أحد**»، فأنزل الله جلَّ ثناؤه: ﴿ **وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ...** ﴾ [البقرة:٨٠])[١].

---

(١) «تفسير جامع البيان» للطبري (٢/ ٢٧٧) ط. دار المعارف.

۞ وكذلك لا يصحُّ إيمانُ من جعل الكفار يدخلون الجنة؛ كمن يشهد لليهود والنصارى بأنهم مؤمنون يدخلون الجنة، فهذا حقيقةً لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر؛ لأنه يسوي بين عبادة الله، وعبادة غيره، ويُصوِّب من يعبد غير الله.



والإيمان بالقدر خيره وشره.

الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان، كما ورد في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأن تؤمن بالقدر خيره وشره...**»[1] الحديث. وأصلُ كلمة القدر من قَدَرْت الشيء أي: أحطت بمقداره، وتمكنت منه، والمقصود به في الشرع: أن الله عَزَّوَجَلَّ عَلِمَ مقادير الأشياء وأزمانها أزلًا ثم أوجدها بقدرته ومشيئته على وفق ما علمه منها.

يقول الشيخ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «شرح العقيدة الواسطية»: (أنه كتبها في اللوح قبل إحداثها)[2] وهذه العبارة اختصارًا دون توضيح تضمنت المراتب الأربعة للإيمان بالقدر؛ **الأولى**: الإيمان بعلم الله عَزَّوَجَلَّ، **والثانية**: الإيمان بكتابة المقادير، **والثالثة**: الإيمان بقدرة الله ومشيئته النافذة، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، **والمرتبة الرابعة**: الإيمان بخلق أفعال العباد.

۞ وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [**خيره وشره**] إضافة للقدر؛ لأن هذا وارد في الأحاديث «**أن تؤمن بالقدر خيره وشره...**»[3] الحديث، ولبيان أن الأمور بتقدير الله، وهو عَزَّوَجَلَّ قدَّر وجود الخير، وقدَّر وجود الشر.

فهذا أولًا ذكر الأصول الستة مجملًا كما وردت في حديث جبريل الذي بيَّن النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه جاء يُعلم الأمة دينها، ثم شرع شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في التفصيل بعد ذلك.

۞۞۞

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) «شرح العقيدة الواسطية»، للشيخ محمد خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ. ط. دار الهجرة، تحقيق: علوي السقاف.

(٣) تقدَّم تخريجه.

ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**ومن الإيمان**] (مِن) هنا للتبعيض أي: أن الإيمان بالأسماء والصفات هو ضمن الإيمان بالله، وجزء منه كما أن توحيد الربوبية والألوهية هما أجزاء من الإيمان بالله، وكذا من أجزاء الإيمان. ويدخل فيها أن الله هو الذي يحكم ويريد، وأنه سبحانه يُحَب فيه ويُبغَض فيه، ويُوالَى فيه ويُعادَى فيه سبحانه، وسائر أمور الإيمان هي جزء من أجزائه، ولوازم ذلك لازمة لمن بلغته.

كما أن سائر أصول الإيمان: كالإيمان بالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر هي لازمة للإيمان بالله، من كفر بشيء منها كفر بالله، وذلك بعد أن تبلغه الحجة التفصيلية.

والإيمان بالأسماء والصفات هو أصل الإيمان؛ لأن معرفة الله بأسمائه وصفاته يترتب عليها معرفة أفعاله سبحانه، وقدرته عَزَّوَجَلَّ على فعل ما يريد، وهذا هو الإيمان بالربوبية ومن ثَمَّ يترتب عليه إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بأنواع العبادة وهو توحيد الألوهية.

۞ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**الإيمان بما وصف به نفسه**] كلمة: (وصف) تشمل الأسماء والصفات وهذا في الكتاب والسنة، فالأسماء تطلق ويُقال عنها صفات كما في حديث الصحابي الذي بعثه النبي ﷺ في سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿**قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟**» فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أن الله يحبه**»(١)، وسورة ﴿**قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾ متضمنة لأسماء الله سبحانه.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

وأمَّا في الاصطلاح: فيُفرق العلماء بين الاسم والصفة، والفرق بينهما اصطلاحًا أن الاسم يتضمن الصفة، بمعنى أن الاسم يشتق منه الصفة، لكن الصفة لا يُشتق منها الاسم، فيُشتق من أسماء الله (الرحيم والقدير والعظيم) صفات (الرحمة والقدرة والعظمة)، لكن لا نشتق من (صفات الإرادة، والمكر بالكافرين، والمجيء يوم القيامة) اسم (المريد والماكر والجائي).

وذِكْر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه القاعدة وهي (الإيمان بما وصف الله به نفسه وبما وصفه رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هو الأمر الواضح البين، لأن هذا هو مصدر التلقي في عقيدة الأسماء والصفات وغيرها؛ إذ إننا نتلقى هذه العقيدة من كتاب الله ومن سنة رسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس من مقررات العقول، سواء كان على طريقة الفلاسفة، أو طريقة المتكلمين.

- وفي هذا الموطن ذكر شيخ الإسلام الكتاب والسنة، ولم يذكر الإجماع مع أنه من مصادر التلقي للأحكام، وذلك لأن هذا الموضع ليس للإجماع فيه مدخل إلا بورود دليل من الكتاب والسنة، فلا يمكن أن يجتمع الناس ليخترعوا صفة لله سبحانه، بل يكون إثبات الصفة بدليل من القرآن والسنة، ثم يكون دور الإجماع في فهم ذلك.

إذ إن المخلوقين لا يحيطون به علمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتى يعرفوا صفاته سبحانه عن طريق عقولهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ الآية [طه:١١٠].

وهذا فرق أساس بين أهل السنة، وبين أهل البدع من المعتزلة، أو الجهمية، وغيرهم؛ فإن طريقة الاستنباط العقلي للصفات هي طريقة المتكلمين والفلاسفة الباطلة، التي في الحقيقة منبعها الكفر، والضلال، والجهل.

وحتى الأشاعرة وإن كانوا أقرب بكثير من الجهمية، والمعتزلة إلى أهل السنة إلَّا إنهم أقروا الجهمية، والمعتزلة على منهج التلقي في معرفة أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، فهم يزعمون أن العقول تُدْرِك ذلك.

ولهذا من أين للأشاعرة أن يحددوا سبع صفات فقط يثبتونها لله عَزَّوَجَلَّ وما سوى ذلك يقولون لا نثبته، ولابد من تأويل كل الصفات الأخرى إلى واحدة من هذه الصفات السبع! ثم زادوا خمس صفات سلبية، وواحدة وجودية، فهذه الست السلبية، وزادوا سبع صفات يسمونها صفات المعاني أو المعنوية؛ وهي مشتقة من السبع الأساسية عندهم وهي: (الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام)، ثم تكون السبع المعنوية أو صفات المعاني عندهم يقولون: كونه سميعًا، كونه بصيرًا، وهكذا...

والسؤال إذًا ما الفرق بين هذه وتلك؟! ومرجعها في النهاية إلى السبع الأساسية التي يثبتونها ويقولون أن هذه السبع هي التي يقر بها العقل.

وأما بقية الصفات الثابتة في الكتاب والسنة مثل: الرحمة، والكبرياء، والعظمة، والجلال، والغنى، أوكصفات الذات مثل: صفة الوجه، واليدين، وغيرها، أو صفات الأفعال التي ذكرها الله في كتابه مثل صفة الاستواء على العرش، والمجيء يوم القيامة، وما ورد في السُّنة أن الله يفرح بتوبة عبده وغيرها، فإنها عند الأشاعرة تُؤَوَّل إلى صفة الإرادة فقط لا غير، لأن الإرادة من الصفات السبع المثبتة عقلًا عندهم.

وكل هذا العجب والخطأ أتى -بلا شك- بسبب منهج التلقي الخطأ، وتقرير أن العقل هو مصدر التلقي.

لذلك كانت هذه البداية من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقرير هذه القاعدة الأساسية الكلية؛ لأن أهل البدع ينكرون جدًّا أن يكون الكتاب والسنة مصدر التلقي ويشغبون على ذلك بدعوى أن القرآن -وإن أقروا بلفظه- لكنهم يردون حقيقة النص

من آيات القرآن بدعوى أنها ظنية الدلالة، وليست قطعية الدلالة، وإن كانت قطعية الثبوت.

فهم يقولون: إن آيات الصفات توهم في ظاهرها التشبيه، مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ الآية [المائدة:٦٤]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ الآية [ص:٧٥].

فلابد -عندهم- من صرفها عن ظاهرها، وبهذا قرروا قاعدة فاسدة أن القرآن قطعي الثبوت ظني الدلالة.

أما السنة فقالوا عنها إنها ظنية الثبوت وظنية الدلالة، وحتى ما كان منها قطعي الدلالة فهو ظني الثبوت.

وبذلك التقرير الفاسد أن القرآن ظني الدلالة والسنة ظنية الثبوت والدلالة، ضاع المصدارن الأساسيان للتلقي.

- ومن وسائل الصد -عندهم- في التعامل مع السنة: انتشار مقولة (إن خبر الآحاد ليس بحجة في العقيدة ولا يُستدل به في مسائل الاعتقاد؛ لأنها أدلة ظنية، ومسائل الاعتقاد لابد أن تكون قطعية)، وهذا من العجب شكلًا وموضوعًا.

وهل خزعبلات العقول عندهم هي الأدلة القطعية؟! وكلهم يختلفون فيها، ويتناقضون فيها، وكل منهم يهدم قول الآخر ويخرجه عن حيز العقل، فلا يوجد أكثر اختلافًا من الفلاسفة والمتكلمين على منهجهم الباطل.

والعقل إذا لم يأتمر بأمر الشرع لم يكن على هدى ولا بينة، والعقل السديد يوافق ما أتى به الشرع دائمًا، وإنما أتت الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- بما يدركه العقلاء، قال تعالى: ﴿...إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤] والشرع يأتي

بمحارات العقول، ولا يأتي بمحالات العقول، والأصل أنه لا يوجد تعارض بين العقل الصريح السديد، وبين النقل الصحيح.

وإذا كان الإنسان عاجزًا عن الإحاطة بنفسه التي بين جنبيه، وما يعرفه من نفسه من أنواع العلوم هو مثل قطرة من بحرٍ واسع عريض، فضلًا عن الإحاطة بتفاصيل ذلك الكون الواسع، وأصحاب العلوم التجريبية حتى من الكافرين يعلمون ذلك؛ أن هذا الكون يقف الإنسان عاجزًا أمام تفاصيله، والأمثلة أكثر من أن تحصى على ذلك.

فكيف يكون عقل الإنسان العاجز هو المرجع والدليل الذي تُردُّ إليه نصوص الكتاب والسنة، فما وافقه قَبِله، وما خالفه ردَّه أو حرَّمه؟!

وإنما دور العقل هو فهم النصوص الشرعية، والتفكر في الأدلة الواردة في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإن توهَّم أحدٌ التعارضَ بين العقل والنقل الصحيح فلابد من اتهام العقل؛ لأنه كما قدَّمنا أن الشرع يأتي بما يحار فيه العقل، لكن أبدًا لا يأتي بما يستحيله العقل.

وأمور الغيب كلها من هذا الباب، لا يحكم فيها العقل؛ لأن إدراكه محدود، وتحكيم العقل في الغيبيات منهج باطل ومنكر، وهو في الحقيقة ليس من عند أهل الإسلام، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ...﴾ الآية [النساء:٥٩] ولم يقل سبحانه فردوه إلى العقول، لأن العقول في الغيبيات عاجزة، وكذا العقول متفاوتة في إدراك تلك الأمور وفهم معانيها، فكيف تكون هي المَرَدُّ الذي تُرد إليه نصوص الكتاب والسنة؟ بل العكس هو الصواب وهو الحق أن العقول تُردُّ إلى الكتاب والسنة؛ لأنها بذلك تُردُّ إلى العصمة، وتُردُّ إلى الحق الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ الآية [فصلت:٤٢]، والقرآن دلَّ على السنة، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعلم الخلق بذلك.

وهذا في كل أنواع الاستدلال على مختلف أقسام العلم أي في العقيدة، وكذلك الأحكام والمعاملات، وأيضًا في التزكية، وأحوال القلوب. وكم شقى أناس بل وبَعُدَت طوائف عن الحق والصواب بسبب بعدهم عن طريقة الكتاب والسنة، وكم حدث في الأمة من تأخر، وجمود، وانحرافات عقدية وعملية، بسبب البعد عن منهج الاستدلال والتلقي من الكتاب والسنة.

۞۞۞

۞ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **[من غير تحريف]**، التحريف: في اللغة أصله مأخوذ من حرفت الشيء عن وجهه حرفًا إذا أملته، وغيرته، وبالتشديد حرَّفته للمبالغة فيكون التحريف في الكلام إمالته عن حقيقته.

وما قصده شيخ الإسلام هنا أي: إمالة الكلام عن المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال. واستعمل شيخ الإسلام لفظ (التحريف) لوروده مذمومًا في القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿ **مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ** ... ﴾ الآية [النساء:٤٦] فذمَّ الله عَزَّوَجَلَّ أهل الكتاب على تحريفهم، وهم حرفوا المعاني، وحرفوا الكتاب نفسه أي الألفاظ، وأتوا بما يشبه الحق ليلبسوا على الناس، وقالوا هو من عند الله وما هو من عند الله.

فقصد شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا اللفظ المذموم لبيان خطأ من يفعلونه مقابل صفات الله عَزَّوَجَلَّ بأنهم يصرفون اللفظ عن ظاهره لمعنى آخر مرجوح من غير دليل، وهذا هو المسمى بالتأويل في اصطلاح المتأخرين الذين قالوا: يلزم تأويل ما لم يدل عليه العقل من الصفات الإلهية.

ومن ساروا على هذا المسلك، وطبقوا هذه القاعدة الفاسدة مثل: المعتزلة الذين أثبتوا الأسماء دون الصفات، والأشاعرة الذين حددوا سبع صفات فقط للإثبات وما سوى ذلك -يقولون لابد من تأويله أي: يُصرف معناه عن ظاهره.

- وتأملْ خطأهم وانحرافهم في تأويل صفة الاستواء لله عَزَّوَجَلَّ كمثال على هذه القاعدة الفاسدة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] فيقول أهل البدع استوى بمعنى استولى، واحتجُّوا لغويًّا بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف أو دم مهراق

وهذا مردودٌ مطعونٌ عليه حتى باللغة؛ فإن أئمة اللغة نَفَوا الاستدلال بهذا البيت، وقالوا إن هذا البيت لقائله (الأخطل) وهو نصراني وليس من العرب ولا يُحتج به في العربية[(١)].

ولو افترضنا جدلًا صحة البيت وثبوته، فليس هو بالمعنى المتبادر من قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]؛ لأن المعنى المتبادر في الآية كما فسَّره السلفُ هو العلو والارتفاع، وليس معنى الاستيلاء؛ لأن الاستيلاء يقتضي وجود منازع له فغلبه عليه فأخذ منه ما في يده، وجعله في يده، ولا شك في بطلان ذلك لفظًا ومعنى.

وعند النظر عمومًا إلى اللفظ من حيث الدلالة على معنى نجد أن له حالات:

إمَّا يدل على معنى واحد فقط فهذا هو النص، وإمَّا أن يحتمل أكثر من معنى فإن ترجح أحدهما على الآخر فهو الظاهر، وإن تساويَا فهو المجمل.

ولتفصيل ذلك تكون الحالة الأولى: وهي (دلالة النص) أي دلالة قطعية ويكون اللفظ لا يحتمل إلا معنى واحدًا ولا يحتمل غيره كما في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾

(١) لمزيد فائدة انظر كلام شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣/ ٩٣).

الآية [البقرة:١٩٦] فهذا لا يحتمل أن يكون تسعة أو إحدى عشرة؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ فصَّلَهَا فقال: ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة:١٩٦] وبيَّنها بيانًا لا يحتمل وجوهًا أخرى.

والحالة الثانية: وهي (دلالة الظاهر) هي أن يدل اللفظ على معنى بطريقة ظاهرة، ويستعمل في غيره احتمالات أقل في الدلالة، ومثال ذلك: لو قلت رأيت أسدًا، فكلمة الأسد تستعمل في اللغة للدلالة على الحيوان المعروف المشهور، وتستعمل أيضًا في الرجل الشجاع، لكن إذا قال المتكلم (رأيت أسدًا) وسكتَ، فإن السامع أول ما يفهم ويأتي في ذهنه هو الحيوان المعروف؛ لأنه أكثر استعمالات اللغة، ولا يصرف إلى المعنى الآخر وهو الرجل الشجاع إلا بقرينة تدل عليه، ومن أمثلة ذلك أيضًا ما يقرره الأصوليون من أن الأمر يتضمن الوجوب ما لم تأتِ قرينة تصرفه إلى الاستحباب، كقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صلوا قبل المغرب، صلوا قبل المغرب، صلوا قبل المغرب** -قال في الثالثة- **لمن شاء**»[1] فدلَّ قوله «**لمن شاء**» -وهي قرينة ظاهرة- أن الأمر هنا بالصلاة للاستحباب وليس للوجوب.

ومثال آخر في قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت:٤٠] فدلَّ ذلك على أن قوله سبحانه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ ليس لتخيير الناس أو إباحة المحرمات؛ وإنما هذا تخويف، وتهديد بأنه سبحانه بصير بأعمال العباد.

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] فهي ليست في جواز الكفر بلا شك؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ الآية [الكهف:٢٩] فهذه القرينة للتهديد وليست للتسوية.

(١) رواه البخاري (١١٨٣)، وأبو داود (١٢٨١) من حديث عبد الله المزني.

ثم الحالة الثالثة: هي (دلالة الإجمال) وهي إذا كان الكلام أو اللفظ يستوي فيه المعاني في الاحتمال تمامًا، ومثال ذلك في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿...إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ...﴾ الآية [البقرة:٢٣٧] فهذا السياق في شأن ما فُرض للمرأة من مهر، وبيان ذلك تأتي لفظة ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ فتحتمل أن يكون المقصود ولي الأمر لأن بيده عقد النكاح، وكذلك تحتمل أن يكون المقصود هو الزوج لأنه بيده عقدة النكاح هو الآخر، ولكي تعرف من هو المقصود لابد من بحث في السياق وفي اللفظ وفي الأدلة الأخرى لمعرفة من المقصود في الآية، ومن هو المخاطَب بالآية الكريمة.

فصل: في بيان التأويل الصحيح والتأويل المذموم

وبتفصيل ما سبق تبيَّن أن التأويل في الاصطلاح معناه: صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى مرجوح لدليل يقترن به. فإذا كان الدليل صحيحًا فيكون بيانًا لمعنى الكلام وتفسيرًا له، وإذا كان الدليل غير صحيح كان التأويل تحريفًا للكلام.

۞ وهناك أربعة شروط للتأويل الصحيح: أن يكون المعنى المرجوح مستعملًا في لغة العرب، وأن يدل عليه دليل، وأن يسلم الدليل من معارض، وإذا كان الأمر في العقيدة ومنها الأسماء والصفات لابد أن يكون الدليل من الكتاب والسنة.

لأنه يستحيل أن يتكلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلام ظاهره غير مراده أو ظاهره الكفر -كما يزعم أهل البدع- ثم يسكت عن ذلك من غير أن يبين لنا، ويترك الأمر للعقول لفهم احتمالات بعيدة كل البعد عن مراد الله، وأن تظل الأمة -ما يقارب الثلاثة قرون- لا تفهم المراد من أدلة صفات الله عَزَّوَجَلَّ حتى يأتي المعتزلة، والأشاعرة ببدعهم المحدثة ويفسروا لنا الأدلة.

وإذا ضربنا مثالًا عمليًّا على التأويل المذموم وما يدَّعِيه أهلُ البدع، وذكرنا صفة اليد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتي يفسرونها بمعنى القدرة في قوله تعالى: ﴿**يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ [الفتح:١٠]، أو قوله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ الآيات [المائدة:٦٤] فيقولون أي: قدرة الله -زعمًا منهم-.

فكيف يفسرون قوله تعالى: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ الآية [ص:٧٥]؟

فلازم قولهم أن يقولوا بقدرتين، ومعلوم أن لله عَزَّوَجَلَّ قدرة واحدة شاملة متعلقة بكل المقدورات، وليست قدرتين، فتبيَّن بطلان ما يزعمون من تأويل.

- وإذا أردنا مثالًا عمليًّا لشروط التأويل الصحيح كما في الحديث قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله** عَزَّوَجَلَّ **يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني...** »[1] الحديث.

فمعلوم أن المرض لا يُنسب إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وكذا الطعام، والشراب، وإنما يَنسب ربُّنا الأمر إلى نفسه تعظيمًا لأجر عيادة المريض، وإطعام الجائع وسقياه.

وهذا الحديث فيه شروط التأويل الصحيح، فإن الأمر مستعمل في لغة العرب وهو المجاز، وحُذِف المضاف في قوله «**مرضتُ**» أي: مرض عبدي، وحَذْفُ المضاف لبيان محبة الله عَزَّوَجَلَّ لعبده، وكذلك صرف اللفظ عن ظاهره هنا دلَّ عليه الدليل من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث نفسه: «**قال كيف أعودك وأنت رب العالمين...**»[2] فصرف اللفظ عن ظاهره هنا واجب، والقرينة موجودة في نفس الحديث لأن الرب سبحانه لا يمرض.

وأيضًا فإنه لم يثبت دليل يُعارض ذلك ويثبت أن الله يمرض -حاشاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وهذا اعتقاد كل موحِّد. وليس كما يزعم اليهود المجرمون من نسبة صفات النقص،

(١) رواه مسلم (٢٥٦٩)، وأحمد (٢/ ٤٠٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الحديث السابق.

والندم والبكاء، والمرض لله عَزَّوَجَلَّ حتى تعوده الملائكة، سبحانه وتعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا.

وكذلك في قوله: «**استطعمتك فلم تطعمني...**»[1] فالدليل من القرآن على نفي أنه سبحانه يُطْعَم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ...** ﴾ الآية [الأنعام:١٤]، فالدليل قد سلِمَ من المعارض، وهذا التأويل الصحيح يأتي في الشرع في أكثر من موضع، فإذا توفرت شروطه كان تأويلًا صحيحًا، وإلَّا صار تحريفًا مذمومًا.

- كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ [الإسراء:٢٩].

فمعلوم أنه ليس هذا نهى عن بسط الإنسان ليده الحقيقية أو بقبضها إلى عنقه، وأن لفظة اليد هنا تأتي على معنى آخر؛ لأن السياق قد دلَّ على ذلك أنها جاءت في سياق ذكر النفقة، والاعتدال، وعدم الإسراف، قال تعالى: ﴿ **وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ الآيات [الإسراء] فيكون معنى ﴿ **مَغْلُولَةً** ﴾ أي: بالبخل ومعنى، ﴿ **وَلَا تَبْسُطْهَا** ﴾ أي: الإسراف، والتبذير، فهذا مستعمل في لغة العرب، ودَلَّ عليه الدليل من السياق القرآني نفسه، وليس هناك ما يعارضه.

وهذه الأمثلة من القرآن، والسنة، وغيرها تدل على شروط التأويل الصحيح المقبول. وأما التأويل المذموم فهو الذي لا تتوفر فيه هذه الشروط، ويكون مجرد افتراضات عقلية

---

(١) الحديث السابق.

ليس للدليل فيها حظ ولا نصيب، مثل تفسيرهم الاستواء بالاستيلاء، وينفون فوقية الله عَزَّوَجَلَّ على العرش، ويقولون أن العقل يحيل ذلك، وهذا من أبطل الباطل.

وأين الدليل من الكتاب، والسنة على ذلك؟! ثم إن هذا الافتراض العقلي الباطل مردودٌ بأدلة لا تُحصى تدل على فوقية الله عَزَّوَجَلَّ وعلوه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال تعالى: ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ...﴾ [النحل:٥٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ**﴾ [الأنعام:١٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى**﴾ [الأعلى:١]... وغيرها كثير.

فمن ادَّعى أن الاستواء لله بمعنى الاستيلاء، أو اليد بمعنى القدرة أو النعمة مع نفي صفات الله، فهو يقول: لا يوصف الرب بأن له يدين، أو أن له عينين، أو أنه يأتي يوم القيامة، فهو محجوج بهذه الأدلة؛ وليس معه دليل يقوم الاستدلال به، وما احتج به غير سالم عن المعارضة، فضلًا أنها شبهات عقلية سخيفة، وليست من كلام الله، ولا كلام رسوله، ولا كلام الصحابة أو التابعين.

وادِّعاؤهم زعمًا أن العقول لا تقبل ظاهر النص كلام باطل؛ لأن عقول الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ والتابعين قَبِلتْ ذلك وفهِمته قبل نشأة هذه البدع، وطعنوا فيمن يتكلم في ذلك، كما روى الإمام أحمد في «مسنده» بسنده «أن ثابت البناني كان يُحدِّثُ عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا**﴾ [الأعراف:١٤٣] قال: هكذا -يعني أنه أخرج طرف الخنصر ووضع إبهامه على طرف إصبع الخنصر الأيمن- فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ -يعني ثابت البناني- قال فضربه على صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد! وما

أنت يا حميد، يحدثني به أنس بن مالك عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتقول أنت ما تريد إلي هذا!»(١).

والسلف -رضوان الله عليهم- ما كان عندهم التشبيه، وليس منهم أحدٌ ردَّ على الله عَزَّ وَجَلَّ، أو على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزعم أن الكلام يوهم التشبيه كما يقول أهل البدع.

❁ ❁ ❁

❁ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **[ولا تعطيل]**، العَطَل معناه: النفي، وأصله: الخلو، والفراغ، والترك، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ**﴾ الآية [الحج:٤٥]، والبئر المعطلة: هي المتروكة التي أهملها أهلها.

والمقصود هنا: نفي الصفات الإلهية، واستعمل شيخ الإسلام تلك اللفظة (التعطيل) لبيان ما هو أشد من التحريف؛ لأن التعطيل أشد من التحريف وأعم منه، والتحريف نوع من التعطيل.

فإن التحريف هو تفسير النص بمعنى مرجوح، والتعطيل نفي المعنى الحق مطلقًا، وقد يزيد عليه فيكون أشد كفرًا بالتصريح بالنفي، كما وقع من غلاة الجهمية كالجهم بن صفوان، والجعد بن درهم الذي قتله خالد بن عبد الله القسري أحد أمراء بني أمية يوم خطبة عيد الأضحى وقال: «يا أيها الناس ضحُّوا، تقبَّل الله ضحاياكم فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا»(٢).

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢١٠)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٤٨١).

(٢) ذكر القصة البخاري في «خلق أفعال العباد» برقم (١٢)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (١٧)، وابن القيم في «الصواعق المرسلة» (٣/ ١٠٧)، وقوَّى إسنادها الألباني في «مختصر العلو» (١٣٥).

فهؤلاء الزنادقة صرحوا بنفي صريح القرآن، ولا شك أن هذا كفرٌ، بخلاف من يتخذ غطاءً في الكلام ويقول: استوى بمعنى استولى، فهو لم ينفِ لفظ القرآن صراحة، وإنما حرَّف التفسير والمعنى، أو يقول: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥] أي: أراد إكرامه.

- ومن أنواع التعطيل: تعطيل المفوِّضة الذين يفوضون المعنى، فيثبتون الألفاظ لكن يعتبرون الألفاظ مجرد حروف مقطعة لا معنى لها. فيقولون: استوى عبارة عن: (ألف، سين، تاء، واو، ياء) بلا معنى، وسميع عبارة عن: (سين، ميم، ياء، عين)، وبصير عبارة عن: (باء، صاد، ياء، راء)! وهذا بالتالي يعني أن الصفة غير موجودة.

وإنما أفرد شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ التحريف بلفظ خاص برغم أنه داخل في التعطيل؛ بسبب أن أهل التحريف والتأويل المذموم كانوا هم المنتشرين، والأكثر في التعامل مع نصوص الكتاب والسنة في زمنه، بل وبعد زمنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

❁ ❁ ❁

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **[ومن غير تكييف]**، التكييف: معناه اعتقاد كيفية معينة في صفات الرب عَزَّوَجَلَّ: والكيفية علم تفصيلي بحقيقة الذات والصفات، وهذا أمر لا يحيط به علمًا سوى الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] أي: لا يحيطون بشيء من علمهم بالله -أي بذاته وصفاته- إلا بما شاء سبحانه، وعلى الوجه الآخر في التفسير أي: لا يحيطون بشيء من مطلق العلم إلا بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ.

وكلا الوجهين يفيد عدم الإحاطة إلا بمشيئة الله سواء بخصوص النفي لعلم حقيقة ذات الرب وصفاته، أو النفي لعموم العلم. وبذلك اشتُهر عن السلف -رضوان الله عليهم-: كربيعة، ومالك، وغيرهما قول: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول،

والإيمان به واجب، والسؤال عنه -أي عن كيفيته- بدعة»(١)؛ لأن صفات الله عَزَّوَجَلَّ لها كيفية وحقيقة معينة بلا شك، لكن الخلق لا يعرفونها. فالنفي يكون لمعرفة الكيفية أي: ذاتها التي يعلمها الله عَزَّوَجَلَّ، وليس النفي لمعنى الصفة.

وفرق بين تفويض إدراك ومعرفة الكيف، وبين تفويض أدراك ومعرفة المعنى.

فإذا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة] فبلا شك أن السامع يدرك الفرق بين الفاكهة، وبين لحم الطير.

وكذا الفرق بين ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة:٢٢] وبين ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة:١٧]، وأيُّ عاقلٍ يُدرِك الفرقَ، مع أنه في الجنة ليس شيء من الدنيا، إنما هي الأسماء فقط، وكذلك الفرق بين ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا﴾ [محمد:١٥] وبين ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٨]. وغير هذا كثير في أننا نعرف الفرق في المعاني مع اختلاف الكيفية.

وإذا كان هذا بين المخلوقات في أشياء في الجنة، أو أشياء في النار وهي من الغيب ولا ندري تفصيلها وكيفيتها الحقيقية، فأولى بنا أننا لا ندرك كيفية صفات الرب عَزَّوَجَلَّ، وإن عقلنا معانيها.

- فالكيف المنفي هو إدراك كيفية الصفة، وليس إدراك معنى الصفة؛ لأن هذه الأسماء من جنس الأسماء المتواطئة التي يوجد بينها في الذهن الإنساني قدر مشترك، فإن الصبي الصغير لو قلت له: إن الله يسمع؛ فإنه يدرك معنى السمع، أو تقول له: إن الله يراك؛ فهو يدرك معنى الرؤية، فهذه أشياء تدرك بسبب معرفة الإنسان بصفته وصفة

(١) رواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٥٥)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦٦٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١٥٠، ١٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٥)، والذهبي في «العلو» (٣٧٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٧/ ١٣٨)، وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص١٧٢، ١٧٣)، وروي عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

غيره، لكن كيفية أن الله يرى، أو أنه يسمع فهذا بلا شك ليس كسمع أو بصر المخلوقين وهذا هو الفرق بين المعنى والكيفية.

وحتى في رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة، فإنها رؤية وليس إدراكًا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ الآية [الأنعام:١٠٣]؛ لأن الإدراك معناه: الإحاطة ومعرفة حقيقة الشيء وكنهه، كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «لا يحيط بصر أحد بالملك»[١].

فالرؤية ثابتة بلا إحاطة ولا كيفية، والأسماء الحسنى معنى متصف به الله عَزَّوَجَلَّ من جنس الأسماء المتواطئة، والأسماء: إمَّا متواطئة، وإمَّا مشتركة، وإمَّا متباينة، وإمَّا مترادفة كما قسَّمها أهل العلم.

فالأسماء المترادفة: كقولنا ليث، وأسد، وقسورة؛ فكلها تدل على معنى واحد مع اختلاف اللفظ، وإذا قلنا أرض، وسماء فاللفظ مختلف والمعنى مختلف وهذه المتباينة، والأسماء المشتركة: هي أسماء حروفها واحدة ومعانيها مختلفة؛ مثل لفظة عين تُطلق على عين الإنسان، وعين الماء، وتُطلق على عين بمعنى الذهب، ويدخل فيها المتضادين مثل كلمة (عسعس) بمعنى: أقبل، وأيضًا تعني أدبر، وكلمة (قُرْء) تعني الحيض وتعني الطُهر.

والأسماء المتواطئة: تتفق في اللفظ، وتشترك في معنى عام موجود في الذهن، لكن كيفيتها مختلفة من خارجها؛ كقولك الإنسان حيٌّ والحيوان حي، فمعنى الحياة معروفة مع اختلاف شكلها.

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٢٩٥) ط. دار المعارف.

ولذا نقول نؤمن بما وصف الله به نفسه، وبما وصفه به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تكييف أي من غير اعتقاد كيفية معينة.

***

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **[ولا تمثيل]**، التمثيل: من كلمة (مثل) كذا، والفرق بين التمثيل والتكييف، أن التكييف أعمُّ من التمثيل، بمعنى أن التمثيل نوع من أنواع التكييف، وهو تحديد مثال معين للشَبَه، وعلى ذلك يكون الاعتقاد الحق هو نفي معرفة الكيفية تمامًا سواء بمثال معين أو غير معين.

وكما ذكرنا أن شيخ الإسلام أتى بكلمة (من غير تكييف) لأن الكلمة مأثورة عن السلف في قولهم: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول...)، والله عَزَّوَجَلَّ قال عن نفسه سبحانه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ الآيات [الإخلاص]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الآية [الشورى:١١].

واستعمل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ لفظ (ولا تمثيل) لأنها هي المستعملة في القرآن، ولم يستعمل كلمة التشبيه؛ لأن التشبيه عند البعض يحتمل معاني باطلة، ويحتمل معاني حقة، فاقتصر على ما ورد نفيه في الدليل.

***

بل يؤمنون بأن الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

❁ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**بل يؤمنون بأن الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾** [الشورى:١١].] هذه الآية المُحْكَمَة من كتاب الله يقول عنها الشيخ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هي دستور أهل السنة والجماعة في باب الصفات، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد جمع فيها بين النفي والإثبات، فنفى المثل عن نفسه، وأثبت لنفسه سمعًا وبصرًا، فدلَّ هذا على أن المذهب الحق ليس نفي الصفات مطلقًا كما هو شأن المعطلة، ولا إثباتها مطلقًا كما هو شأن الممثلة بل إثباتها بلا تمثيل) اهـ[1].

أي أن معنى الآية، والمستفاد منها: إثبات بلا تمثيل في قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ**﴾، وتنزيه بلا تعطيل في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾.

❁❁❁

(١) «شرح العقيدة الواسطية» للشيخ خليل هراس (ص٦٩).

فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مَوَاضِعِه، ولا يُلْحِدُون في أسماء الله وآياته، ولا يكيفون، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه.

هذه الجملة شارحة للعبارة التي قبلها كما سبق بيانه.

۞ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**ولا يلحدون**] الإلحاد: هو الميل، ومعناه هنا العدول عن الحق، وهو يشمل كل الأنواع الباطلة من إلحاد المشبهة الذين يشبهون الرب بالخلق، أو يشبهون الخلق بالرب، ويشمل إلحاد النفاة المعطلة، وأشدهم ضلالًا وإلحادًا (الباطنية) نفاة النقيضين، وهم أشد الفرق كفرًا، بل كفرهم أشد من اليهود والنصارى، وهم الذين ينفون الشيء ونقيضه، ويقولون ليس بسميع ولا ليس بسميع، لا موجود ولا ليس موجود، لا حي ولا ليس بحي. فاعتقادهم أن وجود الرب مستحيل، وهذا كلامٌ مناقضٌ للعقل، وبالتالي هم يصرفون الألوهية لغير الله، فيؤلهون الحاكم، أو الإمام وهذه ظلماتٌ بعضها فوق بعض[١].

- ويلي هؤلاء الفلاسفةُ الذين يثبتون الوجود المطلق لله عَزَّوَجَلَّ بلا ذات ولا اسم ولا صفة، وهذا إلحاد وكفر، وهؤلاء عامة الفلاسفة الأوائل مثل أريسطو وأفلاطون، ومن تشبَّه بهم ممن انتسب للإسلام قالوا بنفس هذه المقالات، ونفس هذه العقائد كابن سينا

---

(١) من أمثلة تلك الكفريات عند فرق الباطنية ما يقوله ابن هانئ الأندلسي الشاعر للحاكم (المعز لدين الله الفاطمي):

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم أنت الواحد القهار

وكل من الفرق الباطنية يعتقد الألوهية في أحدٍ على اختلاف أنواعهم وفرقهم؛ فالدروز يعتقدون الألوهية في الحاكم بأمر الله، والعلويون الموجودون في سوريا يعتقدون الألوهية في علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والإسماعيلية يعتقدون الألوهية في إسماعيل أحد أبناء جعفر الصادق، وهؤلاء الطوائف أكفر من اليهود والنصارى.

والفارابي وغيرهم، ويتسمون باسم فلاسفة الإسلام، وفي الحقيقة لا يوجد شيء اسمه فلسفة في الإسلام.

والمنتسبون للإسلام من هؤلاء الفلاسفة حاولوا إعطاء العقائد الباطلة المأخوذة من الفلسفة اليونانية أسماء إسلامية مثل: لفظ (واجب الوجود)، أو الوجود المطلق، وهذا كله مرجعه إلى الاعتقاد الفاسد عند الفلاسفة في أن وجود الله عَزَّوَجَلَّ وجود مطلق معنوي بلا ذات، ولا اسم، ولا صفة.

ثم أسهبوا في التفصيلات العقيمة الضالة كقولهم: إن واجب الوجود فاض منه العقل الكلي، ثم فاض منه عشرة عقول، ثم فاض منه النفس الكلية، ثم فاض منه تسعة نفوس، ثم فاضت منه بقية الفيوض، مثل انبعاث الأشعة من الشمس، حتى يصل الأمر إلى المادة التي يسمونها (الهيولي) المكونة من أربعة أشياء؛ الماء، والهواء، والتراب، والنار وهذه كانت النظريات القديمة في تكوين المادة، بخلاف النظريات الحديثة التي تكتشف تكون المادة من عشرات العناصر وبسبب هذه النظرية -نظرية الفيض- تأسس مبدأ (المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم)، وأنها أزلية، مع ما في هذه القاعدة من مخالفة لفظية عظيمة، وأيضًا تلك النظرية التي أسست أن الوجود كله عبارة عن فيض أزلي، وهي التي أدَّت بالنصارى أن يعتقدوا بربوبية المسيح وألوهيته، والقانون المسمى بـ(قانون الإيمان المسيحي) عند النصارى يقولون فيه: (نؤمن بربٍ واحدٍ يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر...).

فهذا الكفر أصله هو نظرية الفيض عند الفلاسفة اليونانيين التي أدَّت إلى فساد الديانة النصرانية وفساد العقيدة، رغم انتسابها إلى نبي من الأنبياء.

ومطالعة قانون الإيمان المسيحي -الذي هو إيمان بغير الله- تتضح فيه الألفاظ الفلسفية بعينها مثل كلمة (الجوهر)، وأصل نظرية الفيض. والأقانيم الثلاثة هي نظرية أفلاطون الفلسفية، ولا يشك مسلمٌ في أن هذا الاعتقاد الباطل لم يكن هو اعتقاد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا الحواريين، بل أول من أدخل تأليه المسيح في الديانة النصرانية هو بولس المسمى عندهم (بولس الرسول).

- وفِرَق الباطنية، والفلاسفة الملحدون القائلون بإثبات وجود دون وجود، هؤلاء كفار نوعًا وعينًا[1].

- ثم يلي هؤلاء في الانحراف والإلحاد في صفات الله عَزَّوَجَلَّ طائفة الحلولية والاتحادية، وهذه الفرق مثل الجهمية كلها من الفرق الخارجة من الملة؛ فالجهمية قالوا الله بلا اسم ولا صفة ويصرحون بنفي نصوص القرآن، فيقولون: لم يكلم الله موسى تكليمًا، ولم يتخذ الله إبراهيم خليلًا، وأما الحلولية فيقولون: إن الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سارٍ في كل وجود مثل: الملح في الماء، والسمن في اللبن، وهو الهواء الذي نتنفسه، وهذا كلام جهم

---

(١) ١- فرق الباطنية: كالإسماعيلية وغيرها منتشرة الوجود في الهند، وباكستان، وأفغانستان، واحتلَّ زعماء الطائفة مناصب سياسية، وشهرة دولية مع الثروة العظيمة التي حصدوها بسبب الزعامة، بل إن من تقاليد احتفالهم السنوي أن يوزن إمام الطائفة بالذهب والماس، ومن زعمائهم محمد شاه الملقب بـ(أغاخان الثالث) كان من أغنياء العالم وشغل منصب رئيس عصبة الأمم عام ١٩٣٧م، وكان متزوجًا من ملكة جمال فرنسا، ولما توفي دُفِنَ في ضريح له بأسوان ثم دُفِنت زوجته في هذا الضريح، وكان ولاؤه دائمًا للغرب والروس، ولهم وجود قوى وتدخل في أفغانستان.

٢-ومن طوائف الإسماعيلية: طائفة البهرة ووجودهم في الهند، وسلطانهم كل عام يزور القباب المشيدة على قبور أئمة آل البيت -كما يزعمون- وسلطانهم على درجة عالية من التوقير بمثابة رئيس وزراء عندهم.

٣-طائفة الدروز الغلاة: وهؤلاء أخبث الطوائف الموجودة، وتعاونهم مع اليهود واضح جدًّا، بل إن الجيش الإسرائيلي لا يسمح إلا لهذه الطائفة مع الطائفة العلوية من غير اليهود بنيل الترقيات والرتب العالية الإسرائيلية.

الأول، ويعتقدون حرفيًّا أن الله في كل مكان، ولازمها أن الله سبحانه يحل في الكلب والخنزير -تعالى الله علوًّا كبيرًا-.

- والاتحادية أسوأ منهم اعتقادًا؛ إذ إن الحلولية يعتقدون أن ذات الله تحل في ذوات المخلوقين، فأثبتوا لله ذاتًا وللمخلوق ذاتًا، ثم يقولون بالحلول، وأما الاتحادية فلا يثبتون لله عَزَّوَجَلَّ ذاتًا أصلًا، بل يعتقدون أنها ذات واحدة للخالق والمخلوق.

ومن شيوخ هذا المعتقد الباطل: ابن الفارض الملقب بـ(سلطان العاشقين) صاحب قصيدة التائية المسماة (نظم السلوك) التي صرَّح فيها بعقيدة وحدة الوجود صراحة، فيقول فيها:

لها صلاتي بالمقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صلت

كلانا مصل واحد ساجد إلى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة

وما كان لي صلى سوايَ ولم تكن ... صلاتي لغيري في أدا كُلِّ ركعةِ

فهذه القصيدة الطافحة بعقيدة وحدة الوجود، ويقول أيضًا:

وما عقد الزنار حكمًا سوى يدي ... وإن حل بالإقرار فهَيْ حلت

وإن خر للأحجار في البُد عاكف ... فلا وجه للإنكار بالعصبية

أي: إن سَجَدَ عابدُ الأوثانِ وعكف عليها فلا تُنْكِر عليه؛ لأنه ما عبد إلا الله في زعمه الباطل.

وكذلك محي الدين ابن عربي الملقب عند أرباب الصوفية بالقطب الأكبر والكبريت الأحمر، وسمَّى نفسه خاتم الأولياء، وهو القائل: إن الولي في برزخٍ دون الرسول وفويق النبي، صاحب كتاب «فصوص الحِكَم» و «الفتوحات المكية»، ومن أقواله:

لقد صار قلبي قابلًا كل صورة ... فمرعًى لغزلان ودير رهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن

أديــن بـديـن الحــب أنــى توجهت ركـائـبـه فـالحـب ديـني وإيمـانـي

ويقول ابن عربي في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ الآية [نوح:٢٥]، يقول مادحًا قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: خطيئاتهم خطَّت بهم إلى بحور العلم، وأدخلوا نارًا أحرقت كل من سوى الله من قلوبهم، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارًا، لأنهم صاروا بمعية الله!

ويقول في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ الآية [طه] يقول: ما الذي جعلك إذ رأيتهم تاهوا في حقيقة الله، أفلا تتبعني وتقر عبادة العجل مثلي، أفعصيت أمري إذ أنكرت عليهم!

ويقول عن كلام فرعون لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على لسانه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]: أن فرعون شاهد الحقيقة الكلية، وأنه كان صاحب الوقت.

- والطرق الصوفية، وأصحاب القباب والمشاهد يقيمون الموالد والاحتفالات ويُروَّج لها في العامة، وليست بعيدة عن الناس، لا سيما مع طباعة كتب ابن عربي والحلاج من جهات رسمية، وطرحها للناس نموذجًا لحرية الفكر، والتعايش، والعلاقة الروحية مع الله عَزَّوَجَلَّ.

- ويلي هؤلاء في الإلحاد في صفات الله عَزَّوَجَلَّ ومن أنواع التعطيل ما وقع فيه المعتزلة من إثبات ذات الله وأسمائه دون إثبات الصفات.

وجمهور أهل السنة يجعل المعتزلة من ضمن فرق الأمة، وبعض العلماء يخرجهم من الملة. لكن جمهور أهل السنة يجعلهم من الثنتين وسبعين فرقة، بعكس غلاة الجهمية، والحلولية والاتحادية القائلين بوحدة الوجود، وكذا ملاحدة الفلاسفة.

والمعتزلة أقل جرأة في مخالفة النصوص من هؤلاء الذين ذكرنا آنفًا من غلاة التعطيل، فإنهم لا يردونها مباشرة أو يكذبونها صراحة، لكن يحاولون تأويلها؛ فيثبتون الاسم دون الصفة، يقولون سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وقالوا بتعدد القدماء، أي زعموا أن إثبات الصفات يؤدي إلى تعدد الذوات في حق الله عَزَّوَجَلَّ وهذا من أبطل الباطل.

وهم القائلون بخلق القرآن، وقالوا كل صفات الله مخلوقة.

وكما ذكرنا فإن جماهير العلماء من أهل السنة يقولون: إن كلامهم كفرٌ بلا شك، لكن لا يَكْفُرون حتى تُقام عليهم الحجة.

- ويلي المعتزلة في الإلحاد والانحراف طائفة الأشاعرة، وهم ضمن فرق الثنتين وسبعين بلا نزاع يذكر، وبدعتهم أخف بكثير من الطوائف السابق ذكرها، وكما قدمنا قبل ذلك فهم يثبتون سبع صفات يسمونها ثبوتية، وسبع صفات يسمونها صفات المعاني، وخمس صفات سلبية، وواحدة وجودية. فهذه عشرون صفة يثبتونها، ثم يؤولون بقية الصفات، ولا شك أن إنكار الصفات وتأويلها بدعة وإن كانوا أقرب إلى الحق من الفرق المذكورة آنفًا.

❁ ❁ ❁

فصل: في إلحاد المشبهة

ومن أنواع الإلحاد: إلحاد المشبهة، وهؤلاء على النقيض من النفاة.

- واليهود والنصارى عقائدهم الكفرية قائمة عل تشبيه الله عَزَّوَجَلَّ بالمخلوقين فيشبهون الله عَزَّوَجَلَّ بالإنسان، وأنه تجري عليه صفات الإنسان. ومن يطالع الكتب المحرفة التي يصفونها بالمقدسة؛ يجد أنواعًا من الكفر، والجهل، ووصف الله عَزَّوَجَلَّ بأوصاف شنيعة.

- ففي (سفر التكوين) عندهم أن الله فرغ من الخلق في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، وكذا قولهم أن الله عَزَّوَجَلَّ ندم ندمًا شديدًا بعدما أغرق الأرض وبكى بكاءً شديدًا حتى رمدت عيناه، وعادته الملائكة، وأقسم ألا يفعل تلك الفعلة مرة أخرى -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا-.

وعندهم أن الله عَزَّوَجَلَّ نزل يمشي في الأرض، فأمسك به يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وصرع الرب -والعياذ بالله- وأمسك بحقوه ومنعه أن يصعدَ إلى السماء حتى أنعم عليه باسم إسرائيل (اصرع إيل) الذي يفسرونه زورًا وبهتانًا بالذي صرع الرب، وإنما معناها الحق أي: الذي صرع نفسه، وقهر نفسه لله عَزَّوَجَلَّ، أو قد يكون معناها (إسرائيل) بالألف؛ أي الذي يتقرب إلى الله ويسير إليه.

- وكذا النصارى الذين يشبهون الله عَزَّوَجَلَّ بخلقه، ويشبهون الخلق بالله، فيعتقدون أن الرب قد قُتِلَ، وصُلِبَ، وضربَهُ اليهودُ، وبصقوا على وجهه، ووضعوا الشوك على رأسه، فيقولون: الربُّ إلهُنا يسوع المسيح، ثم هم يعتقدون أنه قبل صلبه وقتله كان الرب -في زعمهم- فيه صفات البشر كلها، خاصة الأرثوذكس الذين يعتقدون أن الله هو المسيح بعينه بطبيعة واحدة، ومشيئة واحدة.

- وأمَّا فرق المشبهة التي تنتسب إلى الأمة فكان هذا موجودًا في بعض فرق الرافضة الأُول، أمثال هشام بن الحكم الرافضي؛ لكن تلك الفرق تقريبًا انقرضت إلا قليلًا من الرافضة يقولون: استوى كاستوائنا، ويسمع كسمعنا، ويبصر كبصرنا.

- ومن أرباب التشبيه المنحرفين: من يعتقدون في الأولياء أن لهم صفات الله عَزَّوَجَلَّ فيعتقدون أنهم يسمعون على البعد، أو يبصرونهم على البعد، أو بعد موتهم.

وعامة البدع والمنكرات عند أتباع الطرق المنحرفة منشؤها من هذه الاعتقادات الفاسدة.

- وما الكلمات التي تتناقل على ألسنة الأتباع مثل كلمة: (مدد يا فلان)، أو (نظرة يا سيدي فلان) إلا نتاج هذا الاعتقاد الكفري، ومن ذلك قول الخميني الهالك في كتابه «الحكومة الإسلامية»: «إن للإمام (يعني من الأئمة الاثني عشر) مقامًا محمودًا، ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون، وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب، ولا نبي مرسل» اهـ.

- وقد يقع ذلك من أصحاب الغلو الشديد في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدافع مدحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما وقع في بعض القصائد من نسبة صفات الله عَزَّوَجَلَّ إلى شخصه الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

كقول صاحب البردة:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

ولا شك أن هذا غلوٌّ شديدٌ؛ فإن وجود الدنيا والآخرة لا يكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ، وعلم اللوح والقلم ليس لأحد إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

- وكذلك من أنواع الإلحاد في صفات الله عَزَّوَجَلَّ، التفسير الرمزي أو الباطن لها الذي ابتدعته الباطنية، ومعلومٌ مدى الانحراف والضلال الموجود في هذا المنهج الباطني، وتابعهم الروافض وغلاة المتصوفة على ذلك.



ولا يكيفون، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**ولا يكيفون**] ذكرنا قبل ذلك أن هناك فرقًا بين إثبات وجود كيفية لصفات الله، وبين اعتقاد معرفة تلك الكيفية، والمنفي عند أهل السنة هو اعتقاد معرفة كيفية صفات الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وليس نفي وجود الكيفية، لأن نفي وجود كيفية بالكلية يعني نفي الصفة نفسها وهذا منهج المبتدعة.

والأمر مطابق تمامًا للاعتقاد في ذات الله عَزَّوَجَلَّ، فإننا نثبت لله عَزَّوَجَلَّ الذات لكن لا ندري كيفية ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كذلك نثبت الصفات التي أثبتها لنفسه سبحانه، ولا ندري كيفيتها، بل ندرك معانيها وما نستطيع فهمه من تلك المعاني اللائقة بجلال الله وعظمته.

وخلاصة ما تقدَّم أن السلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يؤمنون بكل ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه، وبكل ما أخبر به عنه رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إيمانًا سالمًا من التحريف، والتعطيل، ومن التكييف والتمثيل، ويجلعون الكلام في ذات الباري وصفاته بابًا واحدًا، كما قال شيخ الإسلام وهو يقرر هذه القاعدة وما نُقل عن أهل العلم في بيان هذه القاعدة: (أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، يحتذى فيه حذوه ويتبع فيه مثاله) اهـ[١].

- وكما أن الكلام عى إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف، فكذلك الكلام على الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف.

- وكذلك القاعدة الثانية: (أن الكلام على بعض الصفات كالكلام على البعض الآخر)[٢]، فكما أن إثبات بعض الصفات لا يقتضي التشبيه ولا التمثيل، فكذلك إثبات

---

(١) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٢/ ٥٧٥).

(٢) «التدمرية» (ص٣١)، ومجموع الفتاوى (٥/ ٢١٢) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

البعض الآخر لا يقتضي التشبيه، ولا التمثيل، وهاتان القاعدتان للرد على جميع أهل البدع المنتسبين إلى الإسلام، المقرين بوجود الله تعالى.

- وعند التفصيل: فالمعتزلة الذين أثبتوا الذات، وأثبتوا الأسماء لكن نفوا الصفات لله عَزَّوَجَلَّ بدعوى: أن إثبات الصفات يقتضي التشبيه والتمثيل، والله عَزَّوَجَلَّ منزَّهٌ عند ذلك فإنهم محجوجون بإثباتهم لذات الله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وإثبات الذوات للمخلوقين، ومجرد الاشتراك في لفظ (ذات) يقتضي المشابهة والمماثلة، وعلى ذلك فنقول: إذًا فأثبتوا لله عَزَّوَجَلَّ صفة السمع لا كسمع البشر، وصفة البصر ليس كبصر البشر، وصفة العلم ليس كعلم البشر.

- وفي القاعدة الثانية الرد على الأشاعرة الذين يثبتون بعض الصفات دون البعض الآخر فهم محجوجون بإثباتهم لبعض الصفات دون تشبيهها بصفات البشر، بل يقولون: نثبتها على ما يليق بجلال الله عَزَّوَجَلَّ، فنقول: لماذا لا تثبتون أن لله عَزَّوَجَلَّ يدين، وأنه يجيء للفصل بين العباد يوم القيامة، وأنه -سبحانه- استوى على العرش، وأنه -سبحانه- ينزل إلى سماء الدنيا إذا بقي ثلث الليل الآخر، وكذا سائر صفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى الثابتة في الكتاب والسنة على ما يليق بجلال الله عَزَّوَجَلَّ وعظمته، لا فرق بين بعض الصفات وبين البعض الآخر.

كما كان أهل العلم من السلف يقولون عن آيات الصفات: (أَمِرُّوها كما جاءتْ) بلا تعرض لها بتحريف، أو تأويل باطل. قال الإمام أحمد: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لا يُتجاوز القرآن والحديث»[١].

والمعنى: أي ما دام المعنى المتبادر بمجرد قراءتها مفهوم لكل عاقل فلا يتكلف تفسير له يفضي إلى تحريفها أو تأويلها، وعليه يُحمل قول من قال من السلف: (لا كيف

(١) نقلًا عن «الفتوى الحموية» (ص٦١)، و«مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

ولا معنى) أي: وبغير اعتقاد كيفية معينة، فلا يُخاض في معاني الصفات لوضوحها لكل عاقل من غير تكلف، مع عدم منافاة ذلك للتفسير الحق لنصوص الصفات إذا احتاجت لبيان، كتفسير السلف مثلًا لاسم الله (الصمد) بأنه يُصمد إليه في الحوائج، وأنه الذي لا جوف له، والذي لا يأكل ولا يشرب، والذي هو الباقي بعد خلقه، والذي لم يلد ولم يولد، والذي كمل في سؤدده.

وكقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا**﴾ [النساء:٨٥] أي شهيدًا رقيبًا. وإنما النهي عن التفسير المنحرف، والتأويل الباطل.

قال نعيم بن حماد شيخ البخاري: «من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهًا»[1].

❁ ❁ ❁

(١) أورده الذهبي في «مختصر العلو» (ص١٨٤)، واللالكائي في «أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٠٦)، وصحَّحَه الألباني في «مختصر العلو».

لأنه سبحانه: لا سمي له، ولا كفء له، ولا ندَّ له.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفء له، ولا ندَّ له**] قال الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه سبحانه: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾ الآية [الشورى:١١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا**﴾ الآية [مريم:٦٥]، والسميُّ: هو النظير، يُقال هذا سميُّ فلان يعني نظيره الذي يُسمى باسمه، والمقصود في الآية إنكار السمي له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

– وحتى لو اشتركت الأسماء فإن المعهود في الذهن من مسميات تلك الأسماء مختلف، والأدلة تدل على ذلك. كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا**﴾ [الإنسان:٢] فمعلوم أن السمع، والبصر في حق الله لا يشبه ما للمخلوقين، ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ...﴾ الآية [المنافقون:٨] فلا وجه للمقارنة؛ فمعنى العزة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والقهر والغلبة ونفوذ أمره عَزَّوَجَلَّ، ليس أبدًا كالعزة لعباده المؤمنين.

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ الآية [التوبة:١٢٨]، وقول الله عَزَّوَجَلَّ عن ابنة الرجل الصالح: ﴿**يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ**﴾ الآية [القصص:٢٦]. فكما ذكرنا من قبل أن هذا تواطؤ في المعنى، مع أن كلا الاسمين يختلف في حقيقته[١].

– وأصل اعتقاد أهل السنة والجماعة في صفات الله عَزَّوَجَلَّ مبني على إثبات مفصَّل، ونفي مجمل، بمعنى: أن الصفات تذكر تفصيلًا واحدةً واحدةً، وأمَّا النفي فالنص يَنْفِي إجمالًا، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ** ...﴾ [الشورى:١١] فلا يُقال ليس كذا

---

(١) ولا حرج أن يسمى البشر باسم عزيز، أو كريم، أو رؤوف، وأن المعنى بلا شك مختلف في حق الله عَزَّوَجَلَّ، وهو سبحانه لا نظير له ولا كفو له.

وليس كذا تفصيلًا، وإنما كما في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص] فهذا نفي مطلق بدون تفصيل، ولا ضرب أمثلة للمنفي.

ويستثنى من هذه القاعدة (النفي المجمل) إذا وُصف سبحانه بوصف فيه نقص فإنه يُنفى عنه تفصيلًا وتحديدًا، مثل نسبة النصارى لله عَزَّوَجَلَّ الصاحبة والولد، فنفى عن نفسه سبحانه الصاحبة والولد، كذلك اليهود عندما نسبوا لله عَزَّوَجَلَّ الفقر وغل اليدين -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا- نفى الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه ذلك تفصيلًا، ولعنهم بسبب ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ...﴾ الآية [المائدة:٦٤].



ولا يُقاس بخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**ولا يُقاس بخلقه**] لأن العقول لا تستطيع إدراك كنه ذات الرب وحقيقته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فبالتالي كيف تقيس ذات الرب، أو صفاته سبحانه على صفات خلقه؟

ولا يستعمل شيء من الأقيسة التي تقتضي المماثلة، والمساواة بين المَقيس والمقيس عليه في شأن ما يتعلق بأسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، فلا يستعمل باصطلاح علماء الأصول ما يسمونه بقياس التمثيل، أو قياس الشَّبه، وكذا قياس الشمول، لكن النوع الوحيد من أنواع القياس الذي يمكن استعماله في هذا الموطن هو قياس الأولى؛ فهو عَزَّوَجَلَّ أولى بكل كمال، وأولى بالتنزيه عن كل نقص.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ**﴾ الآية [النحل:٦٠]. فكلُّ كمالٍ ثبت للمخلوق فالخالق عَزَّوَجَلَّ أولى به، وكل نقصٍ تنزه عنه المخلوق، فالله عَزَّوَجَلَّ أولى أن يُنزه عنه، كما ضرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك أمثالًا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ...**﴾ الآية [النحل:٧٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [النحل:٧٦]. فبيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الناس ينزهون أنفسهم عن صفات النقص: ﴿**أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ**﴾، فمن يتكلم أكمل من الأبكم بلا شك، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أولى بكلِّ كمالٍ، وأولى بالتنزيه عن البَكَم.

وهو أولى سبحانه أن يتصف بصفة الكلام، وبصفة السمع، والبصر؛ لأن عدم هذه الصفات نقصٌ في المخلوقين بالنسبة إلى بعضهم البعض، فكيف بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ! وكما ذكر جماهير المفسرين أن الآية فيها مثل ضربه الله عَزَّوَجَلَّ لنفسه في مقابل الأوثان.

ولذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يردُّ على الذين يقولون: إن العقل يثبت بعض الصفات دون البعض الآخر، وهذه دعوى مردودة؛ بل العقل السليم يؤكد أن ما ورد في الكتاب والسنة هو الحق، وليس فيه أي معنى من معاني النقص.



فإنه تعالى أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا من خلقه.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **[فإنه تعالى أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه]**. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا**﴾ الآية [النساء:٨٧]. الحديث هو الكلام وتسميته حديثًا لا ينافي صفة الكلام عن الله عَزَّوَجَلَّ الموصوف بها أزلًا، فإنه حديث بمعنى حادث، يعني: جديد بالنسبة للمخلوقين، أي: مرتبط بزمن معين، قال تعالى: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنبياء:٢].

وصفات الأفعال تقع في وقت معين، وهي أزلية النوع حادثة الأعيان، فهو عَزَّوَجَلَّ له صفة الكلام -الموصوف بها أزلًا- وليس أن كلامه مخلوق. وأما آحاد الكلام فيقع في وقت معين يوحيه الله عَزَّوَجَلَّ إلى جبريل، ثم يوجهه جبريل إلى الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا معنى أنه حديث.



ثم رسله صادقون مُصَدَّقُون.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**ثم رسله صادقون مُصَدَّقُون**] كل هذا يذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ للدلالة، والتعليل على صحة فهم السلف من أن الرجوع إلى مصدر التلقي -وهو الكتاب والسنة؛ فلا يمكن أن تكون العقول هي مصدر المعرفة والعلم بالله.

۞ وقوله: [**صادقون**] وبذلك يكون المصدر الثاني للتلقي هو ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكل الرسل صادقون بالإجماع، ومعصومون مِن الكذب، ومِن كَتْم الرسالة، أو الإخبار عن الله عَزَّ وَجَلَّ بالجهل وعدم العلم.

ومَن نَسَبَ إلى رسول الله الكذب على الله، أو الافتراء عليه سبحانه، أو كَتْم شيء من الرسالة فقد كفر بالله عَزَّ وَجَلَّ.

۞ وقوله: [**مُصدَّقون**] صَدَّقَهم الله عَزَّ وَجَلَّ، وصَدَّقَهم الملائكة، وصَدَّقَهم المؤمنون، وإن كذَّبهم مَن كذَّبهم، وذكر ذلك في هذا المقام، لأن الكلام الذي يقوله الرسل له القبول في الخلق، بخلاف علم الكلام والفلسفة؛ فإن علم الكلام والفلسفة مع كونه في نفسه فيه الكذب، فإنه ليس له القبول في الخلق، بل الناس لا يفهمون كلامهم أصلًا، ومَن يفهمه هم قلة من آحاد الناس من الفلاسفة والمتكلمين، ومَن فهمه من الناس أدرك وعرف بطلانه بلا شك.

والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم الرسل قدرًا، وأعلاهم قبولًا في الخلق، وأكثرهم تابعًا يوم القيامة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والرسل جميعًا مُصَدَّقون من الله عَزَّ وَجَلَّ، وأعظمهم نبيُّنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ الآية [الفتح:٢٩]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣] فشهد سبحانه لرسله

بالصدق، وجعل لهم القبول في الناس، ثم هم مُصَدَّقون من خيرة البشر، وأفضل الناس عقولًا بعد الرسل، وهم أصحاب النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.



بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ولهذا قال ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات].

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون**] كالفلاسفة، والمتكلمين، وغيرهم، ممن لا يعلمون ما يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وما لا يليق به، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم بنفسه، وبغيره، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا؛ فلا بد من قبول كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

والكلام قد يدخل فيه الباطل والنقص من عدة جهات:

أولًا: من جهة القائل وعدم علمه، فيتكلم بما لا يعلم.

ثانيًا: قد يدخل الباطل من جهة كون المتكلم كاذبًا، فهناك من الناس من يكذبون في حديثهم، وينمقون ذلك الحديث ويزينونه حتى يُظنَّ الباطلُ حقًّا، وما ذلك إلا الكذب، وهذا من أعظم ما أفسد على الناس دين الأنبياء، وما وصل الشيطان وما استطاع أن يحرف الناس ويبعدهم عمَّا جاء به أنبياء الله -صلوات الله وسلامه عليهم- إلَّا من خلال الكذب عليهم، ووصل بهم أن يعتقدوا خلاف ما جاء به الرسل، ويشركوا بالله، وهم يظنون أنهم متبعون الرسل؛ كما يفعل اليهود والنصارى فيزعمون أنهم أتباع موسى، وعيسى -عليهما الصلاة والسلام- وهم يهدمون ما جاءوا به، ويحرفونه، ويخالفونه أشدَّ المخالفة.

وكذلك أهل البدع؛ فإن الكذب شعار لهم، ومن أعظم أسباب انتشار بدعهم وضلالاتهم. كما عند الشيعة الضلال، كل بدعهم وخرافاتهم مبنية على خزعبلات الروايات والأحاديث المكذوبة الموضوعة في الغلوِّ في أهل البيت، وكذا فرق الصوفية

المنحرفة الغالية في الأولياء والصالحين، هؤلاء جميعًا عمدة كلامهم الكذب على الله، وعلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى عباده الصالحين.

وثالثًا: قد يدخل الباطل في الكلام من جهة عدم حسن الحديث، فقد يكون المتكلم صادقًا على علم، لكن ليس عنده فصاحة، ولا قدرة على البيان، أو يستعمل ألفاظًا لا تؤدي المعنى المطلوب، ولا تؤدي إلى إفهام الناس ما يحتاجونه، بل قد يستعمل كلامًا يريد به شيئًا، فيفهم الناس شيئًا آخرَ بسبب عدم الفصاحة.

ومن هنا كان قصور الكلام في الدلالة على المعاني؛ إذا اجتمعت فيه هذه الثلاثة وكان أبعد شيء عن الحق.

- لكن الله عَزَّوَجَلَّ كلامه منزه عن ذلك كله، وهو عَزَّوَجَلَّ كان ولم يزل بكل شيء عليمًا، وقد أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، وهو علَّام الغيوب سبحانه، وهو سبحانه يعلم السر وأخفى، وهو سبحانه أصدق القائلين، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا**﴾ الآية [النساء:١٢٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ**﴾ [ص:٨٤]، وقوله الحق كما أخبر عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنت الحق ووعدك حق وقولك الحق...**»[1] الحديث، وكلامه عَزَّوَجَلَّ أفصح الكلام، وشهد بفصاحته كل الخلق، وكل من له أدنى علم بلسان العرب أو بغيره.

والفصاحة ليست في الألفاظ فقط؛ بل في جمع المعاني، وبيان الحقائق التي لا يمكن أن تُبيَّن بأكمل من هذا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ...**﴾ الآية [الرعد:٣١]، والمعنى أي: لكان هذا القرآن العظيم؛ لأنه المعجز، ولأنه اجتمع فيه كل الخير والعلم التام، وأن قائله هو العليم الحكيم، فكلامه أفصح الكلام وأبين الكلام، وهو سبحانه أصدق القائلين.

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (٦٣١٧)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فكيف إذن يُعدَل عنه إلى غيره؟! بل محال أن يكون هناك مؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ وبكتابه ثم يقول: إن القرآن لا يصلح كمصدر لأخذ العقيدة منه، ويقول: إنه ظني الدلالة ثم يُسمي علوم الكلام والفلسفة قطعيات، بل هي في الحقيقة ظنون كاذبة شأنها شأن كل المناهج الأرضية يجتمع فيها العيوب الثلاثة في الدلالة، فإن قائليها جاهلون، وكثيرٌ منهم كاذبون، ولا يُحسنون الحديث والفصاحة.

ويظهر لمن يتأمل في كلام هؤلاء الفلاسفة والمتكلمين أنهم يقعون في المتناقضات حتى في القضية الواحدة، فترى أحدهم يزعم أن الحق في مسألة ما كذا وكذا جازمًا به، ثم في موضوع آخر يجعل الحق مخالفًا لما جزم به قبل ذلك بالكلية، ويزعم ثانيًا أن هذا هو الحق جازمًا بذلك على عكس ما قال أولًا.

بل أحيانًا تصيب أحدهم الحيرة، ولا يستطيع الجزم بأمر من الأمور، وإذا كان ذلك لمن يفهم كلامهم ويستطيع التفكير فيه -وهم قلة من البشر- فكيف بعامة البشر وكافتهم الذين لا يفهمون هذا الكلام ولا يدركون منه شيئًا؟!

- بل حتى من يعتقد تلك الأباطيل على أنها هي الاعتقاد الصحيح بسبب تعظيم أسلافه وكبرائه، لو سُئِل ما هو هذا الاعتقاد لَمَا استطاع أن يبيِّنَه، وربما تكلم بكلامٍ أقرب إلى التخريف.

ومن نعمة الله عَزَّوَجَلَّ أن هذه البدع لا تجد قبولًا في قلوب الخلق، وبالتالي تموت تلك البدع.

- ولعل أبرز مثال يدل على بطلان كلام الفلاسفة وإفساده للعقيدة ما هو موجودٌ عند النصارى من الفلسفة، فالقاعدة الهامة عند النصارى التي قام عليها الاعتقاد الباطل في تأليه المسيح، واعتقاد التثليث المسمى بـ(قانون الإيمان) عندهم؛ نجد فيها أثر الفلسفة

واضحًا جليًّا في استخدام ألفاظ لم تكن موجودة لا في التوراة، ولا في الإنجيل، مثل: كلمة «الأقنوم» وهي مأخوذة أصلًا من كلام الفلاسفة، وكذا ألفاظ مثل: (الجوهر)، و(الانبثاق) وغيرها، بل قيام الفكرة والتصور أصلًا متناقض، إذ كيف يقولون: إن «الابن انبثق من الآب قبل كل الدهور» وهذا كلامٌ متناقضٌ بلا أدنى شكٍّ؛ إذ إن الانبثاق والولادة كلاهما يدل على أن هناك أصلًا خرج منه فرع، ولابد من فعل معين، والفعل مرتبط في فطرة الإنسان بالزمن، فكيف بعد ذلك يُقال: «قبل كل الدهور» أي قبل أي زمن.

فهذا مثال على التناقض، ولذا احتاروا في تفسير عقيدتهم، واختلفوا إلى مذاهبهم المعروفة، وكلهم يقرُّ في نفسه بالعجز عن الفهم.

- ومن ذلك تلك العقائد المنحرفة المنتسب أهلها إلى الإسلام، مثل عقائد المعتزلة، فعند مطالعتها تجد التناقضات، والخزعبلات التي لا حصر. وقد اندثرت -بحمد الله- وإن كان هناك من يريد إحياءها من أهل الباطل، لكنهم لا يستطيعون إلا نشر بعض الأفكار النهائية التي تصادم نصوص الكتاب والسنة مباشرة، مثل من كان يتكلم أحيانًا في إنكار الشفاعة، وإنكار خروج عصاة الموحدين من النار، وأن أهل الكبائر مخلدون في النار، أو أن الله لا يُرى في الآخرة.

- ومثل ذلك أيضًا من يريدون إعادة بعث مناهج الصوفية المبتدعة، وتقديمها للناس أنها تمثل سماحة الإسلام، وروحه، وحقيقته في مواجهة التيارات المتطرفة أو اتجاهات الغلو. لكن ما يطرحونه هو أفكار باطلة بلا أصول في الاستدلال؛ لأن أدلتهم لا يفهمها أحد، ويجدها الناس مصادمة لنصوص الكتاب والسنة، وينفر الناس منها، وبمجرد أن نطلقَ على هذه العقائد سهام النصوص فإنها تصرعها؛ وذلك كله بعكس الأدلة الشرعية التي يكون لها أعظم القبول في القلوب، وتفهمها العقول.

- ويكفي في إعجاز القرآن أن الأمة تحفظه حرفًا حرفًا، وأيضًا يحفظون ما يحتاجون للاستدلال به من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أوتي جوامع الكلم، وكلامه مبسوط في كتب الحديث عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

بل إن أمة الإسلام، وعلى رأسهم أهل السنة منفردون بذلك عن جميع الأمم، وإننا نجد كبار الأحبار، والرهبان في الملل الأخرى إذا أرادوا أن يقرأوا شيئًا من كتبهم، لابد أن يخرجوا النص مقروءًا أمامهم، وأكبر القساوسة والأحبار لا يستطيع أحدهم حفظ الإنجيل والتوراة عن ظهر قلب؛ بل يحفظون فقط أجزاء ومقاطع.

في حين أننا نجد من أصغر أبناء المسلمين من يحفظ القرآن من أوله إلى آخره، بل هناك من يحفظ متون كتب السنة وربما الأسانيد، وذلك كله من تيسير الله عَزَّ وَجَلَّ للذكر وهو القرآن وما يبينه من سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- ثم احتجَّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بآية شملت ما أراد أن يبيِّنَه من أفضلية الكتاب والسنة على غيرهما، في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الآية [الصافات]، فسبَّح نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمَّا يصفه به المخالفون وعمَّا يقول المشركون، ونزَّه نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن ذلك لثبوت الكمال له عَزَّ وَجَلَّ، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب، وهذا الذي يرجح منهج السلف على غيره من المذاهب، بل كل المذاهب غير مذهب السلف في غاية البطلان، وفي ترهات الظلام التي لا يمكن أن يقبلها عاقل.

ومعنى ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ هو اسم مصدر من التسبيح، ومعناها: التنزيه.

﴿ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ الآية، إضافة الموصوف إلى الصفة؛ فهو عَزَّ وَجَلَّ الموصوف بالعزة، وهو عَزَّ وَجَلَّ العزيز الذي لا مثل له، والعزيز أي: الذي لا يُغالب ولا يُمانع، ولا مُغالِب لجلاله عَزَّ وَجَلَّ، وما يريده نافذٌ، وهو عَزَّ وَجَلَّ القاهر فوق عباده، وهو عَزَّ وَجَلَّ العزيز في انتقامه

من أعدائه، فهو رب العزة بمعنى الرب العزيز، ثم حمد نفسه عَزَّوَجَلَّ، وأثنى على نفسه سبحانه لما له من نعوت الجلال، وصفات الكمال، وحميد الفعال، سبحانه وبحمده.



قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات».**

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات**] أي: نَفْي صفة النقص، وإثبات صفة الكمال، والنفي في الأغلب نفي مجمل، بمعنى: نفي النقص إجمالًا كما قدَّمنا قبل ذلك، وكما قال تعالى: ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ** ﴾ [الإخلاص:٤] أي: لا سَمِيَّ له ولا ندَّ له.

وقد يأتي التفصيل في النفي إذا كان هناك قائل بالباطل، فإذا وُجِدَ من ينسب إلى الله عَزَّوَجَلَّ الولد نفى الله عن نفسه الولد، وإذا وُجِدَ من ينسب إلى الله عَزَّوَجَلَّ الوالد فينفي سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عن نفسه الوالد، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ** ﴾ [الإخلاص].

وإذا وُجِدَ من ينسب إلى الله عَزَّوَجَلَّ صفة النقص: كالتعب، والإعياء، نفى الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه ذلك نصًّا، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ** ﴾ [ق:٣٨].

وإذا وُجِدَ من يجعل مع الله عَزَّوَجَلَّ أندادًا يسميها آلهة مثله نفى الله عَزَّوَجَلَّ ذلك، فقال: ﴿ **مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ...** ﴾ [المؤمنون:٩١].

وهكذا إذا وُجِدَ من ينسب إلى الله عَزَّوَجَلَّ العبث، أو اللعب نزَّه الله عَزَّوَجَلَّ نفسه عن ذلك نصًّا، فقال: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقال: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ** ﴾ الآية [الأنبياء:١٦].

وأمَّا الأصل في النفي فهو الإجمال، إنما التفصيل يكون في الإثبات، وهذا بخلاف طريقة أهل البدع؛ فإنهم ينفون تفصيلًا ويثبتون إجمالًا، فيقولون: إن الله عَزَّوَجَلَّ موصوف بصفات الكمال، ثم لا يثبتون السمع والبصر، أو يثبتون السمع، والبصر، والقدرة،

والحياة وينفون غيرها، وأما أهل السنة فيثبتون الصفات تفصيلًا؛ لأن صفات الكمال بها يُعرف الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والنفي المجرد عن الإثبات لا يكون كمالًا، بل يكون النفي كمالًا إذا تضمن إثباتًا، ولذا نجد كل المواطن التي فيها نفي صفات النقص عن الله عَزَّوَجَلَّ تضمنت إثبات الكمال، كما ذكر سبحانه في سورة «الإخلاص»؛ فأثبت أولًا الوحدانية، والصمدية ثم نفى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الوالد، والولد، والكفو. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص].

ولم يقل عَزَّوَجَلَّ فقط: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾؛ فإن إثبات عدم الولادة فقط لم يتضمن الكمال المجرد، وليس مدحًا مطلقًا، لكن حين تُثْبت صفة الكمال متضمنة لنفي النقص، فهذا يكون الكمال لله عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك في آية الكرسي نفى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن نفسه صفات النقص، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ... ﴾ الآية [البقرة:٢٥٥]، فأثبت كمال الحياة التي تنافي الموت، والتي تنافي أخاه وهو النوم. فلو قلنا: الجماد لا ينام لَما كان هذا دلالة على المدح، ولكن لو أُثبِتَ كمال الحياة، ثم بعد ذلك أُثبِتَ أنه لا ينام، فهنا يكون النفي كمالًا، أما النفي فقط المجرد عن الإثبات فإنه لا يُثْبِت المدح ولا الكمال.

من هنا كانت طريقة أهل العلم من أهل السنة والجماعة -كما استنبطوها من الكتاب والسنة- التفصيل في الإثبات، والإجمال في النفي، إلَّا عند الحاجة -كما قدمنا-؛ لأن الإثبات هو تعريف الناس بربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

- وهناك بعض الأسماء تتضمن إثبات الكمال المطلق كاسم الله عَزَّوَجَلَّ (الصمد) ومعناه الذي كمل في كل أنواع السؤدد والعظمة، وكذا اسم (القدوس) و(السلام) فهذه مما يثبت به أنواع الكمال المطلق، وكذا مثل اسمه عَزَّوَجَلَّ (العلي) أي تعالى عن كل النقائص،

والأشباه، والأمثال، وكذا اسم (ذو الجلال)؛ لأن الجلال هو معاني الكمال المطلق؛ كمال العلم، وكمال الحياة، وكمال القدرة، وغيرها من أنواع الكمال.

- والخلاصة في ذلك أن الأصل هو الإثبات المفصل، ويمكن أن يوجد إثبات مجمل، وكذلك الأصل هو النفي المجمل وقد يوجد نفي مفصل؛ والأغلب في الكتاب والسنة الإثبات المفصل والنفي المجمل، إلَّا عند الحاجة لوجود شبهة أو باطل يُنفى عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



لا عدول لأهل السنة والجماعة عمَّا جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**لا عدول لأهل السنة والجماعة عمَّا جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**] أي أن طريقة أهل السنة لزوم ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسائر الرسل؛ لأنه صراط الذين أنعم الله عليهم، والذي يسألونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إياه في الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ... ﴾ الآيات [الفاتحة].

والذين أنعم الله عليهم بنصِّ الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ الآية [النساء:٦٩].

❖❖❖

القسم الأول

الاستدلال على إثبات أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته من القرآن الكريم

١ - الجمع بين النفي والإثبات في وصفه تعالى

وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن حيث يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص].

شرع شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكر مقدمته الرائعة المجملة، في بيان التفصيل بذكر الآيات ثم الأحاديث، حتى يعرف قارئ هذه العقيدة صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بدليلها من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ومن سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا هو طريق الاعتقاد الصحيح، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل كتابه على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتحصيل أعظم واجب، وهو معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، وعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له، وهذا لا يحدث إلا بمعرفة آيات كتابه وأحاديث رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفهم معانيها، ثم التعبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمقتضى ذلك.

- **والقرآن يتضمن ثلاثة أصول:** معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده، ويتضمن الأوامر والنواهي، ويتضمن الأخبار وما سيأتي من أمور الغيب في الآخرة، أو مما يقع من أشراط الساعة، أو غير ذلك، ومنها ما مضى من أخبار الرسل وعاقبة من كذَّبهم.

والأصل الأول -وهو معرفة الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده- هو أعظم هذه الأمور، بل هو المقصود من النوعين الآخرين؛ فإن ذكر الرسل وما كان من دعوتهم إلى التوحيد وما كان من عاقبتهم، وهي عاقبة أهل الإيمان والتوحيد، وعاقبة من كذَّبهم وهي عاقبة من ترك

التوحيد، وكذلك أمور الوعد والوعيد وهو جزاء من وحد الله عَزَّوَجَلَّ وآمن به وهو الجنة، وكذا جزاء من أشرك به عَزَّوَجَلَّ، وكفر به وبرسله وهو النار، وكذلك الأوامر والنواهي -هي تفصيلُ حقيقة التوحيد، ومعرفة الله عَزَّوَجَلَّ وكيفية عبادته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

۞ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن حيث يقول:** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص]]. ولذا دار الأمر على هذه الأصول، وكانت السورة التي تضمنت أعظم المقاصد وهو أمر التوحيد، وهي (سورة الإخلاص) تعدل في ثواب قراءتها ثواب قراءة ثلث القرآن تفضلًا من الله عَزَّوَجَلَّ على عباده.

وكذا ورد ذكر الثواب العظيم في تكرار قراءتها، كما في حديث معاذ بن أنس الجهني قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من قرأ** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ **عشر مرات بنى الله له قصرًا في الجنة**»[1].

وورد في فضلها أيضًا أنَّ حبَّها سببٌ لحبِّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لمن أحبَّها، كما في حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعث رجلًا في سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ«قل هو الله أحد» فلمَّا رجعوا ذكروا ذلك للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «**سلوه لأيِّ شيءٍ يصنع ذلك**» فسألوه، فقال: «لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها» فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أخبروه أن الله يحبه**»[2].

---

(١) **حسن**: رواه أحمد (٣/ ٤٣٧)، ورواه الدارمي مرسلًا عن سعيدِ بن المسيب (٢/ ٤٥٩)، وحسَّنه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٥٨٩)، وفي صحيح الجامع (٦٤٧٢).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

وكذا حُبُّ هذه السورة سببٌ لدخول الجنة كما في حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء وكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ(قل هو الله أحد) حتى يفرغ منها، ثم يقرأ بسورة آخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلَّمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بأخرى، فإمَّا أن تقرأ بها، وإمَّا أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أن بتاركها، إن أحببتم أن أؤمَّكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمَّهم غيرُه، فلمَّا أتاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبروه الخبر، فقال: **«يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟»**، فقال: إني أحبها، فقال: «**حُبُّك إيَّاها أدخلك الجنة**») الحديث[1].

- وثبت قراءة «قل هو الله أحد» مع المعوذتين صباحًا ومساءً في أذكار الصباح والمساء[2]، وثبت قراءة «قل هو الله أحد» والمعوذتين مع أذكار النوم[3]، وثبت قراءة «قل هو الله أحد» مع «قل يا أيها الكافرون» في ركعتي سنة الصبح، وركعتي سنة المغرب[4]، وبذلك تُقرأ في أول النهار وآخر النهار، وكذا قراءتها في ركعتي الطواف[5]، وثبت أيضًا قراءة «قل هو الله أحد» في ركعة الوتر كل ليلة[6]، وثبت أن الصحابة قرأوها في ركعة واحدة واجتزأوا بذلك.

---

(١) رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم (٧٧٤)، وأخرجه الترمذي موصولًا (٢٩٠١).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٧٥)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» من حديث عبد الله بن خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري (٥٠١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) رواه النسائي (٩٩٢)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٢٨) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) كما في حديث جابر رواه مسلم (٢١٣٧).

(٦) رواه أحمد (٢٧١٥)، والترمذي (٤٦٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولا شك أن الإنسان إذا قرأها بإخلاص، واستحضر معانيها، وتدبر ما فيها فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجعل في قلبه من الإيمان ومن معرفته ومحبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يقتضي هذا الثواب العظيم، وليس فقط مجرد تحريك اللسان بحروفها.

- وورد في سبب نزولها حديث أورده بعض أصحاب السنن عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أن المشركين قالوا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص])[1]. وهذا من كفرهم واستهزائهم، وهم يعلمون أن الله عَزَّ وَجَلَّ خالق السماوات والأرض.

فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: قل لهم وهو أَمْر للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول لهم ذلك، وأَمْر لنا أن نعتقد؛ لأنه إذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلابد أن نصدق، وأن نؤمن بما قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبلغًا عن الله عَزَّ وَجَلَّ.

- والسورة اشتملت على أنواع التوحيد كلها، وتضمنت أصول التوحيد العملي والاعتقادي.

وكلمة ﴿أَحَدٌ﴾ تدل على وحدانية الله، ونفي الشريك عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وحقوقه، وما يجب له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي وحدها دليل على كل أنواع التوحيد.

وهذه الوحدانية لله عَزَّ وَجَلَّ في ذاته بمعنى: أنه لا ينقسم ولا يتبعض، وواحد في أسمائه وصفاته؛ فما يستحقه عَزَّ وَجَلَّ من كمال الصفات، وكمال الأسماء لا يشبهه فيها ولا يماثله فيها أحدٌ من خلقه على الإطلاق، وهو عَزَّ وَجَلَّ واحدٌ في أفعاله، أي: متفردٌ بها. وهذا هو توحيد الربوبية، فهو عَزَّ وَجَلَّ وحده الذي خلق، ورزق، وهو وحده الذي يضر وينفع، وهو وحده

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٦٤)، وأحمد (٢١٢١٩)، وحسَّنه السيوطي في «الدر المنثور» (٨/ ٦٦٩)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي».

الذي يملك الملك، والذي يدبر أمور الخلائق جميعًا، وهو عَزَّوَجَلَّ يفعل ما يشاء كيف يشاء بالعدل والحكمة، وهو عَزَّوَجَلَّ واحدٌ في حقوقه على العباد؛ أي: لا شريك له في حق العبادة، ولا يشركه فيه أحد وهذا توحيد الألوهية. وهذه المسألة هي أعظم المسائل التي جاءت بها الرسل -عليهم الصلاة والسلام- على الإطلاق، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل:٣٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء:٢٥].

- ولا يطلق لفظ «أحد» في الإثبات إلا على الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يُستعمل في حق المخلوقين إلا في النفي دون الإثبات. و«أحد» نفس معنى «واحد» الذي هو من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ **وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ [الرعد:١٦]، وهو عَزَّوَجَلَّ الذي تفرَّد بالعظمة.

- وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **اللَّهُ الصَّمَدُ** ﴾ ورد عن السلف أقوال في تفسير ﴿ **الصَّمَدُ** ﴾ وكلها حقٌّ صحيحة، فهو عَزَّوَجَلَّ الصمد الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم، وصمد إليه بمعنى: قصده، وهذا يدل على توحيد الألوهية الذي هو متضمنٌ لتوحيد الربوبية؛ فالناس يقصدونه وحده عَزَّوَجَلَّ في قضاء حوائجهم، لأنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو الذي يقضي حوائج عباده، والبشر يعلمون أنه الرب القادر على قضاء حوائجهم، وأنه عَزَّوَجَلَّ الذي يرزقهم ما تقوم به حياتهم ويقوم به شأنهم.

- والمعنى الثاني ذُكِرَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الصمد السيد الذي كَمُل في سؤدده، والشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه»[1] اهـ.

- والمعنى الثالث من معاني الصمد أي الذي لا جوف له.

---

(١) «الأسماء والصفات» للبيهقي، حديث (رقم٩٨).

ومعنى (لا جوف له) هذا من كماله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن الجوف في المخلوق يقتضي النقص، والجوف يحتاج لما يملأ ذلك الجوف، وخَلْقُ الإنسان مبنيٌّ على وجود الجوف فيه، ولو سُدَّت التجاويف في الإنسان فإنه لا تستقر حياته.

روى أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لما خلق اللهُ آدمَ** عَلَيْهِٱلسَّلَامُ **تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر ما هو. فلمَّا رآه أجوف عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك**»[1].

فوجود الجوف في الإنسان يؤدي به إلى الرغبة في شهواته، فيحتاج النَفَس، ويحتاج الطعام والشراب، ويحتاج إلى النكاح، فيكون وجود الجوف يقتضي الفقر والحاجة، ومعنى: «**لا يتمالك**» أي: لا يملك نفسه عند الرغبة والشهوة، فعرف الشيطان من أين يتسلط علي الإنسان.

فكان هذا الجوف الذي يحتاج لما يسده من علامات نقص الإنسان واحتياجه، ولذلك فإن الله عَزَّوَجَلَّ منزهٌ عن الحاجة، أو وجود الرغبة، والشهوة، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا؛ لأنه هو الغني سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يحتاج إلى شيء تستمر به حياته، لأن حياته ذاتية كاملة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أمَّا حياة الإنسان فهي ليست ذاتية وإنما عارضة ناقصة، مسبوقة بعدمٍ، ويتخلَّلُها النقص إذا وجدت، ولابد من انتهائها، وتنزع منه رغمًا عنه.

والرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له كمال الغنى، وله كمال الحياة، وكمال القيومية، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ**...﴾ [الأنعام:١٤]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ**﴾ [الذاريات].

(١) رواه مسلم (٤٨٥٦) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

– والمعنى الرابع لكلمة «الصمد» أي: هو الباقي بعد خلقه، فهو عَزَّوَجَلَّ لكمال حياته، يبقى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ولا يموت.

– وحياته عَزَّوَجَلَّ صفة ذاتية من صفاته عَزَّوَجَلَّ ليست معلقة بقدرته ولا مشيئته، بل المشيئة والقدرة من لوازم حياته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن صفات الذات لا تُعلق على المشيئة والقدرة، وأهل الجاهلية من الكفار يدلسون على أتباعهم من الأغبياء، ويوهمونهم أن من علامات الكمال للرب القدرة على الموت، ويحيا بعد الموت، وأنه يلد، وينقسم ويصبح ثلاثة –تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا– وهذا من الخلل الذي يرده العقل الصحيح فضلًا عن الفطرة السوية.

– والمعنى الخامس من معاني «الصمد» أي: الذي لم يلد ولم يولد، وهذا واضح، فهو عَزَّوَجَلَّ (لم يلد) وهذا معنى اسمه عَزَّوَجَلَّ الآخر، وهو عَزَّوَجَلَّ «لم يولد» وهذا تفسير اسمه عَزَّوَجَلَّ الأول؛ فهو سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء.

– وورد أن الصمد معناه نورٌ يتلألأ نورًا، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [النور٣٥]، وقال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا...﴾ [الزمر:٦٩]، فمن أسمائه عَزَّوَجَلَّ النور، وهذا كله يدل على إثبات الكمال.

قال الشيخ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية»: (فإثبات الأحدية لله تتضمن نفي المشاركة، والمماثلة. وإثبات الصمدية بكل معانيها المتقدمة تتضمن إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحسنى، والصفات العلى. وهذا هو توحيد الإثبات. وأما النوع الثاني –وهو توحيد التنزيه–؛ فيؤخذ من قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾؛ كما يؤخذ إجمالا من قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ أي: لم يتفرع عنه شيء، ولم يتفرع هو عن شيء، وليس له مكافئ ولا مماثل ولا نظير.

فانظر كيف تضمنت هذه السورة توحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد، والوالد الذي هو من لوازم غناه وصمديته وأحديته، ثم نفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والنظير؟

فحُقَّ لسورةٍ تضمنت هذه المعارف كلها أن تعدل ثلث القرآن)[(١)] اهـ.

- وقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ردٌّ على طوائف من الكفار منهم مشركو العرب الذين ادَّعوا لله عَزَّوَجَلَّ الولد بادعائهم أن الملائكة بنات الله، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات] فنزه نفسه عَزَّوَجَلَّ عمَّا وصفه به هؤلاء المشركون بأنه تزوج من الجن فأنجب الملائكة التي هي بنات الله في زعمهم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الصافات] فبيَّن سبحانه كذبهم فيما ادَّعوا له من الولد، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الصافات].

فسمى الله سبحانه كلامهم ذلك كذبًا وإفكًا أنهم نسبوا إلى الله الولد؛ بل نسبوا إليه أقل النوعين وأضعف النوعين -في اعتقادهم- وهو الإناث.

- وفيه ردٌّ على النصارى الذين يزعمون لله عَزَّوَجَلَّ الولد، فيقولون: أن المسيح ابن الله -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا- وينصُّون في معتقدهم الباطل ويصرحون بلفظ

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ محمد خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص٨٣).

الولادة ولفظ الأبوة، واخترعوا اسمًا لم يرد على لسان أحد من أنبياء الله، وهو اسم (الآب) القريب من لفظ الأب، وجعلوه للخالق عَزَّوَجَلَّ وصرحوا بلفظ الابن.

بل اعتقادهم في المسيح يختلف عن اعتقادهم في أنفسهم، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ...**﴾ الآية [المائدة:١٨].

فهم يقرُّون على أنفسهم بالخلق، ويزعمون أن هذه البنوة التي يدَّعونها لأنفسهم هي بنوة محبة، ويجوِّزون أن يطلق على الله (أب) بمعنى: الراعي، والرزاق، والخالق، ويترجمون خطأً قول المسيح: (إني أصعد إلى ربي وربكم وإلهي وإلهكم) فيجعلونها: أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم. ولا يلتفتون إلى هذا التناقض المنافي لصريح العقل، إذ كيف يعقل أن المسيح يقول: «إلهي» ثم يدعونه إلهًا مع الله أو من دون الله، وعندهم في الإنجيل -حتى بعد التحريف- أن المسيح سوَّى بينهم وبينه وقال: إلهي وإلهكم، ثم يقولون عنه أنه هو الإله بنفسه، وأنه صورة من صوره، وأقنوم من أقانيمه.

فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**لَمْ يَـلِدْ**﴾ ردٌّ عليهم في ادِّعائهم في المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وردٌّ عليهم في ادِّعاء الولادة المجازية لهم أنهم أبناء الله، حتى ولو كانوا يقصدون: أنه الذي يرعاهم، أو يحبهم.

- وكذلك ردٌّ على طوائف من اليهود الذين قالوا: «عزير ابن الله»، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى

ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ الآيات [التوبة].

ولا شك أن من عَلِمَ عقيدة هؤلاء المشركين خصوصًا في شأن المسيح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثم بعد ذلك وصفهم بالإيمان ووصفهم بدخول الجنان، وجعلهم موعودين بالنجاة من النيران فهو من المكذبين لكتاب الله، ولما تواتر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- وكذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴾ فيه الردُّ على عقائد الهنود، والرومان، والفراعنة؛ فإنهم ينسبون الولادة إلى الآلهة، وهذا كثيرٌ جدًّا، وخرافاتهم وأساطيرهم الأولى كلها تجعل الآلهة تتزاوج، وتتناسل، وتتكاثر، وينجبون آلهة مزعومة بعضها أنصاف آلهة، وبعضها كاملة -في زعمهم- وكل منهم يختص بشيء.

والفراعنة، واليونان، والرومان، والهنود من أكثر الناس كذبًا في أمر الألوهية، ولذلك تجرَّأ فرعون لما رأى سخافة عقولهم فاخترع لهم سخافة جديدة فقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص:٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] يعني فرعون قال:أنتم لكم آلهة كثيرة، وأنا الأعلى فيها.

والقصص والأساطير الرومانية، والفرعونية، والهندية تجد فيها أحطَّ ما يمكن أن يوصف به البشر من الصفات مثل: الزنا، والقتل، وينسب ذلك إلى الصراع بين الآلهة المزعومة التي يعتقدون أنها ذكور وإناث، ومنها: آباء وأمهات وأبناء، ومن علِمَ ذلك عَلِمَ فعلًا نعمة الله علينا بدين الإسلام وبَعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ الكفو: هو النظير المماثل المكافئ، وهو عَزَّ وَجَلَّ ليس له سميٌّ ولا نظير، وهنا النفي المطلق لمماثلة أحد من الخلق لله عَزَّ وَجَلَّ.

فهذا نفي التشبيه الباطل الذي اعتقده المشركون، وأهل الضلال والزندقة والانحراف في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، أو في حقيقة ذاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.



وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه حيث يقول: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الآية [البقرة:٢٥٥].

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه...**]، ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أعظم آية في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ آية الكرسي -كما ورد في السنة- وهي من أولها إلى آخرها تتضمن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، وفيها عشر جمل متضمِّنَة بأسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، والأحاديث الواردة في فضلها وعِظَمِ شأنها تدلنا على أهمية الإيمان بالأسماء والصفات وعِظَمِ شأنه، وأنه أساسُ التوحيد وأصلُ الدين.

- فعن أبي بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أبا المنذر، أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظمُ؟**»، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال:«**يا أبا المنذر أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظمُ؟**»، قال: قلت: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، قال: فضرب في صدري وقال: «**ليهنك العلم أبا المنذر**»(١).

وفي رواية: «**والذي نفسي بيده إن لهذه الآية لسانًا وشفتين تُقدِّس الملك عند ساق العرش**»(٢).

- وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: وكَّلني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ، فجعل يحثُو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) رواه مسلم (١٣٤٩).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ١٤١)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٣٤١٠)، ومعناه أن قراءة العبد لآية الكرسي يجعل الله لها لسانًا وشفتين، ففعل العبد وقراءته أو ثواب قراءته هو الذي يكون له لسان وشفتان لأن فعله وثوابه مخلوقان، أما كلام الله عَزَّوَجَلَّ فهو صفة قائمة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير مخلوق.

قال: إني محتاج، وعليَّ دين وعيال، ولي حاجة شديدة، فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرُك البارحة؟**»، قال: قلتُ يا رسولَ الله شكا حاجة شديدة وعيالًا، فرحمتُهُ فخليت سبيله، قال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**»، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه سيعود**»، فرصدتُه؛ فجاء يحثُو الطعام... وذكر الحديث... إلى أن قال: فأخذته، يعني في الثالثة، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا آخر ثلاث مرات، تزعم أنك لا تعود ثم تعود. قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: ما هن؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلَّيتُ سبيلَه، فأصبحتُ، فقال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما فعل أسيرك البارُحة؟**»، قلت: يا رسول الله، زعم أنَّه يُعلِّمني كلماتٍ ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: «**ما هي؟**»، قلت: قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾، وقال: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربُك شيطانٌ حتى تصبح، وكانوا أحرص شيءٍ على الخير، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما إنه قد صدقك وهو كذوب. تعلم مَن تُخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟**»، قال: لا، قال: «**الشيطان**»[1].

- وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن قرأ آية الكرسيِّ دُبُرَ كلِّ صلاة لم يمنعْهُ مِن دخول الجنةِ إلَّا أن يموت**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٣١١).

(٢) **صحيح**: رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٩٨٤٨)، والطبراني في «الكبير» (٧٥٣٢)، وابن السنة في «عمل اليوم والليلة» (١٢٤)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٧٢).

فهذه جملة من الأحاديث تبيِّن فضل هذه الآية العظيمة، وعِظَمها؛ لأنها اشتملت على أعظم أركان التوحيد، وهو توحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ هذه هي الجملة الأولى وهي تتضمن إثبات الإلهية لله وحده لا شريك له، وأنه سبحانه يستحق ألَّا يُعبد سواه؛ فإنه عَزَّوَجَلَّ هو الإله المعبود. واسم ﴿ ٱللَّهُ ﴾ عَزَّوَجَلَّ قد سبق بيانه، والراجح أنه مشتق من (الإله) فالله هو الإله المعبود واستعمال (الإله) غلب على المعبود بحق، وإن كان يستعمل مقيدًا في المعبود بالباطل.

و«لا إله إلا الله» معناها لا معبود بحقٍّ إلا الله، وأمَّا ما عُبِدَ من دونه فهو إله عند متخذه.

و(الإله): هو الذي يفزع إليه الخلائق في حوائجهم، و(الإله): هو الذي تشتاق إليه القلوب، و(الإله): هو الذي تحار فيه العقول، وتلك المعاني بتمامها لا تكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له؛ فلا يستحق أحدٌ سواه أن تخضع له القلوب والأبدان حبًّا، وذلًا، وخوفًا، ورجاءً، وتوكلًا، وإنابةً، وهو وحده الذي يَلزم العباد أن يفزعوا إليه في حوائجهم، فهي فطرتهم التي فطرهم عليها، أنهم يفزعون إليه عَزَّوَجَلَّ، ويلجأون إليه، ويتضرعون إليه في قضاء حوائجهم ونوائبهم، وهذا المعنى من أخصِّ معاني الألوهية، ولذا قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**الدعاء هو العبادة**»[(١)].

ولذا مَن دعا غير الله فقد عبد غير الله، وألَّه غير الله، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» من حديث النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

[غافر:٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠] والحنيف: هو المائل إلى الله المعرض عن غيره، وإذا مالت القلوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وأعرضت عن غيره استقرت، وسكنت، واطمأنت، واستراحت، وسعدت، وإذا اتجهت لغيره، وأحبت سواه، شقيت وتعست بهذه المحبة، إلا ما كان من محبة فيه سبحانه ولأجله فإنها تابعة لمحبته ومن كمال محبته. وليس هناك عظيم تحار العقول في عظمته كعظمة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ فإن العقول لا تدرك عظمته عَزَّوَجَلَّ، ولا تدرك كبرياءه، ولا تدرك كيفية صفاته، وإنما تعلم العقول معاني تدرك بها أصل معاني صفاته عَزَّوَجَلَّ.

وهذه كلها من معاني (الإله) وكلها صحيحة، ويجب أن يُصرف التعبد بها لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحده.

وكلمة «لا إله إلا الله» هي العاصمة للدم والمال، وبها يصير العدو وليًّا، ومباحُ الدم معصومًا، ولا يثبت إيمان بأي حال بغير هذه الكلمة.

وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء جميعًا، كما قال النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**أفضل ما قلت أنا والنبيون قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو كل شيء قدير**»(١).

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أفضل الذكر لا إله لا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**»(٢).

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله**»(٣).

---

(١) **حسن**: رواه أحمد في «المسند» (٢/ ٢١٠)، والترمذي (٣٥٨٥)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (١٥٠٣) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٣٨٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٠٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًا كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فيقول: احضر وزنك. فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة؛ فلا يثقل مع اسم الله شيء**»(١) الحديث.

وهذه الكلمة العظيمة هي التي بُعِثَ بها كلُّ الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] ودعا كل الرسل أقوامهم إليها، وقالوا لهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، بل هذا مقرر حتى في الكتب السابقة، لكن منة الله عَزَّوَجَلَّ على أهل الإسلام أن جعل هذه الكلمة شعارهم في حياتهم وموتهم.

- وهي تتضمن النفي، والإثبات، تنفي الإلهية عن غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتتضمن إثبات الإلهية لله وحده لا شريك له.

وهي جملة بأسلوب القصر، تتضمن الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله وحده، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح ابن ماجه» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

۞ وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ اسم (الحي) لله عَزَّوَجَلَّ هو الاسم الجامع لكل صفات الكمال الذاتي؛ لأنها من لوازم كمال الحياة؛ فالسمع، والبصر، والقدرة، والإرادة، من صفات الحي.

واسم (القيوم) هو الاسم الجامع لصفات الأفعال، والقيوم، والقيِّم، والقيَّام[1] كلها ثابتة، ومعناه: القائم بنفسه، المستغنى عن غيره، والقائم بأمر العالم كله، وهذه هي الربوبية ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ ﴾ [الرعد:٣٣] فالكائنات كلها برها وفاجرها، مربوبة لله عَزَّوَجَلَّ، وهو قائم عليها خلقًا، وإيجادًا، ورزقًا، وقائم عليها حسابًا، وثوابًا، وعقابًا.

وهذه الجملة في الآية الكريمة ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ تضمنت أنواع التوحيد الثلاث الألوهية، والأسماء والصفات، والربوبية.

قال الشيخ محمد خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فقد أخبر الله فيها عن نفسه بأنه المتوحد في إلهيته، الذي لا تنبغي العبادة بجميع أنواعها وسائر صورها إلا له.

ثم أردف قضية التوحيد بما يشهد لها من ذكر خصائصه وصفاته الكاملة، فذكر أنه الحي الذي له كمال الحياة؛ لأن حياته من لوازم ذاته، فهي أزلية أبدية، وكمال حياته يستلزم ثبوت جميع صفات الكمال الذاتية له، من العزة، والقدرة، والعلم، والحكمة، والسمع، والبصر، والإرادة، والمشيئة، وغيرها؛ إذ لا يتخلف شيء منها إلا لنقص في الحياة، فالكمال في الحياة يتبعه الكمال في سائر الصفات اللازمة للحي.

---

(١) كما في حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا قام من الليل يتهجد قال: «**اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن...**» الحديث. رواه البخاري بلفظ (٧٣٨٥، ٧٤٤٢، ٧٤٩٩)، ورواه مسلم (٧٦٩) بلفظ: «**أنت قيَّام السماوات والأرض**».

ثم قرن ذلك باسمه القيوم، ومعناه الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع خلقه، غَنِيٌّ مطلقًا لا تشوبه شائبة حاجة أصلًا؛ لأنه غنى ذاتي، وبه قامت الموجودات كلها، فهي فقيرة إليه فقرا ذاتيا، بحيث لا تستغني عنه لحظة، فهو الذي ابتدأ إيجادها على هذا النحو من الإحكام والإتقان، وهو الذي يدبر أمورها، ويمدها بكل ما تحتاج إليه في بقائها، وفي بلوغ الكمال الذي قدره لها.

فهذا الاسم متضمن لجميع صفات الكمال الفعلية، كما أن اسمه الحي متضمن لجميع صفات الكمال الذاتية، ولهذا ورد أن (الحي القيوم) هما اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب) اهـ[١].

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أعقب سبحانه بعد ذكر حياته وقيوميته بما يدل على كمالها، فقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ وهذه هي الجملة الثانية.

و(السِّنَة): هي النعاس و(النَّوم): أقوى وهو معروف، ونفي النعاس والنوم عن الله عَزَّوَجَلَّ من كمال حياته، فهو عَزَّوَجَلَّ منزَّهٌ عن الموت، والنوم، وأقل من النوم وهو النعاس، والموت أخو النوم فإذا انتفى النوم فلابد أن ينتفي الموت، ولذلك قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٨]، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»[٢].

- والإنسان حياته تتوقف على النوم، ولو لم ينم ما استطاع أن يستمر في حياته، وهذا من علامات نقصه وعجزه، لكن الله عَزَّوَجَلَّ لا يأخذه نوم، ولا أقل من النوم، فضلًا

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هرَّاس (٨٤-٨٥).

(٢) رواه مسلم (١٧٩)، وأحمد (٤/ ٤٠٥) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

عمَّا زاد على ذلك، وقد ذكرنا أن النفي في الصفات في القرآن متضمنٌ الإثبات فله عَزَّوَجَلَّ كمال الحياة سبحانه وبحمده.

- وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿**لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ...**﴾ وهذه هي الجملة الثالثة التي تثبت صفة المِلك له سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فهو مالك لكل ما في السماوات وما في الأرض، والجميع ملكه يفعل فيه ما يشاء لأنه خَلَقَه وأوجده، وهو وحده يتصرف فيه كما يريد، ولذلك كان من كمال ملكه إثبات أن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه، وأنه هو الذي يملكها سبحانه، فقال بعدها: ﴿**مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ**﴾ فلا أحد يشفع عنده إلا إذا كان قد أذِن له، وأذِن في المشفوع فيه. والاستفهام في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ**﴾ غرضه النفي، أي ليس يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، وهذا يتضمن إثبات الشفاعة الشرعية، ونفي الشفاعة الشركية الباطلة التي يعتقدها المشركون لأصنامهم، وآلهتهم الباطلة وكل من يُدعى غير الله عَزَّوَجَلَّ ويزعم من يدعوه أنه يشفع له عند الله، سواء كان ذلك المدعو ملكًا مقربًا، أو نبيًّا مرسلًا، أو وليًّا صالحًا، أو بشرًا، أو جنًّا فضلًا أن يكون حجرًا، أو شجرًا، أو الشمس، أو القمر.

- وقضية الشفاعة من أعظم المسائل أهمية؛ لأن الشيطان يلبس الحق بالباطل، ولا يكون الباطل مقبولًا لدى الناس إلا بشيء من الحق، وأكثر الناس لا يثبتون مالكًا لشيء مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مساويًا له عَزَّوَجَلَّ، وأكثر الخلق لا يثبتون خالقًا مع الله عَزَّوَجَلَّ، بل حتى (الثنوية) الذين يقولون بإلهين اثنين وهم المجوس؛ فيقولون بإله للخير، وإله للشر، فإنهم يحبون إله الخير -في زعمهم أكثر- وينسبون له صفة الكمال أكثر، ولا يجعلونهما متساويين تمامًا من كل جهة، فضلًا عمن يعتقد في الجملة بوجود خالق واحدٍ، وربٍّ واحدٍ، ولكنه يجعل آلهة متوسطة شركاء، وشفعاء مثل مشركي العرب، وكما يعتقد مثلهم من يعبدون الصالحين، والأولياء، والأنبياء، والملائكة، فإن مشركي العرب كان يقرُّون

بأن الله هو خالق السماوات والأرض، ولكنهم اتخذوا وسطاء فيما بينهم وبين الله، زعموا أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، قال عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ...﴾ الآية [الزمر:٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية [يونس:١٨].

فهم توسلوا إلى الله بعبادتهم وتأليههم، وبداية ذلك أنهم اعتقدوا أن الله عَزَّوَجَلَّ ناسب الجن، فأنجب الملائكة التي جعلوها بنات الله -تعالى وتقدس عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا-، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ۝١٥٨ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات]، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

وهذا يوضح لنا حقيقة شرك المشركين من قريش أنهم جعلوا الملائكة إناثًا، وقالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم...﴾ الآية [الزخرف:٢٠] فهم يعبدون تلك الأصنام على أنها ترمز إلى الملائكة، أو أنها صور لها كما تخيلوها، واجتمع بالتأكيد مع ذلك وجود شبهات أخرى، كأن تكون هناك شجرة يقدسونها، أو صخرة لرجل كان يَلِتُّ السويق -أي: يُعِدُّ الطعام- عندها للحجيج، كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾: «كان اللات رجلًا يلت سويق الحاج»(١)، فيجتمع في الشيء خرافات متعددة.

- ويشابه ذلك من يعبد القبور من دون الله عَزَّوَجَلَّ، أو مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فنجد أنواعًا من الخرافات، والتي تنسج حول هذا القبر وصاحبه، فهذا الشيخ لحمل من لا تحمل، وهذا لحياة الولد لمن يموت له أولاد، وهذا لشفاء المرض الفلاني، وهذا القبر

(١) رواه البخاري (٤٨٥٩).

لدفع العين والحسد. فيخترعون أنواعًا من الخرافات بالإضافة إلى أصل المسألة وهو الغلو في الصالحين والأولياء والملائكة، وهذا ما حذَّر منه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «**إياكم والغلو...**»[1] الحديث.

فالشياطين دائمًا تدخل من هذا الباب -باب الشفاعة- حتى تجعل هؤلاء يستسيغون عبادة غير الله التي تأباها الفطر السويَّة.

- والشفاعة التي يأذن الله عَزَّوَجَلَّ فيها ليست كما يعتقد المشركون في الشفاعة الشركية الباطلة المنفية؛ إذ يعتقدون أنها من جنس شفاعات أعوان الملوك عند ملوكهم، فإن ملوك الدنيا لهم أعوان، ووزراء يقبلون شفاعتهم في دفع غضبهم على من تحتهم، والملوك يفعلون ذلك إرضاءً للأعوان والوزراء، كسبًا لموالاتهم، وإرضاءً لهم حتى يستمر الملك والرياسة لهم.

لكن الشفاعة عند الله ليست كذلك؛ فهو سبحانه الذي يملك الشفاعة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا** ...﴾ الآية [الزمر:٤٤] فلا يشفع عنده إلا بإذنه، وليس رغمًا عنه سبحانه، أو مشاركة في شيء من ملكه، وإنما بإذنه سبحانه، وهذا لكمال ملكه عَزَّوَجَلَّ.

- وهذا الإذن منه عَزَّوَجَلَّ يشمل ثلاثة أنواع: إذنه عَزَّوَجَلَّ للشافع أن يشفع؛ فمن لم يعلم أنه لهذه المنزلة لم يتقدَّم لها أصلًا، ولم يشفع ابتداءً كما أن الأنبياء -عليهم صلوات الله وسلامه- كلٌّ منهم يتراجع ويتأخر عن الشفاعة في إراحة الناس من الموقف يوم القيامة حتى يأتي الناسُ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيقول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**أنا لها، أنا لها**»[2].

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي في «السنن» (٥/ ٢٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن النسائي» من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

- وثانيًا الإذن له صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبدأ في الشفاعة؛ فإن الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يعلم أنه أهلُ الشفاعة، وأنه قد أعطيها، وأنه لها، ينطلق فيسجد تحت العرش فيَدَعه الله عَزَّوَجَلَّ ما شاء الله أن يدعه، ثم يُقال: «**يا محمد، ارفع رأسك، وقُلْ يُسمع لك، وسَلْ تُعط، واشفع تشفع**»[١].

فإذا أَذن الله عَزَّوَجَلَّ له أن يشفع بعد أن يُظْهِرَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمال العبودية، وكمال الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ بثناء لم يفتح الله عَزَّوَجَلَّ به على أحد قبله، عند ذلك يأذن الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يشفع في أهل الموقف جميعًا في الإراحة من هول الموقف، وفصل القضاء، وهذه هي الشفاعة العظمى.

ثم يشفع في أمته صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويشفع في استفتاح باب الجنة، وهي من خصائصه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكذلك شفاعته صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أناس يدخلون الجنة من غير حساب ولا عذاب من أمته، وهم سبعون ألفًا مع كل ألفٍ سبعون ألفًا، كما ثبت في حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وعدني ربي** عَزَّوَجَلَّ **أن يُدْخِل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بغير حساب ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفًا، وثلاث حثيات من حثيات ربي** عَزَّوَجَلَّ»[٢].

- وهناك شفاعة للرسل عامة، وهي شفاعة على الصراط أثناء مرور أهل الإيمان، وهي من استحق دخول النار أن لا يدخلها.

---

(١) الحديث السابق.

(٢) **حديث حسن**: رواه أحمد (٥/ ٢٦٨)، والترمذي (٢٤٣٧)، وابن ماجه (٤٢٨٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» من حديث أبي أمامة الباهلي.

- وهناك شفاعة عامة: للأنبياء، والملائكة، والصالحين في إخراج عصاة الموحدين من النار، وهذه هي الشفاعة التي ينكرها أهل البدع: من الخوارج، والمعتزلة، ومن وافقهم.

- وهناك شفاعة في رفع الدرجات في الجنة، وهي لأهل الإيمان عمومًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور:٢١] في هذه الشفاعة يُلحِقُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الأدنى بالأعلى.

- وهناك شفاعة ورد أنها ثابتة للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حقِّ عمِّه أبي طالب[1] أنه يُجعل في ضحضاح من نارٍ يغلي منهما دماغه، والضحضاح هو الماء الرقيق دون الكعبين، وهو أهون أهل النار من الكفار عذابًا، وثبت أنه ينتعل بنعلين يغلي منهما دماغه.

وما ندري هل هذا النوع من الشفاعة خاصة بأبي طالب أم تكون لبعض الكافرين الذين أحسنوا إلى بعض أهل الإيمان فيخفف عنهم من عذاب النار؟ وقد ورد ذلك عن بعض السلف في بعض التفاسير دون رفعٍ إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأصح التوقف في خصوصها أو عمومها.

فهذه أنواع سبعة من الشفاعة، وهي الشفاعة الشرعية التي يأذن فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للشافع، ويأذن في أن يبدأ الشفاعة. والإذن الثالث أن يكون المشفوع فيه ممن أذِن الله فيه، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨] لا يشفعون إلا عن من رضيَ الله أن يُشفع فيه، وكما سأل أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟»،

---

(١) قال العباس بن عبد المطلب: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالبٍ بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: «**نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**». رواه البخاري (٦٢٠٨)، ومسلم (٢٠٩)، وأيضًا حديث أبي سعيد الخدري، وحديث ابن عباس أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أهون أهل النار عذابًا أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه**» رواه مسلم (٢١٢).

قال: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أعلى منك لما رأيت من حرصك على الحديث، إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قبله**»(١).

فهي لا تكون إلا مع التوحيد، ولا تكون لمن مات مشركًا بعد بلوغ الحجة إلا ما ورد الدليل فيه بالتخفيف من العذاب، وهي له شفاعة جزئية لا تنفعه نفعًا كليًّا، بل في التخفيف وليس في الخروج من النار.

قال تعالى: ﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ** ﴾ [النجم:٢٦].

❁ ❁ ❁

- واختلف الناس في الشفاعة؛ فمِنهم مَن أراد رَدَّ ضلال المشركين فأنكر الشفاعة بالكلية، كالمعتزلة، والخوارج، خاصة ما لا يوافق مذهبهم الباطل من إنكار خروج عصاة الموحدين من النار؛ لأن كلًّا من الخوارج، والمعتزلة يحكم بأن عصاة الموحدين مخلدون في النار، والخوارج يسمونهم كفارًا في الدنيا والآخرة، والمعتزلة يسمونهم فسَّاقًا في الدنيا في منزلة بين منزلتين، وهم عندهم كفارٌ مخلدون في النار يوم القيامة، وهذا لا يجوز، بل رد الباطل يكون بإبطال ما أبطله القرآن، ولا ننكر ما أثبته القرآن.

- وكذا الذين شابهوا المعتزلة والخوارج في هذه المسألة وهم عقلانيو زماننا، واحتجُّوا ببعض ظواهر الآيات من القرآن كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ** ... ﴾ الآية [البقرة:٢٥٤]، فنفى فيه الشفاعة على العموم، لكن الصواب أن هذا عموم مخصوص مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلًا** ﴾

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري (٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية [النساء:١٢٥] مع أن الآية الكريمة نفسها تنفي الخلة، ومعلومٌ بالكتاب، والسنة، والإجماع أن الله عَزَّوَجَلَّ اتخذ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليلًا، واتخذ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خليلًا فيكون معنى لا خلة، أي: لا خلة ولا مودة تنفع يوم القيامة مما كانت بين الناس في الدنيا إلا للمتقين كما نصت الآية الأخرى، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف:٦٧] فدلَّ ذلك على التخصيص، وأن الآية مخصصة بآية أخرى.

- وهذه طريقة الاستدلال الصحيحة، وليس أن يأخذ الإنسان ما يوافق هواه، ويترك ما لا يوافقه، وفي الحقيقة أن هذا ترك لجميع الأدلة؛ لأنها لا تفهم إلا بدلالة الآية الأخرى.

فكما أن الآية نفت الشفاعة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَلَا شَفَٰعَةٌ** ﴾ فإن الآية التي تليها مباشرة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ** ... ﴾ [البقرة:٢٥٤] قد خصصتها.

- ومَن أنكرَ الأحاديث المتواترة والصحيحة الموافقة لما في القرآن من إثبات الشفاعة بإذن الله عَزَّوَجَلَّ فهو مبتدعٌ ضالٌ، إذ إن الشفاعة يتفضل بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على من شاء من أهل التوحيد والإخلاص بواسطة دعاء من أَذن الله عَزَّوَجَلَّ له أن يشفع ليريهم منزلته، ومكانته، ويبعثه المقام المحمود، قال عَزَّوَجَلَّ مخاطبًا نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ **عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ [الإسراء:٧٩] فالشفاعة تكريم للشافع، ورحمة من الله عَزَّوَجَلَّ للمشفوع فيه.

۞ وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾ الآية، هذه الجملة الخامسة وهي إثبات سعة علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإحاطته، وأنه لا يخفى عليه شيء من الأمور المستقبلة ولا الماضية.

ومعنى ﴿ **مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ أي: ما تقدَّم، ﴿ **وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾ أي: ما سوف يقع لهم ومنهم بعد حين، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ** ﴾ [إبراهيم:١٦]. وعلمه عَزَّوَجَلَّ في

الزمان وأيضًا في المكان؛ فيعلم عَزَّوَجَلَّ ما بين أيديهم وما خلفهم في مكانهم وزمانهم، وفُسِّرت على التفسيرين الزمان والمكان، وكلاهما حق، ولا يخفى على الرب عَزَّوَجَلَّ منها شيء، ويعلم -سبحانه- ما بين ذلك يعني: يعلم ما تقدم، وما تأخَّر، وما بينهما، وما بين العباد وما بين أنفسهم يعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تفصيلًا.

وتأمَّل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام:٥٩].

وتدبَّرْ هذه التفصيلات العجيبة التي لا نحيط نحن بها علمًا، ونستحضر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أحاط بها علمًا، ومفاتيح الغيب هي التي قال تعالى عنها: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ**﴾ [لقمان:٣٤]، فيعلم سبحانه ما في البر والبحر، ما في الأرض والصحاري، وما فيها من كائنات عجيبة لا يعلم إحصاءها إلا الله، منها ما هو على ظهر الأرض، ومنها ما هو في باطن الأرض، وفيها ما هو حيوان، وما هو نبات، وفيها بشر، وكائنات لا يعلمها إلا هو عَزَّوَجَلَّ، وقد لا يراها الناس.

ثم البحر فيه مخلوقات أضعافًا مضاعفة، وإذا كان البر يمثل ثلث الأرض تقريبًا، والبحر يمثل ثلثي الأرض، وكل قطرة من قطرات البحر إذا فحصها الإنسان تحت المجهر يجد فيها كمية من الكائنات، فضلًا عن بقية الكائنات الأخرى في البحر من الأسماك وغيرها، بل توجد ممالك كاملة في البحر منها، بالإضافة إلى نباتات، وجبال، وكهوف في داخل البحر.

- وكذلك ما تسقط من ورقة في غابة من الغابات من شجرة من الأشجار، وفي سنة من السنين، وفي يوم من الأيام، وكم تقلبت هذه الورقة حتى تصل إلى الأرض،

وكذا حبات النبات التي تدخل في الأرض، ماذا يعيش منها، وماذا يموت، وماذا يظل رطبًا منها، وماذا يَبُسَ، قد أحاط الله عَزَّوَجَلَّ بعلم ذلك كله، والعبد يحتاج إلى تدبر آثار علم الله حتى يعلم عظمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

۞ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ هذه الجملة السادسة في الآية الكريمة، وهي أن البشر لا يعلمون شيئًا من علومهم إلَّا ما علمهم الله عَزَّوَجَلَّ، وشاء سبحانه أن يتعلموه. والتفسير الثاني أي: لا يحيطون بشيء من علمهم به عَزَّوَجَلَّ، أي: بصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأكثر المفسرين على الأول ولا تعارض.

- والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُعَلِّم الناس علم الدين، وعلم الدنيا، وكما في قصة موسى مع الخضر، قال عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: لما جاء عصفور ووقع على حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر...**»[(١)] الحديث، فلنتأمل هذا القدر الذي أخذه العصفور الذي يمثل علم الخلائق جميعًا بما فيهم الأنبياء إلى علم الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا حق ويقين، ومن سلك أي طريق في العلوم الدنيوية، ويكون عنده بعض العلم يتأكد يقينًا أن ما يجهله الناس في باب واحدٍ من العلم أضعاف أضعاف ما يعلمون، والجهال فقط وأهل الهوى هم من يزعمون أن الإنسان قد حاز العلم كله، مثل الزنادقة الذين يقررون أن الإنسان في عصرنا قد أصبح في عصر العلم، وأنه له أن ينهي عصر الإله. وهذه نظرية خَرِبة قررها الفيلسوف الألماني «نيتشه»، ثم نقلها بعض الزنادقة الموصوفين بالفكر، أو الثقافة ويثبتونها في كتاباتهم، ويدلِّسون على الناس بأنه هذا عصر

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠) من حديث أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

السوبر مان (super man) أي الإنسان الكامل الذي لا يحتاج إلى الإله، وأن هذا عصر موت الإله[١].

- وهذا مع ما فيه من مخالفة لقواعد العلم التجريبي؛ أن ما يجهله علماء الدنيا المتخصصون أضعاف أضعاف ما يعلمونه، فضلًا عمَّا في هذه الفكرة الباطلة من زندقة، وهدم للعقيدة.

وإن أدنى تأمل في مراحل تكوين الإنسان فقط يدرك به العبد قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وعلمه الشامل، ومدى عجز البشر مهما علموا.

وإذا كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني...**»[٢] الحديث، وهو عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أعلمُ الخلق بالله؛ فيقول ذلك لأن علم البشر إلى علم الله عَزَّوَجَلَّ جهل، كما أن عز البشر إلى عزة الله ذل، وغنى البشر إلى غنى الله فقر، سبحان الله وبحمده، وتبارك اسمه، وتعالى جدُّه، ولا إله غيره.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِلَّا بِمَا شَآءَ**﴾ فيه ذكر صفة المشيئة، والإرادة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فكلُّ شيء إنما يكون بمشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، والمشيئة هي إرادته الكونية سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أي: إرادة أن يكون الشيء، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾ [يس:٨٢]، فمشيئته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ نافذة وقدرته شاملة.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ**﴾ ثم ذكر سبحانه بعد ذلك ما يدل على عظمته، وعظيم ملكه.

---

(١) كما هو موجود وواضح في رواية (أولاد حارتنا) لنجيب محفوظ.

(٢) رواه البخاري (٥٩١٩)، ومسلم (٤٨٩٦) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والكرسيُّ -كما ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- وغيره هو (موضعُ القدمين)[١]، والذي عليه أهل السنة أن الكرسي غير العرش -والعرش سرير الملك- وهو سبحانه استوى على العرش، ووردت أحاديث كثيرة بأن الله يضع كرسيه في الأرض لفصل القضاء بين العباد يوم القيامة.

وبذكر الاثنين -الكرسي والعرش- في الآية يتبين اختلافها، وكلاهما مخلوق من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ.

والعرش أعظم من الكرسي، والكرسي يسع السماوات والأرض، وما ثبت عن ابن عباس وغيره أن الكرسي موضع القدمين مما لا يُقال من قِبل الرأي، ولا مما يُتلقى من الإسرائيليات، وهذا يدل على أن ابن عباس وغيره إنما علموا ذلك من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهذا موقوف له حكم الرفع.

ووردت أحاديث كثيرة في سعة الكرسي وعِظَمه، وإن كان فيها مقال إلا أنها كثيرة الطرق، كما في حديث أبي ذر أنه سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الكرسي، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«والذي نفسي بيده ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»**[٢].

---

(١) رواه ابن خزيمة في «التوحيد» (١٥٤)، وابن أبي شيبة في العرش (٦١)، والدارمي في «الرد على المريسي»، وعبد الله بن الإمام أحمد في «السنة»، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٨٢)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ أحمد شاكر في عدة التفسير (٢/ ١٦٣)، والألباني في «مختصر العلو» (ص١٠٢).

قال ابن عباس: «الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره»، وقال أبو موسى الأشعري: «الكرسي موضع القدمين وله أطيط كأطيط الرحل» رواه ابن أبي شيبة في «العرش» (٦٠)، وابن جرير والبيهقي وغيرهم، وصحَّح إسناده ابنُ حجر في «الفتح»، والألباني في «مختصر العلو» (ص١٢٣-١٢٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (١/ ١١٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٢٩٠)، واين جرير في «تفسيره» (٥/ ٣٩٩).

والكرسي بالنسبة إلى العرش كحلقة في فلاة، وذلك لعظمة ملك الله عَزَّوَجَلَّ وسلطانه.

- وما ذكر عن ابن عباس من أن الكرسي هو العلم، أي وسع علمه السماوات والأرض، فهذا لا يثبت عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولا يستعمل في اللغة ظاهرًا، ولا يكون فيه إلا مزيد تكرار؛ حيث قال: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ فثبتت صفة العلم في الجملة التي قبل هذه فيكون تكرارًا.

- والصحيح كما ذكرنا، وهو الثابت عن ابن عباس وغيره من أن الكرسي موضع القدمين، ومن هنا كان التفسير بالعلم تأويلًا غير مقبول، مع ضعف السند عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولذلك لا يعتمد أهل السنة على مثل هذا السند الضعيف في تفسير الآية، بل ما عليه أهل السنة أن يفسروا الكرسي بأنه مخلوق من مخلوقات الله، وموضع قدمي الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو غير العرش، والعرش أعظم منه.

۞ قال تعالى: ﴿**وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا**﴾، آده الأمر يؤوده أي: يثقل عليه، وهو سبحانه لا يثقله حفظ السماوات والأرض وحفظ من فيهما، وهذا الحفظ لهذه الكائنات بإبقائها على ما أراد، وفعل ما يشاء فيها، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦ...**﴾ الآية [فاطر:٤١].

فحفظه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حفظ عام، وأيضًا من معاني الحفظ الرقابة؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحفظ أعمال عباده ولا ينسى. فيكون المعنى الأول: الحفظ بمعنى الإبقاء على ما هي عليه وعلى ما أراد فيها سبحانه، والمعنى الثاني الحفظ بمعنى: الإحصاء، والمراقبة، ويقوم بعد ذلك بالحساب.

فلا يثقل عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يطلع على كل ما يجري من صغيرة، أو كبيرة، ويحفظها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتى يجازي بها صاحبها، ويحاسبه عليها، وذلك على الله يسير.

- ولا يتصور العباد كيف أن الله عَزَّوَجَلَّ يحفظهم مما يعلمونه ومما لا يعلمونه، فكم من مؤذٍ من الإنس، والجن، والهوام، والحيوانات، والدواب لو أطلقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده لأهلكتهم! وكم من مريدٍ لأذى العبد لو أراد الله عَزَّوَجَلَّ ذلك الأذى لأهلك العبد!

- ولنتأمل كيف أن قوم فرعون عُذِّبوا بالطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم حين أرسلها الله عليهم! ولنتأمل ماذا لو أطلق الله علينا الكائنات الصغيرة الضعيفة من جحورها التي تدوسها أقدامنا فنحطمها ونحن لا نشعر، كالنمل، والبراغيث، وغيرها! وكم يكفُّها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنا، ولولا ذلك لأصابنا أنواع الشقاء، والتعب، والاضطراب.

كما ذكر أهل التفسير في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ** ﴾ [الأعراف:١٣٣]: «أن الله أرسل الضفادع على قوم فرعون فملأت البيوت، والأطعمة، والآنية فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه...»[(١)].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ورُوِيَ أنها ملأت فرشهم، وأوعيتهم، وطعامهم وشرابهم، فكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، وإذا تكلم وثب الضفدع في فيه» اهـ[(٢)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ** ... ﴾ الآية [الأعراف:١٣٣]، (٢/ ٧٨٠) ط. ابن حزم.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٧/ ٢٤٣) ط. دار الفكر.

- ولنتأمل ماذا لو سلط الله علينا وحوش الغابات، أو البحار أن تغرق الأرض، أو الشهب، أو النيازك، أو الأشعة المحرقة، وغيرها! ولنتأمل كيف أن الشياطين تريد أذى بني آدم، والله عَزَّوَجَلَّ يكفُّها!

- وهناك حفظ آخر أخصُّ من الحفظ العام؛ وهو حفظ الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ الآية [يوسف:٦٤] يحفظهم سبحانه من كل ما يضرهم وما يؤذيهم؛ وإذا كان سبحانه لايؤوده حفظ السماوات والأرض فأنَّى يثقل عليه أن يحفظ عباده المؤمنين، وأن يؤيدهم بتأييده. وهذا الحفظ من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المؤمنين لا يستطيع المؤمنون إحصاء عظمته، وجلاله، وأثره الكبير عليهم.

كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: **«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»**(١).

وفي الحفظ الخاص لعباده المؤمنين نتأمل كيف كفَّ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ نواصي شرار خلقه عن عباده المؤمنين! قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة:١١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ الآية [الفتح:٢٤].

ولنتأمل حفظ الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه يوسف عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بعيدًا عن أبويه، وهو في أرض غريبة وهو في حياة الرق، فقد حفظه سبحانه أعظم من حفظ أبيه وأمه له، ولذلك توكَّل يعقوب عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ على ربه، وقال: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤].

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا.

فكان حفظ الله عَزَّوَجَلَّ ليوسف، وأخيه من بعده، ولأبيهما يعقوب، لا يقارن بحفظهم لأنفسهم؛ لأن الله لا يشق عليه ولا يصعب عليه ذلك، وهو سبحانه آخذ بنواصي العباد وهو الحفيظ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

۞ قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ اسم (العلي) لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يدل على صفة (العلو) بجميع أنواعها ومعانيها: علو القهر، وعلو الشأن، وعلو الذات.

والمعنى الأول: أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له علو القهر والغلبة؛ فهو ظاهرٌ غالبٌ فوق عباده، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨].

والمعنى الثاني: أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ العلي له علو الشأن، فهو سبحانه متعالٍ عن النقائص، ومتعالٍ عن الشريك، والندِّ، والصاحبة، والولد، والوالد، والكفو، والنظير، والمثيل، وأن يكون معه إله أو رب سواه، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ متعالٍ عن الجهل، والنسيان، والغفلة لكمال علمه عَزَّوَجَلَّ، وتعالى سبحانه عن العبث، واللعب، والسدى، واللهو، والباطل لكمال حكمته عَزَّوَجَلَّ، وتعالى سبحانه عن أن يطعم، أو يشرب، أو أن يفتقر إلى المال لكمال غناه، وتعالى سبحانه في كمال عدله عن أن يظلم مثقال ذرة، وتعالى سبحانه في جميع أسمائه وصفاته عن مشابهة المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وكما قال عَزَّوَجَلَّ عن نفسه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ...﴾ الآية [الأنعام:١٠٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ...﴾ الآية [يونس:١٨].

ونحو ذلك من الآيات الدالة على علو شأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وأما المعنى الثالث: من معاني العلو فهو علو الذات، وهو أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوق العرش، وهذه الفوقية لا تشبه فوقية مخلوق على مخلوق، بل فوقية تليق بجلاله وعظمته عَزَّوَجَلَّ، كما قال عَزَّوَجَلَّ عن الملائكة: ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ...** ﴾ [النحل:٥٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ...** ﴾ [طه:٥] أي: علا وارتفع كما فسره مجاهد وغيره، وتلك تفسيرات السلف التي تدل على معنى العلو، ولا يلزم من إثبات صفة العلو -خصوصًا علو الذات- تحيزًا أو حلولًا، ولا أن يكون حالًّا في جهة مخلوقة، بل هو سبحانه كما ذكر ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ** ﴾. فكيف يتحيَّز في مكان مخلوق، أو يكون له حيزٌ يحوطه!

وهذه الألفاظ المجملة يمكن أن تحمل على معنى باطل، وإذا أطلق نفيها شمل النفي معنى صحيحًا فيحدث خلل، كمن ينفي علو الله عَزَّوَجَلَّ الذي أثبته لنفسه بزعم أن العلو يستلزم التحيز في جهة ويقول يجب تنزيه الله عنه، فنقول: إن لفظ الجهة، ولفظ التحيز ألفاظ لم ترد في الكتاب والسنة نفيًا ولا إثباتًا، ونحن لا ننفيها ولا نثبتها حتى يُبَيَّن الأمرُ ويُفصَّلُ.

فإذا كان الذي ينفي التحيز في جهة يريد أن الجهة المخلوقة لا تحيط بالله فمعنى كلامه حسن، لكن لما أطلق النفي استعمله البعض في نفي العلو، وقالوا: لا يوصف الرب بأنه عليٌّ عظيم، أو أنه فوق سماواته فوق عرشه، بدعوى أن هذا يستلزم الجهة وبناءً عليه -على زعمهم- كلمة (فوق) لا تجوز، مع أن لفظة (فوق) واردة في الكتاب والسنة، ولا يجوز أن يوصف الرب بخلافها، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ...** ﴾ [النحل:٥٠]، وقال تعالى: ﴿ **وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ..** ﴾ [الأنعام:١٨]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله**

فوق العرش...»[١]، فاللفظ مستعمل في القرآن والسنة، فكيف نستعمل ألفاظًا محتملة غير مستعملة في الكتاب والسنة دليلًا لإنكار ما ثبت استعماله في الكتاب والسنة.

وكما ورد في الحديث عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «زوجكن آلكن وزوجني ربي من فوق سبع سماوات»[٢]، وكما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسعد بن معاذ لما حكم بقتل يهود بني قريظة: «**لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات**»[٣]، وفي رواية: «**من فوق سبع أرقعة**»[٤]، وكان مسروق بن الأجدع إذا حدَّث عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا يقول: «حدثتني الصديقة ابنة الصديق، حبيبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المبرأة من فوق سبع سماوات»[٥].

وفوق سبع سماوات أي: فوق العرش وفوق كل المخلوقات، لذلك لا يجوز أن ننفي هذا اللفظ الوارد بزعم أن له معنى غير صحيح، بل هذا المعنى غير الصحيح ننفيه ولا ننفي ما ورد في الكتاب والسنة؛ لأنه سبحانه أعلم بنفسه، وكلامه أصدق الكلام.

ولا يجوز لأحد أن يقول إن هذا كلام يجب صرفه عن ظاهره بزعم أن ظاهره باطل أو خطأ، بل الباطل والخطأ في الفهم السقيم لدى من توهم المشابهة، أو المماثلة من بعض آيات الصفات وأحاديثها.

- ثم دائمًا نجد اقترانًا بين اسم الله (العلي) وبين أحد الأسماء الدالة على العظمة والجلال. قال تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ**﴾ الآية [البقرة:٢٥٥]، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ**

---

(١) **صحيح**: رواه ابن خزيمة في صحيحه (١٠٥)، وصحَّحه الذهبي في «العلو» (ص٦٤)، وقال الألباني: إسناده صحيح من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: رواه البخاري (٧٤٢٠).

(٣) **صحيح**: رواه البخاري (٣٨٩٥)، ولفظ «**من فوق سبع سماوات**» ليست في البخاري. أخرجه النسائي في «المناقب الكبرى» (٨٢٢٣)، وصحَّحه الألباني في «مختصر العلو» للذهبي (١٥/ ٨٧).

(٤) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٣٢٧).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ١٨١) للذهبي، وذكره الآجري في «الشريعة» (٥/ ٢٤٠٤).

ﱡﭐ ٱلۡكَبِيرُ ...ﱠ الآية [سبأ:٢٣] فقرن سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بين صفة العلو، وصفة العظمة والكبرياء لئلا يتصور متصور أن الله يحيط به أحد من خلقه، وإذا كانوا لا يحيطون به علمًا فكيف تحيط به ذواتهم أو شيء من مخلوقاته؟!

والعبد يكرر كل يوم عشرات المرات قول (الله أكبر) فهو سبحانه أكبر من كل شيء، ولا يتصور أن خلقه يحيطون به، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في إثبات أن الله في السماء: «يثبت ذلك لكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل: أن يظن ظاهر قوله «في السماء» أن السماء تقله، أو تظله» اهـ. كما سيأتي بيانه إن شاء الله.



٢- الجمع بين أوليته وآخريته وعلوه وقربه تعالى

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

قال الشيخ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن.

فاسمه الأول: دال على قِدَمه وأزليته، واسمه الآخر: دال على بقائه وأبديته، واسمه الظاهر: دال على علوه وعظمته، واسمه الباطن: دال على قربه ومعيته.

ثم ختمت الآية بما يفيد إحاطة علمه بكل شيء من الأمور الماضية، والحاضرة، والمستقبلة، ومن العالم العلوي والسفلي، ومن الواجبات والجائزات والمستحيلات، فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

فالآية كلها في شأن إحاطة الرب سبحانه بجميع خلقه من كل وجه، وأن العوالم كلها في قبضة يده؛ كخردلة في يد العبد، لا يفوته منها شيء، وإنما أتى بين هذه الصفات بالواو مع أنها جارية على موصوف واحد؛ لزيادة التقرير والتأكيد؛ لأن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره، وحسن ذلك لمجيئها بين أوصاف متقابلة قد يسبق إلى الوهم استبعاد الاتصال بها جميعا؛ فإن الأولية تنافي الآخرية في الظاهر، وكذلك الظاهرية والباطنية، فاندفع توهم الإنكار بذلك التأكيد) اهـ[١].

هذه الآية الكريمة التي ورد في فضلها الدعاء الذي فسرها به النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين يأتي مضجعه: «**اللهم رب السماوات، ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل**

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٨٩-٩٠).

شيء، فالق الحب والنوى، منزل التورارة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقضِ عنَّا الدين، واغننا من الفقر»[١].

كان يدعو صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهذه الأسماء الحسنى التي معرفتها جماع العلم والمعرفة.

وذكر ابن كثير في تفسيره في (سورة الحديد) -وهي من سور المسبحات- أن هذه الآية خير من ألف آية، لكن هذا الأثر لا يصح سنده.

وفسرها النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أيضًا كما في حديث عمران بن حصين قال: فدخل ناس من أهل اليمن فقال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم**»، قالوا: قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء**»[٢]، فالخلق كلهم كانوا عدمًا وما كانوا شيئًا، و(كان) هنا تامة وليست ناقصة؛ أي: لا تحتاج إلى خبر لكي تتم الجملة.

وهذا تفسير اسمه (الأول) سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فليس قبله شيءٌ، ثم أوجد الله عَزَّوَجَلَّ الخلق بقدرته، وإرادته.

والخلاف بين العلماء في مسألة أول مخلوق أهو العرش، أو القلم، أو الماء الذي فوقه العرش؟

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) رواه البخاري (٤٥٠٩) من حديث عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والنص الصحيح في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، فقال: ما أكتب، قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»(١).

وبهذا يترجح أن القلم هو أول المخلوقات بسبب هذا النص الصحيح، وهو الذي جرت به المقادير، وكتب الله عَزَّ وَجَلَّ به المقادير في تلك اللحظة، وقد جف على علم الله عَزَّ وَجَلَّ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جف القلم على علم الله...**»(٢) أي: كتب ما علم الله أنه سيكون.

وكذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث ابن عباس: «**رفعت الأقلام وجفت الصحف...**»(٣). وهذا الأمر على الاختلاف فيه يثبت أن هناك مخلوقًا أولًا لم يكن قبله مخلوق، وهذا خلافًا لما قد يفهم من كلام شيخ الإسلام من وجود مخلوقات لا أول لها، وهذا كلام فاسد دلَّت الأحاديث على بطلانه، والفطرة تنبذه بلا شك، فما من مخلوق إلا وقبله مخلوق أول.

- والتفكر في أول مخلوق وكان قبله العدم، ولم يكن إلا الله عَزَّ وَجَلَّ يقتضي شهود فقر العباد فقرًا تامًا، فهم بدأوا من العدم المحض، ومروا بمراحل هي أشبه بالعدم لا يقدرون على شيء، فالإنسان كان ماءً وطينًا، قال تعالى: ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا**﴾ [الإنسان:١] وهذا تقرير خبر، أي: قد أتى على الإنسان وقت لم يكن شيئًا مذكورًا.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢١٥٥)، وأبو داود (٤٧٠٠) وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: رواه الإمام أحمد في «المسند» (١١/ ٢١٩)، والترمذي (٢٦٤٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٨٤)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٧٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) تقدَّم تخريجه.

فهذا الإنسان الذي يأمر، وينهي، ويتكبر، ويتجبر، ويقتل، ويسفك الدماء، ويسرق الأموال، ويغصب الفروج، ويفعل أنواعًا من الشرور كان عدمًا، ثم أشبه بالعدم، ثم ولد عاجزًا فقيرًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]. فعلام الطغيان؟!

ومن علامات فقر الإنسان أنه يرحل رغمًا عنه، ولابد له من نهاية، بل وحتى الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ الذين يُخَيرون ويُستأذن عليهم في الموت، لابد لهم من نهاية، لا مفر منها لجميع الخلق.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن عبدًا خَيَّرَهُ الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله**»(١) **يقصد نفسه** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والإنسان فيما بين بدايته العاجزة الفقيرة، ونهايته الأكيدة التي يرغم عليها، يعيش فيما بينهما فقيرًا إلى الله، مربوبًا، مقهورًا لا يملك لنفسه شيئًا فضلًا عن غيره.

وإنما يحصل الطغيان بسبب نسيان الإنسان لفقره وعجزه، وغفلته عن ذلك. قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق]. فكل ما يملكه الإنسان هو عارية مستردة وظل زائل، بل سمعه، وبصره، وقوته كلها عوارض أعطيت له بلا إرادة، وكل المخلوقات كذلك فيها الفقر الذاتي إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا أيقن الإنسان بذلك توكل على الله وحده، واعتمد عليه وحده، وفوَّض أمره إليه وحده.

ومن أعظم ما يشاهد العبد في هذا الفقر: افتقاره إلى الألوهية لله عَزَّوَجَلَّ؛ فإذا شهد نفسه في هذا العدم المحض، ثم شهد نفسه بعد ذلك قد وُفِّق إلى عبادة الله عَزَّوَجَلَّ فيحقق ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] فإن الله عَزَّوَجَلَّ وفَّقه لعبادته سبحانه، فلا ينسب

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٩٠٤)، ورواه مسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لنفسه ولا يرى لنفسه فضلًا، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن ذا الذى شفع لك فى الأَزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا حتى سمَّاك باسم الإسلام، ووسمك بِسِمة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأَقطعك فى ذلك الغيب عمالات المؤمنين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأَعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد، ثم وجَّه وجهة قلبك إليه سبحانه دون ما سواه، فاضرع إلى الذى عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدق فى القدم، أن يتمَّ عليك نعمة هو ابتدأَها وكانت أوليتها منه بلا سبب منك، واسْمُ بهمَّتِك عن ملاحظة الاختيار ولا تركننَّ إلى الرسوم والآثار، ولا تقنع بالخسيس الدون، وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التى لا تنال إلا بطاعة الله. فإن الله سبحانه قضى أن لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمَن أقبلَ إليه تلقَّاه من بعيد، ومن تصرَّف بحوله وقوته ألانَ له الحديد، ومَن تركَ لأجلِه أعطاه فوق المزيد، ومن أرادَ مراده الدينى أَراد ما يريد. ثم اسْمُ بسرِّك إلى المطلب الأعلى، واقصرْ حبَّك وتقرُّبَك على مَن سبقَ فضلُه وإحسانُه إليك كلَّ سببٍ مِنك، بل هو الذى جاد عليك بالأسباب، وهيَّأ لك وصرف عنك موانعَها، وأوصلك بها إلى غايتك المحمودة. فتوكَّلْ عليه وحدَه وعامله وحدَه وآثر رضاه وحده. واجعلْ حبَّه ومرضاته هو كعبةُ قلبك التى لا تزال طائفًا بها، مستلمًا لأركانها، واقفًا بملتزمها، فيا فوزك ويا سعادتك إن اطَّلعَ سبحانه على ذلك من قلبك، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخلع أفضاله: «**اللَّهُمَّ لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**» اهـ[1].

وحتى الرسل -عليهم جميعًا الصلاة والسلام- وهم أعلى الناس قدرًا فإنهم مأمورون بشهود ذلك، قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ** ﴿٦﴾ **وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ** ﴿٧﴾ **وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴾ [الضحى].

(١) «طريق الهجرتين» لابن القيم (٢٥) ط. دار الكتب العلمية.

وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلى الخلق قدرًا يمنُّ الله عَزَّ وَجَلَّ عليه بهذا، وكذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٣٧].

- وشهود الأولية لله عَزَّ وَجَلَّ، واستشعار الافتقار إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعالج أمراض القلوب التي أشقت البشر، فإن أخطر الأمراض كالكبر، والحسد، والحقد، وغيرها إنما تكون بسبب عدم شهود ذلك، بل وعامة الكفر منشؤه من هذه الصفات السيئة، ومن يُطالع صفات اليهود ويتأملها يعلم أن سبب كفرهم، وإفسادهم في الأرض هو الحقد والحسد.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لو آمن بي عشرة من اليهود ما بقي على ظهرها يهودي إلا أسلم**»[1]، وإنما منعهم الحقد، والحسد، فآمن عبد الله بن سلام، وميمون بن يامن، ولم يؤمن بقية اليهود، وهم عنوان لكل فساد وشر في الأرض، وهم سبب إفساد دين النصرانية، وهم من أخرجوا الشيوعية، والعلمانية، والوجودية، وكل ذلك بسبب كبرهم وحسدهم.

۞ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ ...﴾ اسم الله (الآخر) فسَّرَهُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه الذي ليس بعده شيء، فهو سبحانه الباقي بذاته، وما شاء الله أن يبقيه من خلقه فهو باقٍ بإبقاء الله عَزَّ وَجَلَّ له ولا تعارض، فإن الجنة والنار لا يبيدان، ولا تفنيان وذلك بنص الكتاب والسنة، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:٥٧]، وبيَّن ذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ عن أهل الجنة: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم:٢٣]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت...**»[2] الحديث.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٢٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٤٥٣)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويكون خلود الكائنات وبقاؤها إنما هو بإبقاء الله عَزَّوَجَلَّ لها، لا أنها تبقى بنفسها، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ الآية [هود:١٢٣].

وشهود هذا يجعل العبد لا يعتمد ولا يتوكل على غير الله، ويجعله يخلص عمله لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الآخر الذي لا شيء بعده، وإذا شهد ذلك فإنه لا يبيع دينه لأجل أحد، أو تملق أحد، أو نيل حظوة أو منزلة عند أحد؛ لأن الجميع إلى زوال وفناء، والله عَزَّوَجَلَّ هو الآخر، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

ولذا كل ما ابتُغِي به غيرُ وجه الله عَزَّوَجَلَّ كان هباءً منثورًا، وما كان ابتغاء وجه الله فهو الباقي بإذن الله، ومن علم ذلك استعان بالله وحده، وتوكل عليه وحده، وشهد فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واعترف بنعمه فجلب لنفسه شكر ربه.

۞ وقوله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾؛ اسم الله عَزَّوَجَلَّ (الظاهر) كما فسَّرَهُ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**الظاهر الذي ليس فوقه شيء**»[1]، وهذه الفوقية هي علوه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على عرشه، كما أنها ظهور الغلبة والقهر، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] وهذا أمر فطري فطر الله عَزَّوَجَلَّ عليه عباده، وجعلهم يجدونه في أنفسهم -مؤمنهم وكافرهم- أن خالق السماوات والأرض فوقهم، فهو الظاهر الذي علا فوق كل شيء بظاهريته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ هو عَزَّوَجَلَّ الباطن الذي ليس دونه شيء، أي: لا يحجبه شيء عن شيء، ولا يبعده شيء عن شيء قدرةً وإحاطةً وعلمًا، والمخلوق يحجبه مخلوق مثله عما هو دونه، لكن الله عَزَّوَجَلَّ هو الباطن فليس شيء أقرب إلى الخلق منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قُرْبَ العلم، والإحاطة والقدرة، والسمع، والبصر، والإرادة النافذة.

---

(١) سبق تخريجه.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقل الباطن الذي هو باطن كل شيء أو داخل كل شيء؛ لكن معناه الذي ليس دونه شيء مع علوه وفوقيته فوق العرش سبحانه، وحينما نقول قرب، علم، وإحاطة، وسمع، وبصر، وإرادة نافذة، فهذا معنى قرب العلم والإحاطة وليس أن القرب هو العلم فقط، فإن ذلك لغة وشرعًا فيه نظر. ولا تُفَسَّرُ هذه الكلمة بتلك الكلمة.

ولا يقال قريب بمعنى عالم، بل القرب أخصُّ؛ لأنه يشمل العلم، والإحاطة، والقدرة، والإرادة النافذة، وليس العلم فقط، وإنما مع شهود وقرب.

وهذا المعنى الوارد في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ**﴾ [ق:١٦] قال البعض إن هذا قرب الملائكة. لكن الصحيح أنه قرب الرب عَزَّوَجَلَّ، والآية صريحة في بيان ذلك. ولا يستلزم ذلك حلولًا، ولا مماسَّة، ولا اتحادًا، ولا ينافي علوه سبحانه فوق عرشه، وهو قرب يليق بجلاله وعظمته عَزَّوَجَلَّ، بل هذا القرب في الحقيقة يقتضي المغايرة، ويقتضي أن الخالق غير المخلوق، وينافي الحلول، لأن القريب من أحد لا يكون قريبًا من نفسه، بل من شيء مختلف عنه، ولا خلاف بين أهل الإسلام -وليس أهل السنة فقط- أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يحل في مخلوقاته، وأنهم لا يتحدون به، بل اعتقاد الحلول والاتحاد بين الله والمخلوق كفر لا شك فيه، ومعنى قرب الله عَزَّوَجَلَّ من خلقه لا يحتاج إلى تأويل، وإنما يحتاج لبيان لوازمه.

والربُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أقرب إلى عبده من نفسه التي بين جنبيه، بل لا يدري الإنسان عن حقيقة نفسه بكاملها، ولا يدري كل ما يحدث فيها، والعلوم الحديثة المتعلقة بالنفس الإنسانية مثل الطب النفسي، والتحليل النفسي تثبت كل يوم أن الإنسان له في أغوار نفسه وأعماقها أشياء لا يعلمها، ودوافع، وخواطر، ورغبات لا يحيط بها، وهذه الدوافع

أعمق بكثير من البدن الظاهر، ومع ذلك لم يستطع الإنسان الإحاطة ببدنه الظاهر فضلًا عن داخله ونفسه.

قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنما تدعون سميعًا بصيرًا قريبًا، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته...**»(١) الحديث. وذلك هو القرب العام لجميع الخلق -مؤمنهم وكافرهم-.

وهناك القرب الخاص بالمؤمنين وهو قرب المحبة والتكريم وهذا يتفاوت فيه الناس، قال تعالى: ﴿ **وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [الواقعة]، وقال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ: «**ومَن تقرَّب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة**»(٢).

فهناك من يتقرب من الله، وهذا القرب يقتضي قربًا من الله عَزَّوَجَلَّ لعبده، فهناك فعل العبد، وهناك فعل الرب سبحانه، يَقْرُب كما شاء ممن شاء من خلقه عَزَّوَجَلَّ، وهذا قرب توفيق، وإعانة، ومحبة، وتكريم كما أن له معية خاصة بعباده المؤمنين وهي: معية النصرة، والتأييد، والمحبة.

- والتعبد باسم الله عَزَّوَجَلَّ الظاهر يقتضي شهود أن الأوامر نافذة من عنده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ [السجدة:٥]، فإذا استحضر العبد ذلك علم أن الخلق كلهم مقهورون تحت أمر الله عَزَّوَجَلَّ وإرادته، وأن الأوامر نازلة من عنده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، وأنس بن مالك رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

ولذا لما قدم عمر الشام استقبل الناس وهو على بعيره، فقالوا: يا أمير المؤمنين لو ركبت برذونًا حتى يلقاك عظماء الناس ووجوههم، فقال عمر: لا أراكم ههنا، إنما الأمر من ههنا، وأشار بيده إلى السماء، خلوا سبيل جملي. فدخل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هيئة رثة، ولم يدخل في أبهة الملوك، بل في ثوبه المعتاد، وصلعته تبدو للشمس، يحمل خفيه على كتفيه، ويخوض ببعيره المخاضة، وهو رئيس الدولة الإسلامية التي هزمت أعتى الدول وأسقطت وفتحت دول الكفر، وأخذت بلاد الشام ومصر من الروم وبلاد فارس، ويقول لأبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّا كنَّا أذلَّ قومٍ فأعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله»[1].

وإذا استحضر العبد أن الأمور كلها نازلة من عند الله سبحانه، كالموت، والحياة، والغنى، والفقر، والضر، والنفع، والشفاء، والمرض وكل شيء، وأنه سبحانه ﴿ **يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**... ﴾ أثمر ذلك عند العبد احتقار الدنيا، ونظر إليها نظرة الصَّغار، والهوان، فلا يعظمها، ولا يرجوها، ولا يخافها، ولا يعتمد عليها.

- وكذلك هو الظاهر سبحانه تُعْرض عليه أعمال العباد، وتصعد إليه، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار**»[2] الحديث.

واستحضار ذلك من أعظم أسباب الإخلاص والتوكل، وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] وهذا أصل الدين، وأصل العبودية، لأن مبناه على شهود علوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الأوامر كلها من عنده سبحانه، ولذلك لا يلتفت قلب العبد أبدًا إلى المخلوقين بل يكون همه، والتفات قلبه، وشغله الشاغل في مرضاة ربه

---

(١) أصل القصة رواها الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٣٠) (٢٠٧)، والذهبي في «العلو» (١١٧) وقال إسناده كالشمس، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٩٣) من رواية طارق بن شهاب.

(٢) رواه مسلم (١٧٩)، وأحمد (٤/ ٤٠١) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الأمر من عنده سبحانه، وإليه تصعد أعمال العباد، واستحضار ذلك يهوِّن على الإنسان سلوك طريق الاستقامة وترك ما لا يرضي الله عَزَّوَجَلَّ ابتغاء وجهه.

- وأما التعبد باسم الله عَزَّوَجَلَّ (الباطن): فإذا استحضر العبد انكشاف البواطن كلها لله سبحانه، وأن البعيد هو عند الله قريب، وأن السر عنده علانية، وأن الغيب عند الله شهادة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ** ﴾ الآية [الرعد:١٠]؛ أثمر ذلك مراقبة العبد لربه سبحانه، وانشغاله بإصلاح سره؛ لأنه علانية عند الله، وبتزكية باطنه لأنه ظاهر عند الله، وبإصلاح غيبه لأنه عند الله شهادة، وعند ذلك يستوي السر والعلانية في الصلاح، ولا يكون هناك فرق بين ظاهره وباطنه؛ بل قد يصل إلى أن يكون باطنه خير من ظاهره.



وقوله سبحانه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ... ﴾ الآية [الفرقان:٥٨].

هذه الآية الكريمة تتضمن إثبات صفة الحياة الكاملة الأبدية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأوجب فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التوكل عليه، فإن التوكل من أعمال الإيمان ومن أركانه، ولا يُقبل أن يزول مطلق التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ من قلب العبد؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ علَّق الإيمان عليه فقال: ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة:٢٣]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾ [آل عمران:١٢٢] فدلَّ ذلك على انتفاء الإيمان إذا انتفى التوكل.

ومعنى التوكل: أن يعلم العبد أن الله وحده هو: النافع، الضار، المعطي، المانع، الخافض الرافع، وأن الأمور كلها بيد الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم يعتمد بقلبه على ربه عَزَّ وَجَلَّ، ويثق بربه غاية الوثوق في جلب مصالح دينه، ودنياه، وآخرته، ولا يكون له اعتماد بقلبه على نفسه، ولا على غيره، بل يكون اعتماده وثقته بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالتوكل علم وعمل، وأعظم أنواع التوكل هو التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ في أمر الآخرة، وزيادة الإيمان، ونصرة الدين.

ومن يَزُل من قلبه ذلك فيظن أن بعض الأمور أو كلها تجري بغير إرادة الله عَزَّ وَجَلَّ وبغير ملكية الله لها فلا يكون مؤمنًا، والمؤمن يعلم أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا من أمر دينه ودنياه دون توفيق الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا اعتقاد أهل الإيمان وأهل الصلاح.

وأهل الجنة يقولون: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ**﴾ الآية [الأعراف:٤٣]، وخليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو ربه فيقول: ﴿**رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى**﴾ [إبراهيم:٤١].

والمؤمنون يوقنون أن الثبات على الحق إنما هو من عند الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى عن نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء].

وقال عَزَّوَجَلَّ عن نبيِّه شعيب عَلَيْهِالسَّلَامُ وهو يخاطب قومه: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الأعراف:٨٩].

والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يتوكلون عليه سبحانه في أعظم مهمات أمورهم وهو أمر الدين، وأمر الآخرة، وتحقيق عبادته سبحانه، فليس انشغالهم بأنفسهم وذواتهم؛ بل ما يشغلهم ويهتمون به إنما هو نصرة الدين، وهم يعلمون أنهم لا ينالون ذلك إلا بالله ولن يوفقوا إلا بالله، قال تعالى عن نبيه شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨].

والنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبر أمته أن دخول الجنة، ونيل رضوان الله عَزَّوَجَلَّ هو محض فضل من الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يثقون بغيره في تحصيله، وعلَّم أصحابه تلك المسألة بقوله: «**اعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغدمني الله بفضل ورحمة**»(١).

فإذا كان هو صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو خير الخلق لا يعتمد على عمله، ولا على عبادته، ولا جهاده ولا يتوكل عليه؛ وإنما يرجو رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أن يتغمده سبحانه بها، فَمَنْ بعد خير خلق الله عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ يكون له عمل يمكن أن يعتمد عليه في دخول الجنة، وفي نيل رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ!

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

- كذلك أهل الإيمان يتوكلون على الله عَزَّوَجَلَّ في تحصيل منافعهم، ودفع المضار عنهم، وفي صرف أعدائهم عنهم، وفي نصرتهم على من عاداهم وخالفهم، ويتوكلون على الله عَزَّوَجَلَّ في أمر معاشهم، وأرزاقهم، وأموالهم، وأولادهم، ويوقنون أن الأمور كلها بيد الله عَزَّوَجَلَّ كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لو أنكم توكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتعود بطانًا**»(١).

ثم إنه بيَّن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لماذا لا يصح التوكل إلا عليه، فقال سبحانه: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان:٥٨] ذلك أن له الحياة الكاملة الأبدية التي لا يعتريها نقص، وأي أحد سواه سبحانه لا بد له من نهاية، وهو سبحانه الذي يهب الحياة لمن شاء من خلقه، وهو الذي يأمر بنهايتها، وحياة المخلوقين هذه يعتريها النقص، فهي غير مستمرة وغير كاملة، ومآلها إلى الموت، وإذا أيقن العبد بذلك فوض أموره كلها إلى الحي الذي لا يموت.

ولذلك يحرم على الإنسان أن يتلفظ بالتوكل على غير الله، فلا يُقال توكلت على فلان، بل لا يجوز أن يقرن مع الله عَزَّوَجَلَّ غيره في لفظ التوكل، مثل أن يقول توكلت على الله وفلان، ولم يرد في كتاب ولا سنة أن يكون الوكيل بمعنى الحسب والكافي غير الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما يجوز استعمال لفظ الوكيل باعتقاد المثلية والبَدَلِية عن الإنسان؛ كأن يقول: وكلتُ فلانًا بكذا، أو فلان وكيلي، من غير استعمال حرف الجر (على)، كما هو الأمر في الأحكام الفقهية في الوكالة وغيرها.

قال الشيخ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (هذه الجملة من الآيات ساقها المؤلف لإثبات بعض الأسماء والصفات.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٣٣٢)، والترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فالآية الأولى فيها إثبات اسمه الحي، كما تضمنت سلب الموت الذي هو ضد الحياة عنه، وقد قدمنا أنه سبحانه حي بحياة هي صفة له لازمة لذاته، فلا يعرض لها موت ولا زوال أصلا، وأن حياته أكمل حياة وأتمها، فيستلزم ثبوتها له ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة) اهـ[(١)].

وصفة حياته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هي صفة لازمة له عَزَّوَجَلَّ وليست من الصفات التي تتعلق بالقدرة أو بالمشيئة، لأن كمال الحياة لا يتعلق بالقدرة أو بالمشيئة، فلا يصح أن يقال هو حي إذا شاء ويموت إذا شاء، بل صفات الأفعال هي التي تعلق على المشيئة.

بل إن صفة الإرادة هي التابعة لصفة الحياة، وصفة القدرة تابعة لصفة الحياة، والأمم المنكوسة التي تعتقد موت الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: كالفراعنة، والرومان، واليونان، وكذلك النصارى الذين تأثروا بالفلسفة الدخيلة على ما جاءت به الرسل، كل هؤلاء يقولون بموت الرب -تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا-.

وتميزت عقيدة أهل الإسلام -بحمد الله- بهذا المقام، وإثبات صفات الله عَزَّوَجَلَّ وما يليق به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وما يجب أن يُنزه عن مثله.

وهؤلاء العجزة الذين ماتت عقولهم في الحقيقة حين يثبتون موت الرب -زعمًا وخرصًا وكذبًا- فإن من عنده أقل مسحة من عقل سيقول في نفسه: كيف يهب الحياة لجميع الأحياء من لا يتصف بها؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

ولم يقل بهذا الكلام أحدٌ ينتسب إلى الأنبياء؛ إلا النصارى الضالون؛ ورثوا ذلك الاعتقاد الكفري من كلام أهل الجاهلية، واعتقدوا ألوهية المسيح، وخصوصًا منهم طوائف النصارى الذين يعتقدون أن المسيح طبيعة واحدة، وأن الذي مات في اعتقادهم

---

(١) شرح الواسطية للشيخ محمد خليل هراس (٩٠) ط. دار الهجرة.

على الصليب هو الرب نفسه، -سبحانه وتعالى عمَّا يقول الظالمون والكافرون علوًّا كبيرًا-.



٣- إحاطة علمه عَزَّوَجَلَّ بجميع المخلوقات

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم:٢]، ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم:٣]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ:٢]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر:١١]، وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الآيات المتضمنة لإثبات صفة العلم بذكر الاسم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، وإثبات الفعل ﴿يَعْلَمُ﴾، وإثبات المصدر ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، ولذا فرّق بين هذه الآيات التي فيها المصدر والتي قبلها لأن فيها التصريح بالصفة، وهي من الصفات المعلومة من الدين بالضرورة مثل صفة الحياة، وقد كثر بيانها في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

- وقد أورد بعض أهل العلم تعريفًا لصفة العلم مثل ما أورده الشيخ محمد خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: (العلم صفة لله عَزَّوَجَلَّ بها يدرك جميع المعلومات على ما هي به، فلا يخفَ عليه فيها شيء كما قدمنا) اهـ[١].

لكن الحقيقة أن العلم أصلًا لا يحتاج إلى تعريف، لكن هي طريقة من تأثر بدرجة ما بطريقة المتكلمين أنه لابد أن يذكر تعريفًا.

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (ص٩٠).

ومن شروط التعريف أن لا يستعمل فيه أي لفظ من مادة المعرَّف؛ لكن من يعرِّف الصفة يستعمل لفظ (المعلومات) التي أحاط بها العلم، وعلى هذا نكون قد فسرنا الماء بالماء.

والفطرة الإنسانية مرتكزٌ فيها معنى العلم، أنه تنكشف به الأمور وتتضح به الخفايا، وكل صفات الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنما يدرك الإنسان معانيها مع اعتقاده أن الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، بمعنى أن الكيفية مجهولة لكن المعانيَ يُدْركها الإنسان بفطرته، لكن تعريف الصفة بتعريف محدد حينئذٍ، يكون التعريف ضيقًا وقاصرًا؛ لأن الصفات أوضح من أن تحتاج إلى توضيح.

- ووردت صفة العلم في كتاب الله على المصدرية، والاسم، والإضافة، فوردت ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ و﴿عِلْمٌ﴾ و﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ و﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، وبعضها ورد معرفًا بالألف واللام ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وطريقة القرآن في ذكر هذه الصفة العظيمة هي تَدَبُّرُ ما أحاط به علم الله عَزَّوَجَلَّ مما يعجز البشر عن الإحاطة به؛ لأنه لا طاقة لمخلوق في أن يحيط بذلك، ولذلك طريقة القرآن تجعلنا نتفكر في متعلقاتها وآثارها في هذا الوجود.

۞ كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ الآية، فيتأمل الإنسان ما يلج في الأرض أي: ما يدخل فيها في كل لحظة من لحظات يوم واحد من أول النهار إلى آخره، كم بذرة بُذِرَت في الأرض! وكم من قطرة ماء تدخل الأرض وتمتلئ بها! وكم من البشر ماتوا في ذلك اليوم ودفنت أبدانهم في باطن الأرض، فضلًا عن الكائنات الأخرى التي لا يشعر بها البشر! وأكثر من ذلك مما لا يمكن إحصاؤه، لكنْ يعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ الآية. ويعلم ما يخرج منها من نبات، ومن ينابيع الماء، ومن ثروات تستخرج من الأرض.

﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية، من أشياء محسوسة: من مطر، وصواعق، وشهب تنزل على الأرض، وما ينزل من السماء من ملائكة، وما ينزل من السماء من أرزاق، وما ينزل من السماء من مقادير، وبلايا ومحن، وأوامر منه سبحانه.

﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ ما يعرج إلى السماء ويصعد من أعمال العباد، ومن ملائكة تعرج إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وبما شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أمور.

فإذا تفكَّر الإنسان في هذا فإنه بلا شك ينكسر قلبه، ويعلم أن علمه محدود، ولا يغتر بعلمه أبدًا، بل الاغترار بالعلم من صفات الكفرة الذين ينسبون أنفسهم للعلم، وهم في الحقيقة لا يعلمون، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم].

۞ وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية، ومفاتح الغيب هي المذكورة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان:٣٤].

ومفاتح الغيب: بمعنى أصوله، وهي لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، والغيبيات كلها مرجعها إلى هذه الخمسة، فاستأثر الله عَزَّوَجَلَّ بها، ولم يُطْلع عليها مَلَكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا، وإنْ أطْلَعَ أحدًا من المخلوقين على شيء من ذلك فهو إمَّا على سبيل الإجمال لا التفصيل الذي تزول به صفة الجهل عنه بالكلية، بل لا يزال هناك شيء مجمل لا يدريه ولا يعرفه، كوقت الوقوع مثلًا، وهذا إذا كان مقطوعًا بحصول هذا المعلوم لهذا الكائن والمخلوق.

- والرسل -عليهم الصلاة والسلام- أطلعهم الله عَزَّوَجَلَّ على أشياء من الغيب، ومع ذلك هم لا يعلمون الغيب، وكيفية ذلك أنه عَزَّوَجَلَّ أطلع الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على أشياء، وهو صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبرنا بها مثل الأمور التي ستقع في يوم القيامة، وما يحدث فيها كالصراط، والميزان، والجنة، والنار، وأنه سوف يُعَذِّبُ أهل النار، ويُنَعِّمُ أهل الجنة بكذا وكذا، وتلك أمور قطعية، ويقينًا سوف تقع، لكن متى تقع؟ فهذا لم يعلمه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولذلك فإنه لو كان هذا الأمر المعلوم مقطوعًا بحدوثه ووقوعه يظل فيه جزء من الغيب قد استأثر الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه.

- وأيضًا قد يخبر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بشيء من أمور الغيب على التفصيل الكامل، لكن لابد وأن يكون معلقًا على مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، مثل ما حدث في غزوة بدر من إخباره صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليلة بدر بمواقع مصارع المشركين، وقال: «**هذا مصرع فلان غدًا إن شاء الله**»(١).

- ومثل ذلك عِلم المَلَك وهو يكتب تفاصيل عمل الإنسان، وما يكسبه في حياته، وهو في بطن أمه، فيُكْتَب أجله، وعمله، وشقي أم سعيد كما في الحديث: «**ثم يُرسَل المَلَك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد**»(٢)، ولكن كل ذلك معلق على مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ أن يمضي هذا القدر أو لا ينفذه، فإن الكتاب كتابان، كما قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿**يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ**﴾ [الرعد:٣٩] قال: (الكتاب كتابان، كتاب يمحو الله ما يشاء فيه

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٨٧٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٦١، ٦٢٤٩، ٧٠٥٦)، ومسلم (٤٩١١) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ويثبت، وعنده أم الكتاب)[١]، وبذلك فإن الإخبار بشيء من مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ لابد أن يكون معلقًا، إن شاء الله أمضاه وإن شاء غيَّر منه ما شاء.

وعِلْمُ الله الأزلي هو الذي لا يتغير، ولا محو فيه ولا إثبات في اللوح المحفوظ، كما ثبت في الآية السابقة، وكما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جف القلم على علم الله**»[٢].

ومن هنا فإن الآية الكريمة: ﴿**وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ**﴾ الآية، ليس فيها استثناء، وعندما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الاستثناء في الرسل قال: ﴿**عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا**﴾ [الجن] فهذا إخبار أن الرسل يخبرون عن أشياء من الغيب؛ لكن ليس بوصف يزيل عنها أنها غيب، بل تظل من مفاتح الغيب رغم إخبار الرسل بأشياء تقع في المستقبل لتكون من ضمن معجزاتهم، لَكِنَّ هذا يبقى فيه إجمال.

كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا**»[٣].

فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما عَدَّد هذه الأشياء لم يحدد مواقيت لأي منها، وشأن هذه الأشياء المخبر عنها شأن كل ما أخبر عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفصيلًا أنه سيقع: كظهور الدجال، ونزول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن لم يخبر بوقت ذلك.

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره بسنده عن ابن عباس (١٦/ ٤٨٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٣١٧٦) من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن هذا نعلم كذب من يخرج على الناس وجهله، فيقول: إن العالم سينتهي في عام كذا، أو إن القيامة ستكون بعد كذا من السنين، بل هذا من الخرافة والدجل.

وبعض من ينتسب إلى العلم والحديث قد وقع في خطأ من ذلك، وقال أن عُمْرَ الأمة لم يبقى منه إلا خمسمائة عام، وكان هذا في عام ٩٠٠ هجرية تقريبًا، وهذا كلام باطل قطعًا، وزلة من الزلات لابد أن يُرمى بها في بحور الظلمات؛ لأنه لا يعلم مفاتح الغيب إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

والنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما سأله جبريل عن الساعة قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن أخبرك عن أماراتها في خمس لا يعلمهن إلا الله**» وتلا رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ** ﴾ الآية [لقمان:٣٤][(١)].

وكما قال ابن عباس: «لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبيٌّ مرسل فمن ادَّعى أنه يعلم شيئًا من هذه -أي مفاتح الغيب- فقد كفر بالقرآن» اهـ[(٢)].

- وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ...** ﴾ الآية، هذا الأمر يرشد العبد إلى ما ينبغي له أن يستعمله عند إعمال فكره في آيات الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فهذا هو الطريق الصحيح الذي يولد الإيمان في قلب العبد المؤمن، فيستحضر به عظمة علم الله عَزَّوَجَلَّ وسعته، وليس التعريفات الكلامية، والاستدلال عليها بالطرق المنطقية الرياضية فهذه لا تثمر شيئًا في قلب العبد، بل الذي يثمر في قلبه هو التفكر فيما أحاط به علم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ويَطَّلِع العبد من ذلك على قلة علمه، بل علم العباد كلهم، فلا يغتر بما أُعطي من علم كما قال الخضر لموسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لما رأى عصفورًا وقف على حرف السفينة، فأخذ قطرة من

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ٨٢) ط. دار الفكر.

البحر، فقال: «ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر»[(١)].

وهذا الشهود لا يأتي للعبد إلا بأن يتفكر فيما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ولنتصور كَم في البر من كائنات؛ من حيوانات ونباتات على سطح الأرض، وفي الغابات، والسهول، والجبال، والصحاري، وسائر أجزاء البر، وما في باطنه أعجب وأعجب، وكذا البحر وما فيه من ممالك وعوالم، ولا يحيط علم العباد بذلك كله.

- قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فكم من الحبات بذرها الناس، وتلقيها الأشجار قد أحاط الله عَزَّوَجَلَّ بذلك كله! وتلك الأشجار والنباتات كيف تكون طريقة نبات كل منها، وكم عددها وأشكالها وما يبقى فيها من بذور تصلح للإنبات، وغيرها مما ييبس ويموت! وتلك الورقة التي تسقط من الشجرة في غابة من الغابات البعيدة كم تتقلب إلى أن تسقط وتصل إلى الأرض، وعلى أي وجه سوف تسقط، وكم ستبقى فيها إلى أن تصبح غثاءً أحوى، وتدفن بعد ذلك في الأرض، أو تتحول عبر السنين إلى شيء آخر مثل الوقود الذي يخرج من باطن الأرض، وكل ذلك قد كتبه الله عنده في اللوح المحفوظ، وجف القلم على علم الله عَزَّوَجَلَّ أنه يوجد في الوجود، وكل هذا لا يحيط به مخلوق.

- وتأمُّل العبد في ذلك وتفكُّره يشعره أنه مغلوب منكسر مقهور، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٤] خاسئًا أي ذليلًا، وهو حسير: أي عاجز وكليل عن الإحاطة فيشعر بالعبودية، وأنه مربوب، وأنه لا يمكن أن يصل علمه مهما بلغ إلى ذرة من علم الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان علم الخلق أجمعين كقطرة من البحر يأخذها عصفور في منقاره فكم نصيب العبد من هذه القطرة.

---

(١) سبق تخريجه.

- والآية فيها إثبات اللوح المحفوظ، وهو الكتاب المبين الذي قد جمع الله فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة.

وذَكَرَ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الكم من الآيات الكريمة التي فيها التصريح بصفة العلم ليدل على عقيدة أهل السنة، وأنه عَزَّوَجَلَّ عليم بعلمه سبحانه، وليس كقول المعتزلة القائلين: عليم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، لأنهم يثبتون الأسماء، وينفون الصفات، وهذا من بدعتهم وضلالهم.

واختلَّ الأمر عندهم عندما نفوا صفات الرب عَزَّوَجَلَّ بزعم أنها لو أُثْبِتَت يلزم منها تعدد واجب الوجود القديم، ولو أثبتت مع صفاته الأزلية لتعدد الواجب، وهذا شرك.

وهذا الكلام ضلال مبين؛ لأنهم استعملوا علم المنطق وعلم الرياضيات فيما ليس لهما وفيما لا يؤخذ منه، فأخذوا تلك الطرق وطبقوها على العقائد. والحق أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لم يزل عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته، وليس هذا من تعدد القديم، بل هو سبحانه واحد أحد لم تزل له أسماؤه وصفاته، وهذا الانفصال بين الصفة والموصوف انفصال ذهني أي: في ذهن الإنسان فقط وليس انفصالًا خارجيًّا حقيقيًّا. إذ لا يوجد علم مستقل، أو قدرة مستقلة وسمع مستقل لكي يُقال ما افترضه المعتزلة.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ ولنتأمل في هذه الكائنات المختلفة وما تحمله في بطونها، وليس فقط الإنسان ولكن جميع الإناث من سائر الكائنات -لا تحمل ولا تضع إلا بعلمه عَزَّوَجَلَّ- فقط علم عَزَّوَجَلَّ كل شيء عن هذا الكائن عمله ورزقه وأجله وشقي أم سعيد، ويعلم هذا الجنين أذكر هو أم أنثى!

وقد عصف ببعضهم الشك فقال: «قد علمنا بالطب الحديث نوع المخلوق في بطن الأنثى أذكر أم أنثى» وذلك في الحقيقة من الجهل بما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وبما اطَّلع عليه الناس

في المعارف الحديثة، فعلم الإنسان بما في بطن الأنثى إنما يكون بعد تكونه وحصوله، أما علم الله عَزَّوَجَلَّ فسابق على وجوده.

وكلما اتسع علم الإنسان كلما صدق ما أخبر به الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه وما أخبر به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وازداد يقينًا بأنه يجهل، وأما الكفرة والزنادقة وأنصاف المتعلمين -بل أرباعهم، بل أدنى من ذلك- فهم الذين يظنون أن العلم الحديث قد أحاط بكل شيء، والحق أن العلم كلما تقدَّم يجزم أهله أنهم لا يستطيعون أن يصنعوا شيئًا مثل صنع الله عَزَّوَجَلَّ، وغاية ما يفعوه وما يستطيعوه هو أن يوفروا الظروف المهيئة كي تستمر عملية الخلق كما أراد الله عَزَّوَجَلَّ، ومن ثَمَّ فعلم الإنسان يجب أن يكون وأفعاله لزيادة إيمانه، فكلما ازداد علمًا ازداد إيمانًا ويقينًا بأن هناك إتقانًا تامًّا، وأن هذا لا يمكن أن يصدر عن صدفة -كما يزعم الزنادقة والملاحدة والجهال- ولكنه الطمس على البصيرة، ولولا ذلك لكانت هذه العلوم الحديثة -كعلم الأجنة وغيرها- بما في رحم كل أنثى وما تحمل وما تضع سبيلًا لإيمان من يؤمن، ولكن ﴿ **خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ** ﴾ [البقرة:٧].

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا** ﴾ هذه الآية الكريمة كغيرها من الآيات التي تثبت صفة العلم لله عَزَّوَجَلَّ كما أثبتت القدرة له عَزَّوَجَلَّ، وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي أثبتها لنفسه حق على حقيقتها؛ فهو حي وله صفة الحياة المتصف بها أزلًا سبحانه، وسميع له سمع، وبصير له بصر، وقدير له قدرة، وعليم له علم، وهكذا لم يزل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متصفًا بصفاته أولًا وآخرًا.

والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، أن كل اسم يتضمن الصفة كما قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «الحمد الله الذي وسع سمعُه الأصواتَ، لقد جاءت المجادِلة

إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا** ...﴾ الآية [المجادلة]»[١].

وكذا كما في حديث الشفاعة قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله يجمع يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس منهم...**» الحديث[٢].

والصحيح في ذلك أن «**ينفذهم البصر**» أي: بصر الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحيط بهم جميعًا، وهذا إثبات للبصر. وكل صفات الله عَزَّوَجَلَّ هي قائمة بذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وليست منفصلة عنه وهذا عام في كل صفاته عَزَّوَجَلَّ، وليس ردًّا على المعتزلة في صفة العلم فقط، بل رد عليهم في نفيهم كل صفة من صفاته سبحانه.

قال الشيخ محمد خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد دلَّت الآيتان الأخيرتان على أنه سبحانه عالم بعلم هو صفة له، قائم بذاته؛ خلافا للمعتزلة الذين نفوا صفاته، فمِنهم مَن قال: إنه عالم بذاته، وقادر بذاته.. إلخ، ومِنهم مَن فَسَّرَ أسماءه بمعانٍ سلبية، فقال: عليم؛ معناه: لا يجهل. وقادر؛ معناه: لا يعجز.. إلخ.

وهذه الآيات حجة عليهم، فقد أخبر فيها سبحانه عن إحاطة علمه بحمل كل أنثى ووضعها من حيث المعنى والكيف؛ كما أخبر عن عموم قدرته، وتعلقها بكل ممكن، وعن إحاطة علمه بجميع الأشياء.

وما أحسن ما قاله الإمام عبد العزيز المكي[٣] في كتابه «الحيدة» لبشر المريسي المعتزلي وهو يناظره في مسألة العلم:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه «كتاب التوحيد» في ترجمة باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾.

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) هو عبد العزيز بن يحيى الكناني المكي الفقيه، تفقه على الشافعي وصاحبه، توفي سنة (٢٤٠هـ).

«إن الله عز وجل لم يمدح في كتابه «ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا» ولا مؤمنًا تقيًّا بنفي الجهل عنه؛ ليدل على إثبات العلم له، وإنما مدحهم بإثبات العلم لهم، فنفى بذلك الجهل عنهم ... فمن أثبت العلم نفى الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم»[1].

والدليل العقلي على علمه تعالى أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل؛ لأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم العلم بالمراد، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة ما يشهد بعلم الفاعل لها؛ لامتناع صدور ذلك عن غير علم.

ولأن من المخلوقات من هو عالم، والعلم صفة كمال، فلو لم يكن الله عالما؛ لكان في المخلوقات من هو أكمل منه.

وكل علم في المخلوق إنما استفاده من خالقه، وواهب الكمال أحق به، وفاقد الشيء لا يعطيه.

وأنكرت الفلاسفة علمه تعالى بالجزئيات، وقالوا: «إنه يعلم الأشياء على وجه كلي ثابت»، وحقيقة قولهم أنه لا يعلم شيئا؛ فإن كل ما في الخارج هو جزئي.

كما أنكر الغلاة من القدرية علمه -تعالى- بأفعال العباد حتى يعملوها؛ توهمًا مِنهم أن علمه بها يفضي إلى الجبر، وقولهم معلوم البطلان بالضرورة في جميع الأديان)[2].

وبلا شك أن طريقة القرآن تملأ القلب بالمعاني الإيمانية، بخلاف المعاني الفلسفية والتأثر بالطرق الكلامية، والأمثلة على ذلك مبسوطة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، كما في هذه

---

(١) «الحيدة» (ص٣٠) ط. الجامعة الإسلامية.

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ محمد خليل هراس (٩٢-٩٤) ط. دار الهجرة.

الآيات وغيرها، وكذا في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق:١٢] يأمرنا القرآن أن نتدبر خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للسماوات السبع والأراضين السبع، وما في كل سماء وأرض من خلقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن أدلة قدرته سبحانه.

وكان ابن عباس يقول: «لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم، وكفركم تكذيبكم لها»(١)، والمعنى في كلام ابن عباس: وجود مخلوقات وكائنات أخرى في الأرضين السبع، ولا شك أن السماوات فيها مخلوقات كما أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا فيها ملك واضع جبهته ساجدًا لله...**» الحديث(٢).

وهو سبحانه قد أحاط علمًا بكل مخلوق من هذه المخلوقات، وقدرته عَزَّوَجَلَّ شاملة كل هذه الموجودات.

❁ ❁ ❁

(١) ذكره الطبري في تفسيره بسنده (٢٣/ ٤٦٩) عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٣١٢)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٢) من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٤- إثبات اسمه عَزَّوَجَلَّ (الرزاق) و(ذو القوة) و(المتين)

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨].

هذه الآية الكريمة تضمنت إثبات اسم الله عَزَّوَجَلَّ (الرزاق)، واسمه (ذو القوة)، واسمه (المتين) سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وقد ذكرها سبحانه ضمن أمره عباده بعبادته، وأنه ما خلقهم إلا من أجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات].

والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يرزق عباده؛ فهو لم يخلقهم ليرزقوه أو يطعموه، بل هو عَزَّوَجَلَّ منزه عن أن يُطعم، أو يُرزق، أو يُعطى؛ لأن ذلك من علامات الفقر، وهو عَزَّوَجَلَّ الغني، وهو سبحانه مستغنٍ عن خلقه جميعًا، وهو الرزاق سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وقد أمرنا سبحانه بذكر نعمته ورزقه، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:٣].

فليتأمل العباد ما أنعم الله عليهم من أنواع الأرزاق المختلفة، فهو عَزَّوَجَلَّ يرزقهم رزقًا بعد رزقٍ، ولذلك وَرد اسمه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بهذه الصيغة، صيغة المبالغة ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ ولم يرد باسم (الرازق)، وهو سبحانه الرازق من جهة المعنى؛ لكن لما كان رزقه تعالى في كل لحظة، وفي كل طرفة عين، وفي كل نَفَس، ولا يستطيع أحد أن يستغنى عن رزقه طرفة عين -ورد باسم ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ بصيغة المبالغة.

وهو سبحانه يرزق من شاء ما يشاء من الدنيا، كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ١٨﴾ [الإسراء].

ويرزق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من شاء الآخرة، فيرزق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الدين لمن شاء، والطاعة لمن شاء، وهذه أعظم الأرزاق، وأفضل العطايا، وهو عَزَّ وَجَلَّ يرزق عباده بأنواع الرزق، ولا ينقص ذلك مما عنده، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السماء والأرض؟ فإن ذلك لم يغض ما في يمينه، وعرشه على الماء وبيده الأخرى القسط يرفع ويخفض**»(١) ومعنى يغيضها: ينقصها، أي ملأى لا تنقصها نفقة.

- فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرنا أن نتفكر فيما رزق الله عَزَّ وَجَلَّ عباده، وأنعم عليهم منذ خلق السماوات والأرض، فكم من الأقوام قبلنا قد رزقوا أموالًا، وأهلًا، وأولادًا، ومُلكًا، ورئاسةً، ثم أتى جيلٌ بعدهم، بل أجيالٌ في المشارق والمغارب! وكل ذلك عطيته ورزقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعباد كسبهم وعملهم في دائرة صغيرة جدًّا، وهو في نهاية المطاف هو فعل الله عَزَّ وَجَلَّ، وعطاؤه في رزقهم سابقٌ ولاحقٌ على أفعالهم.

- وليتأمَّل الإنسان في النبات الذي يأكله، ما هو حد فعله فيه وما كسبه فيه؟ والله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي أوجده من العدم، وجعله مستقرًا في هذه الأرض، ثم أخرجه منها مثمرًا أنواعًا من الثمار.

وهذا الماء الذي نشربه جعله سبحانه في السماء ينزل منها حيث يشاء، وهو عَزَّ وَجَلَّ الذي يسوق السحاب بقدرته عَزَّ وَجَلَّ، ثم يمسكه في السماء كيف يشاء، ثم يجعله كِسَفًا بلا تدخل من أحد من البشر، وهم لا قدرة لهم على ذلك، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى

---

(١) رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٣٦) من حديث أبي هريرة وهذا لفظ مسلم وعند البخاري «وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع».

﴿ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم:٤٨]. وكل ذلك بلا صنع من البشر، فينزل على أماكن محددة من الأرض بتقديره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي أماكن متفرقة، ثم يجريه عَزَّوَجَلَّ أنهارًا تسير في أخاديد أوجدها سبحانه أولًا، ثم هدى الناس بعد ذلك لحفر الآبار، أو إجراء القنوات والأنهار الصغيرة، ثم بعد ذلك يصل الماء إليهم يشربون وينتفعون به، وهذا كله يبين أن فعل الله عَزَّوَجَلَّ سابق على كسبهم ولَاحِقٌ عليه، ولو شاء تعالى لجعل هذا الماء ملحًا أجاجًا، أو مُرًّا لا يستطيعون الانتفاع به، ثم بعد ذلك إذا دخل هذا الماء إلى أجسامهم أوصل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا الرزق بقدرته إلى أجزاء البدن، ولو أن تلك الشربة من الماء ما سارت في مسارها الصحيح لحصل أعظم الضرر، بل ربما كانت قاتلة، فالإنسان يشرب كل يوم مرات عديدة، وهي تسير في مسارها إلى أن تخرج بعد ذلك في مساراتها المختلفة التي خلقها الله عَزَّوَجَلَّ، فسبحان الله الذي سخر ذلك للإنسان.

- وكذا النبات الذي زرعه الناس واستنبتوه، كم يبلغ عملهم، وجهدهم، وكسبهم بالنسبة إلى رزق الله عَزَّوَجَلَّ؟! وهو سبحانه رزق العباد الحياة، والسمع، والبصر، والبطون، والفروج، والأيدي، والأرجل، وجميع ما فيهم، وكل هذا رزقه -سبحانه- ومِنَّتُهُ من غير مقابل، بل هبة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأنه عَزَّوَجَلَّ الوهاب.

- ولو تفكَّر الإنسانُ في قيمة ما وهبه ربه عَزَّوَجَلَّ لعجز عن إحصاء قيم هذه الأشياء، بل إذا حدث للإنسان أي ضرر في عضو من أعضائه ولو كان جرحًا صغيرًا، فكم يدفع من المال، ويبذل من الجهد كي يلتئم جلده ويعود كما كان مرة أخرى.

وليتفكَّر العبد في فضل الله عَزَّوَجَلَّ عليه ونعمته إذ جعل له العقل والتفكير، وليتأمل ماذا لو لم يرزق الإنسان القدرة على إدراك ما حوله! لما استطاع أهل الأرض جميعًا أن يعطوه ذلك.

- بل يتأمل الإنسان في كل شخص حينما كان في بطن أمه، كيف أجرى الله عَزَّوَجَلَّ له الرزق وهو في ذلك الغيب حتى يتكون ويتشكل، وبمجرد ولادته يجري الله عَزَّوَجَلَّ له اللبن في ثدي أمه من حيث لا تدري أمه، ولا يدري هو، وهذا الرزق المناسب لحاله، ولا يوجد في الدنيا شيء يماثله.

وكل مخلوق له رزقه قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**﴾ [هود:٦] فهو عَزَّوَجَلَّ يرزق كل المخلوقات أحادًا وجماعات، بشرًا وحيوانات، وحشرات في باطن الأرض، وكائنات في أعماق البحار.

وكما رزق سبحانه العباد في حياتهم الدنيوية أرزاقًا مختلفة، كذلك رزقهم الإيمان والإسلام، ورزق من شاء منهم ووفقه وأقام عليه الحجة ببعثه رسله، والعلمُ النافع الذي جاء به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وهذا القرآن العظيم كلامه سبحانه مبسوطٌ متاحٌ لكلِّ من أراد أن يقرأه، وكذا سنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متاحة لكل من أراد أن يتعلمها، وهذا كله بلا مقابل يدفعه الإنسان، ولذا ورد في الأثر الإسرائيلي: «يا بن آدم عَلِّمْ مجانًا كما عُلِّمْتَ مجانًا»(١) وفوق ذلك أنه -سبحانه- يعطي الثواب العظيم لمن قرأ كتابه وتعلم ما فيه.

۞ وأما ﴿**ذُو ٱلْقُوَّةِ**﴾ فهو اسم من أسمائه سبحانه المضافة بـ(ذو)، وقد ورد جملة من الأسماء كذلك، مثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ**﴾ [غافر:١٥]، و﴿**أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي ٱنتِقَامٍ**﴾ [الزمر:٣٧]، و﴿**ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن:٢٧]، وقد عدَّها بعضُ العلماء في التسعة والتسعين اسمًا، وبعضهم لم يعدها في التسعة والتسعين

---

(١) أورده ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» برقم (٧٤٦).

اسمًا، والصحيح أنها من الأسماء الثابتة له عَزَّوَجَلَّ، والإضافة فيها لا تمنع من عدها ضمن التسعة والتسعين.

وأسماء الله عَزَّوَجَلَّ التسعة وتسعون هي في ضمن ما ورد في الكتاب والسنة دون أن يلزم بتحديد شيء منها، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يحددها على الصحيح، بل ما ورد من ذلك كان من اجتهاد الرواة، ومِن إدراج ما رأوه من اجتهادهم، وإنما أطلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من أحصى تسعة وتسعين اسمًا دخل الجنة ليجتهد الناس في الدعاء والتعبد بكل ما ورد في الكتاب والسنة، فيُشرع بلا شك التضرع والدعاء بالأسماء المضافة بـ(ذو) كما يُشرع بغيرها من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

و﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ يدلُّ على إثبات صفة القوة صراحة لله عَزَّوَجَلَّ وهو بمعنى: اسمه عَزَّوَجَلَّ (القوي)، واسمه عَزَّوَجَلَّ (القوي) يتضمن صفة القوة، وهنا تصريح بالمصدر وتصريح بالصفة، وهو عَزَّوَجَلَّ له القوة الحقيقية، وما بالعباد من قوة فمنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقوة العباد تنعدم إذا عُدِموا أو حرمهم -سبحانه- من القوة، وهذا أمر بالغ الأهمية لابد أن يستحضره العبد؛ أنه مفتقرٌ إلى ربه عَزَّوَجَلَّ ليعطيه تلك القوة، خصوصًا عندما يستشعر العلو والارتفاع والتعزز عند أرباب الدنيا، كما قال صاحب الجنة لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:٣٤] فأرشده المؤمن فقال له: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف:٣٩]؛ لأن القوة الحقيقية هي صفة الرب سبحانه، ولذا ذكَّره بحاله في ضعفه الشديد في بدايته، قال سبحانه عن المؤمن: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف:٣٧] فأي قوة إذن لهذا التراب وهذه النطفة؟!

- وهذا درسٌ لكلِّ من ينسى الذي أنعم عليه وأعطاه النعم، ثم يجحدها أو يتعالى بها، أن القوة الحقيقية لله عَزَّوَجَلَّ، وأن ما به من قوة إنما هي هبة من الله، ومحض جوده وفضله عَزَّوَجَلَّ، وأنها ليست ملكًا للعبد في الحقيقة، لأنها كانت عدمًا، وهو لم يعطها لنفسه.

فإذا سوَّلت نفسُ الإنسان له أن يتقوَّى بماله، أو سلطانه فليتذكر عندما كان نطفة هل كان له مالٌ يتقوَّى به، أو بدن يتقوَّى به؟! بل بالقطع واليقين أنه قد وُهِبَ تلك القوة. وكذلك حينما يتقوَّى الإنسان بأولاده، أو أتباعه، أو نفره، فمَن أعطاه القوة على الإنجاب ووهب له الولد، ومن أعطاه قوة العقل، وقوة السلطان، والمناصب التي جمع بها الأعوان، وسخر بها الناس يأمر فيهم وينهى!

وكل تلك القوة في الحقيقة ليست للإنسان، وإنما يُوهب ذلك. فليتذكر إذًا أن الله هو الرزاق ذو القوة سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وشعور الإنسان بأنه قوي ونسيانه أن قوته من الله هو من أكثر أسباب الكفر والتكبر على عباد الله، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة:١٦٥] فهم كانوا يتكبرون ويتخذون الأنداد لشعورهم بالقوة، فلو أنهم استحضروا أن القوة لله جميعًا لَمَا أشركوا بالله، ولَمَا أعرضوا عن ذكره، ولَمَا حاربوا دينه، ولَمَا اتبعوا الأنداد واتخذوها من دون الله سبحانه.

- وكل أنواع القوة التي تستعمل ويستخدمها الناس في حياتهم -بالعدل أو بالظلم- هي من نتاج قوة الإنسان في التفكير، أو البحث، والعمل، والنظر، وكلها في

الحقيقة هبة ورزق من الله عَزَّوَجَلَّ. وتزول هذه القوة ويحرم منها الإنسان رغمًا عنه -إذا شاء الله- وبالتالي لابد وأن يستحضر الإنسانُ أن القوة لله جميعًا.

فإذا حصل ذلك تعبَّدَ الإنسان لله عَزَّوَجَلَّ بالافتقار، والانكسار للقوي العزيز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك كانت «**لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة**»[1]، و«**باب من أبواب الجنة**»[2]، فمن استحضر ذلك سبق إلى الجنة وادَّخر لنفسه عند الله كنزًا في الجنة إذا أكثر من قوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، ومعناها: لا تحوُّل من حالٍ إلى حال، ولا قوة لأحد كان إلا بالله، وهذا من عطف العام على الخاص؛ لأن التحول إنما يكون بالقوة، ونَفْي القوة إلا بالله شمل نَفْي الحول، والحول بمعنى: الكيد، والمكر، والتدبير، وهو عَزَّوَجَلَّ الذي له القوة جميعًا.

۞ واسمه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ فسَّره ابنُ عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا بمعنى: الشديد، فهذا تأكيد لمعنى قوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمتانة الشدة، والله عَزَّوَجَلَّ قوته لا يعتريها ضعف، ولا يحصل فيها نقص، وليست كقوة العباد التي يعتريها الضعف والنقص، ومن هنا قال بعض أهل العلم: إن اسم ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ﴾ هو أبلغ من (القوي).

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ**﴾: (تضمَّنت إثبات اسمه الرزاق، وهو مبالغة من الرزق، ومعناه: الذي يرزق عباده رزقًا بعد رزقٍ في إكثار وسعة.

---

(١) كما في حديث أبي موسى الأشعري قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**» متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٨٤)، ومسلم (١٤٥٧).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٤٢٢)، والترمذي (٣٥٨١)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٤٦) من حديث قيس بن سعد بن عبادة.

وكل ما وصل منه سبحانه من نفع إلى عباده فهو رزق؛ مباحا كان أو غير مباح، على معنى أنه قد جعله لهم قوتا ومعاشا؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ [ق]، وقال: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات:٢٢].

إلا أن الشيء إذا كان مأذونا في تناوله؛ فهو حلال حكمًا، وإلَّا كان حرامًا، وجميع ذلك رزق)[١].

وهذه المسألة التي ذكرها الشيخ هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثارت بين المتكلمين، وهي هل المال الحرام رزق من الله أم لا؟ وما أثبته -كما في هذا النقل- أنه رزق ولكن محرم؛ لأن كسب العبد له كان محرمًا، كما قال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفسٌ حتى تستوفي رزقها كما تستكمل أجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، خذوا ما حلَّ ودعوا ما حُرِّمَ...**»[٢] الحديث.

فإن الرزق مقدرٌ مكتوبٌ ويأتي من عند الله سبحانه، سواء أخذه العبد من الحرام أو من الحلال، لكن إذا طلبه من حلال كان ذلك سعادة له في الدنيا والآخرة، ورضًا من الله عَزَّوَجَلَّ، وأما إن كان من حرام بكسبه المحرم ومخالفته للشرع؛ فهو لم يخرج عن عطاء الله وجوده، لكن قد أعطاه الله بقدره الكوني، وهو ساخط عليه لمخالفته لأمره الشرعي.

كما أورد الشيخ هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآية الكريمة: ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ [ق]، وقال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات:٢٢].

فسماه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ أي كل العباد فيشمل ما كان حلالًا، وفي السياق كان نخلًا مملوكًا لصاحبه، وما كان مغصوبًا، وكذلك كل الأرزاق.

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٩٥).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٢١٤٤)، وأبو نعيم في الحلية وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٨٥) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إلا أن الشيء لو كان مأذونًا في تناوله فهو حلال حكمًا، وإلَّا كان حرامًا، وجميع ذلك رزق»[(١)].

وكما ذكرنا أن هذا هو الصحيح في هذه المسألة؛ لأن الحرام خلْقٌ من خلق الله عَزَّوَجَلَّ أوجده الله اختبارًا للعباد، فمن تناوله بمعصية كان آثمًا مستحقًا للعقوبة، فإن الأمر متعلق بفعل الإنسان وكسبه.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل الرزق الحلال ثمرة التقوى، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ الآية [الطلاق].

وأما الرزق المحرم فهو ثمرة الفسق، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣] فلماذا ضيَّق الله عليهم الحلال؟ ذلك بسبب فسقهم، وإلَّا فإن الحلال في الأصل هو الأوسع، والأصل في الأشياء الحِلُّ، والحرام هو ابتلاء من الله، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨].

فأصحاب السبت كان الحلال في الصيد لهم ستة أيام، والحرام يومًا واحدًا، ومع ذلك بسبب فسقهم زاد الحرام وقلَّ الحلال، بل انعدم، فلا يجدون السمك طيلة ستة أيام ويوجد بكثرة في يوم السبت، وهذا ابتلاء بسبب الفسق ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣] وكما في قصة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان شجر الجنة كثيرًا جدًّا وحُرمت على آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ شجرة واحدة ابتلاءً وامتحانًا من الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (ص٩٥).

وفي دنيا الناس أنواع من المعاملات المباحة في البيع، والشراء، والإجارة، والشركة، والمضاربة، وأنواع الأنشطة الإنسانية المختلفة كلها جائزة، وأما الربا فهو صورة محددة أو صورتان، لكن نجدها تملأ السهل والوادي، ولا شكَّ أن هذا من ثمرات الفسق أن يُضيَّق الحلال ويكون الحرام سهلًا، ومع أن الأصل هو الحلال، فإذا وجد الناس ذلك التضييق في الأرزاق المباحة فليعلموا أن ذلك من علامات انتشار الفسق والفجور، ولن يعودوا إلى سعة الحلال ووفرته مرة أخرى -الذي هو الأصل في الأرض- إلا بالتوبة والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ من الجميع، فإن القرب من الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يفتح أبواب الرزق الحلال، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ: «**إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى وأملأ يديك رزقًا، يا ابن آدم لا تباعد مني أملأ قلبك فقرًا وأملأ يديك شغلا**»(١).

وأهل الإيمان يكون شغلهم بالله عَزَّوَجَلَّ، بطاعته، وعبوديته سبحانه، فيملأ الله سبحانه قلوبهم بالغنى، ويكفيهم بالرزق الحلال، ويخافون أن تفتح عليهم الدنيا، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**» الحديث(٢).

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتلو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا** ... ﴾ الآية [الأحقاف:٢٠] وكان يقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال تعالى لهم وقرَّعهم(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٤٦٦)، والحاكم (٧٩٢٦)، والإمام أحمد وابن ماجه (٤١٠٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١) من حديث عمرو بن عوف.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ١٧٠٦) ط. ابن حزم.

وجاءت الجملة الاسمية في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ وضمير الفصل ﴿ هُوَ ﴾ لتأكيد الاختصاص، أنه هو وحده الرزاق سبحانه وتأكيد اختصاصه سبحانه بالقوة والمتانة.

ورُوي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أقرأني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إني أنا الرزاق ذو القوة المتين)»[1] وهذه القراءة إمَّا قراءة تفسيرية، أو قراءة منسوخة التلاوة، والظاهر أنها كانت أحد الأحرف، والجمهور يرون أن ما خالف رسم المصحف لا يجوز القراءة به في الصلاة، وهي منسوخة بالنسبة للعرضة الأخيرة التي حفظها زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعليها كتب المصحف.

قال الشيخ خليل هراس: (وأما قوله ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ﴾ أي: صاحب القوة فهو بمعنى: اسمه القوي، إلا أنه أبلغ في المعنى، فهو يدلُّ على أن قوته سبحانه لا تناقص فيها، أو فتور.

وأما ﴿ ٱلْمَتِينُ ﴾ فهو اسم له من المتانة، وقد فسَّره ابن عباس بالشديد) اهـ[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٩٩٣)، وأحمد (٥/ ٢٧٩)، وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر، والألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٩٥).

٤- إثبات السمع والبصر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الآية [الشورى:١١]**، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾** [النساء:٥٨].

في هاتين الآيتين إثبات السمع والبصر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. واقترن اسم الله عَزَّوَجَلَّ (السميع) كثيرًا باسمه عَزَّوَجَلَّ (البصير)، واقترن أيضًا باسم (العليم): **﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾** [النساء:١٤٨].

وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾** نفي التمثيل والتشبيه؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ ليس كمثله شيء، وقد ذكرنا في أول الكتاب في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن تكييف، ولا تمثيل.

وهذه الآية الكريمة **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾** الآية، هي قاعدة أهل السنة والجماعة في النفي والإثبات، وذلك أنهم ينفون تمثيل الرب بالمخلوقات وينفون المماثلة، وينزهون الرب عَزَّوَجَلَّ عن نقائص المخلوقين، وفي نفس الوقت يثبتون أسماءه الحسنى، وصفاته العلى التي دلَّت عليها أدلة الكتاب والسنة.

وهذه الآية من الآيات المحكمات التي ترد على طائفتي المبتدعة المخالفين في الأسماء والصفات:

١- طائفة الغلاة المشبهة الذين غلوا في الإثبات حتى جعلوا الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مثل المخلوقات، وقال بعضهم أنه ينزل كنزولنا، ويسمع كسمعنا، وهؤلاء انقرضوا، لكنْ عبر التاريخ لم يزل هناك من يقع في التشبيه، ومن أكثر المشهور عنهم ذلك اليهود الذين

يصفون الله بصفات النقص، والنصارى الذين يصفون الرب بأنه ابن الإنسان، وأنه نزل ووُلِد وكان يأكل ويشرب ويُضرب ويُصلب، ويموت -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا- وأما المنتسبون للإسلام من غلاة المشبهة فقد انقرضوا.

٢- والطائفة الثانية: طائفة النفاة المعطلة الذين ينفون إمَّا كل الأسماء والصفات، أو ينفون الصفات ويثبتون الأسماء كالمعتزلة، أو ينفون بعض الصفات ويثبتون بعضها كالأشاعرة.

والآية الكريمة تردُّ على الطائفتين، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ تنزيه بلا تعطيل، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إثبات بلا تمثيل.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (دلَّ إثبات صفتي السمع والبصر له سبحانه بعد نفي المثل عنه، على أنه ليس المراد من نفي المثل نفي الصفات، كما يدعي ذلك المعطلة، ويحتجون به باطلا، بل المراد إثبات الصفات مع نفي مماثلتها لصفات المخلوقين.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إنما قُصِدَ به نفيُ أن يكون معه شريك، أو معبود يستحق العبادة والتعظيم؛ كما يفعله المشبهون والمشركون، ولم يقصد به نفي صفات كماله، وعلوه على خلقه، وتَكَلُّمِه بكتبه، وتكليمه لرسله، ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم كما ترى الشمس والقمر في الصحو... اهـ.

ومعنى ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: المدرك لجميع الأصوات مهما خفتت، فهو يسمع السر والنجوى بسمع هو صفته لا يماثل أسماع خلقه.

ومعنى ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾: المدرك لجميع المرئيات من الأشخاص والألوان مهما لطفت أو بعدت، فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار، وهو من فعيل بمعنى مفعل، وهو دال على ثبوت صفة البصر له سبحانه على الوجه الذي يليق به)[١] اهـ.

وهنا تنبيه أن الأسماء لا تحتاج إلى تعريف ولا بيان، فلا نقول ما معنى السميع؟ أو ما معنى البصير؟ ولم يكن من هدي السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وضع تعريف للأسماء لأنها لا تحتاج إلى تعريف، وهي مُدرَكة بالفطرة، بل الطفل الصغير يدرك معنى السمع والبصر.

وفي الآية الأولى ذكر عَزَّوَجَلَّ اسمه السميع، واسمه البصير في ذكر استحقاقه أن تردَّ إليه الأمور، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى].

وهذه الصفات هي صفات الكمال التي استحق عَزَّوَجَلَّ بها ومن أجلها أن يكون الحكم له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكلُّ نزاع لابد أن يردَّ إلى (السميع البصير) الذي يرى ويسمع أقوال العباد وأفعالهم، فإن كل ما تنازع الناس عليه فإن سمعهم وبصرهم محدود، وكذلك لهم أشباه ونظائر، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

۞ وفي الآية الثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨].

الله عَزَّوَجَلَّ أمر عباده بأداء الأمانة، وبيَّن لهم أن أوامره الشرعية هي نعم الأوامر وأحسن التوجيهات التي بها صلاح العباد، وجاء ختام الآية باسمه عَزَّوَجَلَّ السميع،

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٩٦-٩٧).

واسمه البصير، فوقع مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا، فإنه عَزَّوَجَلَّ يسمع كلام العباد، ويرى أفعالهم، فَلْيَتَّقُوه عَزَّوَجَلَّ لأنه سوف يحاسبهم، ففيها ترهيب عن عدم أداء الأمانة، وفيها الترغيب في أداء الأمانة، لأنه سبحانه يعلم أفعال العباد، ويسمعهم ويبصرهم.

واستحضار العبد لسمع الله عَزَّوَجَلَّ وبصره من أعظم أسباب الإخلاص، فإن ذلك يشغل قلبه، ويبعده عن أن يلتفت إلى أن يطلب سمع الناس أو رؤيتهم، فإن من انشغل برؤية المِلك وسمعه فإنه لا يلتفت إلى رؤية الخادم أو العبد، ولا ينشغل أن يسمعه الخادم أو العبد.

ولذا ورد الذم الشديد في التسميع والرياء، يعني طلب سماع الناس، وطلب رؤيتهم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»**(١)، أي: من طلب سماع الناس أسمع الله فضائحه للناس، ومن طلب رؤية الناس أرى الله قبائحه للناس.

وكذا استحضار أن الله عَزَّوَجَلَّ سميع بصير يثمر التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ في قلب العبد والثقة فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦].

وإذا كان المؤمن في صراع مع أعداء الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يستحضر عجزه وضعفه، ويلجأ إلى ربه ومليكه؛ فيطلب منه المدد، ويفوض إليه أمره وحده لا شريك له، ويستشعر أن الله عَزَّوَجَلَّ يسمعه ويراه.

ومثال ذلك: لو أن مِلكًا من الملوك أرسل مجموعة من الجنود ليعملوا في وسط صفوف الأعداء الذين خرجوا على طاعته في مملكته، وجنوده محيطون بهؤلاء الأعداء المتمردين من كل جانب، ويمكنه بأمر واحد منه أن يزيل هؤلاء الأعداء المتمردين، لكن

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧) من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال لجنوده: دعوهم حتى نختبر من يكون محبًّا لنا، مطيعًا لأوامرنا في وسط الأعداء، فاصطفى مجموعة من الجنود وجعلهم في وسط أعدائه، وجعل هؤلاء الأعداء يتصرفون كأنهم متمكنون تمام التمكن، ومتسلطون أعظم التسلط، وربما أذاقوا جنوده أنواعًا من الأذى، وإنما جعل ذلك لكي يختبر صبرهم ومحبتهم له وإرادتهم حين يكونون في ضيق، فلو أن هؤلاء الجنود علموا أن استغاثتهم قد وصلت إلى الملك لكي يرسل لهم المدد والجنود، فإن قلوبهم تطمئن أن الملك سوف يفعل الخير.

ولله المثل الأعلى فإن الله عَزَّوَجَلَّ جعل عباده المؤمنين في وسط تمرد الكافرين المحدود جدًّا بالنسبة إلى ملكوته وجنوده عَزَّوَجَلَّ الذين يملأون السماوات والأرضين، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]، وقال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ الآية [يس:٨٢].

فإنما أنزل هؤلاء المؤمنين في وسط الكفار ليسمع ويرى تضرع المؤمنين، واستغاثتهم، ولجوءهم إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ودعاءهم، وتوكلهم، وجهادهم في سبيله، فإذا وجدوا خوفًا من عدوهم كانت معرفتهم وعلمهم بسمع الله عَزَّوَجَلَّ ورؤيته لهم كفيلة بتحقيق صدق التوكل عليه منهم، قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عن موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه].

وكذلك فإن معرفةَ العبد وتيقُّنَه بسمعِ الله ورؤيتِه لها آثارٌ عظيمة في أنواع العبادات: كالإخلاص، والتوكل، وكذلك في عبادة المراقبة، والخوف منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وفرق بين مجرد المعرفة والإقرار، وبين التيقُّن وحضور المعاني في القلب.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ كلمة ﴿كَانَ﴾ أي: كان ولم يزل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أي أنَّ (كان) على الاستمرارية، كما قال سعيد بن جبير: قال رجل لابن عباس: «إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي... وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فكأنه كان ثم مضى؟!»، فأجاب ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مسائله فقال فيها: «﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سمَّى نفسه ذلك، وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك، فإن الله لم يرد شيئًا إلا أصاب به الذي أراد، فلا يختلف عليك القرآن»[١]، والسمع والبصر من صفات الذات التي لا تتعلق بالقدرة والمشئية، فهو عَزَّوَجَلَّ سميعٌ بصيرٌ أزلًا، وصفته عَزَّوَجَلَّ قائمة بذاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا تزول عنه ولا تضعف.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُٱللَّهُ: (روى أبو داود في «سننه» عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فوضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينيه[٢].

ومعنى الحديث أنه سبحانه يسمع بسمع، ويرى بعين، فهو حجة على بعض الأشاعرة الذين يجعلون سمعه علمه بالمسموعات، وبصره علمه بالمبصرات، وهو تفسير خاطئ؛ فإن الأعمى يعلم بوجود السماء ولا يراها، والأصم يعلم بوجود الأصوات ولا يسمعها) اهـ[٣].

وهذا كلام حسنٌ جدًّا، وهو أن صفة السمع والبصر صفتان غير صفة العلم، وبلا شك أن بينهم تلازم في الكمال، لكن لكلٍّ منها معنى يفهم من الكلمة العربية التي

---

(١) رواه البخاري.

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٨٢٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٤٦٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) « شرح الواسطية» (٩٧-٩٨) ط. دار الهجرة.

لها مرادفاتها في كل اللغات، وَوَضْعُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإبهام على الأذن، والسبابة على العين فيه إثبات الصفات بلا كيفية، ولا تمثيل، وإنما الأمر لإثبات معنى الصفات.

وكما ذكرنا قبل ذلك أن الأسماء الحسنى من جنس الأسماء المتواطئة مع أسماء المخلوقين التي منها قدر مشترك في الذهن الذي نفهم به معنى الكلام وإن كنا لا ندري كيفيته، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يبين للصحابة الكرام ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا**﴾ أي على ما تعلمون من معنى السمع والبصر.



٥- إثبات المشيئة والإرادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

وقوله: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف:٣٩]، ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقوله: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة:١]، وقوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام:١٢٥].

ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الجملة من الآيات الدالة على إثبات صفة الإرادة والمشيئة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي صفات ثابتة بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإجماع سلف الأمة، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ودلَّت الآيات على ذلك أوضح دلالة في ذكر المشيئة وذكر الإرادة.

- والإرادة ورد ذكرها في كتاب الله على نوعين: إرادة كونية من الكون والوجود؛ أي: إرادة أن يوجد شيء معين، وهذا الذي ورد في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية.

- والنوع الثاني من الإرادة: هو الإرادة الشرعية أي: إرادة التشريع، والأمر بأمر معين شرعًا على ألسنة الرسل، سواء وقع هذا الأمر من الناس وفعلوه، أم لم يمتثلوا فلم يفعلوه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ والمشيئة وردت في القرآن كله على نوع واحد وهو بمعنى الإرادة الكونية.

وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الصفات والأفعال له عَزَّوَجَلَّ مقترنة بآثارها في سلوك المؤمن وفيما يلزمه أن يكون عليه.

۞ قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ الآية [الكهف:٣٩]، هذا من كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذكره حكاية عن المؤمن في حواره مع صاحبه الكافر الذي غرَّه ماله، وأعجب بنفسه وماله وولده، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ الآيات [الكهف].

فالقضية التي جعلته ذلك الرجل مشركًا في المقام الأول هي أنه تكبر، وأعجب بنفسه، وعَبَدَ الشيطان، وعَبَدَ الهوى، وعَبَدَ المال، وأشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ولذا أكمل المؤمن دعوته إلى الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الرجل، ونصح له، فقال: ﴿ وَلَوْلَآ ﴾ أي: هلا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

ووجه المناسبة مع سياق القصة أن ذلك الرجل الكافر كفر لكونه رأى كمال نفسه ورأى استغناءه، ورأى أنه استحق ذلك بنفسه، وأن جنته باقية بنفسها غير زائلة، ولذا قال: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾، فظنَّ أنَّ كلَّ شيءٍ له لأنه يريده، ولأن معه القوة فسوف يبقى، وزاد في كفره معلنًا أنه لو فُرِضَ أن هناك يومًا آخر، فكل شيء للأغنياء يمكن شراؤه ولذلك يقول: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾، وهذا الرجل مقرٌّ بوجود الله، لكنه يجعل نفسه شريكًا مع الله، ويرى نفسه وجنّته في غنى عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذا ذكَّره المؤمن بلحظة الفقر الأولى قال: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ فوصفه بالكفر

رغم أنه يقول: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ الآية، فأنت كنت نطفة، وكنت ترابًا قبل هذه النطفة، ولم يكن لك أدنى إرادة، ولا أدنى قوة.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ الآية، المعنى: لكنْ أنا أقول: هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدًا، فسمَّاه شركًا، والآيات لم تذكر أن الرجل عَبَدَ وثنًا، أو عَبَدَ صنمًا، بل ورد أنه عَبَدَ المال، والجاه، والقوة التي ظنها بنفسه، والهوى، وهو في الحقيقة قد عَبَدَ الشيطان الذي أمره بالكفر.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الآية، أي: هذا ما شاء الله، وتلك الآية تعلمنا أمرًا مهمًا وهو أن الإنسان حين يرى نعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليه فإنه ينسب الفضل إلى الله اعتقادًا وتلفظًا، فأمَّا الاعتقاد فيعلم أن الأمر من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وبمشيئته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكان يمكن أن يكون العبد بدون غنى وبدون جنة.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ ومعنى ﴿بِٱللَّهِ﴾ أن القوة لله، هو الذي يملكها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويجعلها حيث شاء في خلقه؛ فإن القوة صفته، ومن أثرها القوة المخلوقة في العباد يجعلها لخلقه فيكون لهم استطاعة، وطاقة، وقوة، وكلها مِلْك له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يخلقها كيف يشاء، ويمنعها عمَّن يشاء، ويعطيها من يشاء، ويقوي من يشاء، ويضعف من يشاء.

وهذا الذكر ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ لابد أن يستحضر المؤمن معناه عند رؤية النعم، وعند رؤية الفضل، وهذا مانع من إصابة نفسه وغيره بالعين، فإن العين حق كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**العين حق...**»[1] الحديث، تكون من الإنسان لغيره، وتكون منه لنفسه إذا رأى ما يعجبه من ماله، وولده، ونفسه، وغالبًا مع الناس يكون معها حقد، وحسد، وتمني زوال النعمة، وقد تكون بقصد وبغير قصد، وتأثير ذلك إنما يقع بقدر الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) رواه مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

- ونستفيد أيضًا أن من أعظم أسباب زوال النعم أن يعجب الإنسان بنفسه، وينسب الفضل لنفسه، ولا ينسبه إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا الذكر علاج لذلك؛ لأن الإنسان يذكِّرُ نفسَه أن هذه مشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والمشيئة لم ترد في القرآن إلا على المعنى الكوني، ولم يرد في الكتاب والسنة مشيئة شرعية، وأما الإرادة فوردت على النوعين الكوني والشرعي.

قال تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف] هذا فيه شهود المؤمن لقَسْم الله عَزَّوَجَلَّ للأرزاق؛ فيجعل -سبحانه- هذا فقيرًا وهذا غنيًّا، ويجعل هذا كثير الولد، ويجعل هذا قليل الولد، ويجعل آخر عقيمًا، ومشاهدة ذلك تجعل العبد لا يسخط أبدًا على قضاء الله، أو يعجب بنفسه، أو ينسب الفضل لنفسه، ومدار ذلك على مشاهدة مشيئته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

۞ وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وردت هنا الإرادة بالمعنى الكوني، وهذه الآية وردت في بيان حكمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيما وقع من اختلاف وافتراق بين أتباع الرسل، أو المنتسبين لأتباع الرسل، وإذا علم المؤمن أن ذلك الاختلاف الواقع بين الناس بعد الرسل إنما هو بمشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعلم أن الله يفعل ما يشاء بعلم وحكمة، فإنه يستطيع أن يستوعب الدرس المفيد من هذا الاختلاف وهو أن يعلم أن هداية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للعباد هي منة وفضل منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣].

فإذا استحضر العبد ذلك لم يسخط على قضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في وجود الافتراق وأنه قدر الله وإن لم يكن مشروعًا، وأن الواجب على الناس أن يجتمعوا على ما كانت عليه الرسل ولا يفترقوا، وأن يسعوا في ذلك بامتثال الأوامر الشرعية مع معرفة حكمة الله في تقدير وقوع الفرقة والاختلاف.

وما دام يوجد بشر فلابد من وجود الاختلاف والافتراق، وإذا وُجِدَ اجتماع على أمر معين في وقت معين فذلك أمر مخصوص مستثنى، وهذا الأمر ليس استسلامًا، وإنما مدافعة للقدر بالقدر والتزام الشرع، ومن فهم ذلك وتيقن منه لم يصبه اليأس حينما يأخذ بالأسباب المشروعة للطاعات وأفعال الخير، ومنه اجتماع الكلمة، لكن لا يرى النتائج كما يريد فلا ييأس أو يترك عمل الخير.

وهذا مثل أن يوقن العبد أو يعلم أن الكفار سوف يتسلطون على المؤمنين، وسوف يقع الابتلاء بذلك، وهذا بلا شك أمر لا يحبه الله عَزَّوَجَلَّ ولكن قَدَّر وقوعه كونًا لحكمة بالغة يعلمها سبحانه، فإذا علم العبد ذلك ظل سائرًا على طريق الحق من غير أن يصاب باليأس، أو التراجع عن الالتزام، أو الطاعة وطريق الحق؛ بل يقول كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن المؤمنين: ﴿ **وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب:٢٢].

وكما قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «...**وتفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهم الجماعة...**»[1]، ولا يدفعنا ذلك أن نقول ما دام الاختلاف واقع فإننا نترك الجميع بما فيهم الفرق الناجية بل لابد أن نسعى إلى النجاة وأن نكون من

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٥٩٧)، والحاكم (٤٤٣) وصحَّحه، وحسَّنه ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٤٥)، وابن حجر في «تخريج الكشاف» (ص٦٣)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٩٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٤٠٩) من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

ضمن من عناهم النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنهم أهل النجاة وأنهم الجماعة وهم على مثل ما كان عليه رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه.

فهذا الذي يلزم المسلم مع كرهه للاختلاف والفرقة لأن الله لا يحب الافتراق ومخالفة البينات.

والله عَزَّوَجَلَّ يقدِّرُ كونًا أشياءَ من الشر لكنi لا يُنسب إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، بل الشر ينسب لمن فعله واختاره ورضي به، والله سبحانه يقدر هذا لحكمة بالغة ويترتب على ذلك القضاء وذلك التقدير من أنواع الخير والمصالح ما لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وهو سبحانه كما قال عنه أعلم الخلق به صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**والشر ليس إليك**»(١) أي: لا يكون الشر في صفته، ولا في فعله، ولا في اسمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

ومن ذلك ما دلَّت عليه هذه الآية التي استدل بها شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ، فإن الاقتتال الذي حدث ووقع بين من اختلفوا بعد الرسل -بين الكافرين وبين المؤمنين- كان فيه من الخير لأهل الإيمان الذين صبروا على الابتلاء، وتحملوا في سبيل الله مخالفة من خالفهم فكان لهم عند ربهم عَزَّوَجَلَّ أرفع الدرجات؛ لأنهم تحملوا في وقت الغربة ووقت الشدة كما قال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»(٢) الحديث.

فالبقية الباقية القليلة التي بقيت على الحق كانت لهم الدرجات عند الله؛ لأنهم آمنوا واتقوا في أوقات الشدة والاستضعاف والغربة، ونستفيد من ذلك أنه في وقت اختلاف الناس على السنة والبدعة، وعلى الهدى والضلال، وعلى الإيمان والكفر فعندئذٍ يتمسك الإنسان بالحق في فترة الغربة، ويكون له أعظم الدرجات، كما قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن**

(١) رواه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء...»[١] وطوبى هذه شجرة في الجنة، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، فلأهل الإيمان الجنة والحسنى وأنواع الكرامة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

- وتضحية الغرباء وتحملهم في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم أسباب فلاحهم؛ لأنهم عند الاختلاف ظلوا على الحق، وتمسكوا به، ولم ينقادوا للباطل ولم يتابعوه، ولم يغتروا بكثرته؛ فلأجل ذلك كله ارتفعت منازلهم، وحصل لهم الخير بإذن الله ولذلك كان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ممن لا يُلحق بهم في المنزلة لأنهم تحملوا مفارقة العالم كله حتى تأسس الإسلام، وجاء من بعدهم وقد وجد الإسلام منتشرًا في المشارق والمغارب، ووجد عامة المجتمع يتكلم بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله بعد أن كان من يتكلم بها في الأرض كلها أحاد الناس وأفرادهم، ولو هلكوا في ذلك الوقت لَمَا عُبِدَ الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض.

۞ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أي: لو شاء أن يقع غير ما كان لوقع، وهذه مشيئة الله في اقتتالهم.

- والآية صريحة في دخول أفعال العباد الاختيارية تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتحت قدرته، فجعلهم يقتتلون ليميز الله الخبيث من الطيب، وليمحِّصَ المؤمنين، ويرفع درجاتهم، ويترتب عليها أنواع من العبودية لله عَزَّوَجَلَّ لا تحصل إلا إذا وُجِدَ ذلك الشر، وبذلك يتبين أنَّ خلْقَ الله عَزَّوَجَلَّ للشر ليس شرًّا في حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه يترتب عليه خيرٌ لا يحصل إلا بذلك.

- فلولا ما قدر الله عَزَّوَجَلَّ من وجود إبليس لَمَا وُجِدَتْ المجاهدة، ولَمَا وُجِدَ الاستشهادُ في سبيل الله، ولما وُجِدَتْ الدعوةُ إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتلك

(١) رواه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عبوديات من أجلها أوجد سبحانه بني البشر، وإلا فعبودية الملائكة كانت موجودة، لكن عبودية الملائكة ليس فيها هذه النوعية من العبادات؛ لأنه ليس عندهم إرادة الشر، وليس عندهم من يفعل الشر، وليس عندهم من يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، فكيف ستوجد هذه العبادات إلا بوجود الأخطاء، ووجود من يفسد في الأرض، ويسفك الدماء! وكيف ستوجد مقابل ذلك عبادات الجهاد والتضحية، وبذل النفوس في سبيل الله، وبذل الأموال في سبيل الله، وتحمل الغربة، وتحمل المفارقة؟!

والله عَزَّوَجَلَّ يحب أن يعبده المؤمنون رغم وجود الاختلاف والافتراق، ورغم وجود مخالفة الرسل، ورغم ضلال من ضلَّ، ورغم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، فيكون حال أهل الإيمان أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويدعون إلى الله، ويصبرون على ما يصيبهم من أنواع البلايا، ولذلك قدَّر الله عَزَّوَجَلَّ ذلك.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ في هذه الآية الكريمة يبيِّن سبحانه ما أحلَّه لعباده من بهيمة الأنعام، وما حرَّمه عليهم من الصيد حال الإحرام والدخول في النسك.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ وهذه هي الإرادة الشرعية، أي الأمور التي شرعها الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ فإنه سبحانه شرع لعباده أن يستبيحوا ويعتقدوا حِلَّ بهيمة الأنعام إلا ما يُتلى عليهم من الميتة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أكل السَبُع، وما ذُبِحَ على النُّصب، ولحم الخنزير ونحو ذلك من المحرمات، كما حرَّم عليهم الصيد البري أثناء الإحرام، وهذا كله من حكم الله الشرعي التابع لإرادته الشرعية.

والإرادة الشرعية متعلقة بكل ما يأمر الله به، ويحبه ويشرعه للناس، سواء وُجِدَ أم لم يوجد.

- وهي تجتمع أحيانًا مع الإرادة الكونية ويفترقان أحيانًا، فيجتمعان في إيمان المؤمن فإنه مشروعٌ ويحبه الله وقد وقع، ويفترقان في كفر الكافر ومعصية العاصي فإنه أمرٌ غير مشروع وغير محبوب لله عَزَّوَجَلَّ لكن يقع الكفر من الكافر، وتقع المعصية من العاصي فتكون إرادة كونية فقط.

وذكر شيخ الإسلام هاتين الآيتين ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾ و﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ**﴾ الوارد فيهما ذكر الإرادة لبيان أن صفة الإرادة لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وردت بكلا المعنيين الكوني والشرعي.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ**﴾ فيه الردُّ على من يشكك في أحكام الإسلام، أو يجادل فيها، ولماذا شُرِعَتْ، ولماذا أُحِلَّ كذا ولماذا حُرِّمَ كذا، بدعوى التنقيص أو التشكيك في شريعة الله عَزَّوَجَلَّ. فإنه سبحانه يحكم ما يريد ويشرع ما يريد سبحانه عَزَّوَجَلَّ والعباد يمتثلون لأمره سبحانه سواء علموا الحكمة أم لم يعلموها، مع إقرارنا أنه لا يوجد أمر من الله يخلو من حكمة، لكن قد يعلم الناس هذه الحكمة وقد لا يعلمونها، والاستجابة لأوامر الله والامتثال له متعلق بمحض العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، وليس متعلقًا بمعرفة الحكمة.

۞۞۞

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية أنه يريد لبعض خلقه الهداية، ويريد لبعض خلقه الضلال، وهذه الآية من أوضح ما يرد على القدرية النفاة والمعتزلة، وأضرابهم من النفاة الذين ينفون إرادة الله الكونية بالإجمال، ويقولون بإرادة واحدة هي الإرادة الشرعية المتعلقة بما يأمر الله به شرعًا، وهذا الأمر لا شكَّ في بطلانه، ويرد عليه قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وتؤمن بالقدر خيره وشره**» الحديث[1]. والآية المذكورة من أوضح الأدلة؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يريد لبعض خلقه الهداية فيشرح صدره للإسلام ليقبل هذا الدين ويحبه ويفرح به.

وفيه إثبات خلق الله تعالى لأفعال العباد؛ لأنه أثبت الإرادة، والهداية، وشرح الصدر، لأن فاعل ﴿**يَهْدِيَهُۥ**﴾ هو الله عَزَّوَجَلَّ فإن الهداية توفيقه عَزَّوَجَلَّ، وكل المكلفين قد حصلت لهم هداية البيان، وأهل البدع يحملون لفظ الهداية في الآية على هداية البيان فقط فيجعلون ﴿**يَهْدِيَهُۥ**﴾ أي: يبين له، لكن الحق أن الله عَزَّوَجَلَّ قد بيَّن لجميع خلقه، واختصَّ أهل الإيمان بهداية التوفيق.

ولذلك قال ﴿**يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ**...﴾ فقد فعل الله به شيئًا في صدره، وملأ قلبه بالهدى والنور، وجعل الصدر متسعًا ومنشرحًا ليقبل الخير الذي جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى هذا عقيدة الأنبياء جميعًا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه:٢٥] فإن الإنسان لا يملك أمر قلبه وصدره، بل الله الذي يملك

---

(١) تقدَّم تخريجه.

ذلك، ويشرح قلب من شاء، قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، وهو عَزَّوَجَلَّ يضيِّق صدر من شاء فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ فالناس في الإرادة فريقان؛ فريق أراد الله أن يهديه، وفريق أراد الله أن يضله ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ والحَرَجة: هي الشجرة تكون في وسط الأشجار لا يُوصَلُ إليها بسبب ضيق الطريق إليها، كما قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيءٌ من الخير)[1].

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: كأنما يكلف الصعود إلى السماء وليس له، قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا مثل من الله تعالى ذكره، ضربه لقلب الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه، أن ذلك ليس في وسعه)[2]، وهؤلاء الذين جعل الله عَزَّوَجَلَّ صدورهم ضيقة ولا يهتدون إلى الخير، لم يُظلموا لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل هذا الأمر يتم من خلال عملهم، ولم يتم ذلك إكراهًا عليهم بل أعطاهم عقولًا وحواسًا وجوارح، فأعطاهم قدرة وإرادة تصلح للأمرين، وجعل لهم نوعين من الاستطاعة، الأولى: في سلامة حواسهم قبل الفعل وهي الاستطاعة المنوط بها التكليف وعليها مداره كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، والنوع الثاني من الاستطاعة: الاستطاعة مع الفعل، وهي استطاعة التوفيق وهي المذكورة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف:١٠١] أي: لا يستطيعون سمع الهداية، وسمع القبول، فلم يكن بهم صمم ولم يكونوا فاقدي البصر، لكن عندهم عمى القلب، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان:٤٤]

(١) «جامع البيان» لابن جرير الطبري (١٢/ ١٠٤) ط. دار المعارف.
(٢) المصدر السابق (١٢/ ١٠٩).

وهو عَزَّوَجَلَّ قد أعطاهم سلامة الحواس، وأعطاهم قدرة وإرادة صالحة لأن يفعلوا بها الخير، وبلغهم أدلة الشرع، وجاءتهم دعوة الرسل، فبذلك قامت عليهم الحجة.

- وهو عَزَّوَجَلَّ الحكيم يضع الأشياء في مواضعها، وهو عَزَّوَجَلَّ أعلم بالشاكرين، وأعلم بالمفسدين كما أخبر عن نفسه في أكثر من موضع وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: ﴿**وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ**﴾ [الأنعام:١١٧].

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (والإرادة الشرعية أعمُّ من جهة تعلقها بكل مأمور به، واقعًا كان أو غير واقع، وأخصُّ من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به.

والحاصل أن الإرادتين قد تجتمعان معًا في مثل إيمان المؤمن وطاعة المطيع، وتنفرد الكونية في مثل كفر الكافر، ومعصية العاصي، وتنفرد الشرعية في مثل إيمان الكافر، وطاعة العاصي.

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ** ﴾ الآية؛ هذا من قول الله حكايةً عن الرجل المؤمن لزميله الكافر صاحب الجنتين؛ يعظه به أن يشكر نعمة الله عليه، ويردها إلى مشيئة الله، ويبرأ من حوله وقوته؛ فإنه لا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿**وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟**﴾ الآية؛ إخبارٌ عمَّا وقع بين أتباع الرسل من بعدهم: من التنازع، والتعادي بغيًا بينهم وحسدًا، وأن ذلك إنما كان بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، ولو شاء عدم حصوله ما حصل، ولكنه شاءه فوقع.

وقوله: ﴿ **فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ** ﴾ الآية إلخ؛ تدلُّ على أن كلًّا من الهداية والضلال بخلق الله عَزَّوَجَلَّ، فمن يرد هدايته أي: إلهامه وتوفيقه يشرح صدره للإسلام، بأن يقذف في قلبه نورًا، فيتسع له، وينبسط؛ كما ورد في الحديث، ومن يرد إضلاله وخذلانه يجعل

صدره في غاية الضيق والحرج، فلا ينفذ إليه نور الإيمان، وشبَّه ذلك بمن يصعد في السماء)[١].

❁ ❁ ❁

(١) «شرح الواسطية» (١٠٠-١٠١) ط. دار الهجرة.

٦- إثبات محبة الله ومودته عَزَّوَجَلَّ لأوليائه

وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤].

هذه الآيات تتضمن إثبات صفة محبته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأناس يفعلون أفعالًا معينة، وهذا ما جعل شيخ الإسلام يذكر هذه الآيات عقب ذكر الإرادة؛ ليبين أن المحبة تابعة لإرادة الله الشرعية، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يحب المتقين، ويحب الصابرين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، وغير ذلك من أفعال الإيمان، وصفات المؤمنين.

وعقيدة أهل السنة والجماعة: (أن الله يحب بعض الأشخاص، ويحب بعض الأعمال، ويحب بعض الأمكنة، ويحب بعض الأزمنة)، والآيات الواردة هنا هي في محبة صفات معينة في الناس، وهذا من أعظم الترغيب، ومن أعظم الترهيب أيضًا؛ فإن المؤمنين يرغبون جدًّا فيما بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ لهم وبيَّن لهم رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن الله يحبه، ويبغضون ويكرهون ويخافون من أن يتَّصِفُوا بصفة مَن لا يحبُّهم الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال عَزَّوَجَلَّ عن لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨].

۞ وفي هذا الموضع يقول تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهو سبحانه يُرَغِّبُ عبادَه في الإحسان من خلال إخباره لهم أنه يحب المحسنين، والإحسان يشمل الإحسان بين العبد وبين ربه كما قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك...**»[1] فإذا استشعر العبد أن الله يراه أثمر ذلك المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، والإخلاص له سبحانه، ورجاءه عَزَّوَجَلَّ، والتوكل عليه، ومحبته سبحانه، وأوصل العبد أن يعبد الله كأنه يرى الله، وأوصله إلى أن يحبه الله.

- وأيضًا الإحسان يشمل الإحسان إلى الناس؛ فإن العبد مأمور بالإحسان إلى الوالدين، وذوي القربي، والجيران، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وجميع من يعاملهم.

والله عَزَّوَجَلَّ يحب الإحسان إلى خلقه كما قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدَّ أحدكم شفرته وليُرِح ذبيحته**»[2].

فبيَّن أن الإحسان حتى في القتل لِمن شُرِعَ في حقه، وحتى الحيوان المذبوح فإن الشرع يأمرنا بالإحسان إليه.

وكذا الإحسان إلى المماليك، وكذلك الإحسان في البيع والشراء والقرض وسائر المعاملات.

- والإحسان إلى الخلق ثمرة من ثمرات الإحسان الباطن بين العبد وربه؛ فإن العبد إذا أحسن فيما بينه وبين ربه كان قلبه مستغنيًا بالله عَزَّوَجَلَّ فيسهل عليه أن يؤدي الحقوق بل ويزيد عليها، ويعفو ويصفح ويتحمل أذى الناس.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) رواه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

- والإحسان منه الواجب ومنه المستحب، ومن حافظ على كليهما أحبه الله، قال تعالى: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ يحب المقسطين العادلين الذين يعدلون في أحكامهم، وما يتولونه بما شرع الله عَزَّوَجَلَّ، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن** عَزَّوَجَلَّ **وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**»[(١)].

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ المقصود هنا في الآية في عقد الهدنة مع المشركين أنهم إن استقاموا ووفوا بعهدهم مع المسلمين فلا بد أن يستقيم المسلمون لهم ويوفوا بعهدهم، وهذا ترغيب من الله عَزَّوَجَلَّ في التقوى عمومًا، وفي الوفاء بالعهود والمواثيق خصوصًا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يحب ذلك.

والتقوى كما قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تجتنب ما حرم الله على نور من الله تخشى عقاب الله)[(٢)]، والتقوى أن تجعل بينك وبين معصية الله وعقابه وقاية وستارًا.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ التوَّاب كثير التوبة، الذي يُكْثِرُ الرجوع إلى ربه عَزَّوَجَلَّ؛ لأن العبد يخطئ ويذنب، وسواء كان ذلك كثيرًا، أو قليلًا فلا يترك مقام التوبة، وهي ملازِمة لكل مقامات العبودية.

- والتوبة تنقسم إلى: واجبة، ومستحبة. فالتوبة الواجبة من جميع الذنوب، ومن تَرْكِ واجبٍ من الواجبات، أو فِعْلِ محرم، والتوبة المستحبة هي أن يتوب العبد من ترك المستحبات، فيستحب له أن يرجع إليها.

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.
(٢) كما أورده الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٠١) ط. الرسالة.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني أتوب إلى الله في اليوم أكثر من سبعين مرة...**»[(١)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أستغفر الله وأتوب إلى الله في اليوم مائة مرة...**»[(٢)].

قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كنا نعدُّ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجلس الواحد مائة مرة يقول: «**اللهم اغفر لي، اللهم تب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم**»[(٣)].

فالأنبياء دائمًا توَّابون؛ لأن التوبة منزلة لا يستغنى عنها عبد.

ومن نظر لنفسه بعين الإنصاف لتيقَّن أنه كثير الذنوب، ويحتاج إلى التوبة الواجبة، والله عَزَّ وَجَلَّ يحب من يتوب إليه، وربما كان العبد بعد الذنب أفضل حالًا منه، وذلك إذا أخلص التوبة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

۞ وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ [البقرة:٢٢٢].

فهذا ترغيب في الطهارة الظاهرة، وعدم معاشرة الحائض حتى تغتسل وتطهر من حيضها، وهذا أمر يحبه الله سبحانه، وكذلك التوبة طهارة باطنة تغسل الإنسان من أدران الذنب وآثاره السيئة، ولذا صحَّ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُقال بعد الوضوء: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين...**»[(٤)] الحديث.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغرِّ المُزَنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٤) **صحيح**: رواه مسلم (٢٣٤)، والترمذي (٥٥) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ الآية، هذا ترغيب في متابعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيان أن دعوى المحبة لا تصلح بدون متابعة، فمن أحب الله عَزَّوَجَلَّ لابدَّ أن يتبع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يصل إلى ثمرة ذلك، وهو أن يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أمر واضح أن أصل الأمر محبة الله من كل القلب، ويتفرع من ذلك الأمر الواجب وهو اتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيصل العبد إلى النتيجة التي يرجوها كل مؤمن وهي أن يحبه الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾.

والمعنى أن الله عَزَّوَجَلَّ يحب الثابتين في القتال في سبيله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والقتال في سبيله هو الذي يكون لإعلاء كلمة الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله...**»(١) ووصفهم بأنهم بنيان مرصوص أي: لا يفرُّ أحدٌ منهم، ولا يتخلف أحدٌ منهم، فهم كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا، و﴿ **مَّرۡصُوصٞ** ﴾ أي: مترابط متكاتف. وهذا الثبات في قتال أعداء الله عَزَّوَجَلَّ يحبه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذه الصفات كلما واظب العبد عليها أحبه الله أكثر حتى يصل إلى أعلى المراتب وهو أن يكون محبوبًا لله عَزَّوَجَلَّ بذاته، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن الله عَزَّوَجَلَّ: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه**»(٢)، فبعد أن كان يُحَب من العبد أفعاله، وطاعته، وأداؤه لفرائض الله عَزَّوَجَلَّ وصل إلى درجة أن يكون محبوبًا بذاته لله عَزَّوَجَلَّ، وهي أعلى درجات المحبوبية.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٧٠١)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٥٠٢)، ومسلم (١٦٦٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

۞ وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ اسم الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ صيغة مبالغة، يدل على هذه الصفة العظيمة لله عَزَّوَجَلَّ، أي: ذو وُدّ، والود: خالص المحبة، وهو سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يودُّ عباده المؤمنين، وهو سبحانه كثير الحب لعباده المؤمنين، ويجعل لهم ودًّا في قلوب عباده المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] وهذا ثمرة من ثمرات محبته عَزَّوَجَلَّ.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (تضمنت هذه الآيات إثبات أفعال له تعالى ناشئة عن صفة المحبة، ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ لبعض الأشخاص والأعمال والأخلاق صفة له قائمة به، وهي من صفات الفعل الاختيارية التي تتعلق بمشيئته، فهو يحب بعض الأشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغة.

وينفي الأشاعرة والمعتزلة صفة المحبة؛ بدعوى أنها توهم نقصًا؛ إذ المحبة في المخلوق معناها ميله إلى ما يناسبه أو يستلذه.

فأمَّا الأشاعرة؛ فيرجعونها إلى صفة الإرادة، فيقولون: إن محبة الله لعبده لا معنى لها إلا إرادته لإكرامه ومثوبته، وكذلك يقولون في صفات: الرضا، والغضب، والكراهية، والسخط؛ كلها عندهم بمعنى إرادة الثواب والعقاب.

وأمَّا المعتزلة؛ فلأنهم لا يثبتون إرادة قائمة به، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء؛ بناءً على مذهبهم في وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصي.

وأمَّا أهل الحق، فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عَزَّوَجَلَّ على ما يليق به، فلا تقتضي عندهم نقصا ولا تشبيها.

كما يثبتون لازم تلك المحبة، وهي إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته.

وليت شعري، بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إن الله إذا أحب عبدا؛ قال لجبريل** عَلَيْهِ السَّلَامُ: **إني أحب فلانًا فأحبه. قال: فيقول جبريل** عَلَيْهِ السَّلَامُ **لأهل السماء: إن ربكم** عَزَّوَجَلَّ **يحب فلانًا فأحبوه. قال: فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغضه فمثيل ذلك**»[1] [رواه الشيخان]؟!

وقوله تعالى في الآية الأولى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ أمرٌ بالإحسان العام في كل شيء؛ لا سيما في النفقة المأمور بها قبل ذلك، والإحسان فيها يكون بالبذل وعدم الإمساك، أو بالتوسط بين التقتير والتبذير، وهو القوام الذي أمر الله به في سورة الفرقان.

روى مسلم في «صحيحه» عن شداد بن أوس أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**»[2].

وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهو تعليلٌ للأمر بالإحسان، فإنهم إذا علموا أن الإحسان موجب لمحبته؛ سارعوا إلى امتثال الأمر به، وأما قوله في الآية الثانية: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾؛ فهو أمرٌ بالإقساط، وهو العدل في الحكم بين الطائفتين المتنازعتين من المؤمنين، وهو من قسط؛ إذا جار، فالهمزة فيه للسلب، ومن أسمائه تعالى: المقسط.

وفي الآية الحث على العدل وفضله، وأنه سبب لمحبة الله عَزَّوَجَلَّ.

وأما قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾؛ فمعناه: إذا كان بينكم وبين أحد عهد كهؤلاء الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام؛ فاستقيموا لهم على عهدهم مدة استقامتهم لكم، فـ(ما) هنا مصدرية ظرفية.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (٤٩٠١).

(٢) تقدَّم تخريجه.

ثم علل ذلك الأمر بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: يحب الذين يتقون الله في كل شيء، ومنه عدم نقض العهود.

وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ إلخ؛ فهو إخبارٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن محبته لهذين الصنفين من عباده.

أمَّا الأول: فهم التوابون؛ أي: الذين يكثرون التوبة، والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالاستغفار مما ألموا به على ما تقتضيه صيغة المبالغة، فهم بكثرة التوبة قد تطهروا من الأقذار والنجاسات المعنوية التي هي الذنوب والمعاصي.

وأمَّا الثاني: فهم المتطهرون؛ الذين يبالغون في التطهر، وهو: التنظيف بالوضوء، أو بالغسل من الأحداث والنجاسات الحسية. وقيل: المراد بالمتطهرين هنا الذين يتنزهون من إتيان النساء في زمن الحيض أو في أدبارهن، والحمل على العموم أولى وأمَّا قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فقد روي عن الحسن في سبب نزولها أن قومًا ادَّعوا أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية محنة لهم.

وفي هذه الآية قد شرط الله لمحبته اتباع نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا ينال تلك المحبة؛ إلا من أحسن الاتباع والاستمساك بهديه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ إلخ؛ تضمنت الآية إثبات اسمين من الأسماء الحسنى، وهما: الغفور، والودود.

أمَّا الأول: فهو مبالغة في الغفر، ومعناه: الذي يكثر منه الستر على المذنبين من عباده، والتجاوز عن مؤاخذتهم.

وأصل الغفر: الستر، ومنه يقال: الصبغ أغفر للوسخ. ومنه: المغفر لسترة الرأس.

وأمَّا الثاني: فهو من الودِّ الذي هو خالص الحبِّ، وألطفه، وهو إمَّا من فعول بمعنى فاعل، فيكون معناه: الكثير الود لأهل طاعته، والمتقرب إليهم بنصره لهم ومعونته. وإمَّا من فعول بمعنى مفعول، فيكون معناه: المودود لكثرة إحسانه، المستحق لأن يوده خلقه فيعبدوه ويحمدوه) اهـ[(١)].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٠٢-١٠٦) ط. دار الهجرة.

٧- إثبات صفة الرحمة والمغفرة لله عَزَّوَجَلَّ

وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧]، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤].

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الآيات الدالة على إثبات صفة الرحمة له عَزَّوَجَلَّ. واسم الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، كلٌّ منهما دالٌّ على ثبوت صفة الرحمة، وقد ذكرنا من قبل أن الراجح في الفرق بينهما أن الرحمن أبلغ وأعم إذ هو الدالُّ على صفة الرحمة الذاتية التي لا تتعلق بالمشيئة بل بمقتضى كونه عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، فكل من سواه مرحوم برحمة عامة، لكن لا يلزم أن تكون هذه الرحمة العامة بدرجة واحدة وفي كلِّ وقت.

وكلُّ مخلوق بمقتضى أنه مخلوق يصيبه من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ العامة كما يدلُّ عليه قوله تعالى عن حملة العرش: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فكما أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العليم وسع كلَّ شيء علمًا وأحاط علمه بكلِّ شيء، وكلُّ مخلوق لابدَّ أن يكون معلومًا، فكذلك كل شيء لابدَّ أن يكون مرحومًا قد ناله شيءٌ من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ الآية، عمومٌ لا يخص منه شيء، لكن لا يلزم أن تكون الرحمة بدرجة واحدة، فرحمته عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين أعظم من رحمته بالكافرين، ورحمته لأهل الجنة هي مستقرة دائمًا، وأمَّا الكفار فنالهم من رحمته سبحانه في الدنيا، كما أنهم لا يعذبون في النار إلَّا بما يستحقون، ولا يزاد عليهم عذاب غيرهم إلَّا ما كان من سبب اقتضته أعمالهم في مضاعفة العذاب وزيادته كأن صدوا عن سبيل الله، أو آذوا عباد

الله، فزاد العذاب بما كانوا يفسدون، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨].

– ورحمة الله عَزَّوَجَلَّ العامة آثارها ظاهرة جدًّا فيما يراه الناس في حياة المخلوقات كلها، وحتى أشرس الحيوانات عندها رحمة بصغارها، وهذا من أثر رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بخلقه، وكما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه...**» الحديث[١].

– وكذلك المطر رحمة من الله عَزَّوَجَلَّ بالناس جميعًا؛ فهم يسقون به، وتنبت لهم به الأرض، وتأتيهم أرزاقهم مؤمنهم وكافرهم، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠]. وسمى الله عَزَّوَجَلَّ المطر رحمة؛ لأنه كان بسبب رحمة الله عَزَّوَجَلَّ العامة ومقتضاها.

– ولو تدبَّر الإنسان ما يناله من رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو في بطن أمه، ومن ألطاف بره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن أنواع رزقه عَزَّوَجَلَّ؛ فوَهَبَه الحياة، ومهَّد له بطنَ أمه ذلك القرار المكين، ومَنَّ عليه بالعقل والسمع والبصر، ثم قذف في قلب أبيه وأمه ومن يتولى رعايته عند ولادته المحبة والرحمة والشفقة، وهو في أضعف حالاته وأعجزها، ثم هو يعيش على وجه الأرض، فيرحمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في إزالة أنواع الآلام والمشاق، ويدفع عنه آلام الجوع، والعطش، والمرض، وأنواع الآلام، وكان عاجزًا أن يدفع عن نفسه حتى يأذن الله بذلك، وذلك كله يشمل المؤمن والكافر والبر والفاجر.

– واسم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الاسم الدالُّ على الرحمة الخاصة وصفة الفعل منها أي: التي تتعلق بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ ولذلك قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ فهذه الرحمة الخاصة التي يرحم بها من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفاوت عَزَّوَجَلَّ بين عباده في أنواع

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الرحمات؛ فيرحم عباده المؤمنين بتوفيقهم للإيمان، ويمنُّ عليهم بالتوفيق لطاعته عَزَّوَجَلَّ واتباع رسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويرحمهم سبحانه بمعافاتهم من أنواع البلاء، برفع الضر وكشفه، وصرف أعدائهم، ويرحمهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عند احتضارهم، وفي قبورهم، وعند قيامهم يوم القيامة، وبعد ذلك يسكنهم الجنة التي سمَّاها الله رحمة؛ لأنها تكون بسبب الرحمة، كما في الحديث الذي يرويه النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن ربه عَزَّوَجَلَّ: «**أنت رحمتي أرحم بك من أشاء...**»[(١)].

ورحمته عَزَّوَجَلَّ بالمؤمنين أعظم من رحمته بالكافرين؛ إذ نال المؤمنين من الرحمة العامة بالإضافة إلى الرحمة الخاصة المتعلقة بمشيئته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

۞ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ** ﴾ [النمل:٣٠]، هذا جزء من آية من سورة النمل، وآية مستقلة في أول كل سورة على أصحِّ الأقوال وهي آية من الفاتحة، ولمَّا نزلت على رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان لا يفتتح رسالة إلا ببسم الله الرحمن الرحيم، وكتب إلى هرقل، وكسرى، والمقوقس، والنجاشي: «**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله** صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ»[(٢)].

وكان صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يعرف فصل السورة حتى يتنزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم، وقال: «**إنه أنزلت آنفًا سورةٌ: بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿**إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ**﴾ [الكوثر]»[(٣)] فدلَّ ذلك على أنها هكذا في أولِّ كل سورة.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣٥٢-٣٥٣)، و«زاد المعاد» لابن القيم (١/ ٣٠-٣٣).

(٣) رواه مسلم (٤٠٠) من حديث أنس رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ هذا من توسل الملائكة الذين يحملون العرش في دعائهم للمؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر].

فانظر إلى رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بك أيها المؤمن كيف وأنت في الأرض سخَّر ملائكة كرامًا يحملون عرشه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويدلُّ ذلك على شدة قربهم، وعظيم منزلتهم، وما أعطاهم الله عَزَّوَجَلَّ من القوة الهائلة التي لا يدري أحد قدرها وكيفيتها، ولا يتصورها أحد؛ فإن زنة عرش الله عَزَّوَجَلَّ فوق طاقة البشر في التحمل أو التخيل، فإن السماوات السبع والأرضين السبع إلى جانب الكرسي كحلقة في فلاة، والكرسي بجانب العرش كحلقة في فلاة، فهؤلاء الملائكة سخرهم الله عَزَّوَجَلَّ، وجعل من ضمن وظائفهم أنهم يدعون لعباد الله المؤمنين، فأيُّ شرفٍ لكلِّ مؤمنٍ على وجه الأرض ممن تاب واتبع سبيل الله عَزَّوَجَلَّ وصراطه المستقيم أعظم من ذلك!

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: قائلين ذلك يتوسلون إلى الله برحمته وعلمه ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً ...﴾ فيه إثبات الصفة، وذُكرت هنا على المصدرية وكذلك العلم، وهذا إثبات لهذه الصفة، خلافًا لمن أنكرها كالمعتزلة الذين نفوا الصفة، والأشاعرة الذين أولوها إلى الإرادة، وذلك من أبطل الباطل، فحرموا أنفسهم بضلالهم هذا من أن تنالهم رحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إذ كذبوا بما وصف به نفسه في مائة وثلاث

عشرة سورة من القرآن من مواضع البسملة في أول السور، فضلًا عما كان في ضمن آيات هذه السور من وصفه عَزَّوَجَلَّ بالرحمة، فجعلوا ذلك مما لا يليق به.

وهنا خصوصية للتائبين والمتبعين سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الملائكة لم يقولوا: هم أشقياء فاشملهم برحمتك، وإنما قالوا: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ مما يدلُّ على خصوصية التائبين الراجعين إلى الله والمتبعين سبيله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ وقاية السيئات يوم القيامة هي علامة الرحمة، وأما في الدنيا فهناك ما يسوء أولياء الله عَزَّوَجَلَّ، ويزيله الله عَزَّوَجَلَّ بعد ذلك. قال الله عَزَّوَجَلَّ آمرًا نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨] فهناك سوء يمس المؤمن في هذه الدنيا.

وهذه الآية الكريمة التي تذكر دعاء الملائكة، من أحسن التوسلات التي يرجى معها الإجابة.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ [الأحزاب].

أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عباده بالذكر ولم يجعل له حدًّا، بل أمر بالإكثار منه، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾ وأدنى ذلك الصلوات الخمس، والمستحب أن يزيد بالتسبيح مائة حين يصبح ومائة حين يمسي، أو يزيد على ذلك.

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾ هذا الذي يذكره عَزَّوَجَلَّ يتحبب به إلى عباده، أي: هو الذي يثني عليكم في الملأ الأعلى، ويرحمكم، ويغفر لكم، وأما صلاة الملائكة فهي الدعاء والاستغفار.

- ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ من ظلمات الجهل والكفر والظلم والغفلة إلى نور الإيمان والتوحيد والعلم، بعد أن كانوا في ظلمة الضلال والجهل، لا يدرون ما يريدون، ولا ماذا يصنعون، ولا ما يأخذون وماذا يتركون، فعلَّمهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأفهمهم ما ينبغي لهم أن يفعلوه، ونوَّر قلوبهم، فاختارت طريق الحق، ورضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًّا، وأخرجهم سبحانه من ظلمات الجاهلية التي يعيش فيها الإنسان لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه إلى نور الإسلام الذي يشرح الله به الصدر، وينزل به السكينة، ويبصر الإنسان به حقائق الوجود بعد أن كان غافلًا عنها فكان يعيش كعيشة البهائم السائمة، كما قال تعالى عن الكفار: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢].

وكما يبدو لكل من نظر في حياة هؤلاء الكفار كيف يعيشون، ومن أجل ماذا يحيون، لا يدرون من الدنيا إلا التنافس على الشهوات من شرب الخمر، ومواقعة النساء، والتنافس على الرئاسة والمال والجبروت والظلم وفرض الإرادات الظالمة على الناس.

ولذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ وهذه أعظم رحمة يدركها كل من قارن بين حياة الكفر والظلم والطغيان والغي، وبين حياة الإيمان والعلم والتوحيد والنور والهدى.

ثم قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ ما أعظم هذه الكلمة حين يسمعها المؤمنون، وهذا هو السلام الحقيقي الذي يسعى إليه المؤمن، وهو أن يسَلِّم الله عَزَّوَجَلَّ عليه وأن يسْلَم من عذاب الله، وليس السلام الوهمي الذي يريد أعداء الإسلام أن يفرضوه على

الناس ظنًّا منهم أنه سلام، وهو الذي لا يحقق في الأرض إلا إنفاذ جبروتهم، وطغيانهم على الناس، واستسلام الخلق لهم ليعيشوا نعالًا في أقدامهم، أذلة لهم، مثلهم في البهيمية التي لا يريدون غيرها، ولا يفهمون من الحياة سواها، لكن السلام الذي من أجله سعى أهل الإيمان في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ لكي يسمعوا تسليمه عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس:٥٨] ولكي يسلموا من عذاب الله يوم القيامة، وذلك من أعظم مظاهر رحمته سبحانه أن يتكلم سبحانه كلامًا فيخاطب به المؤمنين كما في الحديث أنه عَزَّوَجَلَّ يقول لأهل الجنة يوم القيامة: «**سلام عليكم يا أهل الجنة...**»(١) وهذا أعلى خطاب يسمعونه وأحلى كلام، لا نظير له ولا شبيه ولا مثيل، وهذه كانت رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمؤمنين، وقد خصهم بها عَزَّوَجَلَّ، وهذا كله بسبب بعثته للنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولذا قال عَزَّوَجَلَّ عقب هذه الآيات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب] الآيات.

فمن قَبِلَ هذه الرحمة المهداة -النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان مرحومًا في الدنيا والآخرة، وسعد في الدنيا والآخرة، ومن لم يقبلْ هذه الرحمة المهداة، وسعى في حرمان الخلق منها فهو الشقي التعيس أعظم التعاسة؛ لأنه يحارب من أجل أن لا يُرحم الناس، ومن أجل أن يظلوا في الكفر والشرك والظلم.

وعلى أهل الإيمان أن يسعوا إلى نشر هذه الرحمة المهداة، وما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ على رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَبُولُها هو الرحمة للعالم، وأمَّا من لا يرحم الناس فهو الذي يمنع وصول الحق والخير والإسلام إليهم، وكذلك مَن يُسوِّي بين الكفر والإيمان لم يذق طعم الرحمة، ومن يريد ظهور الكفر على الإسلام لا يدري معنى الرحمة وإنْ بدا للناس أنه

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه (١٨٤) وصحَّحه الألباني في «المشكاة» (٦٠٦٨)، وظلال الجنة (١١٧٢) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

رحيمٌ وشفيقٌ، أو يُطعِمُ الجائع، أو يُعين الفقير، وهو من أقسى القساة وهو لا يدرك للرحمة معنى؛ إذ حرم الناس من أسباب سعادتهم، وعَرَّضهم لأعظم أسباب شقائهم وتعاستهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:٨].

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ هذا في خطاب الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لمَّا أخذت الرجفة السبعين من قومه وهم خيرتهم، فوقف متوسلًا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الآيات [الأعراف].

فرحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسعت كل شيء أي: شملت كل شيء، ولكن يكتبها الله عَزَّوَجَلَّ مؤبدة مستقرة شاملة لمن ذكرهم الله في الآية، تُزيل عنهم كل أنواع الشقاء، ومدح الله أمة محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعلها أمة مرحومة قبل أن تُخلق؛ بل قبل أن يُخلق آباؤها وأجدادها، فهذا تفضيل الله عَزَّوَجَلَّ لهذه الأمة التي ذكرها قبل أن توجد، ورحِمَها قبل أن تُولد: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الآية، والزكاة هنا: زكاة القلب كما هي زكاة المال، فتشمل النوعين: فزكاة القلب ونماؤه وطهارته إنما تكون بالتوحيد والإيمان، ويتبع ذلك تطهير

المال بالزكاة المعروفة، فلابدَّ من تحقيق التقوى لنيل رحمة الله عَزَّوَجَلَّ في الدنيا والآخرة التي لا شقاء معها، ولا ألم ولا عذاب، وجعلها ربنا في مقابلة العذاب ﴿**قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ** ...﴾ الآية.

وذلك أن دعاء موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ متحققٌ بطائفة من أمته، وأن أمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من مات منها موحِّدًا فهو من أمته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالرحمة شاملة تامة بإذن الله، وإن نالهم شيءٌ بسبب ذنوبهم فلابدَّ أن تنالهم رحمة الله في نهاية الأمر، ولو عُذِّبوا في النار مدة كان لهم يوم يخرجون فيه إلى الرحمة.

۞ وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ** ﴾ هذا أعظم ترغيب في اتباع السنة وفي التزام ما جاء عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبنص هذه الآية كل من اتبع سنة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ واتبع ما جاء به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فمكتوب له الرحمة، ولو أراد الخلق جميعًا إيذاءه وشقاءه فإنهم لا يستطيعون، لأن الله كتب له الرحمة.

۞ وقوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ** ﴾ الآية، وهذا من أسباب الرحمة، فإن المعروف تنال به رحمة الله، والمنكر سبب الشقاء والألم والبعد عن رحمة الله، ولذا كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ آمرًا بالمعروف، وناهيًا عن المنكر رحمةً بالعباد، وأهل الإيمان يعيشون حياة عجيبة مع فقرهم وقلة ما معهم غالبًا؛ فإنهم في سعادة لا يدركها الكفار، ولو أنفقوا كل ما بأيديهم من الدنيا لما وجدوا ذرة من هذه السعادة، لكن الشيطان قد غرَّ الكافرين، فظنُّوا أن طريقة معيشتهم هي الحياة التي لا يمكن أن تزول ولا يمكن أن يُستغنى عنها، كما قال فرعون وسحرته: ﴿ **وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ** ﴾ [طه:٦٣] فيظنون أن حياتهم في عبودية فرعون، والطعام، والشراب، والمال، والجاه الذي يؤتيه هي الطريق المثلى، والكفار ومن شابههم من المنافقين في أزماننا كذلك يرون أن

الحياة التي يعيشونها هي حياة سعيدة، ويوهمون الناس أنهم يريدون إخراج أهل الإسلام من الضنك الذي هم فيه -بزعمهم-.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية، وتلك الآصار أي: التشريعات الثقيلة التي فُرِضَتْ عليهم بسبب ذنوبهم ولم يلتزموا بها في الحقيقة، فما نالهم من جرَّاء ذنوبهم إلَّا الخزي والخسران؛ فلا اليهود يلتزمون بشريعتهم، ولا النصارى يلتزمون بشريعتهم، بل هم على الفسق والفجور والمخالفة، وإلَّا فإنَّ التوارةَ والإنجيلَ -حتى بعد التحريف- هل تأمرهم بالزنا، والفجور، والربا، والخمور، والظلم، والعدوان! ووصايا الأنبياء محددة معروفة، وهم يعيشون في قمة المخالفة لها، وبعد ذلك يقولون: الرب يمجدنا -زعمًا وكذبًا-.

فإن هذه الآيات الكريمة تجعل القلب لابدَّ أن يمتلئ حبًّا لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ فهو عَزَّوَجَلَّ رحمته بالمؤمنين واسعة أنْ هداهم لهذا الدين، وأرسل إليهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

ومَنْ تأَمَّلَ اعتقاد النصارى، وتحريفهم عَلِم سعة رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بالمؤمنين الموحدين، فإن العاقل لا يقبل أبدًا أن خطيئة آدم لزمت بنيه جميعًا ولا يُقبل منهم عملٌ حتى يكون لهم فداء، ومبنى هذه النظرية المختلة على إنكار صفة الرحمة والمغفرة من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن -على قولهم- الخطيئة لازمة لبني آدم، ولا يغفر لهم إلا بذبيحة وفداء.

والعجب كل العجب، والتناقض الذي لا يقبله أي عاقل كيف تكون رحمة الله بعباده أنه أرسل ابنه الوحيد -كما يزعمون- لكي يرحم العالم؟! فكيف تكون الرحمة من خلال أن يرتكب الناس جريمة قتل هذا الابن ويصلبوه، ويبصقوا عليه، ويعلقون الشوك في رقبته بين لصين، وهو يتألم أعظم الألم؟! تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

زعموا ذلك كله -لأجل نيل المغفرة- فأي عقل يقبل ذلك، وأي إنكار لرحمة الله أشد من ذلك، فضلًا عن أن خطيئة آدم الأولى قد عوقب عليها آدم، وفضلًا عن أن الخطيئة لا تورث ولا يجنى والد على ولده، وهذا موجود في التوراة والإنجيل والقرآن.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ**﴾ الآية.

هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وهذا فضل منه -سبحانه- ومنة على عباده أن كتب على نفسه الرحمة، ولم يكتبها أحدٌ عليه، وهذا يُبين يُسْر التوبة، وسهولة المغفرة لمن رجع إلى الله، فإن مَن تاب إلى الله يتوب الله عَزَّوَجَلَّ عليه ويدخله في رحمته.

۞ وقوله تعالى: ﴿**فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ**﴾ قالها يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما طلب منه أبناؤه أن يأخذوا معهم أخاهم (بنيامين) لأنه مُنِعَ منهم الكيل فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ**﴾ [يوسف:٦٤].

وهم لم يحافظوا على الأمانة الأولى وضيَّعوا أخاهم، لكنْ تذكَّرَ أن حفظ الله أعظم وأن رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوسع، وفعلًا كان حفظ الله عَزَّوَجَلَّ ليوسف أتمَّ من حفظ أبيه يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له، وكانت رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بيوسف -وهو بعيد عن أبيه- أعظم من رحمة أبيه به.

فإن الله عَزَّوَجَلَّ أرحم بعباده من الأم بولدها، ومن الأب بابنه، كما رأى النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امرأة تبحث في السبى عن ولدها، فقال: «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها...**» الحديث(١).

والعبد قد تعرض له أشياء مؤلمة، أو يتعرض للخطر، والله عَزَّوَجَلَّ يحفظه من حيث لا يدري، وحِفظُه عَزَّوَجَلَّ للعبد خير من حفظه لنفسه.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فكلُّ من اتصف بصفة الرحمة لا يمكن أن يقارن برحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن رحمته المخلوقة جعلها مائة جزء أنزل منها رحمة قسَّمها بين الخلائق من أولهم إلى آخرهم، إنسهم، وجنهم، وحيوانهم وكل المخلوقات، كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»[١]، ولنتأمَّلْ كم من أمٍّ في الوجود -على حسب عدد البشر- في قلبها رحمة لكل ولد من أولادها، وكذا الآباء والإخوة، والأرحام، كم في قلوبهم من الرحمات، وكذا الأزواج في قلوبهم لزوجاتهم، والزوجات للأزواج، وكذلك ما عند الكائنات الأخرى من الرحمة بأبنائها، فهذه كلها من جزء واحد أنزله الله عَزَّوَجَلَّ، وادَّخر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تسعة وتسعين جزءًا ليوم القيامة وهذه الرحمة المخلوقة التي منها الجنة كما في حديث احتجاج الجنة والنار قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «... **فقال الله** عَزَّوَجَلَّ **للجنة: أنت رحمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي...**» الحديث[٢]، فكيف برحمة الله التي هي صفته عَزَّوَجَلَّ القائمة به! وكل هذه الرحمات المخلوقة أثر من آثار اتِّصافه بصفة الرحمة، ولولا أنه الرحمن الرحيم لما وجدت هذه الرحمات، وهو سبحانه أرحم الراحمين.

قال الشيخ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُٱللَّهُ في «شرح الواسطية» تعليقًا على قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وما بعدها من الآيات: (وأما قوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وما بعدها من الآيات؛ فقد تضمنت إثبات اسميه الرحمن والرحيم، وإثبات صفتي الرحمة والعلم.

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقد تقدم في تفسير ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الكلام على هذين الاسمين، وبيان الفرق بينهما، وأن أولهما دالٌّ على صفة الذات، والثاني دالٌّ على صفة الفعل.

وقد أنكرت الأشاعرة والمعتزلة صفة الرحمة بدعوى أنها في المخلوق ضعفٌ، وخورٌ، وتألمٌ للمرحوم، وهذا من أقبح الجهل، فإن الرحمة إنما تكون من الأقوياء للضعفاء، فلا تستلزم ضعفًا ولا خورًا؛ بل قد تكون مع غاية العزة والقدرة، فالإنسان القوي يرحم ولده الصغير، وأبويه الكبيرين، ومن هو أضعف منه، وأين الضعف والخور -وهما من أذمِّ الصفات- من الرحمة التي وصف الله نفسه بها، وأثنى على أوليائه المتصفين بها، وأمرهم أن يتواصوا بها؟!

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ ....﴾ إلخ؛ من كلام الله عَزَّوَجَلَّ حكايةً عن حملة العرش والذين حوله، يتوسلون إلى الله عَزَّوَجَلَّ بربوبيته، وسعة علمه، ورحمته في دعائهم للمؤمنين، وهو من أحسن التوسلات التي يُرجى معها الإجابة.

ونصب قوله: ﴿رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ على التمييز المحوَّل عن الفاعل، والتقدير: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء. فرحمته سبحانه وسعت في الدنيا المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ولكنها يوم القيامة تكون خاصة بالمتقين؛ كما قال تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾؛ أي: أوجبها على نفسه تفضلًا وإحسانًا، ولم يوجبها عليه أحد.

وفي حديث أبي هريرة في «الصحيحين»: «**إن الله لما خلق الخلق كتب كتابا، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت -أو تسبق- غضبي**»[1].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧١٥٥)، ومسلم (٥٠٧٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأما قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾؛ فالحافظ والحفيظ مأخوذ من الحفظ، وهو الصيانة، ومعناه: الذي يحفظ عباده بالحفظ العام، فييسر لهم أقواتهم، ويقيهم أسباب الهلاك والعطب، وكذلك يحفظ عليهم أعمالهم، ويحصي أقوالهم، ويحفظ أولياءه بالحفظ الخاص، فيعصمهم عن مواقعة الذنوب، ويحرسهم من مكايد الشيطان، وعن كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم) اهـ[١].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٠٦-١٠٨).

٨- ذكر رضا الله عَزَّوَجَلَّ وغضبه وسخطه وكرهه في القرآن الكريم

وقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [البينة: ٨]، وقوله: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨]، وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف:٥٥]، وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٦]، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

هذه الآيات ذكرت صفات الرضا، والمقت، والغضب، والسخط، والكراهية من الله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

بيَّن سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أنه رضي عن عباده المؤمنين من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، فتضمنت هذه الصفة أن الله عَزَّوَجَلَّ قد رضي عنهم.

وهم قد رضوا عنه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ربًّا مدبرًا وإلهًا، فأثابهم على إيمانهم في الدنيا أعظم الثواب؛ فمكَّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، ووفقهم إلى

عبادته لا يشركون به شيئًا، ومكَّن لهم في البلاد وقلوب العباد، ثم يثيبهم أعظم الثواب يوم القيامة، ويحل عليهم رضاءه الذي لا سخط بعده أبدًا، فأيُّ شيءٍ أعظم من ذلك!

ولذلك هم يرضون عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما أعطاهم، وأنه كفاهم كل ما أهمهم، وتلك الصفة -الرضا- هي أعظم ما يطلبه المؤمنون كما ورد في الحديث، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا**»(١).

وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة:٢].

فإنَّ أعظم ما يطلبه المؤمن هو رضوان الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا النعيم المعنوي الذي يطلبه المؤمنون هو أعلى من نعيم الجنة الحسِّي، بل لولاه لما كانت الجنة جنة، وإنما تمتع أهل الجنة بنعيم الجنة؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ رضي عنهم، وكذلك في الدنيا؛ فإن الإنسان مهما كان عنده من نعيم ولذات لكنه مسخوط عليه، مغضوب عليه من قِبَلِ الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه يعيش أتعس حياة، والعكس بالعكس؛ فلو كان المؤمن في ضيقٍ وشدةٍ وبؤسٍ وجوعٍ وخوفٍ وألمٍ، فإنه ما دام يعيش في مرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنه يسعد سعادةً لا أعظم منها، وهذا

---

(١) رواه مسلم، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٢٨٢٩).

الذي جعل إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور، لجالدونا عليه بالسيوف»[(١)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ كاتب هذه الرسالة المباركة: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني؛ إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[(٢)].

فإن المؤمن يدور دائمًا حول طلب رضوان الله ويتبع رضوانه، أي: يتبع ما يرضي الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك قال عَزَّ وَجَلَّ في حق المهاجرين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿**لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ**﴾ [الحشر:٨].

ومن رضوانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يدخل عباده المؤمنين الجنة، وأن يكرمهم بالنظر إلى وجهه الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞ وقوله سبحانه: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ الغضب صفة من صفات الله سبحانه تليق بجلاله عَزَّ وَجَلَّ، واللعن هو الطرد والإبعاد، وهذا يدلُّ على عظم حرمة المؤمن عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن قتله أمر عظيم عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وورد في الأثر: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مسلم**»[(٣)].

فانظر كيف بمن يقتلون المؤمنين لأجل إيمانهم وإسلامهم! وليس لهم جرمٌ عندهم إلا الإسلام، وهذه حقيقة المسألة عند هؤلاء، وهؤلاء المجرمون لا يقتلون واحدًا بل

---

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٤٧٥).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٠٢).

(٣) «صحيح الجامع» (٩٢٠٨) موقوف على عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وروى مرفوعًا لكن الموقوف أصح.

العشرات، والمئات، والآلاف، ويريدون تدمير الإسلام، ولا شكَّ أن هذا من أعظم ما يجلب عليهم غضب الله عَزَّوَجَلَّ، ولعنهم وطردهم من رحمته، ونزول العقاب بهم، والناس قد يتساهلون فيما يجلب عليهم ذلك من قتل المسلمين.

ثم قتل المسلم للمسلم من أعظم الكبائر، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا**»(١).

والمؤمن يخاف خوفًا شديدًا من أن يسفك دمَ مسلمٍ بغير حق، وإنما يستهين بذلك من لا يعبأ بغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنَّ من يسارع في سفك الدماء تجد حوله البغضاء والكراهية، وهذا أثر من آثار غضب الله عَزَّوَجَلَّ عليه، وإن هناك صنفًا من الناس لشدة جهله، وشدة تسلط الشيطان عليه يسارع في سفك دم من أغضبه، بل ويسهل عليه قتله، وكم من الناس يتنازعون فيما بينهم لأتفه الأسباب، وربما دخلوا في صراعات قاتلة، وما أكثر ما نسمع في طرقاتنا وفي شوارعنا ما يقع من ذلك من جرأة على سفك الدماء، وشهر السلاح في وجوه المسلمين، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من حمل علينا السلاح فليس منا**»(٢)!!

وما يجري بين المسلمين من تغاضب وتقاتل على أتفه الأسباب، هو من أعظم أسباب غضب الله عَزَّوَجَلَّ ونزول العقاب بهم، وتسلط العدو كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ: «**قال وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه البخاري (٦٦٩٤) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه مسلم (٥١٤٨) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذه الآية الكريمة قد اختلف العلماء في عمومها وخصوصها، هل هي عامة تشمل من يقتل مؤمنًا متعمدًا حتى لو كان القاتل مسلمًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها، وغضب الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذابًا عظيمًا، فلا تقبل توبته ولابدَّ أن يدخل النار، كما روي ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن «القاتل لا توبة له»[1]؟ أم أن الآية خاصة بالكفار وإن كان الذنب عظيمًا في قتل المؤمن.

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجماعة من السلف: «هذا جزاؤه إن جازاه به»[2] بمعنى أن المؤمن قد لا يُجازى، وهو في المشيئة، أما الكافر فلابدَّ أن يُجازى.

والصحيح أن القاتل عمدًا له توبة، لكن توبته لا تغنيه عن جميع آثار الجريمة بالكلية، فإن توبته فيما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ مقبولة، ولكن يبقى عليه حقَّان: حق لأولياء القتيل؛ وهو أن يسلم نفسه لهم فإن شاءوا اقتصوا، وقتلوه بدل قتيلهم؛ فإنه حين قتل قتيلهم فجع قلوبهم، وآلم صدورهم، ويتَّم أطفالهم، ورمَّل من رمَّل من نسائهم، وإن شاءوا أخذوا الديَّة، وإن شاءوا عَفَوا عنه، وهذه الثلاثة هي ما شرعه الله في حق من قتل عمدًا وعدوانًا، وأهل القتيل يختارون ما يشاؤون.

والحق الثاني هو حق القتيل نفسه وهذا موعده يوم القيامة؛ وما أعظم هذا المشهد، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: يا ربِّ هذا قتلني، فيقول: لِمَ قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزة لك، فيقول: فإنها لي، ويجيء الرجل آخذًا بيد الرجل فيقول: يا ربِّ إن هذا قتلني، فيقول الله: لِمَ قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لفلان، فيكون: إنها ليست لفلان، فيبوء بإثمه**»[3].

---

(١) «جامع البيان» لابن جرير الطبري (٩/ ٦٢) ط. دار المعارف.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٥١٨) ط. ابن حزم.

(٣) **صحيح**: رواه النسائي (٣٩٩٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ٣٤١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا المشهد يوم القيامة يبيِّن لنا جزاء من قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وهذا في قتال المسلمين للكفار، والمشهد الآخر في الظالمين الذين يقتلون المسلمين بغير حقٍّ سواء من الكافرين الذين يريدون إعلاء كلمة الكفر، ويريدون التعزز على المسلمين، أو كان القتل بين المسلمين بعضهم بعضًا؛ كمن يقتل خصمه المسلم، أو جاره، أو صديقه أو صاحبه، لأجل أن يفرض كلمته وتكون العزة لنفسه، وأما من تاب فلابدَّ أن يقف هذا الموقف أيضًا؛ لأن حقوق العباد لابدَّ أن تقتص فيما بينهم، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يخلص المؤمنون من النار فيُحْبَسون على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة**» الحديث[(١)].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الظلم ثلاثة: فظلم لا يتركه الله، وظلم يغفر، وظلم لا يغفر، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك لا يغفره الله، وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد فيما بينه وبين ربه، وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد فيقتص الله بعضهم من بعض**»[(٢)].

ولذلك يُرجى للقاتل -إن تاب- أن تقبل توبته إن أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يرضي القتيل من عنده، ويتفضل عليه حتى يجعله لا يسأل الحق بين يدي الله يوم القيامة، وهذا الحق الباقي لا سبيل ولا وسيلة إلى استدراكه إلا بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ الآية. الآية تثبت رضوان الله، لكنَّ الكفارَ والمنافقين كرهوا رضوان الله عَزَّوَجَلَّ، فكرهوا شريعته، والعمل بطاعته، ولا يريدون إقامة الدين في الأرض حتى لو عَمِلَ به غيرهم،

(١) رواه البخاري (٦٥٣٥) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٦٥٣٥).

(٢) صحيح: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨٩٥٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٢٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولو في أفقر بقعة وأبأس قومٍ في متاع الدنيا على وجه الأرض، فإن الكافرين والمنافقين لا يرضون ولا يريدون رضوان الله، وفي نفس الوقت يتبعون ما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ. فأثبتت الآية صفة الرضا لله عَزَّوَجَلَّ، وأثبتت سخطه على الكافرين والمنافقين.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد:٢٥].

ولماذا منَّاهم الشيطانُ بالغرور وأغواهم بالكبر والفجور؟ لأنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾، وهذا حال المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ويطيعونهم في بعض الأمر، فكيف بمن يطيعهم في كل الأمر؟ وكيف بمن يطيعهم في الكفر بالله، وحرب دينه وأوليائه وعباده المؤمنين؟!

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ [محمد:٢٦] وهم يعلمون أنهم يكرهون ما أنزل الله، ويكرهون الإسلام وإن ادعوا غير ذلك وظهر من أفواههم ما تخفيه قلوبهم، وما تخفيه أكبر، وقد بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه كراهيتهم للدين، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران:١١٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:٣٢].

والإنسان يفكر ماذا بعد أن بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ ما يريده الكافرون؟ هل يقول قائل بعد ذلك: إن اليهود، والنصارى، وغيرهم من أهل الكفر لا يريدون كراهية الإسلام، ولا يريدون إطفاء نور الله، ولا يكرهون الإسلام ؟!

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد]، فيعاقبهم الله عَزَّوَجَلَّ على طاعتهم للكفار في بعض الأمر بأنهم حين

تتوفاهم الملائكة يرسل الله ملائكةً تضرب وجوههم، وتضرب ظهورهم وأدبارهم؛ لأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وهذا ثابت في أكثر من آية، أن الملائكة تضرب أرواح الكفار والظالمين عند الاحتضار، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ عن آل فرعون: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف:٥٥].

الأسف يستعمل في اللغة استعمالين: الأول بمعنى الحزن، وهو منفي عن الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الحزن مرجعه إلى الندم، والندم مرجعه إلى الجهل، والله عَزَّوَجَلَّ منزَّهٌ عن ذلك كله، واليهود الملاعين يصفون الله عَزَّوَجَلَّ بهذه النقائص.

والاستعمال الثاني للفظة (الأسف): بمعنى الغضب، فهي صفة عدل لله عَزَّوَجَلَّ أنه ينتقم ويغضب على من عاداه ومن حارب أولياءه؛ فينتقم منهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ عن المنافقين: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦] فمن كرهه الله عَزَّوَجَلَّ كره خروجه في سبيله؛ لأنه يفسد على المسلمين أمرهم وهو المنافق، فكيف بمن يكره الجهاد كراهية تجعله يمنع غيره أن يجاهد في سبيل الله؟! فهذا أعظم من مجرد كراهيته للخروج، ولو عَلِمَ الله عَزَّوَجَلَّ فيهم الخير لوفقهم لإرادة الجهاد الذي وجب عليهم، وكل من قعد عن الجهاد الواجب وهو قادر عليه ولا يشتاق إليه دخل في هذا الذم الشديد.

وهو عَزَّوَجَلَّ جعل همم المنافقين تنصرف إلى غير الجهاد، وأمرهم أمرًا كونيًّا أن يقعدوا مع القاعدين، والآية تدلُّ على إثبات صفة الكراهية منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما لا يحبه من أعمال المنافقين، وهذا عكس صفة المحبة، وإنما كره الله انبعاثهم؛ لأن خروجهم لن يكون خالصًا لوجهه عَزَّوَجَلَّ، ولن يترتب عليه إلا الفساد، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة:٤٧]، فمن أجل ذلك كَرِهَ الله انبعاثهم.

وقد يُقال: كيف يكره الله طاعة منهم، وهو عَزَّوَجَلَّ يحب الطاعات من جميع الناس؟! ذلك لأن خروجهم في الحقيقة لم يكن طاعةً، وإنما كان رياءً ونفاقًا، ولم يكن إخلاصًا لله ولا رغبةً في نصرة دينه، والمحبة من الله عَزَّوَجَلَّ مقترنة بإرادته الشرعية، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يحب أن يخرجوا مخلصين، راجين نصرة الدين، راغبين في إعلاء كلمة الله في الأرض، وليس أن يخرجوا خبالًا -أي: فسادًا وشرًّا- على المسلمين، وإلَّا فقد خرج منهم مَنْ خرج في غزوات أخرى، وكانوا ضررًا على المسلمين، فلذلك كرِهَ الله انبعاثًا معينًا، وهو انبعاثُ الرياء والنفاق، وانبعاثُ الخلل والإفساد، وإيقاع الفتنة بين المؤمنين.

۞ وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف].

المقت: أشد الكراهية. والله عَزَّوَجَلَّ يمقت أن يقول الإنسان ما لا يفعل، وهذا من أعظم ما ذمَّ الله عَزَّوَجَلَّ من يدعو إلى أمرٍ ويتكلم به وينسب نفسه إليه، ثم لا يفعله، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة:٤٤]، والذمُّ هنا على عدم فعل البرِّ.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (تضمنت هذه الآيات إثبات بعض صفات الفعل من الرضى لله، والغضب، واللعن، والكره، والسخط، والمقت، والأسف.

وهي عند أهل الحق صفات حقيقية لله عَزَّوَجَلَّ، على ما يليق به، ولا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك، ولا يلزم منها ما يلزم في المخلوق.

فلا حجة للأشاعرة والمعتزلة على نفيها، ولكنهم ظنوا أن اتصاف الله عَزَّوَجَلَّ بها يلزمه أن تكون هذه الصفات فيه على نحو ما هي في المخلوق، وهذا الظن الذي ظنُّوه في ربهم أرداهم فأوقعهم في حمأة النفي والتعطيل.

والأشاعرة يرجعون هذه الصفات كلها إلى الإرادة؛ كما علمت سابقًا، فالرضا عندهم إرادة الثواب، والغضب والسخط...-إلخ- إرادة العقاب.

وأما المعتزلة؛ فيرجعونها إلى نفس الثواب والعقاب.

وقوله سبحانه: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ إخبارٌ عمَّا يكون بينه وبين أوليائه من تبادل الرضا والمحبة.

أما رضاه عنهم، فهو أعظم وأجل من كل ما أعطوا من النعيم؛ كما قال سبحانه: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة:٧٢].

وأما رضاهم عنه، فهو رضا كل منهم بمنزلته مهما كان، وسروره بها؛ حتى يظن أنه لم يؤت أحدٌ خيرًا مما أوتي، وذلك في الجنة.

وأما قوله: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾ [التوبة:٩٣] الآية؛ فقد احترز بقوله: ﴿مُؤۡمِنٗا﴾ عن قتل الكافر، وبقوله: ﴿مُّتَعَمِّدٗا﴾ -أي: قاصدًا لذلك، بأن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا، فيقتله بما يغلب على الظن موته به- عن القتل الخطأ.

وقوله: ﴿ خَـٰلِدًا فِيهَا ﴾؛ أي: مقيمًا على جهة التأبيد، وقيل الخلود: المكث الطويل.

واللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، واللعين والملعون: من حقَّت عليه اللعنة، أو دعي عليه بها.

وقد استشكل العلماء هذه الآيات من حيث إنها تدلُّ على أن القاتل عمدًا لا توبة له، وأنه مخلدٌ في النار، وهذا معارض لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

وقد أجابُوا عن ذلك بعدة أجوبة؛ منها:

١- أنَّ هذا الجزاء لمن كان مُسْتَحِلًا قتل المؤمن عمدًا.

٢- أنَّ هذا هو الجزاء الذي يستحقه لو جُوزِي، مع إمكان أن لا يجازى، بأن يتوب أو يعمل صالحًا يرجُح بعمله السيئ.

٣- أن الآية واردة مورد التغليظ والزجر.

٤- أن المراد بالخلود المكث الطويل كما قدمنا.

وقد ذهب ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وجماعة إلى أن القاتل عمدًا لا توبة له، حتى قال ابن عباس: «إن هذه الآية من آخر ما نزل، ولم ينسخها شيء».

والصحيح أن على القاتل حقوقًا ثلاثة: حقًّا لله، وحقًّا للورثة، وحقًّا للقتيل... فحق الله يسقط بالتوبة، وحق الورثة يسقط بالاستيفاء في الدنيا أو العفو، وأما حق القتيل؛ فلا يسقط حتى يجتمع بقاتله يوم القيامة، ويأتي رأسه في يده، ويقول: يا رب! سلْ هذا فيمَ قتلني؟

وأما قوله: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ إلخ؛ فالأسف يستعمل بمعنى شدة الحزن، وبمعنى شدة الغضب والسخط، وهو المراد في الآية.

والانتقام: المجازاة بالعقوبة، مأخوذ من النقمة، وهي شدة الكراهة والسخط) اهـ[(١)].

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٠٨-١١١) ط. دار الهجرة.

٩- ذكر مجيء الله سبحانه وإتيانه لفصل القضاء بين عباده يوم القيامة على ما يليق بجلاله عَزَّوَجَلَّ

وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [البقرة:٢١٠]، وقوله: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر]، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان:٢٥].

هذه الجملة من الآيات في صفة الإتيان والمجيء يوم القيامة، وهي من صفات الأفعال التي وردت في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وفي سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتي أنكرها أهل البدع وعلى رأسهم الجهمية، والمعتزلة؛ إذ إنهم ينكرون كل صفات الرب عَزَّوَجَلَّ، وبالأخص صفات الافعال. وتبعهم على إنكار صفات الأفعال الأشاعرة؛ فقالوا: إن هذا يلزم فيه التحيز والانتقال وغير ذلك، وأهل السنة لم يقولوا بالانتقال ولا التحيز، وتلك الألفاظ لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يقل عَزَّوَجَلَّ أنه يتحيز، ولم يقل أنه ينتقل.

۞ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي: فوق ظل الغمام، أي: السحاب، والظلة: هو ما يظل رؤوس العباد، فهو عَزَّوَجَلَّ فوق خلقه جميعًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

و﴿ فِى ﴾ مستعملة بمعنى فوق، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك:١٦] أي: فوق السماء، و﴿ فِى ﴾ بمعنى (على) قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾

[التوبة:٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ عن فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١] فيكون المعنى: أن يأتيهم الله فوقهم، أو على الغمام.

و﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ معطوف على لفظ الجلالة، أي: تأتيهم الملائكة أيضًا.

وهذا العطف يتضمن المغايرة، وهو أوضح دليل في الرد على الذين يقولون ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، بأنه إتيان ملائكة الله.

فإن الملائكة جاءت معطوفة، وهذا دليل على الفرق بين إتيانه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبين إتيان ملائكته، كما في الآية: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وهذا من أوضح ما يثبت هذه الصفة الفعلية، ويرد على أهل البدع؛ لأنهم مهما تأوَّلوا من أمر فهو داخل في ﴿بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ فإذا قالوا: يأتي أمر ربك، أو يأتي ملك ربك، فإن ذلك كله داخل في بعض آيات ربك، فدلَّ ذلك على بطلان ما ادَّعوه وأنه لا دليل عليه من كتاب، ولا سنة، ولا قول صحابي من صحابة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا أحد من أئمة السلف.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ فكما قدمنا أن العطف يقتضي المغايرة، وفرق بين إتيان الله وإتيان الملائكة، وفرق بين مجيء الله عَزَّوَجَلَّ ومجيء الملائكة.

- وإنما يأتي البلاء من الألفاظ المجملة التي لم ترد في الكتاب والسنة -إثباتًا ولا نفيًا- ويستعملها أهل البدع؛ مثل: الانتقال، والتحيز، وأهل السنة بلا شك ينفون منها أي معنى لا يليق بالله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ؛ مثل تصور أن السحاب يحيط به سبحانه، أو أنه يحُلُّ في بعض مخلوقاته، وهذا كلام باطل واعتقاد فاسد لا يتصوره من كان عنده علم بربه عَزَّوَجَلَّ

وعلم عظمته وكبريائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن هذا النفي لهذه المعاني الفاسدة لا يجعلنا ننكر صفات ثابتة واردة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال كثيرٌ من أئمة السلف، أن الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه كيف نستبدله نحن بلفظٍ آخرَ؟ فتقول الإتيان يلزم فيه التحيز، ويلزم فيه الانتقال؟! فلو أن هذا اللفظ يلزم منه الباطل لكان باطلًا، وكيف يوصف كلام الرب عَزَّوَجَلَّ بالبطلان، وكيف يقال ظهر منه البطلان وهو كتاب مبين كما وصفه عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يلزم منه أبدًا البطلان، بل جاء الباطل من الفهم الباطل الذي فهمه المبتدع، ومن هنا كان قطع التفسير الباطل هو أول خطوة في رد تلك البدع والضلالات.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا** ﴾ أي: تنفتح السماء، وينزل منها الغمام وتنزل الملائكة تباعًا، ويقفون في أرض المحشر صفًّا صفًّا، فالملائكة ينزلون، ثم يأتي ربنا عَزَّوَجَلَّ لفصل القضاء.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (في هذه الآيات إثبات صفتين من صفات الفعل له سبحانه، وهما صفتا الإتيان، والمجيء، والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بذلك على حقيقته، والابتعاد عن التأويل الذي هو في الحقيقة: إلحاد، وتعطيل.

ولعل من المناسب أن ننقل إلى القارئ هنا ما كتبه حاملُ لواء التجهم والتعطيل في هذا العصر، وهو المدعو بـ(زاهد الكوثري)؛ قال في حاشيته على كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي ما نصه: «قال الزمخشري ما معناه: إن الله يأتي بعذاب في الغمام الذي ينتظر منه الرحمة، فيكون مجيء العذاب من حيث تنتظر الرحمة أفظع وأهول».

وقال إمام الحرمين في معنى الباء كما سبق.

وقال الفخر الرازي: «أن يأتيهم أمر الله» اهـ.

فأنت ترى مِنْ نقل هذا الرجل عن أسلافه في التعطيل مدى اضطرابهم في التخريج والتأويل.

على أن الآيات صريحة في بابها، لا تقبل شيئًا من تلك التأويلات.

فالآية الأولى تتوعد هؤلاء المصرِّين على كفرهم، وعنادهم، واتِّباعهم للشيطان بأنهم ما ينتظرون إلا أن يأتيهم الله عَزَّوَجَلَّ في ظلل من الغمام لفصل القضاء بينهم، وذلك يوم القيامة، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

والآية الثانية أشد صراحة؛ إذ لا يمكن تأويل الإتيان فيها بأنه إتيان الأمر أو العذاب؛ لأنه ردَّ فيها بين إتيان الملائكة وإتيان الرب، وإتيان بعض آيات الرب سبحانه.

وقوله في الآية التي بعدها: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ لا يمكن حملها على مجيء العذاب؛ لأن المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء، والملائكة صفوف؛ إجلالًا وتعظيمًا له، وعند مجيئه تنشق السماء بالغمام؛ كما أفادته الآية الأخيرة.

وهو سبحانه يجيء، ويأتي، وينزل، ويدنو، وهو فوق عرشه بائن من خلقه.

فهذه كلها أفعال له سبحانه على الحقيقة، ودعوى المجاز تعطيل له عن فعله، واعتقاد أن ذلك المجيء والإتيان من جنس مجيء المخلوقين وإتيانهم نزوع إلى التشبيه يفضي إلى الإنكار والتعطيل) اهـ[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ففرق بين إتيان الملائكة، وإتيان الرب، وإتيان بعض آيات ربك، فَقَسَّم، ونَوَّعَ، ومع هذا التقسيم يمتنع أن يكون القسمان واحدًا فتأمله، ولهذا

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١١٢-١١٣).

منع عقلاء الفلاسفة حمل مثل هذا اللفظ على مجازه وقالوا هذا يأباه التقسيم والترديد والإطراد» اهـ[١].

❁❁❁

(١) «مختصر الصواعق المرسلة» (ص٣٥٨) ط. دار الحديث.

١٠- إثبات صفة الوجه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

تضمنت هاتان الآيتان إثبات صفة الوجه لله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وبقاء الوجه مستلزم لبقاء الذات، والذي يتوهم أن الوجه بعض من الرب فيقول إن هذه الآية لابدَّ من تأويلها؛ لأنه إذا أثبتنا بقاء الوجه فهذا يستلزم فناء بقية الصفات الأخرى أو الأجزاء الأخرى، وهذا كله من فساد الفهم؛ إذ إن أهل السنة لا يقولون إن الوجه بعض من الرب كما هو في حق المخلوقين، وقد اتفقت كلمة السلف على عدم وصف الرب سبحانه بأنَّ له أجزاءً وأبعاضًا، فلم يقل أحدٌ من السلف أن اليد والرجل أجزاء الرب -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- بل قالوا إن الله عَزَّوَجَلَّ واحد أحد، ولم يتفوه أحدٌ منهم بهذه الكلمات الباطلة.

ولأن التجزئة والتقسيم تقتضي عدم الوحدانية ولا شكَّ في بطلان ذلك، واتفقت كلمة أهل العلم على أن يسموا هذه آيات الصفات؛ فيقولون: إن الله عَزَّوَجَلَّ وصف نفسه أن له وجهًا، ونحن نثبت له وجهًا لا كوجوه المخلوقين، وهو عَزَّوَجَلَّ أعلم بنفسه حين وصف نفسه بأن وجهه ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾: أي ذو العظمة، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ هنا بمعنى الكبرياء والتعظيم، فهو عَزَّوَجَلَّ يَكْرُم بمعنى يَعْظُم. وقال البعض: إن الإكرام هو أن يكرم عباده، ولكن الأول أظهر خصوصًا في هذه الآية.

وقد ورد في موطن آخر: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن:٧٨] وهو يحتمل التفسيرين؛ أي: ذو الإكرام، وأيضًا هو عَزَّوَجَلَّ الذي يكرم عباده، لكن في الموطن الأول في ذكر صفة الوجه الأظهر في معنى (ذو الإكرام) أي: ذو العظمة والإجلال.

وكما قرَّرنا أن بقاء الصفة دليلٌ على بقاء الذات؛ لأنه لا انفصال بين الذات وبين الصفة، والصفات قائمة بالذات، وإنما الانفصال هو انفصال في الذهن فقط لكي يفهم الإنسان معاني الكلام، وليس انفصالًا حقيقيًّا.

وإذا كان في حق المخلوقين لا تنفصل الصفات وإن تعددت عن الذات -وهذا في حق المخلوقين- فبالأولى أن تكون صفة الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَى تقوم به، ولا يتصور انفصال ذاته عن صفاته سبحانه.

والغيرية إنما تكون كما ذكرنا في الذهن؛ فإذا قلنا السمع غير البصر معلوم أن معنى هذا خلاف هذا.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (والنصوص في إثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تحصى كثرة، وكلها تنفي تأويل المعطلة الذين يفسرون الوجه بالجهة، أو الثواب، أو الذات، والذي عليه أهل الحق أن الوجه صفة غير الذات) اهـ[(١)].

ونلاحظ أن شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ استدلَّ بآيتين لا تحتملان تأويلًا بغير الوجه؛ لأن هناك آيات أخرى ذُكر فيها لفظ الوجه لكنها ليس مجمعٌ أنها من آيات الصفات بل فيها أقوال عن السلف مثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥] الآية، قال مجاهد: «قبلة الله»[(٢)]، والراجح فيها أنها ليست من آيات الصفات لأن هذا المضاف فيها ﴿ فَثَمَّ ﴾ أي: فهناك وجه الله، والآية نزلت في استقبال القبلة في

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١١٤) ط. دار الهجرة.
(٢) «جامع البيان» لابن جرير الطبري (١/ ٥٣٤) ط. دار المعارف.

السفر، أو عدم استقبالها في السفر، فيتجه المسافر إلى غير القبلة، وسياق الآية في تولية الإنسان وجهه إلى أي وجهة، وهذا الأمر في تفسير لفظ الوجه إنما يكون حسب الموضع الوارد فيه اللفظ.

وكذا من فسَّر ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل:٢٠] فقال بمعناها تدلُّ أنه يريد ثواب الله، وأعظم الثواب هو النظر إلى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فدلَّ ذلك أنها قد تستعمل في اللغة بمعنى الثواب.

فيستفاد من الآية إثبات وجه الله عَزَّوَجَلَّ، بالإضافة إلى أن ذلك داخلٌ ضمن الثواب، فمن قال إنه يريد الثواب في هذه الآية دون أن ينفي صفة الوجه لم يكن معطلًا، بخلاف المعطلة القائلين بنفي الصفة.

وهنا تنبيه، أننا لا ننفي لوازم الصفة مع إثباتها، ولا ننكر أن هذه الألفاظ لها معاني في اللغة العربية استعملت فيها، وهذا في آيات كثيرة، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الإنسان:٩] أي: لثوابه، مع إثبات صفة الوجه؛ لأن ذلك يستعمل في حق من له وجه حقيقة فنثبت الوجه، ونثبت ما يدلُّ عليه المعنى من ابتغاء ثوابه.

- وكذا في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ الآية [المائدة:٦٤] فهي تدلُّ على كثرة النفقة، والجود، والكرم، وتدلُّ على إثبات صفة اليدين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الآية [القلم:٤٢] تدلُّ على الكشف عن شدة وأمر عظيم، وتدلُّ على إثبات صفة الساق، وكذا قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾الآية [القمر:١٤]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الآية [الطور:٤٨] فهي تدلُّ على الحفظ، والعناية، والرعاية، وعلى إثبات صفة العينين، وليس في هذا تعطيل ولا تأويل، بل التعطيل أن يقال لا يليق أن نصف الله بأن له عينين.

ورحم الله الشيخ الشنقيطي حيث يقول منكرًا على أهل البدع من المعطلة: «فكيف يليق لمسكين جاهل أن يتقدم بين يدي رب السماوات والأرض ويقول: هذا الذي وصفت به نفسك لا يليق بك، ويلزمه من النقص كذا وكذا، فأنا أؤوله وألغيه، وآتي ببدله من تلقاء نفسي من غير استناد إلى كتاب وسنة، سبحانك هذا بهتان عظيم» [(١)] اهـ.

وأصل الفساد في هذا الباب إنما كان بسبب استعمال أهل البدع لقواعد المنطق الرياضي اليوناني، وقياس الاعتقاد عليه، فهذا من أبطل الباطل. فإنه لا يوجد في المخلوقات -حتى الجمادات- انفصال الصفة عن الموصوف إلا في الذهن، فكيف يُطَبَّق ذلك على الغيبيات؟!

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية» عند الكلام على صفة الوجه لله عَزَّوَجَلَّ: (ولا يقتضي إثباته كونه تعالى مركبًا من أعضاء، كما يقوله المجسمة، بل هو صفة لله على ما يليق به، فلا يشبه وجهًا ولا يشبهه وجه.

واستدلَّت المعطلة بهاتين الآيتين على أن المراد بالوجه الذات؛ إذ لا خصوص للوجه في البقاء وعدم الهلاك.

ونحن نعارض هذا الاستدلال بأنه لو لم يكن لله عَزَّوَجَلَّ وجه على الحقيقة لما جاء استعمال هذا اللفظ في معنى الذات؛ فإن اللفظ الموضوع لمعنى لا يمكن أن يستعمل في معنى آخر إلا إذا كان المعنى الأصلي ثابتًا للموصوف، حتى يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم إلى لازمه.

على أنه يمكن دفع مجازهم بطريق آخر؛ فيُقال: إنه أسند البقاء إلى الوجه، ويلزم منه بقاء الذات؛ بدلًا من أن يقال: أطلق الوجه وأراد الذات.

---

(١) من كتاب «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات»، الشيخ: محمد الأمين الشنقيطي (٨٧) ط. دار عالم الفوائد.

وقد ذكر البيهقي نقلًا عن الخطابي أنه تعالى لما أضاف الوجه إلى الذات، وأضاف النعت إلى الوجه، فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾؛ دلَّ على أن ذكر الوجه (ليس بصلة)، وأن قوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ صفة للوجه، والوجه صفة للذات.

وكيف يمكن تأويل الوجه بالذات أو بغيرها في مثل قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حديث الطائف: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات...**»[(١)].

وقوله فيما رواه أبو موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[(٢)])[(٣)].



(١) رواه الطبراني في «الدعاء» (ص٣١٥)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ١١١)، والخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/ ٢٧٥)، وغيرهم من حديث عبد الله بن جعفر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والحديث في سنده شيء لكن يغني عن ذلك اشتهاره، ولم يزل العلماء المعتبرون يستشهدون به، وما ورد فيه من معان عظيمة.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١١٤-١١٥).

١١- إثبات صفة اليدين لله سبحانه في القرآن الكريم

وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤].

هذه الآيات ذكرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إثبات صفة اليدين لله عَزَّوَجَلَّ، وهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر أوضح الأدلة التي لا تحتمل أن تفسر بغيرها. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِيَدَيَّ﴾ التعدية هنا بالباء صريحة جدًّا في إثبات صفة اليدين لله عَزَّوَجَلَّ، وتضمنت هاتان الآيتان إثبات صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق به.

وذِكْر ربنا -سبحانه- صفة اليدين في معرض كلامه عن خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لبيان التشريف والإكرام لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والعرب تقول بيدي لتأكيد الصنعة وإتقانها، والله عَزَّوَجَلَّ أحكم خلق آدم غاية الإحكام، وأتقنه غاية الإتقان، ولذلك ورد في بعض الآثار: «**وعزتي لا أجعل صالح من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان**»[(١)].

وتشريف آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأن الله عَزَّوَجَلَّ خلقه بيده، وهذه لا تحتمل تأويلًا، وحينما تستعمل اليد بدون التعدية بالباء فقد تحتمل التأويل، فيُقال: بما كسبت يداك ونحو ذلك، لكن لا تستعمل اليد متعدية بالباء إلا بقصد اليد ذاتها، كما قال عَزَّوَجَلَّ في وصف الأنعام: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ الآية [يس:٧١] فيُقال إن هذا من فعله سبحانه، ولا يلزم أن يكون خلق الأنعام بيديه سبحانه، وفي هذا الموطن تحتمل، وليس كما خلق الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بيده.

---

(١) ذكره ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»: (٦/ ١٥)، والذهبي في «كتاب العلو» (ص٨٢) عن عطاء بن يسار.

والأحاديث الصحيحة واردة في إثبات اليدين لله تعالى، وأنه سبحانه خصَّ أشياء صنعها بيده، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صفة أعلى أهل الجنة قدرًا لما سأل نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه عنهم: «**قال: ربِّ فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردتُ غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم ترَ عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر...**» الحديث(١).

أي: هؤلاء الذين أرادهم الله من الخلق، وأوجد الوجود من أجل أن يصطفيهم.

وكذلك ورد في حديث مخاصمة آدم لموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخطَّ لك التوراة بيده...**» الحديث(٢).

وبلا شكَّ أن هذا فيه التكريم، والتشريف، والاصطفاء، وهذا ما لم يفهمه إبليس اللعين من حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه كان أجهل بربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأضل، وكتب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه الغواية؛ لأنه أعرض عن فهم صفات الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

۞ وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ**﴾ الآية [المائدة: ٦٤].

هذا ذِكْر الله عَزَّ وَجَلَّ لكلام اليهود الملاعين وقولهم أن يده عَزَّ وَجَلَّ مغلولة أي: محبوسة ممنوعة من الإنفاق، يقصدون بذلك البخل -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبير-.

وهذا من كفرهم وضلالهم أنهم ينسبون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ صفات النقص، فحكم عليهم سبحانه بالكفر، واللعن، وغُلِّ اليدين، ولذلك تجد أبخل أهل الأرض هم اليهود وهي صفة متأصلة فيهم أنهم يبخلون بكل خير عن البشرية؛ بل لا يعطون البشر إلا كل شر وسوء، وذلك لأن أيديهم لا تبسط إلا بالسوء والفساد.

(١) رواه مسلم (١٨٩) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ الآية، فهو عَزَّوَجَلَّ يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، لذلك نثبت الصفة، ونثبت معناها، ولازمها من الكرم، والجود، وكثرة النفقة والعطاء.

وفي الحديث عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: (سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيديه** -وقبض كفيه- **أو قال يديه** -فجعل يقبضها ويبسطها- **ثم يقول: أنا الملك أنا الجبار، أين المتكبرون**»؟ ويميل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر من أسفل شيء منه حتى أني لأقول: أساقطٌ هو برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ)(١)، وهذا من معجزاته الظاهرة أن المنبر اهتز به عندما ذكر صفة الرب عَزَّوَجَلَّ في قبضه عَزَّوَجَلَّ السماوات والأرض يوم القيامة.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (تضمنت هاتان الآيتان إثبات اليدين صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق به، فهو في الآية الأولى يوبخ إبليس على امتناعه عن السجود لآدم الذي خلقه بيديه.

ولا يمكن حمل اليدين هنا على القدرة؛ فإن الأشياء جميعًا ـ حتى إبليس ـ خلقها الله بقدرته، فلا يبقى لآدم خصوصية يتميز بها.

وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «إن الله عَزَّوَجَلَّ خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده»(٢).

فتخصيص هذه الثلاثة بالذكر مع مشاركتها لبقية المخلوقات في وقوعها بالقدرة دالٌّ على اختصاصها بأمر زائد.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٩٧٧)، ومسلم (٢٧٨٨) من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) رواه الدارقطني في «الصفات» (ص٤٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٠٣)

وأيضًا، فلفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله إلا في اليد الحقيقية، ولم يرد قط بمعنى القدرة أو النعمة؛ فإنه لا يسوغ أن يُقال: خلقه الله بقدرتين، أو بنعمتين. على أنه لا يجوز إطلاق اليدين بمعنى النعمة، أو القدرة، أو غيرهما إلَّا في حق من اتَّصف باليدين على الحقيقة، ولذلك لا يقال: للريح يد، ولا للماء يد.

وأمَّا احتجاج المعطلة بأنَّ اليد قد أفردت في بعض الآيات، وجاءت بلفظ الجمع في بعضها؛ فلا دليل فيه؛ فإن ما يصنع بالاثنين قد ينسب إلى الواحد؛ تقول: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، والمراد: عيناي، وأذناي. وكذلك الجمع يأتي بمعنى المثنى أحيانًا؛ كقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤]، والمراد: قلباكما.

وكيف يتأتَّى حملُ اليد على القدرة أو النعمة؛ مع ما ورد من إثبات الكف والأصابع، واليمين والشمال، والقبض والبسط، وغير ذلك مما لا يكون إلا لليد الحقيقية؟!

وفي الآية الثانية يحكي الله سبحانه مقالة اليهود -قبحهم الله- في ربِّهم، ووصفهم إياه -حاشاه- بأن يده مغلولة، أي: ممسكة عن الإنفاق.

ثُمَّ أثبتَ لنفسه سبحانه عكس ما قالوا، وهو أن يديه مبسوطتان بالعطاء؛ ينفق كيف يشاء؛ كما جاء في الحديث: «**إن يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار؛ لا تغيضها نفقة**»[(١)].

ترى لو لم يكن لله يدان على الحقيقة؛ هل كان يحسن هذا التعبير ببسط اليدين؟!

ألا شاهت وجوه المتأولين!)[(٢)].



(١) سبق تخريجه.

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١١٥-١١٧).

١٢- إثبات صفة العينين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن الكريم

وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر]، ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه:٣٩].

هذه الآيات ذكرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إثبات صفة العينين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووردت في القرآن بلفظ الجمع، وتفسير السنة أنهما اثنتان، كما في حديث الدجال: «**إن الله ليس بأعور** -وأشار بيده إلى عينه- **وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية**»(١).

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ الآية يستفاد منه إثبات صفة العينين لله عَزَّوَجَلَّ، وأيضًا فيها معنى الرعاية، والعناية، والحراسة، والحفظ، وكذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (في هذه الآيات الثلاث يثبت الله سبحانه لنفسه عينًا يرى بها جميع المرئيات، وهي صفة حقيقية لله عَزَّوَجَلَّ على ما يليق به، فلا يقتضي إثباتها كونها جارحة مركبة من شحم وعصب وغيرهما.

وتفسير المعطلة لها بالرؤية، أو بالحفظ والرعاية نفي وتعطيل.

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأمَّا إفرادها في بعض النصوص وجمعها في البعض الآخر؛ فلا حجة لهم فيه على نفيها؛ فإن لغة العرب تتسع لذلك، فقد يُعَبَّرُ فيها عن الاثنين بلفظ الجمع، ويقوم فيها الواحد مقام الاثنين كما قدمنا في اليدين.

على أنَّه لا يمكن استعمالُ لفظ العين في شيء من هذه المعاني التي ذكروها إلَّا بالنسبة لمن له عينٌ حقيقية.

فهل يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا: إن الله يتمدح بما ليس فيه، فيثبت لنفسه عينًا وهو عاطلٌ عنها؟! وهل يريدون أن يقولوا: إنَّ رؤيته للأشياء لا تقع بصفة خاصة بها؛ بل هو يراها بذاته كلها -كما تقول المعتزلة-: إنه قادرٌ بذاته، مريدٌ بذاته ... إلخ؟!

وفي الآية الأولى يأمر الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر لحكمه، والاحتمال لما يلقاه من أذى قومه، ويعلل ذلك الأمر بأنه بمرأى منه، وفي كلاءته وحفظه.

وفي الآية الثانية يخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن نبيه نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه لَمَّا كذَّبه قومه، وحقَّت عليهم كلمة العذاب، وأخذهم الله بالطوفان، حمله هو ومن معه من المؤمنين على سفينة ذات ألواح عظيمة من الخشب ودسر، أي: مسامير، جمع دسار، تشد بها الألواح، وأنها كانت تجري بعين الله وحراسته.

وفي الآية الثالثة خطاب من الله لنبيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنه ألقى عليه محبة منه؛ يعني: أحبه هو سبحانه وحببه إلى خلقه، وأنه صنعه على عينه، ورباه تربية استعد بها للقيام بما حمله من رسالة إلى فرعون وقومه)[١].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١١٨-١١٩)

١٣- إثبات صفتي السمع والبصر لله سبحانه في القرآن الكريم

وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، وقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:١٤]، وقوله: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

هذه الآيات ذكرها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إثبات صفة السمع، وصفة البصر والرؤية لله عَزَّوَجَلَّ. والبصر والرؤية بمعنى واحد، وهو عَزَّوَجَلَّ يسمع ويرى.

۞ففي الآية الأولى ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ الآية. نزلت هذه الآيات في خولة بنت ثعلبة حين اشتكت لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مظاهرة زوجها منها، لما قال لها: «أنت عليَّ كظهر أمي»، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «الحمد لله وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشكو إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الآية»[(١)].

---

(١) رواه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم بعد حديث (٧٣٨٥)، ورواه موصولًا النسائي (٦/ ١٦٨)، وأحمد (٦/ ٤٦)، وابن ماجه (٢٤٢١).

وهذه الآية الكريمة تدلُّنا على طريقة القرآن في بيان الصفات؛ فهذه واقعة في شأن تحريم الظهار، وهو حكمٌ فقهيٌّ متعلقٌ بالأعمال، لكن نجد هذا الارتباط الوثيق بصفات الرب عَزَّوَجَلَّ ومعاني الاعتقاد، فبدأت الآيات بذكر الله عَزَّوَجَلَّ وبيان هذا السمع؛ فأبرزت المعاني الإيمانية، ومن هنا كانت طريقة القرآن تختلف عن طريقة تناول العلم كأمر جاف مجرد، فهذه المرأة كانت شكواها إلى الله عَزَّوَجَلَّ عبوديةً له سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ومن أجل ذلك أنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآيات بشأنها، ولهذا نجد الصحابة قد التفت انتباههم وتأثروا بذلك، فقالت عائشة: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»... وهكذا يكون التأثر المباشر بما تدل عليه الآيات.

ورد في السِّيَر: «أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في خلافته مر بالمجادِلَة «خولة بنت ثعلبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا» على حمار والناس معه، فاستوقفته طويلًا ووعظته، وقالت: «يا عمر قد كنت تُدعى عميرًا ترعى الضأن بعصا في سوق عكاظ، ثم قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين، فاتقِ الله يا عمر؛ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالعذاب خاف الحساب» وهو واقف يسمع كلامها، فقيل: يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز؟! فقال: «والله لو حبستني من أول النهار لآخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة، سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟!»»(١).

فهذا الذي حرَّك قلوبهم، وأثَّر فيهم أن الله عَزَّوَجَلَّ سمع شكواها من فوق سبع سماوات، وليس كما انشغل المتأخرون بالتعريفات، والطرق الكلامية والمنطقية، وأن كل كلمة لابدَّ لها من تعريف، بل طريقة القرآن تثبت أن المعنى معلوم، والكيف مجهول، ونحن ندرك ونفهم معنى السمع على ما يليق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، بل الطفل الصغير يفهم

---

(١) رواه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٨٣١).

معنى السمع، وكل اللغات فيها من الألفاظ ما يدلُّ على معنى السمع، فانظر إلى ما تفكر فيه الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أن الأصوات كلها عنده عَزَّوَجَلَّ كصوت واحد مع تفاوتها واختلافها.

والعبد يتفكَّر ويتأمل في سعة سمعه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بينما الإنسان محدود السمع تختلط عليه الأصوات وتغلطه كثرتها، لكن الله عَزَّوَجَلَّ وسع سمعه الأصوات كما قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فلا يشغله صوت عن صوت، ولا تغلطه الأصوات مع اختلافها، وهي عنده عَزَّوَجَلَّ كصوت واحد وسعها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إحاطةً وسمعًا.

وكثيرًا ما يقترن اسم الله عَزَّوَجَلَّ السميع بالبصير، أو باسمه العليم عَزَّوَجَلَّ، وذلك يدلنا على أن السمع حقيقي وليس مجرد العلم.

والمخلوقات قد تسمع لكنها لا تدري، ولا تفهم، ولا يثمر لها هذا السماع شيئًا زائدًا على مجرد سماع الصوت كما تسمع البهائم، وأمَّا رب العالمين سبحانه فهو السميع العليم، وهو السميع البصير.

والقرآن طريقته -كما ذكرنا- الربط بين الأمور العملية، والأمور الاعتقادية وخصوصًا قضية الأسماء والصفات نجدها في كل المواطن.

كما قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا** ﴾ [النساء:٥٨]، فهذا أمرٌ بأداء الأمانة، والحكم بالعدل، وجاء مرتبطًا بأسماء الله وصفاته، فيحدث به الترغيب والترهيب، فمن أيقن أن الله عَزَّوَجَلَّ يسمعه ويبصره فلا شكَّ أن ذلك يثمر المراقبة.

وكذلك إذا أيقن العبد جيدًا أن الله يسمعه فكيف يطلب سماع الناس بعد ذلك، كما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وأعوذ بك من السمعة والرياء...**»[١] الحديث.

والسُّمعة: هي طلب سماع الناس، أي: يحب أن يسمع الناس عن طاعته وعمله، والرياء: هو طلب رؤية الناس. وكذا في الحديث: «**من سمَّع سمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به...**»[٢] الحديث، فهذا تهديد ووعيد أن من كان عمله لأجل أن يسمع الناس به، أو لأجل أن يرى الناس عمله؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُشَهِّر به، ويفضحه يوم القيامة على ما كان يبطن، وقيل: لا يكون له ثواب في الآخرة، وقيل: أي سمَّع اللهُ به أنه مرائي بين الناس، والحديث لم يقيد بالدنيا أو الآخرة وهو يُحتمل، ولا شكَّ أن عذاب الآخرة أشدُّ، -نعوذ بالله من ذلك-.

فإذا استحضر العبد أن الله يسمعه ويراه، وأيقن بذلك فسوف يرغب في العمل ابتغاء وجه الله عَزَّوَجَلَّ، ويسعى أن يسمع الله عَزَّوَجَلَّ قوله، وأن يرى الرب سبحانه عمله، ولا يرجو سوى ذلك.

وكذلك من أيقن أن الله عَزَّوَجَلَّ يسمعه ويراه فإن ذلك يثمر عنده مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ، ويسعى أن لا يسمع الله عَزَّوَجَلَّ منه ما يكره، أو يرى منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما يكره، فلا يكون كالذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ** ﴾ الآية [النساء:١٠٨] بل يراقب الله عَزَّوَجَلَّ أعظم مراقبة ويتقي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حق التقوى.

---

(١) **صحيح**: رواه النسائي (٥٤٩٣)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١/ ٤٥٩)، وصحَّحه الألباني في «إرواء الغليل» (٨٥٢) من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

والآية الكريمة فيها تعديد الصفة؛ ﴿قَدْ سَمِعَ﴾، و﴿يَسْمَعُ﴾، و﴿سَمِيعٌ﴾ وهذا يدل على ثبوت الصفة لتأكدها عدة مرات بالصيغ المختلفة، الفعل الماضي المؤَكَّد، والمضارع، وكذا الاسم الذي يدل على الثبوت، وكلها تدلُّ على كمال صفة السمع لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتثمر العبودية لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

۞ وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ الآية.

نزلت هذه الآية في شأن (فنحاص اليهودي) أحد أحبار اليهود، حين قال لأبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حين دعاه للإسلام: «والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنَّا عنه لأغنياء، ولو كان عنَّا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم...»[1].

وهذا اليهودي الخبيث قصد قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ الآية [البقرة:٢٤٥]، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يستقرض من عباده إكرامًا لهم، وليثبت أن الحقَّ لن يضيع عنده، وأنه سوف يضاعف أضعافًا كثيرة، ويرغبنا في النفقة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فذكرها بلفظ القرض، لأن القرض بين الناس يؤدَّى، وهكذا لا يضيع عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهو مضمون قطعًا.

لكن كما وصف الله عَزَّوَجَلَّ الكافرين فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا...﴾ [المائدة:٦٤] ومن ذلك ما قاله هذا اليهودي.

لكن المؤمنين إذا سمعوا آيات الله فإنهم يزدادون إيمانًا، ويستبشرون، كما ورد في قصة أبي الدحداح الأنصاري، عن عبد الله بن مسعود قال: «لما نزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإنَّ

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٤٨)، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٢٩).

الله ليريد منا القرض! قال: «**نعم**»، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عَزَّوَجَلَّ»(١).

قال عَزَّوَجَلَّ عن اليهود: ﴿**وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ [آل عمران:١٨١] أي: ونكتب قتل اليهود الأنبياء بغير حق، وذلك لأنهم سعوا في قتل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ورضوا بذلك وتعاونوا عليه، وكذا رضاهم بقتل يحيى، وزكريا عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ؛ لأن من رضى بالجريمة التي مضت أو حرص عليها كان مشاركًا فيها وإن غاب عنها، ولذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَقَتْلَهُمُ**﴾ رغم أن فنحاص لم يشارك في قتل الأنبياء بنفسه، ولم يتمكن من قتل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ الآية.

هذه الآية نزلت في المشركين الذين كان كثيرٌ منهم يجهل صفة السمع لله عَزَّوَجَلَّ، أو يظنها أنها مثل سمع المخلوقين، حيث يسمعون الجهر ولا يسمعون السر.

والنجوى: هي الكلام في السر بين اثنين، والسر أخفى من ذلك وهو ما يكون بين الإنسان وبين نفسه، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ**﴾ وهذا استفهام إنكاري أي بل يحسبون أنَّا لا نسمع سرهم ونجواهم، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**بَلَىٰ**﴾ فهو عَزَّوَجَلَّ يسمع السر والنجوى، ﴿**وَرُسُلُنَا**﴾ أي الملائكة يكتبون هذه الكلمات.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٧٦٤) عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره، وابن جرير في تفسيره (٥/ ٥٦٢٠).

وهذه الآية لها نظير في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت].

نزلت هذه الآية كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنت مستترًا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر؛ قرشيٌّ وثقفيان، أو ثقفيٌّ وقرشيَّان، كثيرٌ شحم بطونهم، قليلٌ فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنَّا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئًا سمعه كله، قال: فذكرت ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾»[1].

ودلَّ ذلك على أن الاعتقاد الفاسد في صفات الله عَزَّ وَجَلَّ يُرْدي أي: يُهْلك، وخصوصًا فيما يتعلق بالسمع، والبصر، والعلم، وغيرها من صفات الكمال التي إذا لم تُثْبَتْ لم تُثْبَتِ الإلهية، فكيف يكون إلهًا من لا يسمع ولا يبصر، وكيف يُثْبِت ألوهيةَ الله عَزَّ وَجَلَّ مَن ينفي عنه صفة السمع والبصر؟! كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ الآية [مريم:٤٢].

۞ وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ الآية.

ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ذلك في سياق الكلام مع موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لما كلَّفهما بتلك المهمة العظيمة، أي: يبلغا فرعون رسالة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في توحيده وعبادته، وعدم استعباد بني إسرائيل: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٥٣٩)، ومسلم (٢٧٧٥) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فحين يستحضر العبد المؤمن أن الله يسمع قوله وقول عدوه، ويرى فعله وفعل عدوه، وهو عَزَّوَجَلَّ مع عبده المؤمن بنصرته، وتأييده، وحفظه، وعنايته، فإنه سوف يصبر، وتضمحل في نظره وحسِّه قوة العباد.

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فماذا يقلقك أيها العبد من شأن ذلك العدو؟! وماذا تريد بعد أن استحضرت معية الله عَزَّوَجَلَّ؟! لن يقلقك شيءٌ، ولن يقع في قلبك خوفٌ ولا رجاءٌ لغير الله عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا عقَّبَ سبحانه بقوله: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ﴾ فيقع الاطمئنانُ في قلب العبد، ويزيد عملُه الصالح، ويمتثلُ ما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به، ويقول الحقَّ لا يخاف في الله لومة لائم، لا يطلب وكيًلا غير الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يبغي ربًّا سواه.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾.

نزلت هذه الآية في أبي جهل لعنه الله، حين نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة عند الكعبة، فقال: لو رأيت محمدًا يصلي لأطأنَّ رقبته(1)، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ [العلق] هذا في شأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ هذا في شأن أبي جهل عليه لعنة الله.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق] أخبر سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن هذا اللعين لم يستحضر أن الله عَزَّوَجَلَّ يراه حين يهدد ويتوعد؛ لأن من يعلم حقَّ العلم أن الله يراه فإنه يخاف الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يكفي مجرد العلم النظري الذي لا يتأثر به القلب ولا يترتب

(1) رواه مسلم (٣٨)، (٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

عليه سلوك، ولذلك قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كَلَّا ﴾ أي: كأنه لا يعلم علمًا حقيقيًّا ولم يؤمن؛ لأنه لو عَلِمَ علمًا حقيقيًّا لتاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولما أقدم على ما يقول وما يريد.

۞ وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

هذه الآيات الكريمة جاءت في سورة الشعراء في سياق وصية الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء].

نجد هنا الارتباط الوثيق الذي يربط النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالإيمان بالأسماء والصفات واستحضارها، فهو عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يوصيه ربه بأن يتوكل عليه، وهو العزيز سبحانه الذي يعزُّ أولياءه، وينتصر لدينه، وهو عَزَّوَجَلَّ الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، وهو الرحيم بعباده المؤمنين؛ فهو عزيز يغلب الكافرين، ورحيم يرحم عباده المؤمنين.

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ فيكفيك رؤية الله عَزَّوَجَلَّ حين تقوم من الليل تصلي، ويرى تقلبك في الساجدين، وكفى شرفًا بتلك الرؤية، وكفى تكريمًا وثوابًا بها، ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾، وهؤلاء الساجدون في هذا الوقت كانوا قلة قليلة في الأرض يسجدون لله، وهذا ترغيبٌ في الاستمرار على قيام الليل، وترغيبٌ في التوكل على الله.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

هذا ترغيب في إخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، المتبعِ فيه العبدُ سنة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا يجعل المؤمن لا يرغب في رؤية الناس لعمله، بل يعمل لوجه الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (هذه الآيات ساقها المؤلف لإثبات صفات السمع، والبصر، والرؤية.

أما السمع؛ فقد عبرت[١] عنه الآيات بكل صيغ الاشتقاق، وهي: سمع، ويسمع، وسميع، ونسمع، وأسمع، فهو صفة حقيقية لله، يدرك بها الأصوات؛ كما قدمنا.

وأما البصر؛ فهو الصفة التي يدرك بها الأشخاص والألوان، والرؤية لازمة له، وقد جاء في حديث أبي موسى: «**يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم؛ إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، ولكن تدعون سميعًا بصيرًا، إنَّ الذي تدعون أقربُ إلى أحدكم من عنق راحلته**»[٢].

وكلٌّ من السمع والبصر صفةُ كمالٍ، وقد عاب الله على المشركين عبادتهم ما لا يسمع ولا يبصر.

وقد نزلت الأولى في شأن خولة بنت ثعلبة حين ظاهر منها زوجها، فجاءت تشكو إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحاوره، وهو يقول لها: «**ما أراك إلا قد حُرِّمْتِ عليه**».

أخرج البخاري في «صحيحه» عن عروة عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات؛ لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا في ناحية من البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا** ...﴾ الآيات».

وأما الآية الثانية؛ فقد نزلت في فنحاص اليهودي الخبيث، حين قال لأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما دعاه إلى الإسلام: «والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ولو كان غنيا ما استقرضنا!».

---

(١) الأَوْلى -والله أعلم- أن يُقال: ذكرت الآيات؛ لأن التعبير فعل إنساني.

(٢) تقدَّم تخريجه.

وأما الآية الثالثة؛ فـ ﴿أَمْ﴾ بمعنى (بل)، والهمزة للاستفهام، فهي ﴿أَمْ﴾ المنقطعة، والاستفهام إنكاري يتضمن معنى التوبيخ، والمعنى: بل أيظن هؤلاء في تخفيهم واستتارهم أنَّا لا نسمع سرَّهم ونجواهم؛ بلى نسمع ذلك، وحَفَظَتُنا لديهم يكتبون ما يقولون وما يفعلون.

وأما الآية الرابعة؛ فهي خطاب من الله عَزَّوَجَلَّ لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- حين شَكَوَا إلى الله خوفهما من بطش فرعون بهما، فقال لهما: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

وأما الآية الخامسة؛ فقد نزلت في شأن أبي جهل -لعنه الله- حين نهى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الصلاة عند البيت، فنزل قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾) اهـ[1].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٢٠-١٢٢) ط. دار الهجرة.

١٤- إثبات صفة المكر والكيد لله على ما يليق به سبحانه

وقوله: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:٥٠]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق].

الآية الأولى في ذكر صفة الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في مماحلته حتى يعاقب من طغى وتجبر، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ قال ابن جرير: شديدة مماحلته في عقوبة من طغى عليه، وعتا وتمادى في كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل]، وعن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي شديد الأخذ، وقال مجاهد: شديد القوة) اهـ[(١)].

والمعنى أي: شديد القوة في انتقامه من عدوه، يمكر بعدوه من حيث لا يدري ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر. وهذه الآية الكريمة من آيات الوعيد والخوف التي يخوف الله عَزَّوَجَلَّ بها عباده، ويتوعد بها الكافرين والظالمين والمعتدين والطغاة المتجبرين، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

ولذلك لا يغتر أحدٌ في تقلب الذين كفروا في البلاد؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يأخذهم بعد أن يملي لهم مدة من الزمن، وإنما يملي لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهوانهم عليه عَزَّوَجَلَّ ويستدرجهم من

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ١٠٠٨) ط. ابن حزم.

حيث لا يشعرون، وذلك كله لمتانة كيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف:١٨٣].

وهذا الإملاء بإعطائهم أنواع النعم، والقوة، والقدرة، والتمكين في الأرض مع بقائهم على كفرهم وعلى ظلمهم ومعاصيهم، فهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون بل ويظنون أنفسهم على خير وهدى، ونجاة وسعادة، حتى إذا جاء أجلهم أخذهم الله بالقوة، وأخذهم بعزته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من هذه الآيات والتي بعدها، فيه حُسْن الترتيب، وما يفسر بعضُه بعضًا، فإنه ذكر أولًا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾، وقوله: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾؛ ثم ذكر بعد ذلك صفة العزة لله عَزَّوَجَلَّ، وصفة العفو والمغفرة، وذلك كله من حسن الترتيب في بيان الصفات التي كثر اقترانها في كتاب الله سبحانه؛ فإن الله يقرن بين عزته ورحمته، ويقرن بين عفوه وقدرته، ويذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كيده لمن يستحق الكيد، ومكره لمن يستحق المكر، وأخذه الشديد للظالمين والكافرين من حيث لا يشعرون، فهو عَزَّوَجَلَّ شديد المحال الذي يتعلق به أهل الإيمان، وكلما زاد ظلم عدوهم لهم، وزاد الطغيان وزاد الفساد الذي يفعله ذلك العدو، وزاد عتوًّا وتجبرًا لجأ المؤمنون إلى العزيز شديدِ المحال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لكي ينقذهم من هؤلاء المجرمين ومن هؤلاء الطغاة المعتدين.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (تضمنت هذه الآيات إثبات صفتي المكر والكيد، وهما من صفات الفعل الاختيارية.

ولكن لا ينبغي أن يُشْتَقَ له من هاتين الصفتين اسمٌ، فيقال: ماكر، وكائد؛ بل يوقف عند ما ورد به النص من أنه خير الماكرين، وأنه يكيد لأعدائه الكافرين)[١].

وهنا قاعدة مهمة كما يُقرِّرها العلماء: أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يصف نفسه بالمكر والكيد والاستهزاء مطلقًا بلا قيود، بل على سبيل الجزاء والمقابلة لمن فعل ذلك، وأن أفعال هذه الألفاظ لا يجوز إطلاقها على الله عَزَّوَجَلَّ مجردة عن سياقها، ولا يجوز أن يُشتق له منها أسماء؛ لأنها تمدح في موضعٍ وتُذمُّ في موضع، وهو عَزَّوَجَلَّ لم يصف نفسه بأنه ماكر، بل وصف نفسه بأنه ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي: من يدبر لهم في الخفاء، وإن المكر والكيد في أذهان الناس هو أمر يُدبر في الخفاء، والله عَزَّوَجَلَّ ليس له مَثَلُ السَّوْءِ، بل له عَزَّوَجَلَّ المَثَلُ الأعلى، فهو عَزَّوَجَلَّ مكره خير المكر؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ يمكر بالكافرين والمنافقين على سبيل المجازاة والعقوبة، فدبَّرَ لهم سبحانه من أمره ما استدرجهم به إلى أنواع عقوبته، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

۞ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ الآية.

نزلت في شأن اليهود وأعوانهم من المشركين الذين أرادوا المكر بعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليقتلوه أو يصلبوه، ومَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ بهم لينجيه، ويعلي شأنه، ويبطل كيدهم، ويخزي أمرهم فيما أرادوا من مخالفة شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو عَزَّوَجَلَّ مكر بهم عدلًا منه وحكمةً، ودبَّر لهم ما لا يدركون، وذلك أنهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في شان المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ**﴾ [آل عمران] فإن اليهود -عليهم لعنة الله- لما رأوا شأنَ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقوى ويشتد، ويزداد أتباعه يومًا بعد يومٍ

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٢٣).

أرادوا أن يطفئوا نور الله عَزَّوَجَلَّ الذي جاء به، وهذه عادتهم في محاربتهم لأنبياء الله عَزَّوَجَلَّ؛ فاليهود أعداء الله، وأعداء الأنبياء وقَتَلَتْهُم، وأعداء الملائكة.

فقاموا بالوشاية على سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عند (بيلاطس) حاكم بيت المقدس من قِبَلِ الرومان في ذلك الوقت وكان وثنيًّا، فقالوا: إن ههنا رجلًا يزعم أنه مَلِكُ اليهود فدبَّروا له مكيدة ليوقعوا به، والمنقول عن النصارى في كتبهم أن اليهود دبَّروا له مكيدة ليوقعوا به، وذكروا أن واحدًا من أصحابه قد خانه ودلَّهم على مكانه في بيت يختبئ فيه، فيذكرون أن الرومان ومعهم اليهود دخلوا على هذا البيت يريدون أخذ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليُصلب ويُقتل فيما يزعمون من تهم باطلة، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنه شُبِّهَ لهم، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ**﴾ الآية [النساء:١٥٧]، وفيما يذكرون أن الله عَزَّوَجَلَّ ألقى شَبَهَه على بعض أتباعه، ورفع نبيَّه عيسى من ساعته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

واختلف المفسرون فمِنهم من قال: أن عيسى خيَّر أصحابَه مَنْ يُلقى عليه شَبَهُه ويكون رفيقَه في الجنة، ويُذكر قولٌ آخر وهو المشهور أن (يهوذا الأسخريوطي) أحد الحواريين سابقًا هو الذي دلَّهم على مكانه، فألقى الله شبه عيسى على هذا الرجل، فأخذوه مكانه. والقولان في هذا عمومًا هما من أخبار بني إسرائيل التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، لكن ما نجزم به ونعتقده أن الله عَزَّوَجَلَّ نجَّى نبيَّه ورسوله عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومكر بهؤلاء الكافرين حتى ظنُّوا أنفسهم قد انتصروا، وهي في الحقيقة هزيمة واضحة لهم، وخيبة أمل وإن ظنُّوا أنهم قتلوا المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- أما هذا المصلوب فهل كان من أصحاب عيسى، أم عدوه الخائن؟ ففيه احتمال، والذي ينقله النصارى في كتبهم أنه من أعدائه؛ لأنهم ينقلون عن المصلوب أنه صرخ على الصليب بصوت عظيم وقال: «إيلي إيلي لِمَ شبقتني؟» وهي عبارة آرامية تفسيرها: (إلهي إلهي لِمَ تركتني) فيظهر أن هذا الرجل المصلوب كان يكره ما يجرى عليه، وأنه يزعم

أن الله تركه، وهذا بالقطع لا يكون مؤمنًا فضلًا أن يكون هو المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ كما يعتقد النصارى أنه صرخ بصوت عظيم عند ذلك وأسلم الروح، وهذا من إفكهم وكذبهم؛ إذ كيف يزعمون ذلك وينقلونه ثم يزعمون أنه جاء ليُخَلِّصَ العالم بهذه الطريقة أو أنه جاء ليُصْلب، وأن تخليص الإنسان من خطاياه لا يتمُّ إلا بتضحية المسيح بنفسه؟! فكيف يدَّعون ذلك ومع ذلك يقولون أنه صرخ وقال: إلهي إلهي لِمَ تركتني، ثم هم يزعمون أنه هو الله عَزَّوَجَلَّ وأنه أحد أقانيم ثلاثة للإله؟!

وقطعًا إن المصلوب رجلٌ آخر غير عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل ويتكلم مع إلهه بطريقة غير طريقة المؤمنين، وقد تركه الله سبحانه ليلقى مصيره، كما ذكرنا أن الظاهر أنه ليس من أتباع المسيح وربما كان هو الرجل الخائن (يهوذا الإسخريوطي) وهو مذكور في هذه القصة في إنجيل برنابا الذي لا يعترف به النصارى، أنه دخل في مقدمة من يطلبون المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ليدلَّهم عليه ليقتلوه؛ فإذا به لم يجد أحدًا، فقال ليس بالبيت أحد فرأوا شبه المسيح فيه فقالوا هو، فأخذوه فصلبوه بين لصين، وبقي ثلاثة أيام، ثم أُنْزِلَ بعد ذلك ودُفِنَ، وفوجئوا بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يكلمهم مرة ثانية، وكان بعضهم لا يدري بالأمر، فظنوا أنه قام من الأموات. والحقُّ أنَّ المسيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما عاد بينهم ليبين للحواريين أمره، وأنه ذاهب ليرتفع في السماء.

وأمر الرفع إلى السماء هو أمر اتفق عليه المسلمون والنصارى، والاختلاف في أمر الصلب، ولذلك يقول: «إني أصعد إلى إلهي وإلهكم» وهذا صريح جدًّا، مع أن عندهم في كتبهم يقولون: «أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم»، وكلمة (أبي وأبيكم) إنما هي ترجمة خاطئة لمعنى الرعاية أي: يرعاني ويرعاكم، وإلهي وإلهكم، فيجعلونها أبي وأبيكم، وهذا واضح لكل عاقل أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يقصد أنه ابن الله، وإلَّا لكان جميعهم أبناء الله

على زعم هذا الكلام الباطل -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا-، وقوله (إلهي وإلهكم): فهذا اعتراف بأن الله هو الإله.

وهذا من مكر الله عَزَّوَجَلَّ بهؤلاء الظالمين المجرمين -اليهود- الذين أرادوا إهانة المسيح وقتله، فأهانهم الله، وأبطل كيدهم، وجعل المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في المنازل العالية، وهو في السماء الثانية روحًا وجسدًا، رفعه الله عَزَّوَجَلَّ إليه، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ [النساء]. ثم ينتظر المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الوقت المحدد المؤجل من عند الله عَزَّوَجَلَّ لنزوله الأرض مرة ثانية.

وعودة المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عقيدة يقول بها المسلمون، واليهود، والنصارى، فالكلُّ ينتظر المسيح؛ أمَّا النصارى فينتظرون المسيح ليُدين العالم، وأمَّا اليهود فلأنهم كذَّبوا المسيح فما زالوا ينتظرون مسيحًا يكون ملكًا عليهم، وهم في الحقيقة ينتظرون المسيح الدَّجال، والمسلمون ينتظرون نزول المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليحكم الأرض بشريعة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا وإمامًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية**» الحديث[1].

فانظر كيف مكر الله عَزَّوَجَلَّ بالكافرين من كل الطوائف المخالفة لأهل التوحيد والإيمان، وذلك عدْلٌ منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وحسنٌ منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنه مكر بهم حتى أفسد مكرهم وكَادَ بِهِمْ.

والله عَزَّوَجَلَّ لا يُشتق له من هذه الأفعال التي تكون في معرض المقابلة والمجازاة أسماء مجردة، فلا يُقال: الماكر، أو الكائد؛ لأنها لا تكون مدحًا وكمالًا إلَّا في سياقها، وهذا من أعظم ما يتعلق به أهل الإيمان عندما يرون المكر يكاد يحيط بهم من كل جانب، وهم

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

لا يحسنون أن يمكروا فيتوكلون على الله عَزَّوَجَلَّ ويلجأون إليه أن يمكر لهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وفي الدعاء في الحديث الصحيح: «**ربِّ أعني ولا تعن عليَّ، وانصرني ولا تنصر عليَّ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ، واهدني ويسِّر الهدى لي، وانصرني على من بغى عليَّ، ربِّ اجعلني لك شكَّارًا، لك ذكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مِطْوَّاعًا، لك مخبتًا، إليك أواهًا منيبًا، ربِّ تقبل توتبي واغسل حوبتي وأجب دعوتي وثبِّت حجتي واهدِ قلبي وسدد لساني واسلل سخيمة صدري**»[1].

وهذا الدعاء الجامع من أعظم ما يُدعى به، سواء كان بصيغة المفرد، أو بصيغة الجمع؛ لأن المؤمن يعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ يدبر أمورًا لا تخطر ببال العباد في انتقامه من أعدائه وفي أخذهم، وهو عَزَّوَجَلَّ شديد المحال، فهو عَزَّوَجَلَّ يماحلهم أي: يتربص بهم، ويدبر لهم من حيث لا يشعرون، ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ [القلم].

يعني ليس عليك أن تدبر لهم، بل فَوِّض الأمر إلى الله؛ لأن مجرد تكذيبهم بهذا القرآن العظيم يستوجب عقوبة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ**﴾ يمد الله عَزَّوَجَلَّ لهم، ويظلون يأخذون من الدنيا ويعطيهم سبحانه حتى يظنوا أنهم على الحق، وأنهم أهل غلبة، وأهل سيطرة وتمكين، وأنهم يملكون العالم، ثم هو عَزَّوَجَلَّ يدمرهم تدميرًا كما دمَّر من قبلهم، ولذا فإن المؤمنين يتوكلون على الله عَزَّوَجَلَّ ويسألونه أن يمكر لهم بأعدائهم، لأنهم لا يحسنون التدبير ولا يستطيعون دفع عدوهم عن أنفسهم إلَّا بأن يدفع الله عَزَّوَجَلَّ عنهم، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [المائدة:١١].

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري في الأدب المفرد، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٥١٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

- والمؤمنون إذا أعيتهم الحيل والمكائد فعليهم أن يتوكلوا على الله عَزَّوَجَلَّ خير الماكرين الذي يمكر مكر الخير بمن يستحق أن يُمكر به، ويدبر لهم في الخفاء من حيث لا يشعرون ما لا يستطيعون دفعه ولا ردَّه.

قال تعالى: ﴿ **وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ** ﴾ [آل عمران].

أي: اذكر يا عيسى حين قال الله ﴿ **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ** ﴾، والوفاة هنا على أصح أقوال أهل العلم مثل وفاة النوم، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ** ﴾ [الأنعام:٦٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا** ﴾ الآية [الزمر:٤٢]؛ لأنه قد ثبت بالأحاديث المستفيضة المتواترة أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سوف ينزل إلى الأرض، وأنه سوف يموت فيها، فإن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يمُت، وإنما الوفاة: الأخذ، كما تقول وفيته الدين وتوفاه أي: أخذه، فإن الله عَزَّوَجَلَّ توفى عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أي: أخذه وليست هذه الوفاة مقتضية الموت؛ لأنه يموت بعد نزوله إلى الأرض، وهو عَلَيْهِ السَّلَامُ عند الله بروحه وجسده.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَهُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء الثانية، والصحيح أنه رآه في جسده الذي كان عليه، ووصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شكلَه أنه: «**ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس، عريض الصدر جعد** -أي: ممتلئ الجسم-»(١) فهذا يدلُّ على أنه رآه في جسده.

قال تعالى: ﴿ **وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ** ﴾ الآية [آل عمران:٥٥] وذلك أنه خلصه من شرِّهم، وجعل أهل

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٧٤٦)، ومسلم (١٦٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإسلام والتوحيد فوق الكافرين في الحجة، وحتى عندما كان الكافرون غالبين، ثم لَمَّا جاء النبيُّ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صار المسلمون هم أتباع المسيح، وهذا مصداق الآية: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ...﴾ الآية، والمسلمون هم الذين اتَّبعوا المسيح وهم فوق الذين كفروا من اليهود الذين كذَّبوه، والنصارى الذي ألَّهوه واعتقدوه ثالث ثلاثة، واعتقدوا أنه هو الله، فهم بذلك من الذين كفروا، ولم يعتقدوا ما جاء به المسيح، ولذلك لا يصحُّ أن يُنسب النصارى إلى المسيح؛ لأنها ليست نسبة صحيحة، بل المسلمون هم أتباع المسيح حقًّا، وهم المحبُّون له، المصدِّقون به وبما جاء به أنه نبيٌّ، وأنه عبد الله ورسوله.

۞ وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل]. هذه الآية الكريمة نزلت في ثمود قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث ذكر ربنا عَزَّ وَجَلَّ التسعة رهط المفسدين في الأرض، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨] فبعد أن جاءت لهم الناقة وهي الآية المعجزة التي طلبوها، فخرجت لهم من صخرة صمَّاء، ووضعت فصيلَها، وكانت تسقيهم لبنًا يكفي القوم بأسرهم، وكانت تشرب الماء كلَّه في يوم سقيهم اللبن، فهي تجد الماء يومًا وهم يجدونه يومًا، وفي يوم شربها للماء تعطيهم اللبن الذي يكفيهم جميعًا.

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ والرهط: الجماعة، ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ...﴾ [النمل:٤٩] وهذا دليلٌ أنهم كانوا يعرفون الله عَزَّ وَجَلَّ، مصدقين بوجوده سبحانه لكن أشركوا به عَزَّ وَجَلَّ، وتعاهدوا لقتل سيدنا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهله ليلًا بسبب خوفهم من أقاربه، ويعقرون الناقة، ثم يقولون لأقارب سيدنا صالح الذين سوف يطالبون بدمه أي: بثأره: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾.

فهم يقرون فيما بينهم الكذب والحلف بالله كذبًا، وهذا من إفكهم واستهزائهم بنبي الله وآياته، وظنُّوا أن الأمرَ لهم يفعلون ما يشاءون، فحذَّرهم نبيُّهم سطوةَ الله وعقابَه، وأنذرهم من عقوبة أن يمسوا الناقة بسوء، لَكِنَّ هؤلاء المفسدين أغوتهم شياطينهم، وظنوا بأنفسهم القوة والقدرة والمكر والخداع، فعقروا الناقة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** ﴾ [هود:٦٥] وبعد هذه الثلاثة كان العقاب الشديد، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ** ﴾ [هود] جاءت الصيحة العظيمة، والرجفة المدمرة، فدمرت قوم ثمود، ونجَّى الله عَزَّوَجَلَّ نبيَّه صالحًا والمؤمنين معه، وبقيَت مساكنهم شاهدة على ما كانوا عليه من الجبروت والطغيان، وعلى ما كانوا فيه من القوة، وتلك المساكن محفورة في الجبال إلى يومنا هذا، ولم يعَدْ يُرى إلا تلك المساكن لا يسكنها أحدٌ دَلالةً على ما حاق بهم من مكر الله عَزَّوَجَلَّ، قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [النمل:٥٢].

والسؤال هنا لماذا دمَّر الله القوم الآخرين مع أن تسعة رهط هم الذين مكروا المكر؟!

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا** ﴾ [الشمس] فنُسِبَ العقرُ لهم جيمعًا مع أن الذي تولَّى العقر واحدٌ وهو أشقاهم الذي باشر؛ ذلك لأنهم رضوا بهذه الجريمة، ورضوا بقتل صالح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وعزموا على قتله، فدمَّرهم الله جميعًا؛ لأن الذي يرضى بالمنكر شريكٌ فيه، فكانت مشاركتهم في الجريمة بسبب رضاهم بها.

وكذلك لماذا دمَّر الله نساء قوم لوط مع هلاك الرجال، مع أن النساء لسن داخلات في ذكر الجريمة؟! فإنهنَّ لا يأتين الذكور، ولكنهنَّ رضيْنَ بتلك الفاحشة وما يفعله

الرجال من هذا المنكر، فإن الرضا بالفحشاء فحشاء، والرضا بالكفر كفر، ولذلك دمَّر الله الجميع وكان ذلك من مكره وكيده -سبحانه- من حيث لا يشعرون.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾.

الآية ذكرت أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يكيد في مقابل كيد أعدائه الكافرين، فالكيد هنا على سبيل المقابلة كما ذكرنا، وهذا فيه من الأثر الإيماني العظيم في قلوب المؤمنين، فإذا تأمَّل العبد ذلك وتفكَّر ما هو كيدهم أمام كيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنَّ كيدَ الله عَزَّوَجَلَّ متين، وكيدهم بائر، ومِن مقتضى عزته وعظمته عَزَّوَجَلَّ أن يضمحل الكيد البائر، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

فالمكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وعاقبته عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ...﴾ الآية، وهذا يتعظ به أهل الإيمان؛ فإن أعداء الإسلام يكيدون في العالم كله للمسلمين، ويخططون ضدهم كما كادوا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ الآيات [الطارق] فإن المكذِّبين بأنه القول الفصل الذي ليس بالهزل، -كفار قريش ومن بعدهم- وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ﴾ تعود على الكافرين المكذِّبين مِن قريش ومَن بعدهم، وكلُّ مكذِّب بالقرآن تجده يكيد ويمكر لأهل الإيمان، ويحاول أن يطفئ نور هذا الكتاب العظيم، والله عَزَّوَجَلَّ يكيد كيدًا ونحن لا ندري كيف تكون نهايتهم، ولا ندري الوسائل التي يكيدهم الله عَزَّوَجَلَّ بها، لكن نوقن أنهم يُهْلِكُون أنفسَهم بالشرك، والظلم، والفساد، وأنهم يبحثون عن مصارعهم؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يملي لهم ثم يأخذهم، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ رويدًا: أي قليلًا، فإنه سوف يأتي الفرج من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذه الآيات كلها تتوعد الكافرين، وتبشر المؤمنين بنصرة هذا الدين وانتصار المسلمين، وهذا الأمر حتميٌّ لابدَّ وأن يقع في كل زمان ومكان، بشرط التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وثقة المؤمنين في ربهم عَزَّوَجَلَّ، وأخذهم بالأسباب.



١٥- وصف الله سبحانه بالعفو والقدرة والمغفرة والرحمة في القرآن الكريم

وقوله: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء:١٤٩]، و﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢].

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (فالعَفُوُّ الذي هو اسمه تعالى؛ معناه: المتجاوز عن عقوبة عباده إذا هم تابوا إليه وأنابوا؛ كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الشورى:٢٥].

ولما كان أكملُ العفوِ هو ما كان عن قدرةٍ تامةٍ على الانتقام والمؤاخذة؛ جاء هذان الاسمان الكريمان: العفو والقدير مقترنين في هذه الآية وفي غيرها) اهـ[١].

وقال الشيخ هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأمَّا القدرة؛ فهي الصفة التي تتعلق بالممكنات إيجادًا وإعدامًا، فكلُّ ما كان ووقع من الكائنات واقع بمشيئته وقدرته[٢]؛ كما في الحديث: «**ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**»[٣])[٤].

وذكر ذلك عقب ذكر صفات الكيد والمكر لبيان أن الله عَزَّ وَجَلَّ يفتح باب العفو للعباد، فمن ترك الكيد للمسلمين والمكر بهم، وتاب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإن الله يعفو عنه،

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٢٥) ط. دار الهجرة.
(٢) لا يلزم مثل هذه التقسيمات والتعريفات التي لم ترد في الكتاب والسنة.
(٣) رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (ص١٤٠) رقم (١٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص٢٥) رقم (٤٦).
(٤) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٢٦) ط. دار الهجرة.

وهو عَزَّوَجَلَّ مع عفوه قدير على أن يعاقبه بأنواع العقوبات وليس يعفو عن عجز، بل يعفو عن قدرة وهذا أكمل أنواع العفو.

۞ وقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ هذه الآية الكريمة ترغيبٌ في العفو، وجاء هذا في ذكر قصة الإفك في شأن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حين أقسم ألا ينفق على مسطح بن أثاثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان ممَّن تكلموا في شأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومسطح أحد المهاجرين وأحد من شهدوا بدرًا، وكان فقيرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينفق عليه لقرابته منه ولهجرته، فلمَّا نزلت براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كان القَسَم من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألَّا ينفق على مسطح عقوبةً له على ما تكلَّم به في حقِّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالزور والبهتان، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢].

فالآية الكريمة فيها ذكر أوصاف مسطح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ترغيبًا في الإنفاق، وفيها ذكر أبي بكر بالفضل والسعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فما كان من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلَّا أن قال: (بلى والله إنَّا نحبُّ يا ربَّنا أن تغفرَ لنا»، ثم أرجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة -وقال:- (والله لا أنزعها منه أبدًا) في مقابلة ما كان قال: (والله لا أنفعه أبدًا)[1].

وعند التأمل؛ أيُّ بلاءٍ أشدُّ من هذا! أن يُبتلى ويُؤذى في ابنته العفيفة الطاهرة المطهرة المبرأة، وهي زوجة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأيُّ بلاءٍ أشدُّ من ذلك! ورغم ذلك استجاب أبو بكر لأمر ربه عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ١٣٢) ط. ابن حزم.

فمن غفر غفر الله له، ومن عفا عفا الله عنه، والله يحب من عباده أن يغفروا، وأن يعفوا، وأن يرحموا عباده، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»(١).

وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ارحموا ترحموا واغفروا يُغفر لكم...**»(٢).



(١) **صحيح**: رواه الترمذي (١٩٢٤)، وأبو داود (٤٩٤١)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٠)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٨٢).

١٦- وصف الله سبحانه بالعزة في القرآن الكريم

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨]، **وقوله عن إبليس:** ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٢].

۞ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الآية الكريمة في إثبات صفة العزة لله عَزَّوَجَلَّ، وسبب نزولها في شأن زعيم المنافقين عبد الله بن أبي سلول في غزوة -بني المصطلق- فقد أقسم ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، يعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه، فعندما بلغ ذلك النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أتى بابنه عبد الله، وأخبره بذلك، فقال: (يا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأَنت الأعز وهو الأذل)، وأقسم ألَّا يدخل أبوه المدينة، ووقف بالسيف على باب المدينة مانعًا أباه من الدخول حتى يأذن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأذِنَ له النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وتحمَّل منه لأجل ما كان من مصلحة ميثاق هذا الرجل في ذلك الوقت، فنزلت هذه الآية الكريمة[1].

فإن الله عَزَّوَجَلَّ هو العزيز في انتقامه من أعدائه، وهو العزيز سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا مرام لجنابه، وهو العزيز سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي غلب العباد وقهرهم على ما أراد، وهو العزيز سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بمعنى الذي لا مثل له، والشيء إذا عزَّ يعني فيه ندرة وليس له مثيل، والله عَزَّوَجَلَّ تُثبَت له كل معاني العزة.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾الآية.

---

(١) سبب نزول الآية متفق عليه رواه البخاري (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

هذا إخبار الله عَزَّوَجَلَّ عن إبليس -لعنه الله- وقَسَمِه بعزة الله عَزَّوَجَلَّ، والقسم إنما يكون بأسمائه وصفاته عَزَّوَجَلَّ، فأقسم إبليس بعزة الله عَزَّوَجَلَّ على إغواء بني آدم.

وقد ثبت قَسَم الأنبياء بعزة الله عَزَّوَجَلَّ كما في الحديث عن أبي هريرة، قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بينما أيوب** عَلَيْهِٱلسَّلَامُ **يغتسل عريانًا خرَّ عليه جراد من ذهب فجعل يحثي في ثوبه فناداه ربه** عَزَّوَجَلَّ **يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى، قال: بلى وعزتك ولكن لا غنى لي عن بركتك**»(١).

فإنَّ أيوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بعد أن شفاه الله عَزَّوَجَلَّ آتاه مالًا وأهلًا، فكان غنيًّا عن هذا الذهب، وإنما كان يرجو البركة من الله؛ لأن الجراد من ذهب آية من آيات الله، ومعجزة من معجزاته عَزَّوَجَلَّ، فقال: «**بلى وعزتك**» فأقسم بعزة الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا يريد الذهب بل يريد البركة من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه جعل له هذا الجراد خاصَّة.

وكذا ورد في حديث الدعاء الذي علَّمه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَنْ كان به وجع أن يقول سبع مرات: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شرِّ ما أجد وأحاذر**»(٢) الحديث، ومعلوم أن الاستعاذة لا تجوز بالمخلوق، ولذا كانت الاستعاذة بعزة الله من أدلة إثبات صفة العزة لله عَزَّوَجَلَّ.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (والعزة تأتي بمعنى الغلبة والقهر؛ مِنْ عَزَّ يَعُزُّ -بضم العين في المضارع- يقال: عزَّه؛ إذا غلبه.

وتأتي بمعنى القوة والصلابة؛ مِنْ عَزَّ يَعَزُّ -بفتح العين-، ومنه أرض عزاز؛ للصلبة الشديدة.

---

(١) رواه البخاري (٧٠٩٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٢) من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وتأتي بمعنى علو القدر والامتناع عن الأعداء؛ مِنْ: عَزَّ يَعِزُّ -بكسر العين- وهذه المعاني كلها ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ)[١].



(١) شرح الواسطية للشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٨).

١٦- إثبات الاسم لله سبحانه

وقوله: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٧٨].

﴿ تَبَٰرَكَ ﴾ أي: كثُر خيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والبركة: دوام الخير وكثرته. فأخبر عن نفسه عَزَّوَجَلَّ أنه (تبارك) أي: كثر خيره على العباد، وقد ورد هذا الفعل (تبارك) في تسعة مواضع من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ. كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقوله: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤]، ومنها قوله سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١]، وغيرها من مواضع ورودها في القرآن.

فهو عَزَّوَجَلَّ الخير كله في يديه، والشر ليس إليه، وصفاته كلها خير، وأفعاله كلها خير، وما خلق الله عَزَّوَجَلَّ من مخلوقاته من الشر فإنما خلقه لما يترتب عليه من الخير، ولذا لا يوصف الرب عَزَّوَجَلَّ بالشر في شيء من أسمائه، ولا صفاته، ولا أفعاله؛ بل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أسماؤه، وصفاته، وأفعاله كلها حسنى، وكلها خير، وهو سبحانه المحمود على المحبوب والمكروه.

وأيضًا «التَّبَارُك» فَسَّره كثير من أهل العلم بالتعالي والارتفاع؛ كما روي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «تبارك بمعنى تعالى وتعاظم»(١)، وقال: «تبارك: ارتفع»، وقال غيره: «تبارك بمعنى تقدَّس» وهي كلها بمعنى سبَّح أيضًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما البركة فنوعان **أحدهما**: بركة هي فِعْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والفعل منها بارك، ويتعدَّى بنفسه تارة وبأداة (على) تارة وبأداة (في) تارة، والمفعول

---

(١) «تفسير البغوي» (٣/ ٢٣٦).

منها: (مُبارَك) وهو ما جُعل كذلك فكان مباركًا بجعله تعالى، **والنوع الثاني**: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها (تبارك) ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له عَزَّوَجَلَّ، كما قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ** ﴾ [مريم:٣١]، فمَن بارك الله فيه وعليه فهو المبارَك، وأما صفته (تبارك) فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿ **تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأعراف:٥٤]، ﴿ **تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ** ﴾ [الملك:١]، ﴿ **فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ** ﴾ [المؤمنون:١٤]، ﴿ **وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [الزخرف:٨٥]، ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ** ﴾ [الفرقان:١]، ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ** ﴾ [الفرقان:١٠]، ﴿ **تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا** ﴾ [الفرقان:٦١]. أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كـ(تعالى) و(تعاظم) ونحوهما، فجاء بناء تبارك على بناء (تعالى) الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك (تبارك) دال على كمال بركته وعظمها وسعتها» اهـ[1].

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ...** ﴾ اسم الله عَزَّوَجَلَّ أي: أسماؤه الحسنى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي من كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دالة على ذاته، وتتضمن صفات كماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وأسماؤه عَزَّوَجَلَّ من كلماته، وكلماته ليس مخلوقة، فأسماؤه ليست مخلوقة ولا مصطنعة، وهي دالة على حقائقها وليست وعلى سبيل الاستعارة كأسماء العباد؛ فإن العباد ربما تسمَّوْا بأسماء لا حقيقة لها في صفاتهم، كمن يُقال له: خالد، وهو يموت ولا يخلد، ويُقال: سليم، وهو يمرض، كما يُقال: محمود، وهو مذموم. والمخلوق يُعطَى اسمه قبل أن يتصف بشيء من صفات ذلك الاسم، أمَّا أسماء الرب عَزَّوَجَلَّ فهي تدلُّ على صفاته الحقيقية الثابتة لله

---

(١) «بدائع الفوائد» لابن القيم بتصرف يسير (١/ ٦٨٠) ط. دار عالم الفوائد.

عَزَّوَجَلَّ، فهو عَزَّوَجَلَّ العليم بعلم، والقدير بقدرة سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وليس شيءٌ من أسمائه مخلوقًا أو مستعارًا.

۞ ومعنى ﴿ذِى ٱلۡجَلَـٰلِ﴾ قدَّمنا سابقًا أي: صاحب الجلال والعظمة سبحانه، ولا شيء ولا أحد أجلُّ وأعظمُ منه سبحانه. وصفات الجلال هي صفات الكمال المطلق له سبحانه جلَّ عن كل عيب وكل نقص، له كمال الغنى، وكمال الحمد، وكمال القدرة، وكمال العزة، وكمال العلم، وكل صفات الكمال، فإن هذا الاسم (ذو الجلال والإكرام) من الأسماء الدَّالة على معاني الكمال، مثل: اسم (الصمد)، واسم (القدوس)، واسم (السلام)، وهو ليس اسمًا يدلُّ على معنًى واحدٍ من معاني الكمال، بل يدلُّ على كل معاني الكمال.

وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جلَّ في كمال وحدانيته عن الشريك، والنظير، والندِّ، والمثل، والكفو، والصاحبة والولد، وجلَّ سبحانه في كمال علمه؛ فلا يخفى عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وجلَّ سبحانه عن الجهل، والنسيان، والضلال ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، وجلَّ سبحانه في كمال عدله عن الظلم، فلا يظلم مثقال ذرة، وجلَّ سبحانه في كمال حكمته عن اللهو، واللعب، والسُّدَى، والباطل، وجلَّ سبحانه في كمال قدرته عن العجز، والتعب، واللغوب، والنَّصب.

۞ ﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ قدَّمنا قبل ذلك أن لها تفسيرين، وجمهور السلف على أنه الذي يُكْرَمُ عمَّا لا يليق باسمه سبحانه، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكريم عن النقائص، المتعالى عنها، وهذا قريبٌ من معنى ﴿ذِى ٱلۡجَلَـٰلِ﴾، والمعنى الثاني؛ الإكرام: أي لعباده، فهو الذي يُكرِم عباده الصالحين بأنواع الكرامة في الدنيا والآخرة. والمعنى الأول هو المقصود، واقترانه باسم الجلال مضاف إلى ﴿ذِى﴾ دليل على هذا المعنى.

وقد ورد في الحديث عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**أَلِظّوا بـ(يا ذا الجلال والإكرام)**»[١]، ومعناه: أي الزموا هذه الدعوة، وأكثروا منها وداوموا عليها، وألحُّوا بها في الدعاء.

وعنه رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أنه كان مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ ورجلٌ يصلي، ثم دعا: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام يا حيُّ يا قيوم» فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[٢].

وهو عَزَّوَجَلَّ وصف نفسه بأنه (ذو الجلال والإكرام)، ووصف وجهه سبحانه بأنه ذو الجلال والإكرام، فهو عَزَّوَجَلَّ له كل كمال، وكل جلال وجمال، ووجهه عَزَّوَجَلَّ له كل الكمال والجلال والجمال، وهذه الأدلة نصٌّ في عدِّ الأسماء التي فيها كلمة «ذو» من أسمائه الحسنى تَبَارَكَوَتَعَالَى.

ومن العلماء من يشترط في سرد التسعة وتسعين اسمًا ألَّا يُذكر فيها ما كان مضافًا إلى «ذو» وهذا الكلام مرجوح مردود عليه بهذه الأدلة، وكذلك قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الآية [غافر:٣]، ومعنى ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ أي: ذي الغنى، فإن هذه الآية مصرحة.

والآية المذكورة دلَّت على أن «ذو الجلال والإكرام» من أسمائه عَزَّوَجَلَّ، وكذا ورد في الأحاديث «ذو العزة» و«ذو الجبروت»، و«الملكوت»، و«الكبرياء»، و«العظمة»، وكلها من أسمائه سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٥٢٥)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٣٦) من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنهُ.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٥٤٤)، وأبو داود (١٤٩٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود».

كما في حديث عوف بن مالك قال: **(قمت مع رسول الله** ﷺ **ليلةً فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة...)** الحديث[١].



(١) **صحيح**: رواه النسائي في «السنن» (١١٣٢)، وأبو داود (٨٧٣)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود.

١٧- نفي المِثْل والشريك عن الله سبحانه

وقوله: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٦٥]، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٤]، وقوله: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢]،﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء:١١١]، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن:١]، وقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان]، ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون]، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٧٤]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

شرع شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر الأدلة من القرآن على نفي الصفات السلبية، أي: نفي صفات النقص عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾.

أي: هل تعلم له نظيرًا استحق مثل اسمه مساويًا فيه، وروي عن ابن عباس: «هل تعلم للرب مثلًا أو شبهًا»[(١)].

والسميُّ هو النظير الذي يُسمَّى باسمه، ويستحق ما له، وله معنى صفته.

- والاستفهام في الآية إنكاري في معنى النفي، أي: لا تعلم له سميًّا؛ فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا هو ولا غيره يعلم سميًّا لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه سبحانه ليس له سميّ.

وبعض المخلوقين قد يكون له اسمٌ مشابه لاسم الله عَزَّوَجَلَّ، لكن لا يعني ذلك المساواة؛ لأن المعنى الثابت للمخلوق يليق به، والمعنى الثابت لله يليق بعظمته ووحدانيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقد سمى الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان سميعًا بصيرًا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا**﴾ [الإنسان:٢] ومعلومٌ أن سمع وبصر العباد ليس كسمع وبصر الرب سبحانه.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ**﴾ قُرِئت ﴿**كُفُوًا**﴾ بضم الفاء وسكونها، وقرئت «كفؤًا» بالهمزة، والمراد بالكفو: المكافئ المساوي. فهذا نفي النظير والشبيه عن الله عَزَّوَجَلَّ من كل وجه، وجاءت ﴿**أَحَدٌۢ**﴾ نكرة في سياق النفي ليعم كل أحد.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا** ...﴾ هذا نفيٌّ للندِّ عن الله عَزَّوَجَلَّ، والندُّ هو النظير المناوئ المنازع، والفرق بين الكفو والند: أن الكفو مثيل مساوٍ لا يلزم أن يكون منازعًا، والأنداد فيها نوع من المنازعة لما يصرف لهم من العبادات، وهي تقع باطلة، وهم لا يستحقونها.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ١١٩٦) ط. ابن حزم.

وكل من جعل لله ندًّا في ألوهيته أو ربوبيته أو أسمائه وصفاته فقد دخل في النص: ﴿ **فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ وهو أعظم الذنب كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجل لَمَّا سأله: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»[(١)] الحديث.

والندُّ في أسمائه وصفاته عَزَّوَجَلَّ بأن يُعتقد لأحد المخلوقين السمع والبصر المحيط، والقدرة الشاملة، والعلم الكامل الذي لا يعزب عنه ذرة في السماوات والأرض، والسلطان والملك التام الذي يجعل له سلطانًا على كل ذرات الكون كما يقول أهل الغلو من أهل البدع -مثل بعض الشيعة الضلال وغيرهم- الذين يلحدون في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، ويدَّعون للأولياء أنهم يسمعون ويبصرون كل ما في هذا الوجود، ويسمعون على البعد والغيب، ويبصرون أتباعهم وأعداءهم على الغيب والبعد، وكذلك يدَّعون لهم القدرة التَّامة في أنهم يغيثون المضطر إذا دعاهم ويجيرونه، أو أنهم ينقذون الناس من الكرب إذا نزل بهم، أو كمن يقول عن الله عَزَّوَجَلَّ: «أنه قال: الملك ملكي وصرفت فيه البدوي»[(٢)]، فهذا كلُّه من اتِّخاذ النِّدِّ له عَزَّوَجَلَّ، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

– وكذلك مَن يجعل لله عَزَّوَجَلَّ ندًّا في ربوبيته بأن يجعل مع الله خالقًا، أو رازقًا، أو مدبرًا، ومن يجعل مع الله مالكًا ولو لذرة من ذرات الكون، ومن يجعل مع الله آمرًا ناهيًا مُشَرِّعًا، يأمر وينهى، ويُلْتَزَمُ كلامه دون شرع الله، أو مع شرع الله عَزَّوَجَلَّ.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع علوِّ منزلته لا يأمر بشيء من تلقاء نفسه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم:]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** ... ﴾ الآية [يونس:١٥] فإذا كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يستقل بالأمر والنهي، بمعنى: أنه مبلغ عن الله عَزَّوَجَلَّ، وليس أنه

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧١٣٤)، ومسلم (١٥٤) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «الصوفية والوجه الآخر» د. محمد جميل غازي (ص٥٦).

الآمر الناهي من قبل نفسه، فكيف يُعطى هذا الحق للكفرة والفجرة، أو للجهال من المشرعين الذين يشرعون الأباطيل من دون الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ...﴾ [الشورى:٢١].

- وكذلك من جعل لله عَزَّوَجَلَّ ندًّا في الإلهية بأن صرف له عبادة من العبادات؛ كخوف العبادة السري كما يخاف الله عَزَّوَجَلَّ، أو كرجاء العبادة كرجاء الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك من يصرف لغير الله ركوعًا، أو سجودًا، أو ذبحًا، أو نذرًا، أو طوافًا، أو أي عبادة يصرفها لغير الله فقد جعل لله ندًّا في الإلهية.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ...﴾ الآية، أي: وهم يعلمون أن الله عَزَّوَجَلَّ ليس كمثله شيء، إذ لو سئل هؤلاء متخذو الأنداد عن عبادتهم هؤلاء الأنداد لزعموا أنهم إنما يعبدون الأنداد ليقربوهم إلى الله زلفى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، بل حتى أشد الناس في شرك الربوبية الذين يدَّعون للكون خالقين إله النور للخير، وإله الظلام للشر، فإنهم يميلون ويعبدون إله الخير والنور الذي يرمزون له بالنار ويعبدونها فكان كفرهم بالله عَزَّوَجَلَّ.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فالواو هنا حالية، والمعنى: إذا كنتم تعلمون أن الله هو وحده الذي خلقكم ورزقكم وأن هذه الآلهة التي جعلتموها له أندادًا، وسويتموها به باستحقاق العبادة لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة، ولا تملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، فاتركوا عبادتها وأفردوه سبحانه بالعبادة والتعظيم) اهـ[1].

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٣١).

ويدخل في مشابهة المشركين في اتخاذ الأنداد من يحلفون بغير الله عَزَّوَجَلَّ، لأن الحلف تعظيم للمحلوف به، ولا يجوز إلا بالله أو بأسمائه وصفاته، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»[١].

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[٢].

وكذلك من يقول: (ما شاء الله وشئت)، أو (ما شاء الله وشاء فلان)، فقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن قال له ذلك: «**أجعلتني لله عَدْلًا، أجعلتني لله نِدًّا؟! قل ما شاء الله وحده**»[٣].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان**»[٤].

وكذلك كما ورد في الأثر عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قول: (لولا نباح الكلب لسرقتنا اللصوص، ولولا الملاح كان ماهرًا لغرقنا)[٥].

---

(١) رواه البخاري (٦٢٧٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، واللفظ له، ورواه أحمد (٢/ ١٢٥)، وقال الترمذي: حديث حسن، وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر في «المسند» (٨/ ٢٢٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي».

(٣) **صحيح**: رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٧)، ورواه أحمد في «المسند» (١/ ٢١٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٦٠١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٩٨٠)، وأحمد (٥/ ٣٨٤)، وقال النووي في «الأذكار» (٤٤٤) إسناده صحيح، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٥) رواه ابن أبي حاتم في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا**﴾، وانظر: «معارج القبول» للشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٦١٥) ط. دار ابن القيم.

وهذا من نسبة الفضل إلى غير الله، ومن جَعْل أندادًا لله في اللفظ كما فسرها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويدور الحكم فيه بين الشرك الأصغر اللفظي، وبين الشرك الأكبر بحسب اعتقاد قائله.

۞ وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ... ﴾ هذه الآية الكريمة في ذمِّ من يتخذون من دون الله أندادًا يسوونهم به عَزَّ وَجَلَّ في المحبة؛ فإن أكثر الخلق لا يتخذون أندادًا في الخلق والربوبية، ولكن يتخذون الأنداد في المحبة والتعظيم ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ... ﴾ الآية، كما وصف الله عَزَّ وَجَلَّ يحبون آلهتهم كحبهم لله عَزَّ وَجَلَّ، أو كما يحب المؤمنون ربهم، فجعلوا حب العبادة الذي هو حب المعبود مع الذل والخضوع مصروفًا لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فذمهم الله على ذلك، وأخبر أن هذه المودة تنقطع، قال سبحانه: ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ الآية [البقرة:١٦٦]، فهؤلاء الذين صرفوا المحبة والتعظيم لغير الله انقطعت بهم يوم القيامة كل مودة كانت بينهم.

۞ وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ فيه نفي الولد بكل أشكاله وأنواعه عن الله عَزَّ وَجَلَّ، فقد نزَّه نفسه سبحانه عن الولد بمجرد التسمية، وتنزَّهَ عن الولد الذي يكون من جنس أبيه كما يزعم النصارى في المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ إذ يدَّعي النصارى أن المسيح أقنوم الابن مولود من أبيه قبل كل الدهور مساوٍ له في الجوهر، إله من إله -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا-.

وكذلك اعتقادهم هم واليهود في ادعائهم البنوة لله، كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ... ﴾ [المائدة:١٨] فأبطل سبحانه كلمتهم ولو كانت على سبيل المجاز في ادعاء بنوتهم لله سبحانه، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [الزمر:٤] فلو كان يمكن أن يكون هناك من يُسَمَّى

ولدًا لكان مخلوقًا، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ منزَّهٌ عن ذلك، فليس له ولدٌ منبثقٌ منه أو بعضه، وليس له ولدٌ قد خلقه فسمَّاه ولده.

وكذلك هو المنزَّهُ سبحانه عن الشريك في المُلك، ومنزَّهٌ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن اتخاذ الولي من الحاجة؛ لأن هناك من يتخذ الأولياء والأعوان لكونه يحتاج إليهم، وأمَّا أولياء الله عَزَّوَجَلَّ فهو لا يحتاج إليهم، بل منزَّهٌ عن ذلك عَزَّوَجَلَّ، وإنما يتخذ أولياءً يحبهم ويحبونه، وينصرون دينه وينصرهم، وليس أنه محتاج إليهم، بل هم الذين يحتاجون إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو عَزَّوَجَلَّ له أولياء لكن من غير الذل ولا الحاجة ولا الافتقار إليهم. وهو عَزَّوَجَلَّ منزَّهٌ عن كل نقص على الإجمال والتفصيل ولذا كان التكبير؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أكبر من كل شيء، وأكبر من كل نقص.

وكما ذكرنا قبل ذلك فإن الأصل في طريقة القرآن الإثبات المفصل لصفات الله عَزَّوَجَلَّ والتنزيه المجمل، وهذا الأغلب الأعم، إلَّا إذا كان هناك من يثبت هذا النقص فيُنَص على نفيه تفصيلًا، حتى يعلم السامع من هذه الآيات أن الله عَزَّوَجَلَّ منزَّهٌ عن كل نقص يتصوره في نفسه أو يتصف به المخلوق، فإنه عَزَّوَجَلَّ منزَّهٌ عن ذلك كله.

والتفصيل المذكور من نفي الكفو، والند، والسَّمي، والشريك، والولد، والصاحبة، وغير ذلك؛ إنما نُصَّ عليها لأجل وجود من يدعيها في صفات الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

- ولابدَّ أن نعلم أنه لا يصح للعبد توحيدٌ حتى ينفي صفات النقص ويثبت صفات الكمال، والخلل في هذا والمخالفة فيه لما جاءت به الرسل يحبط عقيدة الإنسان، ويحبط عمله كله، فمن نسب إلى الله صفات النقص كما فعل اليهود، ونسبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ التعب ونسبوا إليه الإعياء والجهل والفقر -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا- ما نفعهم عمل، ولمَّا نسب إليه النصارى الصاحبة والولد ما نفعهم عمل، ولمَّا ظنَّ به المشركون السوء

أرداهم ذلك الظنُّ حين ظنُّوا أنَّ الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الآية [فصلت:٢٣].

❁ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذا التسبيح من الكائنات كلها تنزيه لله عَزَّوَجَلَّ عن كل نقص، وهذا مِن كل ما في السماوات والأرض من الأشياء العاقلة وغير العاقلة، جعل الله عَزَّوَجَلَّ فيها إدراكًا، وخلق فيها قدرة على التسبيح بكيفية لا نعلمها، ولذا قيل قد يكون التسبيح بلسان الحال، أي: في كونها مخلوقة في ذاتها تشهد بحالها على وجود خالقها من غير أن يكون فيها إدراكٌ لكنَّها تدلُّ بمجرد وجودها على قدرة، وعلم، وحكمة تامة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو تنزيه لله عَزَّوَجَلَّ عن النقص، ومن رآها أيقن بوجود خالقها وبعلمه، لأنه وضع الأشياء في موضعها وبحكمته سبحانه يجعل لكل شيء غاية ومصلحة من وراء وجوده بهذه الطريقة.

ووجودها بهذا الإتقان الكامل دَلالة على القدرة التامة، وتنزيهٌ عن العجز، وكل هذا معنى التسبيح بلسان الحال، ولا شكَّ أن هذه الأشياء دالة فعلًا على ذلك، لكن إضافة إلى ذلك أن التسبيح -على الصحيح- معناه التسبيح الحقيقي؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].

فهذه الكائنات تسبح تسبيحًا فعليًّا ونحن لا نفقهه، ولسان الحال نحن فقهنا معناه، فدلَّ ذلك على أن هذا التسبيح أمر زائد على مجرد لسان الحال فيكون بلسان المقال أيضًا لكن مقال لا نفقهه، فلا ندري لغة هذه الأشياء. والإنسان يتعلم كل يوم أشياء ويجهل

الكثير، وكلَّما تعلَّم شيئًا عَلِمَ أنه كان جاهلًا، والإنسان كلما ازداد علمًا أيقن مدى جهله، كما قال ابن مسعود: «من قال أنا عالم فهو جاهل»[١].

- وأصحاب التخصص عندما يعرفون التفاصيل في علومهم يدركون أن ما يجهلونه أضعاف ما علموه، والإنسان ليس عنده أدوات لإدراك أشياء كثيرة جدًّا في هذا الكون الواسع المتقن، ولذا ينبغي للإنسان أن يقف عند حدوده، ويوقن بعجزه وافتقاره إلى ربه عَزَّوَجَلَّ.

- وإذا تأمَّل العبد في أمر تسبيح الكائنات أثمر عنده معنى في غاية الأهمية، وهو أن تسبيح الكائنات يُشعر المؤمن أنه ليس غريبًا بطاعته في هذا الوجود وهذا الكون، بل الحقيقة أن الكفر هو الغريب، وهو القلة والذلة، وأن الكون كله يعبد الله عَزَّوَجَلَّ وهذا من أعظم ما يشعر العبد بعظمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ووحدانيته وقدرته، ويشعره ثانيًا بما يُثَبِّته على طريقة التوحيد والإيمان، ولو كان السائرون فيه قلة، فلا يستوحش من قلة السالكين، لكنه يستشعر كثرة من سار على درب الإيمان من الكائنات حوله، بل الكائنات كلها على علاقة به؛ لأنها على طريقته ومنهجه في طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ**﴾ الآية [فصلت:١١].

فالكون كله يسبح الله عَزَّوَجَلَّ، والكافر فقط من الجنس الإنساني والجني هو الذي يعصي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإن كان الكافرون في الظاهر هم الأكثر عددًا فيما يبدو للناس لكن في الحقيقة هم أقل عددًا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا**﴾ [الجن:٢٤].

فلا يعلم جنود ربك إلا هو، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يرينا من آياته في هذه الكائنات ما يدلُّ على طاعتها له عَزَّوَجَلَّ، كما قال عَزَّوَجَلَّ عن آل فرعون: ﴿ **فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ**

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٧/ ٤١٧).

﴿وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ...﴾ الآية [الأعراف:١٣٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [المدثر:٣١] فهذا يدفع المؤمن إلى عدم الاستيحاش من الغربة.

وعادة الناس والغالب فيهم ترك الحق بسبب هذا الاستيحاش وبسبب ميلهم إلى التقليد، لكن استشعار أن الكون كله يسبح يزيل هذه الوحشة من قلب المؤمن.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني لأعلم حجرًا في مكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن...**»(١).

ومن معجزاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكرامات الأولياء أن الصحابة سمعوا تسبيح الطعام وهو يؤكل(٢).

وكذا حنين الجذع إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان المسجد مسقوفًا على جذوعٍ من نخل، فكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِعَ له المنبرُ، وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، حتى جاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوضع يده عليها فسكنت»(٣).

وكذا عصا موسى التي كان يهش بها على الغنم أصبحت حية تُرْعِبُ فرعون، وغير هذا كثير من الكائنات والآيات في هذا الكون الكبير.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ فإذا تأمَّل العبد ذلك عَلِمَ ملك الله عَزَّوَجَلَّ، والجمع بين الملك والحمد فيه اقتران كمال الملك لله عَزَّوَجَلَّ مع كمال الحمد له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو عَزَّوَجَلَّ في ملكه التام الكامل يتصرف ويدبر ملكه بما يُحمد عليه؛ لأن هناك من يملك

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري رقم (٣٣٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري (٣٥٨٥).

شيئًا لكن لا يتصرف فيه بحكمة، بل يتصرف بالطيش والسفه والأهواء بمجرد أنه يستشعر الملك؛فلا يُحمد على ذلك.

- وأكثر الملوك ظلمة إلَّا من هداه الله، وعامة مُلك الدنيا معه ذم وليس معه حمد، وعامة من يُحمد ليس معه مُلك، وأما الملوك العابدون المحمودون فهم قلة قليلة؛ ولذلك كان الجمع بين الملك والحمد لله عَزَّوَجَلَّ وحده، له كمال الملك وكمال الحمد؛ لأنه يضع الأشياء في مواضعها مع كمال ملكه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهو عَزَّوَجَلَّ لو أهلك الأولين والآخرين، ولو عذَّب أهل سماواته وأرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم، لكنه عَزَّوَجَلَّ لا يُعذِّب إلا من يستحق العذاب.

وهو عَزَّوَجَلَّ الذي أوجد هذا الكون من العدم وأبدعه، ومع ذلك لا يتصرف فيه إلَّا بالحكمة بما يستحق الحمد، ولذلك فهو عَزَّوَجَلَّ يُحمد على المحبوب والمكروه؛ لأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾.

وما كان في ملكه عَزَّوَجَلَّ من شيء مكروه جعل سبحانه من وراء إيجاده حكمةً وخيرًا لا يحيط الناس به، بل حتى خلْقه لإبليس والشياطين فهو لمصالح لا يمكن أن تحصل إلَّا بوجودهم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يحب أنواعًا من العبودية تكون وسط أنواع الشرك والكفر، والنفاق والضلال، كما قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**العبادة في الهرج كهجرة إليَّ**»[1]، والهرج أي الفتنة.

وأمثلة ذلك كثيرة، منها أن الله عَزَّوَجَلَّ يكرم بعض خلقه أن يبذل ويجاهد في سبيله عَزَّوَجَلَّ، وقد تكون الأرض كلها تطارد أهل الإسلام، وأهل البذل في سبيله، ويكون هؤلاء المؤمنون هم صفوة الله، وكذا كل داعٍ إلى الخير والحق وسط أنواع الضلال والصدِّ التام من الكفار والمنافقين، ووسط الحروب الدائمة ضد أهل الإسلام، ووسط انفضاض

(١) رواه مسلم (٢٩٤٨) من حديث معقل بن يسار رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

الناس عن دينه عَزَّوَجَلَّ، ثم يُعلي عَزَّوَجَلَّ شأنَهم، ويصرف قلوب الناس إليهم، فله الحمد سبحانه على ما قدَّر.

فهو عَزَّوَجَلَّ لا يُقدِّرُ شيئًا عبثًا بغير حكمة، بل أفعاله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى كلها حُسنى، له كمال الملك وله كمال الحمد.

وأهل الضلال لم يشهدوا حمدًا لله عَزَّوَجَلَّ مع ملكه، فهؤلاء مثل الجبرية القائلين بنفي إرادة الإنسان، وأن الشر والخير لا دخل للإنسان فيه، بل هو مجبر على الفعل وليس له أي اختيار، ويأتون بتشبيهات لمعتقدهم الفاسد، يقولون: تكليف الكافر بالإيمان كتكليف المقعد بالطيران، وتكليف الأعمى بنقط الكتاب، وألقاه في اليم مكتوفًا وقال إياك إياك أن تبتل بالماء[١]. وهؤلاء الجبرية[٢] الذين ينفون إرادة الإنسان، الذين أثبتوا الملك دون الحمد، وعكسهم القدرية نفاة القدر الذين قالوا إن أفعال العباد خارجة عن إرادة الله عَزَّوَجَلَّ.

وكلا الطائفتين والفرقتين في ضلال مبين، والحق أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى له الملك يفعل ما يشاء سبحانه، وما قدَّره من أشياء مكروهة أراده عَزَّوَجَلَّ كونًا لحكمة بالغة ومصالح وأشياء محبوبة له عَزَّوَجَلَّ لا تتحقق إلا بوجود ذلك المكروه، وهو عَزَّوَجَلَّ له الحمد على تقديرها.

فلابدَّ من شهود الجمع، وهو شهود الملك، فلا شيء يخرج عن ملكه سبحانه؛ هو الذي خلق الخير والشر، والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، ولابدَّ من شهود الفَرْق

---

(١) المنقول من كتاب «طريق الهجرتين»، و«شفاء العليل» كلاهما لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) قال شاعر الجبرية:

وضعوا اللحم للبزاة على ذروتي عدن ... ثم لاموا البزاة إذ خلعوا عنهم الرَّسَن

لو أرادوا صيانتي ... صانوا وجهك الحسن

وهذا شهود الحمد، أنه سبحانه يُحمد على ملكه وتقديره لما يحبه ولما لا يحبه؛ لأن ما لا يحبه يترتب عليه أشياء محبوبة ما كانت تحدث إلا بتقدير ما لا يحبه سبحانه وبحمده.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو قدير سبحانه على كل شيء، وأفعال العباد داخلة في ذلك، وهذه الآية الكريمة تثبت التوحيد، وتثبت القدر وتثبت العدل، وتثبت الحكمة، وتردُّ على الكافرين بأنواعهم وطوائفهم المختلفة الذين لا ينزهون الله عَزَّوَجَلَّ عن النقص، ولا الصاحبة والولد، أو التعب والندم والفقر، وكذلك الذين يشركون في ربوبيته بادِّعاء أنه معه من يدبر الكون، أو يملك الأمر مع الله عَزَّوَجَلَّ، أو يزعمون وجود من يُطلب منهم جلب المنافع ودفع المضار من دون الله أو مع الله، وكذلك هذه الآية تردُّ على أهل البدع بأنواعهم.

۞ وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ الآية [الفرقان:١]، سبقَ بيانُ معنى ﴿تَبَارَكَ﴾ وهي تجمع كل معاني التنزيه عن جميع النقائص.

۞ ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ...﴾ الآية [الفرقان:١]، الفرقان القرآن، وسُمِّيَ القرآن فرقانًا لأنه يفرق بين الحق والباطل ويميز بينهما، وكذلك الفرقان ما ينزله الله عَزَّوَجَلَّ على رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أنواع التأييد والتقوية ما يفرق به بين الحق والباطل، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ...﴾ الآية [الأنفال:٤١]، فسُمِّيَ يوم بدر بالفرقان؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل من أنواع التأييد والنصرة لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين ما فرَّق به بين الحق والباطل، إذ لو أن المؤمنين هُزموا في بدر لما حصل فرقانٌ في الأرض، ولما عُبِدَ الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض.

وكذا قال الله عَزَّوَجَلَّ عن نبيه موسى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ...﴾ [البقرة:٥٣].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ نَزَّلَ ﴾ أي: استمرار تتابعه مرة بعد مرة، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء:١٠٦].

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ الآية، وصف الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالعبودية لبيان شرف العبودية، وأن كمال الإنسان وأعلى درجاته متحقق في شخص النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في تحقيق العبودية لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ.

وذكره ربنا في مقام الإسراء فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء:١]، وقال عَزَّوَجَلَّ في مقام الدعوة: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن:١٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ في مقام التحدي: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٣]؛ لأن مقام العبودية هو أرفع مقامات الخلق جميعًا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ما خلق الخلق إلَّا ليعبدوه.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ العالمين: الإنس والجن، وقيل للناس جميعًا، والصحيح أنه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رسول للإنس والجن كذلك، وكان صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يجتمع بالجن ويقرأ عليهم القرآن، وأمر منهم نفرًا أسلموا حين سمعوا القرآن أن ينذورا قومهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٩].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ نَذِيرًا ﴾ الذي يخبر بالشيء مع التخويف والتحذير، وضده البشير الذي يخبر بالشيء مع ترغيب وإخبار بما يَسُرُّ.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا المعنى قد تكرَّر كثيرًا في القرآن في إثبات ملكه عَزَّوَجَلَّ للسماء والأرض، ومن الناس من يظن أن ملك الله عَزَّوَجَلَّ في السماوات دون الأرض، وأن ملك الأرض للناس وأنهم يتصرفون كما يريدون.

وإذا استحضر المؤمن أن ملك السماوات والأرض لله عَزَّوَجَلَّ وحده، فإنه سيطيع الله عَزَّوَجَلَّ، ويلتزم بالفرقان الذي أنزل الله عَزَّوَجَلَّ دون أن يعبأ بما عليه أهل الأرض، ودون أن يسعى في رضاهم أو يفر من سخطهم، بل الله عَزَّوَجَلَّ هو الملك الحق الذي له ملك السماوات والأرض.

وهذا التقديم في هذه السورة الكريمة هو أعظم مناسبة للردِّ على المشركين الذين يأبون الانقياد والإيمان بما جاء به الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأن العبد لو عَلِمَ حقًّا أن الله له ملك السماوات والأرض لأطاع الله حتمًا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا...﴾، وهذا هو الشاهد في هذا المقام من نفي صفات النقص عن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فهو عَزَّوَجَلَّ لم يتخذ ولدًا، لا حقيقة ولا مجازًا، وله عَزَّوَجَلَّ كمال الوحدانية في صفاته الذاتية والفعلية.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، دائمًا يأتي نفي صفات النقص مقرونًا بإثبات صفات الكمال؛ إذ ليس هناك نفيٌ مجرد، بل نفي للنقص مع إثبات صفات الكمال المقابلة، فلمَّا أثبت سبحانه ملك السماوات والأرض نفى أن يكون له شريك، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يشمل الذوات والأفعال والصفات.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، فيه إثبات القضاء والقدر، وأن الأمر كله بقدرته سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وكل شيء عنده بمقدار، وأكَّدَ سبحانه التقدير بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾

وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قبل أن يخلق الخلق قد وضع لكلِّ شيءٍ قدرًا، وكان وجود الخلق على ما قدَّره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، هذا ردٌّ على المشركين الذين قالوا إن الملائكة بنات الله، واليهود الذين قالوا عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله، وقول اليهود والنصارى نحن أبناء الله، وكذا قولهم على آدم أنه ابن الله، أو قولهم عن يعقوب أنه الابن البكر، تعالى الله عن قولهم جميعًا علوًّا كبيرًا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ نفي الإلهية عن غير الله عَزَّوَجَلَّ ولو على سبيل الوساطة، وذَكَر عَزَّوَجَلَّ الدليل على ذلك فقال: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ لكان كل إله يذهب بمن خلق ويتفرد به، ثم لابدَّ من أن يحدث تنازع بينهم لنقص ملك كل واحد منهم عن الآخر، ولصارت الصراعات بينهم كما تخيلتها الأمم الخائبة: كالرومان، واليونان، والفراعنة، والهنود، وكلهم تصوَّروا وجود المعارك بين الآلهة المزعومة في اعتقاداتهم الباطلة، مع أن الكون مستقر وفي أحسن صورة.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ فهذا الوصف بالنقص -من المشركين- له عَزَّوَجَلَّ هو منزَّهٌ عنه سبحانه.

قال: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ عَلِمَ ما غابَ عن العباد وما شهدوه، قد أحاط بذلك كله علمًا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ نفى الشريك عن الله عَزَّوَجَلَّ سواء في الربوبية، أو الألوهية، أو الأسماء والصفات.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (تضمنت هذه الآية الكريمة أيضًا جملةً من صفات التنزيه التي يراد بها نفي ما لا يليق بالله عَزَّوَجَلَّ عنه، فقد نزَّهَ سبحانُه نفسَه فيها عن اتخاذ الولد، وعن وجود إلهٍ خالقٍ معه، وعما وصفه به المفترون الكذَّابون؛ كما نهى عن ضرب الأمثال له، والإشراك به بلا حجة ولا برهان، والقول عليه سبحانه بلا علم ولا دليل.

فهذه الآية تضمنت إثبات توحيد الإلهية، وإثبات توحيد الربوبية، فإنَّ الله بعدما أخبر عن نفسه بعدم وجود إله معه أوضح ذلك بالبرهان القاطع والحجة الباهرة، فقال: ﴿**إِذًا**﴾؛ أي: إذ لو كان معه آلهة كما يقول هؤلاء المشركون؛ ﴿**لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾.

وتوضيح هذا الدليل أن يقال: إذا تعددت الآلهة، فلابدَّ أن يكون لكلٍّ منهم خلق وفعل، ولا سبيل إلى التعاون فيما بينهم؛ فإن الاختلاف بينهم ضروري، كما أن التعاون بينهم في الخلق يقتضي عجز كل منهم عند الانفراد، والعاجز لا يصلح إلها، فلابدَّ أن يستقلَّ كلٌّ منهم بخلقه وفعله، وحينئذ؛ فإمَّا أن يكونوا متكافئين في القدرة، لا يستطيع كلٌّ منهم أن يقهرَ الآخرين ويغلبهم، فيذهب كل منهم بما خلق، ويختصُّ بملكه؛ كما يفعل ملوك الدنيا من انفراد كلٍّ بمملكته إذا لم يجد سبيلًا لقهر الآخرين، وإمَّا أن يكون أحدهم أقوى من الآخرين، فيغلبهم، ويقهرهم، وينفرد دونهم بالخلق والتدبير، فلابدَّ إذا مع تعدد الآلهة من أحد هذين الأمرين: إمَّا ذهاب كلٍّ بما خلق، أو علوِّ بعضهم على بعض.

وذهابُ كلٍّ بما خلق غير واقع؛ لأنه يقتضي التنافر والانفصال بين أجزاء العالم، مع أن المشاهدة تثبت أن العالم كله كجسم واحد مترابط الأجزاء، متسق الأنحاء، فلا يمكن

أن يكون إلَّا أثرًا لإله واحد، وعلوُّ بعضهم على بعضٍ يقتضي أن يكون الإله هو العالي وحده(١).

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

هذا نفي المِثْل عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ونهيٌ عن تشبيه الله عَزَّوَجَلَّ بشيء من خلقه؛ فإنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له المثل الأعلى الذي لا يشركه فيه معه غيره، أي: له الصفة العليا، وليس له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مثلٌ يُقَاسُ عليه.

ولا يُستعمل في حق الله عَزَّوَجَلَّ من الأقيسة قياس المماثلة أو المساواة بينه وبين غيره كقياس التمثيل، والتشبيه، ولا قياس الشمول الذي يكون فيه وصفٌ جامعٌ لأفرادٍ تدخل تحته، فيكون الرب تعالى داخلًا في هذا العموم، وإنما يُستعمل في حقِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قياس الأولى فقط.

كما قال عَزَّوَجَلَّ عن نفسه: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الروم:٢٧] فكلُّ كمالٍ ثبت للمخلوق فالله عَزَّوَجَلَّ أولى بهذا الكمال، وكلُّ نقصٍ مُنَزَّهٌ عنه المخلوق فالله عَزَّوَجَلَّ أولى بأن يُنزَّه عن ذلك النقص.

وهذه طريقة القرآن، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الروم:٢٩] فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول لخلقه أنتم لا تقبلون في عبيدكم أن يكونوا شركاء لكم في أموالكم وما تملكونه، مع أنكم لم تخلقوا عبيدكم، فإنَّ الله أولى ألَّا يَقبَل أن يكون معه شريك من عبيده ومخلوقاته، وهو عَزَّوَجَلَّ الذي خلق الخلق جميعًا، وهو أولى أن يُنزَّه أن يكون له شريك سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٣٤-١٣٥).

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل:٧٦] قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذا مَثَلٌ ضربه عَزَّوَجَلَّ لنفسه وللآلهة التي تُعبَد من دونه) اهـ[١]، فإن هذه الأصنام لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئًا، عاجزة لا تقدر على شيء، كالكَلِّ الذي لا يقدر على شيء، فإنه لا يستوي مع مولاه الذي يأتي بالخير، ويتكلم بالحق والعدل ويأمر به، ويدعو إليه، فإن هذا في أذهان الناس لا يستقيم ولا يقبله عاقلٌ، فإذا كان الأمر كذلك فإن الله عَزَّوَجَلَّ أولى أن يُنزَّهَ عن كل نقص، وهو عَزَّوَجَلَّ أولى بكلِّ كمال، فهو عَزَّوَجَلَّ أكرم الأكرمين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الآية، وهذه هي العلة في عدم جواز ضرب المثال على وجه التمثيل أو التشبيه وأمثلة وقياس الشمول لله عَزَّوَجَلَّ، أن البشر لا يعلمون، فلا يصحُّ لهم أن يقيسوا صفات الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بصفات المخلوقين.

وأصل باب التعطيل والتشبيه بسبب ضرب الأمثال لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإن الذين يعطلون وينفون صفات الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد شبهوا الله عَزَّوَجَلَّ بالمعدومات، ونفوا أفعاله وصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فقالوا لا ينزل، ولا يستوي على العرش، ولا يضحك، ولا يرحم، ولا يرضى، ولا يغضب، ولا يتكلم ولا ولا ولا... فكان مرد التعطيل إلى العدم في الحقيقة، ولذلك كما قال غير واحد من السلف في الجهمية: إن غايتهم أن يقولوا ليس في السماء إله يُعبد، وإنما تستروا بستار النفي.

ومن هؤلاء من يشبه الله عَزَّوَجَلَّ بالمستحيلات، كالباطنية الذين يقولون: «لا حي ولا ليس بحي، لا موجود ولا ليس موجود» وهذا كله من ضرب الأمثال لله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) «تفسير جامع البيان» لابن جرير الطبري (١٧/ ٢٦٢) ط. دار المعارف.

وكذلك القول بالحلول والاتحاد؛ فإن من قال بذلك جعل لله عَزَّوَجَلَّ كل مثل، فإن من يقولون بوحدة الوجود قد جعلوا كلَّ شيء في الكون هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وانظر كلام ابن عربي حين يقول في كتابة «الفتوحات المكية»:

ألا كل قول في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه[1]

والمعنى: أن الشعر، والنثر، والسب، والشتم، والفحش، كلُّ هذا من كلامه لأن كل شيء هو مظهر من المظاهر له، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

ويقول أيضًا فيما ينسب له:

وما الكلب والخنزير إلَّا إلهنا ... وما الله إلا راهبٌ في الكنيسة

ونُسب إليه قوله:

الرب عبد والعبد رب ... يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك رب ... أو قلت ربًّا أنَّى يكلف[2]

ومن ذلك ما هو موجود في كتابه «فصوص الحكم».

وهذا الكفر أشدُّ من كفر اليهود والنصارى، فقد جعلوا كلَّ شيء مثلًا لله عَزَّوَجَلَّ[3]، وكل ما عُبد من دون الله جعلوه معبودًا بحقٍّ، وهذا من أعظم الكفر عياذًا بالله.

---

(١) «الفتوحات المكية» لابن عربي.

(٢) الأبيات من كتاب ابن عربي الصوفي «الفتوحات المكية».

(٣) وهؤلاء جعلوا حتى عشق العاشق لمعشوقته عبادة؛ لأنهم لا فرق عندهم بين العبد وبين الرب، فلا فرق بين ساجد لله، وعابد وثن، وعاشق يهيم في امرأة، ومن طالع قصيدة التائية المسماة (نظم السلوك) لابن الفارض الذي يُلقب بـ«سلطان العاشقين» يجد هذه الضلالات مبثوثة، ومن ذلك قوله -عياذًا بالله- عن ذات الله عَزَّوَجَلَّ:

ففي النشأة الأولى تراءت لآدم ... بمظهر حوا قبل ظلم الأمومة

ولذا كان من أهم اعتقادات أهل السنة اعتقاد أن الله سبحانه فوق عرشه بائن من خلقه.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

﴿إِنَّمَا﴾ أداة قصر تفيد أن الأشياء المذكورة بالحرمة يُفهم أن ما عداها هو من الطيبات ولا حرج فيه، و﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ جمع فاحشة وهي: الفعلة المتناهية في القبح، وخصَّها البعض بما تضمن شهوة ولذة من المعاصي الظاهرة والباطنة؛ فالظاهرة كالزنا وما يفعله البغايا، واللوط، كما قال لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:٥٤] فهم يأتون المنكر علانية وهم يبصرون، وهذا أعظم في الجرم والمنكر، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ الآية [العنكبوت:٢٩] فهم يفعلون ذلك في ناديهم وتجمعاتهم ومثل ذلك في عصرنا ما يعرض على وسائل الإعلام الفاسدة والفضائيات المنحلة من عرض هذه الأفعال من الزنا واللواط، وعرضها على ملايين البشر عبر تلك الوسائل باختلافها من قنوات، ومجلات فاضحة، ومواقع تواصل...

ومن يتلذذ بمشاهدة تلك الفواحش عنده نوعٌ من المرض يشبه مرض قوم لوط؛ لأنه يحب أن تفعل هذه الأمور علانية، ولا شكَّ أن نشر هذه المعاصي من أعظم الفساد في الأرض.

وتظهر للعشاق في كل مظهر ... من اللبس في أشكال حسن بديعة
ففي مرة لبنى وأخرى بثينه ... وآونة تدعى بعزة عزت

ومن طالع كتب مبتدعة الصوفية وجد أنواع الضلالات الفظيعة التي لا يقبلها عاقلٌ فضلًا عن مؤمن، وهي أشياء أقل ما يُقال عنها أنها مُخرِجة عن ملة الإسلام بالإجماع.

ويكون ما بَطَنَ من الفواحش: أي فعلها في السر وما كان من اتخاذ الأخدان سرًّا والخليلات والعشيقات، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ الآية [المائدة:٥]، وقال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾ الآية [النساء:٢٥]، فيكون النهي يعم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

- ومن العلماء من فسَّر الفواحش بأعمَّ من ذلك، فيُدخِل فيها كل منكر فاحش ظاهر، وما بطن تكون معاصي القلوب، كالكبر والعجب والغرور وحب الرئاسة على الناس، ونحوها.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْإِثْمَ ...﴾، الإثم: مِنهم مَن فسَّره بمطلق المعصية، فيكون هو ما دون الفاحشة، ومنهم من خصَّه بالخمر فإنها جماع الإثم، لكن هذا ليس بظاهر لأن الآيات مكية وإنما حُرِّمت الخمر في المدينة، فيكون الإثم هو مطلق المعاصي.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هو: التسلط والاعتداء على الناس من غير أن يكون ذلك على جهة القصاص والمماثلة.

والفرق بين الإثم والبغي: أن الإثم مُحرَّمٌ لذاته، وأمَّا البغي مُحرَّمٌ لوصفه وكيفيته وهو: مجاوزة العبد للحدود الشرعية في معاملة غيره.

لأن هناك عقابًا يُشرع على جهة القصاص، مثل القصاص من القاتل عمدًا وعدوانًا، فيُقتص منه، وهذا عقاب بحقٍّ، لكن لا يُتجاوز القتل إلى غيره أو يُمثل بجثته ونحو ذلك، وهذا محرم حتى مع الكفار، ولذلك نهى ربُّنا عَزَّوَجَلَّ نبيَّه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن المُثلة، ونهى النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن المثلة بعد أن عزم أن يمثل بالكفار لو ظفر بهم بعد أن مثَّل الكفار بأصحابه.

كما في حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا...**» الحديث(١).

وهذا هو الأصل عدم المثلة، وهو الأولى والأكمل ولو كان قصاصًا، لكن قد يستثنى من هذا النهي حالة كون المثلة على سبيل القصاص والمعاملة بالمثل، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما التمثيل في القتل فلا يجوز إلا على وجه القصاص، وقد قال عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما خطبنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطبة إلا أمرنا بالصدقة، ونهانا عن المُثْلَة»(٢)، حتى الكفار إذا قتلناهم فإنَّا لا نمثل بهم بعد القتل، ولا نجدع آذانهم وأنوفهم، ولا نبقر بطونهم إلا أن يكونوا فعلوا ذلك بنا فنفعل بهم مثل ما فعلوا، والترك أفضل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦]» اهـ(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أباح الله تعالى للمسلمين أن يمثِّلوا بالكفَّار إذا مثَّلوا بهم، وإن كانت المثلة منهيًّا عنها. فقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦] وهذا دليل على أن العقوبة بجدع الأنف وقطع الأذن، وبقر البطن ونحو ذلك هي عقوبة بالمثل ليست بعدوان، والمثل هو العدل» اهـ(٤).

---

(١) رواه مسلم (١٧٣١).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٤٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣١٤).

(٤) «عون المعبود مع حاشية ابن القيم على سنن أبي داود» (١٢/ ٢٧٨).

بل وحرمت الشريعة تعمد قتل نساء الكفار وأطفالهم إذا تميزوا، ولو فعلوا ذلك معنا لما جاز أن نفعل ذلك معهم، إلَّا أن تكون المرأة مقاتلة فإنها تقتل.

وإننا نجد أعداء الله عَزَّوَجَلَّ من اليهود، والنصارى، وغيرهم من المشركين عندهم كل هذه الأمور من الفواحش الظاهرة والباطنة، والإثم والبغي بغير الحق، وخصوصًا البغي بغير الحق، فإنه مِنْ أظهر صفاتهم وأوضحها، وإذا كان قَتْلُ إنسان مسلم بكافر نوع من البغي، فكيف بقتل المسلم بغير أن يكون قد ارتكب إثمًا، بل كيف يُقتل مئات وآلاف المسلمين؟!

۞ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ الآية.

هذا هو الشاهد الذي أورد لأجله شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ هذه الآية الكريمة، و﴿سُلْطَٰنًا...﴾ أي: ما لم ينزل به حجة.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (وحُرِّمَ أن تعبدوا مع الله غيره، وتتقربوا إليه بأي نوع من أنواع العبادات والقربات: كالدعاء، والنذر، والذبح، والخوف، والرجاء، ونحو ذلك مما يجب أن يخلص فيه العبد قلبه، ويسلم وجهه لله، وحُرِّمَ أن تتخذوا من دونه سبحانه أولياء يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به الله في عباداتهم ومعاملاتهم؛ كما فعل أهل الكتاب مع الأحبار والرهبان؛ حيث اتخذوهم أربابًا من دون الله في التشريع، فأحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، فاتبعوهم في ذلك)(١).

وكلام الشيخ محمد خليل هرَّاس كلامٌ حسنٌ في بيان من يجعلون مع الله عَزَّوَجَلَّ من يشرع من دونه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ويزعمون أنه من حقهم أن يختاروا ما يشاءون من شريعة الله أو يجرِّبوا ما شاءوا، فهؤلاء جعلوا الناس أحرارًا مع أوامر الله عَزَّوَجَلَّ وشريعته، وهذا من

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٣٦-١٣٧)

أعظم الشرك بالله سبحانه، ومن أكثره انتشارًا في زماننا، إذ جعلوا العبد في منزلة الرب يشرع لنفسه ما شاء، ويختار من شريعة الله عَزَّوَجَلَّ ما يشاء ويترك ما يشاء.

والأحبار والرهبان كان أهل الكتاب يعطونهم الحق في التبديل والتغيير في شرع الله، وهؤلاء الذين في زماننا شرٌّ منهم؛ لأنهم يأمرون بترك الشريعة جملةً وتنحيتها، وليس فقط مجرد التعديل والتغيير، وهذا لا يصدر من مسلم بحالٍ من الأحوال، ومَن يوافق على ذلك أو يصفق له ويرتضيه مع علمه فهذا من الخروج من الملة.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ**﴾.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما القول على الله بلا علم فهو باب واسع جدًّا يدخل فيه كل خبر عن الله بلا دليل ولا حجة؛ كنفي ما أثبته، أو إثبات ما نفاه، أو الإلحاد في آياته بالتحريف والتأويل.

قال العلَّامة ابنُ القيم في كتابه «إعلام الموقعين»: «وقد حرم الله القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء وجعله من أعظم المحرمات؛ بل جعله في المرتبة العليا منها؛ قال تعالى: ﴿ **قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ** ...﴾ الآية، فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها، وهو الفواحش، وثنَّى بما هو أشد تحريمًا منه، وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريمًا منهما، وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أعظم تحريمًا من ذلك كلِّه، وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعمُّ القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه) اهـ[1].

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧) ط. دار الهجرة.

والقول على الله عَزَّوَجَلَّ خطره عظيم؛ إذ إن الإنسان قد يرتكب إثمًا أو منكرًا يكون ضرره على نفسه، لكن القول على الله بغير علم يكون ضرره متعديًا؛ لأن الناس يلتزمون هذا القول الباطل لأنه منسوب إلى الشرع، وهذا يضل أممًا وربما أجيالًا تِلْو أجيال.

وإنَّ فئامًا من الكافرين في العالم من اليهود، والنصارى، وغيرهم، فسبب كونهم أنهم تناقلوا الكفر والضلال جيلًا بعد جيل، ويتلقَّى الأبناء من الآباء والأجداد دون تفكير مهما كانت تلك الاعتقادات متناقضة، ومهما كانت غير مقبولة بالمرة للعقل السليم، فضلًا أن يقاتلوا عليه، فهذا سببه الأول (القول على الله بغير علم والتقليد الأعمى).



١٨- إثبات استواء الله سبحانه على عرشه

وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ في سبعة مواضع؛ في سورة الأعراف قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال في سورة يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يونس:٣]، وقال في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الرعد:٢]، وقال في سورة طه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وقال في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩]، وقال في سورة آلم السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [السجدة:٤]، وقال في سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الحديد:٤].

هذه الآيات تدلُّ على علوِّ الله عَزَّوَجَلَّ على خلقه جميعًا؛ لأن العرش سقف لجميع المخلوقات، وهو عَزَّوَجَلَّ استوى أي: علا على عرشه.

قال البخاري في صحيحه: «باب: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ قال أبو العالية: استوى إلى السماء: ارتفع فسوَّى خلقهن، وقال مجاهد: استوى: علا على العرش»[(١)].

وهذه المسألة (إثبات صفة الاستواء على العرش، والعلو والفوقية لله عَزَّوَجَلَّ) من المسائل التي تُعَدُّ من النقاط الفاصلة بين أهل السنة وبين أهل البدع. وأهل البدع دائمًا ينكرون صفة الاستواء على العرش بحجة أن ذلك يلزم منه التحيز ويلزم منه أن يكون

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

مساويًا للعرش، أو أكبر منه فيكون جزءٌ منه خارج العرش أو أصغر منه، فيكون العرش أكبر من الله عَزَّوَجَلَّ، تعالى الله عن ذلك.

وهذا وقوع في التشبيه ابتداءً، وبالتالي نفي الاستواء، وهي كلها ظلمات بعضها فوق بعض، وأدَّى بهم ذلك أن يؤولوا الاستواء بالاستيلاء، فقالوا: استوى بمعنى استولى، واستدلوا بقول الشاعر (الأخطل):

استوى بشر على العراق … من غير سيف أو دم مهراق

وهذا شاعر نصراني، ليس بحجة في لغة العرب، وإذا ثَبَتَ البيت وصَحَّ الاستدلال به لكان هذا أحد معاني الاستواء التي فيها المنازعة، أمَّا الرب عَزَّوَجَلَّ فمَن ينازعه عرشه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حتى يُقال استوى بمعنى استولى؟!

وكلمة استوى لا تستعمل أبدًا في اللغة بهذا المعنى، والكلمة إذا تعدَّت بعلى لا تحتمل إلا معنى العلو والارتفاع والصعود، وإذا تعدَّت بإلى يكون معناها القصد، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ**... ﴾ [فصلت:١١] أي قصد إلى السماء، وإذا جاءت مجردة عن حروف الجر فيكون المعنى: اكتمل نضجه، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [القصص:١٤].

-ولذلك فسَّر السلف هذه الكلمة ﴿ **ٱسْتَوَىٰ عَلَى** ﴾ تفسيرات كلها متقاربة؛ وهي: العلو، والارتفاع، والصعود، ومن فسَّرها (استقرَّ) فليس من أئمة السلف وكلامه ليس بحجة، وكما قدَّمنا كانت هذه المسألة مفاصلة بين أهل السنة وأهل البدع، كما قال الإمام مالك رَحِمَهُٱللَّهُ: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[1].

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٤٤١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٠٨)، والذهبي وصحَّحه في «مختصر العلو» (١٤١).

فمن فسَّر الاستواء بالعلو على ما يليق بجلال الله عَزَّوَجَلَّ فاعلم أنه على طريقة السلف، ومن فسَّرها بالاستيلاء ونحوه من المعاني الباطلة فاعلم أنه من أهل البدع؛ لأنه ينفي ما وصف الله به نفسه من صفة العلو.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (هذه هي المواضع السبعة التي أخبر فيها سبحانه باستوائه على العرش، وكلها قطعية الثبوت؛ لأنها من كتاب الله، فلا يملك الجهمي المعطل لها ردًّا ولا إنكارًا، كما أنها صريحة في بابها، لا تحتمل تأويلًا، فإن لفظ: ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ في اللغة إذا عدي بـ(على) لا يمكن أن يفهم منه إلا العلو والارتفاع، ولهذا لم تخرج تفسيرات السلف لهذا اللفظ عن أربع عبارات؛ ذكرها العلَّامة ابن القيم في «النونية»؛ حيث قال:

فلهم عبارات عليها أربع	قد حصلت للفارس الطعان
وهي استقر وقد علا وكذلك ار	تفع الذي ما فيه من نكران
وكذاك قد صعد الذي هو رابع	وأبو عبيدة صاحب الشيباني
يختار هذا القول في تفسيره	أدرى من الجهمي بالقرآن

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر به سبحانه عن نفسه من أنه مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه بالكيفية التي يعلمها هو جل شأنه؛ كما قال مالك وغيره: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول».

وأمَّا ما يشغب به أهل التعطيل من إيراد اللوازم الفاسدة على تقرير الاستواء، فهي لا تلزمنا؛ لأننا لا نقول بأن فوقيته على العرش كفوقية المخلوق على المخلوق.

وأمَّا ما يحاولون به صرف هذه الآيات الصريحة عن ظواهرها بالتأويلات الفاسدة التي تدلُّ على حيرتهم واضطرابهم؛ كتفسيرهم: ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ بـ(استولى)، أو حملهم ﴿ عَلَى ﴾ على معنى (إلى)، و﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾؛ بمعنى: (قصد)... إلى آخر ما نقله عنهم حامل

لواء التجهم والتعطيل زاهد الكوثري[١]؛ فكلها تشغيب بالباطل، وتغيير في وجه الحق لا يغني عنهم في قليل ولا كثير.

وليت شعري! ماذا يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا؟!

أيريدون أن يقولوا: ليس في السماء رب يقصد، ولا فوق العرش إله يعبد؟!

فأين يكون إذن؟!

ولعلهم يضحكون منَّا حين نسأل عنه بـ(أين)! ونسوا أن أكمل الخلق وأعلمهم بربهم -صلوات الله عليه وسلامه- قد سأل عنه بـ(أين) حين قال للجارية: «**أين الله؟**» ورضي جوابها حين قالت: «في السماء»[٢].

وقد أجاب كذلك من سأله بـ: أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات الأرض؟ بأنه كان في عماء[٣]. الحديث.

ولم يُرو عنه أنه زجر السائل، ولا قال له: إنك غلطت في السؤال.

إن قصارى ما يقوله المتحذلق منهم في هذا الباب: إن الله تعالى كان ولا مكان، ثم خلق المكان، وهو الآن على ما كان قبل المكان.

فماذا يعني هذا المخرف بالمكان الذي كان الله ولم يكن؟!

هل يعني به تلك الأمكنة الوجودية التي هي داخل محيط العالم؟!

فهذه أمكنة حادثة، ونحن لا نقول بوجود الله في شيء منها؛ إذ لا يحصره ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

---

(١) محمد زاهد الكوثري جهمي المعتقد، حنفي المذهب الفقهي، حاقد على أهل السنة، كتبه تطفح بسبِّ أهل السنة وشتمهم، ت: (١٣٧١هـ).

(٢) رواه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

(٣) **ضعيف**: رواه الترمذي، ورواه أحمد في «المسند» (٤/ ١١)، وضعَّفه الألباني في «ظلال الجنة» برقم (٦١٢).

وأما إذا أراد بها المكان العدمي الذي هو خلاء محض لا وجود فيه؛ فهذا لا يقال: إنه لم يكن ثم خلق؛ إذ لا يتعلق به الخلق، فإنه أمر عدمي، فإذا قيل: إن الله في مكان بهذا المعنى؛ كما دلَّت عليه الآيات والأحاديث؛ فأي محذور في هذا؟!

بل الحق أن يقال: كان الله ولم يكن شيء قبله، ثم خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء، ثم استوى على العرش، وثم هنا للترتيب الزماني لا لمجرد العطف» اهـ[1].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٣٩-١٤٢).

١٩- إثبات علو الله وفوقيته سبحانه على خلقه

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك].

هذه جملة من الآيات الدالة على علو الله عَزَّوَجَلَّ وفوقيته، ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقب ذكره أن الله عَزَّوَجَلَّ استوى على العرش، وهذه إحدى المسائل التي يتميز فيها أهل السنة عن أهل البدع، وهي من أقدم المسائل التي خالف فيها أهل البدع من الجهمية والحلولية أهل السنة والجماعة؛ حيث زعم الحلولية أن الله عَزَّوَجَلَّ في كل مكان، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، وزعم الجهمية أنهم ينزهون الله عن صفة العلو بدعوى أن إثبات العلو يستلزم التحيز والجهة.

وقد دلَّت الأدلة المتكاثرة من الكتاب والسنة -كما يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر من ألف دليل[(١)]- على علو الله عَزَّوَجَلَّ على خلقه، وأنه بائن من خلقه أي: منفصل عنهم، لا يحل فيهم ولا يتحدون به، وليس هو وَهُم شيئًا واحدًا، ولِعِظَم أهمية هذه المسألة كثرت أدلتها، وهي أنواع كثيرة من الأدلة، وتحت كل نوع من الأدلة عشرات الأدلة، وربما أكثر أو أقل قليلًا، فمن هذه الأدلة: أسماؤه الحسنى الدالة على علوّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

(١) «إعلام الموقعين».

وفوقيته؛ كاسم (العلي)، و(الأعلى)، و(المتعال) و(الظاهر)، وكلها من أسمائه المتكررة في الكتاب العزيز.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ الآية [سبأ:٢٣]، ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى:١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ... ﴾ [الحديد:٣] وكل من هذه الأسماء وردت مرات متعددة، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٤٣].

بل هذا من الألفاظ المتواترة لدى المسلمين؛ يقولون: (الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ)، وهذا يدلُّ على أن كل المسلمين الصغار والكبار يعلمون أن الله متعالي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلفظة الفوقية والعلو ثابتة في أسمائه وأفعاله عَزَّوَجَلَّ.

- ومنها التصريح بالفوقية، وأنه سبحانه فوق العرش كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل:٥٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٨] فلفظة (فوق) استُعْمِلَت في الكتاب والسنة، ومن يتتبع لفظة (فوق) في الكتاب والسنة يجد عشرات الأدلة، ومنه قول أم المؤمنين زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**زَوَّجَكُنَّ أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات**»[(١)].

وقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسعد بن معاذ لَمَّا حكم بقتل بني قريظة قال: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله** -وفي لفظ: **بحكم الملك- من فوق سبع سماوات**»[(٢)].

وكذا قول عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن خولة بنت ثعلبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (رقم ٦٩٨٤) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

وأهل البدع يقولون: كلمة (فوق) لا تجوز في حق الله؛ لأنها تثبت الجهة كما زعموا، لكن القرآن صريح في إثبات الفوقية وأن الله عَزَّوَجَلَّ فوق عباده.

- وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء...**»[1] الحديث.

ومعنى في السماء: أي في العلو على (المصدرية)، أو فوق السماء وعليها على (الظرفية).

- ومن هذه الأدلة التصريح باستوائه على العرش في أكثر من موضع في كتابه.

- ومن هذه الأدلة التصريح أن بعض الأشياء عنده عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء] فكيف يصرح سبحانه بأن بعض الأشياء عنده، ولو كان هو في كل مكان -كما يزعم أهل البدع والإلحاد في صفاته- لما كان لذكر أن بعض الأشياء عنده معنى، مثل قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو عنده فوق العرش**»[2].

- وكذلك التصريح برفع الأشياء إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ منها رفع الأعمال كما في الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ...﴾، ومنها رفع عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومنها معراج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها عروج الملائكة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونزول الكتاب من عنده قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ...﴾ الآية [النحل:٢] وغير ذلك من الأدلة الدالة على إنزال الأشياء من عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومنها نزول الوحي من عنده سبحانه، ومنها تكذيب فرعون لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن ربَّه في السماء، وهذا إمَّا أن يكون تصريحًا من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ،

---

(١) رواه البخاري (٤٠٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٧٥١)؛ بتصرف يسير من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أو دليلًا على أن في فطرة البشر أن الله في السماء حتى وهم يُكذِّبون بوجود الله ويكفرون به، حيث لم يستطع فرعون أن ينكر هذه الضرورة التي هي في الحقيقة دليل على كذبه وخداعه للناس؛ لأنه لما سأل هامانَ أن يبني له صرحًا لعله يبلغ أسباب السماوات، فهذا دليل على أنه يبحث عن إله موسى في السماء، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨].

بل إنه في العصر الحديث صعد رائد الفضاء الروسي (جاجارين) وهو كافر شيوعي ملحد قال: «حين صعدت إلى الفضاء أخذتني روعة الكون فمضيت أبحث عن الله»(١)، وهذا الذي قاله دليل الفطرة على التوحيد والإيمان، فهل درس (جاجارين) عند أحد من أهل السنة أو منهج السلف أن الله في السماء، كلا! بل درس عبر نشأته الشيوعية الملحدة أن الله عَزَّوَجَلَّ إنما هو وهم وخيال، ودرَّسوا له أن الدين أفيون الشعوب، لكن ما الذي جعله يبحث عن الله؟! مع أنه ما صعد إليه ليس هو السماء حقيقة، لكن هذه المقولة منه دليل على شعور فطري في نفسه -شاء أم أبى- أن الإله في السماء.

وكما نقلنا كلام أهل العلم أن أدلة علو الله عَزَّوَجَلَّ وفوقيته أكثر من ألف دليل من الكتاب والسنة وكلها تثبت العقيدة الصحيحة التي هي عقيدة أهل الإسلام، وهي اعتقاد أن الله عَزَّوَجَلَّ فوق العرش، بائن من خلقه، بخلاف القائلين بوحدة الوجود، كذلك بخلاف القائلين بالحلول.

---

(١) موسوعة ويكبيديا.

والفرق بين الحلول والوحدة: أن الحلول إثبات ذاتين حلت إحداهما في الأخرى؛ يقولون كالملح في الماء، والسمن في اللبن، فقد حلَّ في جميع أجزائه. وأمَّا الاتحاد أو الوحدة فهي أشدُّ كفرًا؛ إذ لا يثبتون إلَّا ذاتًا واحدة، ولا يوجد انفصال بين ذاتين حدث بينهما اتحاد وامتزاج، وإنما هي ذات واحدة تتبدى في صور مختلفة. وهذا الاعتقاد الكفري شبيه تمامًا باعتقاد النصارى الكفري، واختلاف طوائفهم في طبيعة المسيح؛ فإن النصارى (الأرثوذكس) يقولون: إن المسيح في اعتقادهم شيء واحد، وطبيعة واحدة، ومشيئة واحدة، وليس جزءًا إلهيًّا حلَّ في بدن كائن بشري، بينما (الكاثوليك) و(البروتستانت) ومعظم نصارى الغرب يعتقدون أن روح الإله حلَّت في جسدٍ بشري، فإن القائلين بوحدة الوجود أشباه الأرثوذكس، ومن قال بالحلول فهم أشباه الكاثوليك.

وعقيدة وحدة الوجود من أخطر العقائد التي يقع فيها الزنادقة، يتسترون بستار الإسلام، والأقوال الكفرية التي صرحوا بها تمتلئ بها كتبهم، ومن تأمَّل كتابات ابن سبعين، وابن عربي، وابن الفارض الذين يصفهم أتباعهم بأنهم أكابر الأولياء، وبعضهم سمى نفسه خاتم الأولياء وهو (ابن عربي)، ومن وُصِفَ بأنه سلطان العاشقين، وهذه كلها ألقاب حسنة تضفي عليهم هالة من التعظيم والتقديس على الرغم من كلامهم المليء بالزندقة، والكفر، والردة على الإسلام.

وبعض المتأخرين قد أحسن الظن بهؤلاء المتقدمين الذين قالوا بالحلول والاتحاد، ويحاول تأويل الكلام ليوافق أهل الإسلام، لكن هذا حُسنُ ظَنٍّ في غير موضعه، وتأويل كلامهم الصريح غير مقبول بأي حال من الأحوال؛ إذ كيف يمكن تأويل هذا الكفر البواح، كقول أبي اليزيد البسطامي: سبحاني سبحاني ما أعظم شأني![(١)] وكلام ابن سبعين، وكذا ابن عربي وقوله: وما الكلب والخنزير إلا إله!

---

(١) «شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي (٢/ ١٤٢) ط. دار ابن كثير.

وقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُمَاٱللَّهُ هؤلاء القوم في ضرب من الجنون حين يقولون هذا الكلام الكفري المحض، فيقول شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم: إن هؤلاء القوم يصيبهم أحوال من شدة الفناء، تغيب فيها عقولهم فيخرجون هذه الخرافات أثناء هذه الأحوال، فيجعل شيخ الإسلام وابن القيم العذر لهم بسبب الجنون الذي حدث لهم.

نقول إن هذا هو الاحتمال الأوحد حتى لا يقال بكفرهم وهو أنهم مجانين، وحسابهم على الله يوم القيامة، لكن إذا كان الأمر كذلك وأنهم مجانين فلا يُقال عنهم إذًا أنهم أولياء صالحون، بل هؤلاء مبتلون، ابتلاهم الله عَزَّوَجَلَّ بالجنون، وحرمهم نعمة العقل وليسوا من أهل الولاية، كما يصور أهل الزندقة أن المجانين والمجاذيب في أعلى درجات الهداية، وهذا من أخبث الأشياء وأفسدها.

وتزداد أهمية معرفة عقيدة أهل السنة وأدلتها من الكتاب والسنة إذا انتشر في زمن من الأزمنة أهل النفاق، والزندقة، والبدع، والضلالات التي يحاول الكثيرون نشرها في الناس.

وإذا كان من يدافع عن ابن عربي ويصفه بأنه هو قمة العلم، وقمة الزهد والولاية ونحو ذلك ممن يتصدرون للناس، ويُقال عنهم أنهم أهل العلم وأهل الفتوى، ويحاولون تجديد شباب هذه المعتقدات، وبعثها من جديد من بطون الكتب، وتقديمها بجيل جديد من الشباب يعرضها في قالب الزهد، وزَعْمِ الفكر المستنير، والسماحة وإعمال العقل، وعدم الجمود، والتعايش، حتى يَقْبَلَ الناس ذلك الكلام، وحتى يتبعها الكبير والصغير؛ فلابدَّ من دحض هذه البدعة، ونشر الأدلة الدالة على علو الله وفوقيته.

ومن هذه الأدلة قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران:٥٥].

لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ مكر الكافرين من اليهود -عليهم لعائن الله المتتابعة- وبيان ما همّوا به من قتل المسيح عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لما ردُّوا حجته ومعجزاته ودعوته بالحق المصدق لما بين يديه من التوراة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:٥٤]، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ... ﴾ والشاهد منها قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ فقد رفع الله عَزَّوَجَلَّ نبيَّه عيسى إلى فوق، وهذا يدل على علو الله عَزَّوَجَلَّ وفوقيته.

فإن اليهود لَّما عزموا على صلب المسيح عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وكان مكرهم وتخطيطهم عن طريق الحاكم الروماني لبيت المقدس في ذلك الوقت، وقد كان لهم منزلة وكلام مسموع عنده، ودسُّوا إليه من يخوفه من المسيح عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وقد نجَّى الله نبيَّه عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ من بين أيديهم، إمَّا بأن يكون أحد الحواريين قد تطوع وأُلقي عليه شبه المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فأخذوه وصلبوه مكانه، وهذا أحد قولي العلماء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء:١٥٧]، **والقول الثاني**: أن الذي أُلقي عليه شبه المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ هو أحد الخائنين المُسمَّى (يهوذا الإسخريوطي) -أحد الذين صحبوا المسيح ثم خانه-، ودخل على المسيح ليدلَّهم على مكانه مع أصحابه، فأُلْقي شَبَه المسيح عليه، فأخذوه وصلبوه، فإن كل الحواريين قد انصرفوا عن المسيح عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في تلك الواقعة ولم يشاهد أحدٌ منهم واقعة الصلب.

والمسلمون والنصارى متفقون على رفع المسيح، والتصريح عند النصارى في لفظة الإنجيل أنه قال: (إني أصعد إلى إلهي وإلهكم)، والنص موجود حاليًا: إني أصعد إلى

أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم، ولفظ الأب هذا محرف ومبدل، وإلَّا لصاروا -أي النصارى والمسيح- بهذا المعنى شيئًا واحدًا لا فرق بين عموم النصارى وبين المسيح، بل المعنى الصحيح لهذه الكلمة هو بمعنى الراعي أو المربي، وليس بمعنى الوالد.

والنصارى يقولون: إن رفع المسيح كان بعد موته، فيزعمون أنه صُلِبَ يوم الخميس، وظل ميتًا ثلاثة أيام. وفي اعتقاد (الأرثوذكس) يعتقدون أن الرب ذاته قد مات ثلاثة أيام، ثم استيقظ من الأموات يوم الأحد.

- والحواريون لم يوجد أحد منهم قد رأى واقعة الصلب، وإنما يروونها مرسلة؛ لأنهم كلهم تفرقوا عن المسيح عندما جاء أعداؤه للقبض عليه، وهم رأوه بعد ذلك فظنُّوه قد مات وصُلِبَ على ما سمعوه من الواقعة.

والظاهر مما ينقلون أن المصلوب الذي ألقي عليه شبه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن راضيًا فيرجح ذلك أنه لم يكن من الحواريين الذين تطوعوا لفداء المسيح، بل هو عدو المسيح، أو خائن المسيح، فكما ذكروا أنه كان يصرخ على الصليب «إيلي إيلي لِمَ شبقتني» وهي عبارة آرامية تفسيرها: إلهي إلهي لماذا تركتني، وهذه الواقعة التي تنقلها الأناجيل الأربعة: متَّى، ويوحنا، ولوقا، ومرقص، ومعلوم أن اثنين منهم كانا من الحواريين وهما متَّى ويوحنا، والآخران لم يكونا من الحواريين أصلًا ولم يروا المسيح.

ثم إن الحواريين قد انفضوا عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفرُّوا بأنفسهم لحظة قدوم الرومان للقبض عليه، ولذلك قال كُتَّاب الأناجيل أنه صلب بين لصين، ووضعوا الشوك على رأسه ورقبته، ثم بعد ذلك رأوا المسيح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يوم الأحد، والحقيقة أن المسيح اختفى، ثم قابلهم، ثم صعد فأنقذه الله عَزَّ وَجَلَّ من بين يدي اليهود والرومان.

ومعلوم أن المسيح لو كان صُلِبَ كما يزعم النصارى، فلماذا كان يصرخ إذن، وهو الذي جاء لأجل الصلب والفداء كما يزعمون؟! وكيف ينقلون أنه استغاث وصرخ

مخاطبًا إلهه ويقول: لماذا تركتني! كيف يكون ذلك وفي اعتقادهم أن الإله هو الذي أرسله لكي يُصلب، ويُخَلِّص البشر من خطاياهم!! سبحانك هذا بهتان عظيم.

ثم إن المسيح لقى الحواريين بعد ذلك وقبل رفعه، ووصيته لهم كانت أنهم سوف يأتيهم النبي الموعود الذي صفته كثير الحمد فهو «أحمد» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه صعد فإنه يأتيهم هذا «البارقليط» ومعناه كثير الحمد وأنه سوف يعلمهم، وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤] فكان الكفر في بني إسرائيل على نوعين؛ **أحدها** الغلو في عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، **وثانيها** التكذيب به ومعاداته كما وقع من اليهود؛ أنهم عادوه، وكذَّبوه، وحاولوا قتله، وظنوا أنهم قتلوه؛ ولذلك قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فردَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ذلك قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧].

- ونفي الصلب لم يكن من أصل الاعتقاد إلَّا بعد نزول القرآن، فأصبح إثبات الصلب بعد نزول القرآن كفر، أمَّا قبل نزول القرآن فمن الممكن أن يعتقد الحواريون أن المسيح قد صُلِبَ، بل وكثير من النصارى قبل بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزول القرآن كانوا موحدين، وكانوا يعتقدون صلب المسيح، لكن لا يعتقدون ألوهيته، أو أنه ابن الله، بل مع اعتقادهم أنه مخلوق وأنه رسول الله.

وكانت الأكثرية من النصارى على التوحيد إلى زمن عقد مجمع نيقية الأول في القرن الرابع الميلادي، وكان هذا المجمع منعقدًا بسبب ما أثاره أحد كهنة الإسكندرية واسمه (آريوس) من تقرير أن المسيح مخلوق وليس إلهًا، وكان معه أكثر من سبعمائه من الأحبار والرهبان، وكانت القلة في هذا الوقت من تعتقد ألوهية المسيح.

لكن بعد هذا المجمع بدأت العقيدة النصرانية تتحول بإيعاز وأمر من حكام الرومان، فأصبحت الأكثرية تقول بألوهية المسيح، والقِلة هي التي تعتقد بأنه مخلوق،

وهؤلاء -بعد تلك المجامع الكفرية- جعلوهم مطرودين ملعونين ما داموا لم يقولوا بألوهية المسيح.

وصار الأمر بعد ذلك إلى فرض عقيدة التثليث، والشرك بقوة السلطان على كل الأمة المَسيحية، وتحولت دعوة التوحيد إلى الاضطهاد بعد أن كانت هي الدعوة المنتشرة، ولم يبقَ إلا القليل على التوحيد، كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلَّا بقايا من أهل الكتاب**»[١].

فكانت طائفة قليلة جدًّا باقية على توحيد الله عَزَّوَجَلَّ إلى زمن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، لكن ببعثته عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أَيَّدَ الله الطائفة المؤمنة المستضعفة المضطهدة، وانتشرت عقيدتها بإذن الله والتي هي عقيدة التوحيد والإيمان، وأنه لا إله إلَّا الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وهي التي قالها المسيح عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ صراحةً كما في إنجيل يوحنا أن المسيح عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ قال: «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته».

كذلك ما قرروه عندهم في إنجيل متَّى أن المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لَمَّا أخذه الشيطان في البرية ليجربه، فقال المسيح للشيطان: «اخسأ يا شيطان؛ لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» اهـ. وهذا صريح جدًّا فيما كان يدعو إليه المسيح من توحيد الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذه الدعوة إلى التوحيد وأن المسيح عبد الله ورسوله تأيدت ببعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهذا معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ** ﴾، ومعنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ** ﴾.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

فانتشرت عقيدة التوحيد بعد أن كان من يعتنقها يعيش في القفار والصحاري بسبب الاضطهاد من أهل الشرك والتثليث بعد أن دخل قسطنطين -الروماني الوثني- إلى النصرانية، ونَصَرَ عقيدة المثلثين، وأصبحت هي العقيدة المعتمدة رسميًّا.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ** ... ﴾ وهذا ظاهر جدًّا -بحمد الله-؛ فإن أهل التوحيد والإسلام دائمًا هم أصحاب الحجة الغالبة أمام اليهود والنصارى، وظهور الحجة والبيان ظاهر لكلِّ ذي عينين، وكذلك ظهور السيف والسنان بعموم الزمن والتاريخ، فإن أهل التوحيد لهم الغلبة لا سيما في الأماكن المقدسة لدى اليهود والنصارى.

والمسلمون في الأغلب الأعم هم المنتصرون من أول بعثة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى ما قبل مائتي عام حينما جاء الاحتلال الغربي لبلاد الإسلام، وجاءت الهزيمة العسكرية، وهذا في الحقيقة بسبب انتشار النفاق والمنافقين في أهل الإسلام.

- ومعنى ﴿ **مُتَوَفِّيكَ** ﴾ قد اختلف فيها العلماء هل أن الله أماته ثم رفعه، أم أنه رُفِعَ حيًّا؟ والظاهر من أدلة الكتاب والسنة ومن نقْل أهل الكتاب أنه رُفع حيًّا.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية...**»[١].

فهذا دليل أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينزل هو بنفسه، ولا يجمع الله عَزَّوَجَلَّ على نبيه موتتين، وفي الأحاديث الثابتة أن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يموت في الأرض ويصلي عليه المسلمون، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ** ﴾ [النساء:١٥٩] أي: قبل موت عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذلك أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبل موته يؤمن به اليهود والنصارى، ومن لا

---

(١) سبق تخريجه.

يؤمن به قتله المسيح كما ثبت في حديث النواس بن سمعان: «**فلا يحلُّ لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات ونفسه ينتهي حين ينتهي طرفه**»[١] الحديث.

ومعنى التوفي هنا هو القبض أي: أخذه الله عنده في السماوات وقبض إليه، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢].

وكما يُقال في اللغة: تَوفَّيتُ من فلان دينًا عليه، أي: أخذته منه وقبضته؛ لأن التوفي يستعمل في أكثر من استعمال، وليس بلازم أن التوفي يلزم منه الموت، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد لقي عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليلة المعراج في السماء الثانية[٢].

۞ وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ الآية [فاطر:١٠]، هذا من أدلة علو الله عَزَّوَجَلَّ على خلقه؛ فإنه عَزَّوَجَلَّ إليه صعود الأعمال، وصعود الكلم الطيب الذي يصدر من المؤمنين، فالملائكة تصعد بأعمال العباد، وتُفتح لهذه الأعمال أبواب السماء، وتُكتب عند الله عَزَّوَجَلَّ، والعمل الصالح يرفعه إليه، وهذا هو القول الأول في تفسير الآية.

والقول الثاني: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾؛ تكون الهاء عائدة على الكلم الطيب، فيكون الكلام معلقًا في قبوله على العمل الصالح، والأول أظهر.

وهذا مما يرشدنا إلى التعبد باسم الله عَزَّوَجَلَّ العلي، وصفة العلو له سبحانه، وذلك باستحضار صعود الأعمال إليه عَزَّوَجَلَّ، وهذا من أعظم أسباب الإخلاص؛ فإن العبد يرائي إذا استحضر مراقبة الناس لعمله، فيطلب رؤيتهم لصالح العمل، ويطلب سماعهم لأقواله الحسنة، وصفاته الجميلة، لكن إذا استحضر أن عمله معروض على الله

---

(١) رواه مسلم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كما في حديث المعراج الطويل. رواه البخاري (٣٦٧٤).

عَزَّوَجَلَّ يصعد كل يوم، وأن كلامه يصعد إليه عَزَّوَجَلَّ، واستحضر مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ له، اتجهت نفسه إلى أعلى، ولم يعد له تطلع إلى الأرض وإلى أسفل، فصار لقلبه هدفٌ يقصده، وربٌّ يعبده، وإلهٌ يتوجه إليه، بخلاف من لا يدري أين ربه، وهذا هو توحيد الألوهية الذي منبعه وأحد منافذ وصول العبودية للقلب أن يعلم العبد أن العمل يصعد إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يلتفت إلى الناس.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ [غافر:٣٦].

الصرح: هو البناء العالي، وقد عجز فرعون أن يأتي بحجة أمام سيدنا موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فأمر ببناء صرح ليشغل الناس به، وهو يعلم أنه كاذب في نفسه كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ الآية [النمل:١٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ عن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهو يخاطب فرعون: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] لكن فرعون يشغب، ويجادل بالباطل، ويتهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالكذب: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر:٣٧] مع أنه هو الكاذب.

ولكن هناك دليل فطري عند فرعون أن الله عَزَّوَجَلَّ فوق العرش، وأن موسى أخبره بذلك، ولهذا لم يتعجب من كلام فرعون، أو يستنكر، أو يستفسر كيف يقول فرعون ذلك أن الله فوق السماء.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ...﴾ هذه الآية الكريمة إمَّا تكون ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ مصدرية أي بمعنى: في العلو، وهذا هو الأظهر، وإمَّا تكون ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على الظرفية بمعنى: السماء المعهودة، وتكون ﴿فِي﴾ بمعنى فوق، كما قال عَزَّوَجَلَّ عن فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ...﴾ [طه:٧١] أي: فوقها، وكذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ [الأنعام:١١] أي فوق الأرض.

قال الشيخ هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (هذه الآيات جاءت مؤيدة لما دلَّت عليه الآيات السابقة من علوه تعالى وارتفاعه فوق العرش مباينًا للخلق، وناعية على المعطلة جحودهم وإنكارهم لذلك، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ففي الآية الأولى ينادي الله رسوله وكلمته عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنه متوفيه ورافعه إليه حين دبَّر اليهود قتله، والضمير في قوله: ﴿إِلَيَّ﴾ هو ضمير الرب جَلَّ شأنه، لا يحتمل غير ذلك، فتأويله بأن المراد: إلى محل رحمتي، أو مكان ملائكتي ... إلخ لا معنى له.

ومثل ذلك يقال أيضا في قوله سبحانه ردًّا على ما ادَّعاه اليهود من قتل عيسى وصلبه: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾.

وقد اختلف في المراد بالتوفي المذكور في الآية، فحمله بعضهم على الموت، والأكثرون على أن المراد به النوم، ولفظ المتوفى يستعمل فيه؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠].

ومنهم من زعم أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وأن التقدير: إني رافعك ومتوفيك؛ أي: مميتك بعد ذلك.

والحق أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رُفِعَ حيًّا، وأنه سينزل قرب قيام الساعة؛ لصحة الحديث بذلك.

وأما قوله سبحانه: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ فهو صريح أيضًا في صعود أقوال العباد وأعمالهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، يصعد بها الكرام الكاتبون كلَّ يومٍ عقب صلاة العصر، وعقب صلاة الفجر؛ كما جاء في الحديث: «**فيعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم -وهو**

أعلم- كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: يا ربنا! أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون»[١].

وأما قوله سبحانه حكاية عن فرعون: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ﴾ إلخ؛ فهو دليل على أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخبر فرعون الطاغية بأن إلهه في السماء، فأراد أن يتلمس الأسباب للوصول إليه تمويها على قومه، فأمر وزيره هامان أن يبني له الصرح، ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾؛ أي: موسى ﴿كَـٰذِبًا﴾ فيما أخبر به من كون إلهه في السماء، فَمَنْ إِذَنْ أشبه بفرعون وأقرب إليه نسبا؛ نحن أم هؤلاء المعطلة؟! إن فرعون كذَّب موسى في كون إلهه في السماء، وهو نفس ما يقوله هؤلاء.

قوله: ﴿ءَأَمِنتُم ...﴾ إلخ؛ هاتان الآيتان فيهما التصريح بأن الله عَزَّوَجَلَّ في السماء، ولا يجوز حمل ذلك على أن المراد به: العذاب، أو الأمر، أو الملك؛ كما يفعل المعطلة؛ لأنه قال: ﴿مَّن﴾، وهي للعاقل، وحملها على الملك إخراج اللفظ عن ظاهره بلا قرينة توجب ذلك.

ولا يجوز أن يُفهم من قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أن السماء ظرف له سبحانه؛ بل إن أريد بالسماء هذه المعروفة؛ فـ﴿فِي﴾ بمعنى على؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ...﴾، وإن أريد بها جهة العلو؛ فـ﴿فِي﴾ على حقيقتها؛ فإنه سبحانه في أعلى العلو) اهـ[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٠٨٨)، ومسلم (١٠٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٤٢-١٤٥).

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد:٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]، ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]، ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

۞ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ هذه الآية الكريمة يبين الله عَزَّوَجَلَّ فيها استواءه على عرشه، وعلوه على خلقه، ومع ذلك قربه ومعيته لخلقه جميعًا، وهي معية العلم والقدرة والإحاطة كما تدلُّ عليها ألفاظ الآية، وهو عَزَّوَجَلَّ يفعل ما يشاء؛ فقد خلق السماوات والأرض في ستة أيام المسماة بأيام الأسبوع المعهودة، أولها الأحد وآخرها الجمعة، وهو عَزَّوَجَلَّ أعلم كم كان طول هذه الأيام، وهو عَزَّوَجَلَّ له كمال القدرة ويقدِر سبحانه أن يخلقها في لحظة لكنه سبحانه يتصرف في خلقه كما يريد، والآية صريحة جدًّا في إثبات أن أفعال الرب سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ تقع وتكون في أزمنة معينة، إلا أن المتكلمين وأهل البدع هم الذين عميت عليهم هذه المسألة فأنكروا أفعال الرب عَزَّوَجَلَّ، وأنكروا أن تتعلق أفعاله بزمان أو أن يُقال فعل كذا في وقت كذا، ويجعلون ذلك مردودًا إلى مطلق الإرادة فقط، وهذا من الكلام الباطل، فلا شكَّ أن الله خلق أشياء بعد أشياء، وأن فعله عَزَّوَجَلَّ كان في زمن معين، ولا مانع من ذلك، فإنه

عَزَّوَجَلَّ خلق الزمان والمكان وخلق كلَّ شيء ثم هو سبحانه بمشيئته علَّق فعله على زمن معين، وهو عَزَّوَجَلَّ كان ولم يكن شيءٌ معه.

وكان يفعل ما يشاء سبحانه ثم ابتدأ الخلق في وقت معين، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن أول ما خلق الله القلم قال: اكتب! فقال: وما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد»**(١).

فالكون حادث ومخلوق بعد أن لم يكن شيئًا، وهذا يؤكد أن أفعال الرب سبحانه تكون حين يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو عَزَّوَجَلَّ يفعل ما يشاء إذا شاء، ويترك فعل ما شاء إذا ترك فعله، ولا يُقال عنه أنه فاعل بلا تعلق بالزمن؛ فإن الآية نصٌّ صريح في تعلق أفعال الرب بالزمن حيث قال: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ**...﴾ الآية.

- وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليم مع قدرته، وختم سبحانه خلق الكائنات بخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ آخر ساعة بعد العصر من يوم الجمعة، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وخُلِقَ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل»**(٢)، وأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال: ﴿**ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ**﴾ الآية.

- وصفة العلو ثابته له عَزَّوَجَلَّ أزلًا وأبدًا، وفعل الاستواء هو الذي تعلق بزمان معين، فبعد خلق السماوات والأرض استوى سبحانه على العرش أي: ارتفع، وهذا الاستواء فعل خصَّ الله عَزَّوَجَلَّ به العرش، وأمَّا العلو فوق سائر المخلوقات فهي صفته الأزلية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨٩)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٢٧)، وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ١١٧)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٢١٥٥)، والطيالسي (ص٧٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والاستواء يفسر بالارتفاع والصعود، وكلها تتضمن معنى العلو والظهور، وكما ورد في الأثر عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر»(١).

ومثله عن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(٢).

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا...﴾ الآية، يعلم سبحانه ما يدخل في الأرض من بذور نبات، ومن قطرات مطر تنزل في الأرض، وما يسقط في الأرض أو على الأرض مما في السماء من أشياء لا يحيط العباد بها علمًا، ويُنَزِّل ما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من السماوات إلى الأرض، ويعلم عَزَّوَجَلَّ ما يخرج من الأرض أيضًا من ماء ومن نبات، ومن كائنات تُخلق في الأرض ثم تصعد على ظهرها، أو تخرج منها بعد ذلك، ويعلم سبحانه ما ينزل من السماء من ملائكة، ومن مقادير الأمور، ومن قطرات مطر، ويعلم سبحانه عن كل قطرة مستقرها وأين تسير، وأين تُتْرك بعد ذلك، ويعلم سبحانه ما يصعد إلى السماء وما فيها من أعمال العباد، ومن عروج الملائكة، ومن عروج أرواح المؤمنين، وإذا صعدت أرواح الكافرين إلى السماء لا تفتح لها أبواب السماء، وأُهْوىَ بها من السماء الدنيا إلى الأرض كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ...﴾ [الأعراف: ٤٠].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ذكر سبحانه بعد هذا العلم المحيط معيَّته عَزَّوَجَلَّ، فدلَّ ذلك على إطلاق صفة المعية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهي معية علم وقدرة وإحاطة، وهي للخلق جميعًا، وهي خلاف معيته الخاصة بأوليائه سبحانه وهي معية التأييد والنصرة

---

(١) «العلو» للذهبي (١٤١)، و«مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٦٥).
(٢) رواه اللالكائي في «أصول الاعتقاد» (٣/ ٤٤١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٤٠٨).

والمحبة والإعانة، والسياق هو الذي يفرق بين نوعي المعية، والمعية لا تعني حلولًا ولا مماسة؛ فمن اعتقد أن الله يحلُّ في مخلوقاته كَفَرَ. وإذا كان النصارى قد كفروا لاعتقادهم أن الله يحلُّ في جسد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ فقط، فكيف من اعتقد الحلول في الكون كله؟!

ولفظ ﴿مَعَكُمْ﴾ يقتضي تغاير الذاتين وافتراقهما، وعدم اتحادهما، وعدم حلول إحداهما في الأخرى، ولذلك لا يُتَوَهَّمُ من المعية الحلول والاتحاد إلا جاهلٌ باللغة، وضالٌّ في الاعتقاد، ولذلك لا يقال إن هذه الآية تحتاج إلى تأويل، وأيضًا لا يجوز أن يقال لابدَّ من تأويلها بالعلم؛ فإن العلم من لوازمها ومقتضياتها، لكن ليست المعية هي صفة العلم، وإنما المعية بالسمع والبصر والعلم والإحاطة والقدرة، والآية ظاهرة في ذلك، فإنه سبحانه بدأ الآية بالعلم وختمها بالبصر وهذا لا يُختص به المؤمنون؛ بل المؤمن والكافر في ذلك سواء، بخلاف المعية الخاصة بالمؤمنين.

ومن قال من السلف إنها العلم لا يعني بذلك أنها صفة العلم، لكن هي معية فيها العلم بلا شكَّ، والمعية معنى يقتضي المراقبة، والعلم التفصيلي، والرؤية، والسمع، وهي معية حقيقية لا تحتاج إلى تأويل.

يقول الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية»: (تضمنت هذه الآية الكريمة إثبات صفة المعية له عَزَّوَجَلَّ، وهي على نوعين؛ معية عامة: شاملة لجميع المخلوقات، فهو سبحانه مع كل شيء بعلمه، وقدرته، وقهره، وإحاطته، لا يغيب عنه شيء، ولا يعجزه، وهذه المعية المذكورة في الآية.

ففي هذه الآية يخبر عن نفسه سبحانه بأنه هو وحده الذي خلق السموات والأرض -يعني: أوجدهما على تقدير، وترتيب سابق في مدة ستة أيام-، ثم علا بعد ذلك وارتفع على عرشه؛ لتدبير أمور خلقه. وهو مع كونه فوق عرشه لا يغيب عنه شيء من العالمين العلوي والسفلي؛ فهو ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾؛ أي: يَدْخُل ﴿ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ

﴿ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ﴾؛ أي: يصعد ﴿فِيهَا﴾، ولا شكَّ أن من كان علمه وقدرته محيطين بجميع الأشياء؛ فهو مع كل شيء، ولذلك قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾) اهـ[1].

۞ وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ...﴾ [المجادلة:٧].

النجوى: هي الكلام في السر، والمعنى: أي لا فرق عنده سبحانه بين السر والعلن، والخفاء والجهر.

وقوله: ﴿وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ﴾ دليل على أنه لو كان يحلُّ فيهم لما كانوا أربعة ولا خمسة، بل يصبحون شيئًا واحدًا، فالآية نصٌّ قاطعٌ في بيان أن المعية لا تستلزم المعاني الباطلة من الحلول والاتحاد، والقول بوحدة الوجود.

قال الشيخ خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (يثبت سبحانه شمول علمه وإحاطته بجميع الأشياء، وأنه لا يخفى عليه نجوى المتناجين، وأنه شهيد على الأشياء كلها، مطلع عليها.

وإضافة ﴿نَّجۡوَىٰ﴾ إلى ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، والتقدير: ما يكون من ثلاثة نجوى؛ أي: متناجين) اهـ[2].

وهذا يقتضي من العبد المؤمن استشعار معية الله عَزَّوَجَلَّ في كل لحظة وفي كل مكان، فيثمر مراقبة الله أعظم المراقبة، وإذا استحضر العبد سماع الله عَزَّوَجَلَّ لأقواله، وأفعاله، وأنه سوف يحاسبه على ذلك أثمر ذلك تقوى الله عَزَّوَجَلَّ في السر والعلن.

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٤٦) ط. دار الهجرة.

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٤٦) ط. دار الهجرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإذا شهدتَ إحاطته بالعوالم، وقرب العبيد منه، وظهور البواطن له، وبدوَّ السرائر، وأنه لا شيء بينه وبينها؛ فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهر له سريرتك فإنها عنده علانية، وأصلح له غيبك فإنه عنده شهادة، وزكِّ له باطنك فإنه عنده ظاهر) اهـ[1].

۞ وقوله تعالى: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

بعد أن ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآيات الدالة على معية الله عَزَّوَجَلَّ العامة لجميع خلقه، ذكر الآيات الدالة على معية الله عَزَّوَجَلَّ الخاصة، وهي معيته لرسله وأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، والمحبة، والتوفيق، والإلهام.

۞ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠] وهذه الآية الكريمة تبين قول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر وهما في الغار: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وفيه تعليلُ لماذا لا تحزن! لأن الله معنا، فلا تيأس من نصرة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه معنا سبحانه بتأييده ومحبته ونصرته، فهذه معية خاصة لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ولصاحبه، وهذه أعظم فضيلة لأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ؛ لأن معية الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وله معية خاصة لم يشاركه فيها غيره من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، واستدلَّ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ على أحقية أبي بكر بالخلافة بهذه الآية: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ

(١) «طريق الهجرتين» (ص٤٦).

﴿يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ...﴾ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما...»**[(١)].

فإن الله عَزَّوَجَلَّ ثالثهما في النصر، والتأييد، وترجيح كفتهم، وهكذا استحضار معية الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم أسباب التوكل وعدم حصول الحزن واليأس، ومن أعظم أسباب انتظار الفرج الذي هو عبادة من العبادات، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ حكايةً عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢].

وفرقٌ بين أصحاب موسى وبين أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنهم لم يكن عندهم من التوكل ما كان عند أبي بكر، لأنهم جزموا وقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، ورغم انزعاج أبي بكر لكن كان أعظم توكلًا منهم، فإنه علَّق الكلام فقال: «لو نظر أحدهم تحت قدمية لرآنا...»[(٢)]، لكن بني إسرائيل جزموا أنهم مدركون على الرغم أن المسافة كانت بين المشركين وبين أبي بكر أقل بكثير من المسافة بين بني إسرائيل وفرعون؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١] و﴿تَرَٰٓءَا﴾ توحي بالمسافة التي ليست بالقليلة، وعلى الرغم من ذلك جزم بنو إسرائيل أنهم مدركون، لَكِنَّ أبا بكر على الرغم من قلة المسافة علَّق الأمر أن يبصره المشركون، فطمأنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر له معية الله عَزَّوَجَلَّ، ولا شكَّ أن توكل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم من توكل أبي بكر، ومثال ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقف على قمة الجبل، وأبو بكر يقف عند سفحه، وباقي الناس بالنسبة لأبي بكر فإنهم تحت الأرض، وكفى أبا بكر شرفًا أن يقول له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٨٦٦)، ومسلم (٢٣٨١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجُه.

والآية فيها الفضيلة العظمى للنبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيان مدى توكله على الله، ولا شكَّ أن ساعة الهجرة وما حدث فيها كانت لحظة نصر عظيمة، وكانت نقطة تحول من الاستضعاف إلى التمكين، وبداية الانطلاق الهائل إلى الجهاد وتأسيس دولة الإسلام، وتغيير كل شيء على وجه الأرض، ولذلك جعلها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ توقيتًا لأهل الإسلام.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦] هذا في ردِّه عَزَّوَجَلَّ على موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في قوله عَزَّوَجَلَّ عنهما: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه] فهو عَزَّوَجَلَّ يسمع ويرى ما يقولان، وما يقول لهما فرعون، ويرى ما يفعلان، وما يفعله معهم فرعون وجنوده، وهو عَزَّوَجَلَّ مع موسى وهارون بالنصرة والتأييد، وهذا خطاب لموسى ألَّا يخاف من بطش فرعون بهما؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ معهما بنصره وتأييده وحفظه وإحاطته، واستحضار ذلك يذهب الخوف من القلوب، ويملؤها بالتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨].

إن الله مع المؤمنين المتقين ينصرهم، ويؤيدهم على عدوهم، فمن أراد معية الله ونصرته فعليه بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، والإحسان فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين الناس.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦] بيان لفضيلة الصبر وترغيب فيه بأن الله عَزَّوَجَلَّ مع الصابرين، والصبر: هو حبس النفس على ما تكره، والصبر يكون على طاعة الله، ويكون عن معصية الله، ويكون على أقدار الله المؤلمة، وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ عباده بالصبر، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

۞ وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٩] هذا ما يجعل المؤمنين الذين يظنون ويوقنون أنهم ملاقوا

الله لا يعبأون بقوة العدو؛ لأنهم استحضروا معية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن استحضر معية الله عَزَّ وَجَلَّ ذهب عنه خوف العدو، وذهبت عنه الموازين الأرضية والمقاييس الدنيوية التي تجزم بهزيمة الفئة القليلة أمام الفئة الكثيرة، بل يقع خلاف ما ظنه الناس، وتتمكن الفئة القليلة من غلبة الفئة الكثيرة بإذن الله وإعانته وتوفيقه؛ لأنهم صبروا وفازوا بمعية الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا الصبر يكون بالله استعانة، ويكون لله إخلاصًا، ويكون مع الله أي: دائرًا مع أوامر الله عَزَّ وَجَلَّ.



٢١- إثبات صفة الكلام لله سبحانه وأن القرآن كلام الله سبحانه

وقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١١٦]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء:١٠]، وقوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف:٢٢]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح:١٥]، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف:٢٧]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل].

ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآيات الكريمة الدالة على إثبات صفة الكلام لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأنه عَزَّوَجَلَّ يقول ويتكلم بكلام هو صفته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن كلامه عَزَّوَجَلَّ متى شاء، وأكَّد تكليمه لنبيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وجاء التصريح بندائه عَزَّوَجَلَّ له، والنداء كلامٌ بصوت يُسمَع، وهذا كله يتضمن عقيدة أهل السنة والجماعة.

وخلاصة معتقدهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يزل متكلمًا إذا شاء بكلام هو صفته غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأنه عَزَّوَجَلَّ يتكلم بحرف وصوت يُسمعه من شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن القرآن غير مخلوق، وكل جملة في هذا الاعتقاد عليها دليل من الكتاب والسنة، ويفارق فيها أهل البدع.

ومسألة كلام الله هي أوسع مسألة حدث فيها نزاع بين الفرق المنحرفة وبعضها البعض وبين أهل السنة، وهناك علامات مميزة تميز منهج أهل السنة، كمسألة العلو والاستواء، وكذلك مسألة الكلام، ومسألة رؤية الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة، فهذه مسائل مشهورة مَثَّلَتْ عبر التاريخ الافتراق بين أهل السنة وأهل البدع، وأشدها مسألة القول بخلق القرآن.

والمحنة التي حدثت في زمن المأمون الخليفة العباسي لما فَتَنَهُ المعتزلة، وخدعوه بزخرف قولهم، وأقنعوه بأن يفتن الناس، ويمتحنهم على العقيدة التي اخترعوها وابتدعوها من أن القرآن مخلوق، وأن القرآن ليس كلامًا لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه ليس صفة من صفاته.

وابتُلي بذلك الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ حتى كاد أن يُقتل، ثم هلك المأمون قبل أن يصل إليه الإمام أحمد، وأخذ الأمر من بعده ابنه المعتصم، وظلَّ الإمام أحمد محبوسًا مقيدًا لشدة وصية المأمون للمعتصم أن يلتزم هذا الأمر، ويقرب إليه ابن أبي دؤاد المعتزلي الضال.

ولم يكن للمعتصم غرض، ولم يكن معنيًّا بعلم الكلام والفلسفة مثل المأمون الذي كان مغرمًا بذلك، وأمر بترجمة كتب الفلاسفة الأوائل إلى العربية، فأدخل على المسلمين شرًّا لا يزال أثره موجودًا إلى يومنا هذا من جرَّاء هذه الفرقة الضالة -المعتزلة- التي سيطرت على القضاء، والإفتاء، وتعليم الناس في هذا الوقت.

فقام المعتصم بضرب الإمام أحمد حتى أغشى عليه مرات، ثم سُجن زيادة على سنتين لأنه يأبى أن يقول إن القرآن مخلوق، وظل ثابتًا على الحق وأن القرآن كلام الله ويقول لأتباعه سرًّا أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ثم خرج من السجن، وبقى ممنوعًا من الكلام والتحديث إلى أن زالت الفتنة بحمد الله عَزَّوَجَلَّ، فكانت هذه الفتنة من أخطر الفتن، وهي حقيقتها الكفر؛ لأنها إنكار صفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ وتكذيب لجملة من الأدلة.

وعقيدة أهل السنة كما ذكرنا أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يزل متكلمًا، ومعنى لم يزل متكلمًا أي أن صفة الكلام صفة أزلية له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وليس أنه عَزَّوَجَلَّ يوصف بالكلام بعد كلامه، بل هو متكلم سبحانه أزلًا، فإن صفاته عَزَّوَجَلَّ الذاتية والفعلية ثابتة له أزلًا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا ردٌّ على طائفة (الكرَّامية) الذين يقولون إن الله عَزَّوَجَلَّ لم يكن متكلمًا ثم صار متكلمًا، ويسمون الصفة صفة حادثة، وهذا كلام باطل؛ لأن صفات الله عَزَّوَجَلَّ لم يزل عَزَّوَجَلَّ متصفًا بها، وهي حادثة الأفراد، فيُقال إنها قديمة النوع حادثة الأفراد.

ومعنى حادثة الأفراد: أن آحاد الكلام يكون في وقت معين كما يدلُّ عليه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ** ﴾ الآية، دلَّت الآية أن الكلام كان حين جاء موسى لميقات ربه، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ** ﴾ [القصص:٣٠]، قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ** ﴾ [المائدة:١٠٩]، وكذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ**

ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة:١١٦]، وهذا إنما يكون يوم القيامة، ﴿ وَإِذْ ﴾ بمعنى: حين، أو: اذكر حين.

وكما ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدث الأخبار بالله...»[١].

والقرآن مُحْدَث ليس بمعنى مخلوق، وإنما بمعنى محدث إلينا، تكلم الله به آخر ما تكلم من الكتب المنزلة.

وفي قوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء:٢] من أقوال السلف في ذلك؛ أنه محدث إلينا، وليس بمحدث عنده، وفسَّر البعض ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ أنه وحي آخر غير القرآن أي: السنة، وهو قول الإمام أحمد في كتاب «الرد على الزنادقة والجهمية». وأصح الأقوال أنه القرآن، وأنه مُحْدَث أي: وقع الكلام به في زمن معين، كما قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه في كتاب التوحيد: «باب قول الله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن:٢٩]، و﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء:٢]، وقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق:١]، وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١]» وقال ابن مسعود عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله يحدث من أمره ما يشاء وإن ممَّا أحدث أن لا تتكلموا في الصلاة**»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٢٥٣٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد.

ومعنى حدث الرب أي: فعله في وقت معين حين شاء، وكلمة (ما يشاء) فيها رد على الأشاعرة والكُلَّابية الذين ينكرون أن الله يتكلم بمشيئته، ويقولون عن صفة الكلام: إنه كلام نفسي قديم، أي بغير حرف ولا صوت.

وهم في ذلك قاسوا على الكلام عند البشر، وأن الإنسان قبل أن يتكلم يرتب الكلام في نفسه من غير أن يتحرَّك به اللسان، أي إرادة الكلام في النفس دون أن يَخْرُج صوت ولا يترتب حرف، وزعموا أن الكلام في حق الله لا حرف ولا صوت -على طريقتهم- لأن إثبات الحرف والصوت يقتضي التشبيه على زعمهم، فلابدَّ من التأويل، وبناءً على تأويلهم الباطل قالوا إن كلمات القرآن هذه حكاية عن كلام الله، أو تعبير عن كلام الله، وليست كلمات الله حقيقة، وإنما مثل ما يشبه ترجمة اللغات في عصرنا، وعلى ذلك فعندهم ﴿الٓمٓ﴾ حروف مخلوقة، و﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حروف مخلوقة، و﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ مخلوقة.

- وأصل هذا المذهب البدعي هم (الكُلَّابية) أتباع عبد الله بن سعيد بن كلَّاب وهو من أساتذة أبي الحسن الأشعري، وإن كان أبو الحسن الأشعري قد رجع عن هذا المذهب في آخر عمره، وكان أبو الحسن معتزليًّا ثم رجع عنه، واعتقد مذهب أهل السنة، وفي مرحلة متوسطة بين المرحلتين تأثر بالاعتزال، فتوسط فأثبت أن القرآن كلام الله غير مخلوق لكن كلام نفسي، ورغم رجوعه عن هذا إلا أن الأتباع ظلوا على ما كان منه في مرحلة التوسط هذه.

- والدليل على أن كلام الله عَزَّوَجَلَّ بحرف، قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ الآية، إذن فالمسموع هو كلام الله، ومن يسمع من البشر يسمع حروفًا، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

ولا شكَّ أن القارئ صوته، ولسانه، وحنجرته، وحلقه، وكل هذا مخلوق، لكن كلام الله ذاته ليس مخلوقًا، وحروفه ليست مخلوقة، ولا يُقال حكاية عن كلام الله، وإثبات الحروف بالنص الشرعي الثابت، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف...**»(١).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن القرآن: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] فإنما وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بأنه كلام عربي، وهذا يدلُّ على أن الحروف مرتبة كلامًا، وهذا ما ذكره الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليست كلامًا نفسيًّا كما يزعم الكلابية والأشاعرة.

وهم ينكرون الكلام بصوت زعمًا أن الصوت يقتضي التجسيم، وذلك كما قالوا: إن ضحك الرب، ورضاه، ورحمته، واستواءه على عرشه كل هذا تجسيم وتشبيه، وهذا كلام باطل بلا شكَّ؛ لأن إثبات الصفات يكون على ما يليق بالله عَزَّوَجَلَّ ولا يلزم منه التشبيه، والقاعدة في ذلك: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

- وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دلَّ ذلك على إثبات الكلام والنداء بصوت، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث بعث النار الذي رواه أبو سعيد الخدري عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقول الله يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك! فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار...**»(٢)، وعن عبد الله بن أنيس عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلًا بهمًا بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديَّان**»(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٩١٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري (٤٧٤١).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٤٩٥)، والطبراني في «الأوسط» (٨/ ٢٦٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٤)، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنة» من حديث عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكل هذه النصوص في أن الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم بصوت، وصوته عَزَّوَجَلَّ لا يشبه صوت المخلوقين، ولهذا كانت عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم بحرف وصوت، وكلامه عَزَّوَجَلَّ إذا شاء، وأن كلامه عَزَّوَجَلَّ غير مخلوق وليس كلامًا نفسيًا، وليس كما يقول الكلابية والأشاعرة، بل كلامه عَزَّوَجَلَّ صفة أزلية النوع حادثة الأعيان، وليس كما يقول طائفة (السالمية) أحد فرق الأشاعرة: (إن الصفة أزلية ذاتية ليست معلقة على المشيئة) ليجمعوا بين كلام ابن كلَّاب وبين أهل السنة فتكون مثل صفة الحياة ليست معلقة على المشيئة، وبذلك نفوا وقوع الحرف والصوت حقيقة، ولا شكَّ في ردِّ ذلك؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أثبت لنفسه الخلق والأمر، وأفرد كلًّا منهما بلفظ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ**﴾ [الأعراف:٥٤] فتبين بذلك أن الخلق غير الأمر، وكذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ...**﴾.

وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من نزل منزلًا ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك...**»(١).

والاستعاذة تكون بصفات الله وإلَّا كانت شركًا، فدلَّ هذا الحديث أن كلمات الله عَزَّوَجَلَّ صفاته وليست مخلوقة، وهذا من أدلة أن القرآن كلام الله غير مخلوق.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا**﴾ أي: لا أصدق من الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أصدق من تكلم، فكلامه كله صدق وحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞ ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا**﴾ أي: قولًا، وهي تُفسر ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا**﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨).

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ...﴾ الآية. كلام الله في شأن معين يدلُّ على عظم هذا الشأن، وهذا للرد على الكافرين الذين يعبدون المسيح، فخاطب عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مباشرة للدلالة على عظم شأن هذه المسألة.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦].

فهذا يقوله الله عَزَّوَجَلَّ تبرئة لعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتبكيتًا للكافرين، وأنهم ليسوا من المسيح، وليس المسيح منهم، وهذا الكلام والقول إنما يكون يوم القيامة، وهو موصوف به عَزَّوَجَلَّ، وكذلك كل صفاته سبحانه الفعلية هو متصف بها أزلًا وإن كان يفعلها في وقت معين، فهو عَزَّوَجَلَّ خالق قبل أن يخلق الخلق، وإنما خلق عندما أراد سبحانه.

فيكون رد عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أول ما يبدأ بالتسبيح: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾، ينزه الله عَزَّوَجَلَّ فهو سبحانه منزّه عن ذلك الشرك، ومنزه أن يرسل رسولًا ثم يخالف الرسولُ ويقول اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، لأنه سبحانه حكيم يضع الأشياء في مواضعها، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩].

ثم قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦].

فإن نبيَّ الله عيسى لم يأمرهم إلا بتوحيد الله وعبادته سبحانه لا شريك له، بل حتى الأناجيل التي بين أيدي النصارى فإن ما يُنسب فيها للمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه من كلامه لا

يوجد أبدًا أي كلمة فيها أنه ادَّعى الألوهية، أو أمر أن يتخذوه إلهًا من دون الله عَزَّوَجَلَّ أو مع الله، وهذا حتى بعد تحريفهم للكتب.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ...﴾ أي: بلغت الغاية في الصدق والعدل؛ فإن كلماته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كلها صدق، وأوامره ونواهيه كلها عدل، فلا يوجد أصدق من كلامه سبحانه، ولا أعدل من كلامه سبحانه، ولذا لا يمكن أبدًا أن يكون العدل في غير شريعته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن ادَّعى أو اعتقد ذلك كَفَرَ.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥] فإن كلام الله يظل هو كلام الله لا يُبدَّل عنده ولا يُغير، لكن قد يقع من الجاهلين والكافرين أن يظنوا أن شيئًا من كلام الله وهو ليس كذلك، كما وقع من أهل الكتاب من تحريف كتب الله المنزلة، فأَوْهَمَ الأحبارُ والرهبانُ أتباعَهم الجُهَّالَ أن ما حرفوه هو من كلام الله، لكن كلام الله حقيقة ليس فيه تبديل.

۞ وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ التكليم هنا تأكيد للفعل، وجاء هنا الفعل والمصدر، وهذا تشريف لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

۞ وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ...﴾ فهذا فعل الله عَزَّوَجَلَّ وكلامه لنبيه موسى. وأهل البدع من معطلة الصفات جعلوا الفعل من موسى، أي: وكلم اللهَ موسى فيكون موسى فاعلًا والكلام منه، ولفظ الجلالة مفعولًا به، لكن هذا مردود بصريح القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فهذه لا تحتمل تحريفًا، وتدلُّ على أن الكلام من الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه قد وقع في وقت محدد، إذ إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ ...﴾ فأفادت أن الكلام قد وقع لما جاء موسى للميقات المحدد، وهو سبحانه موصوف أزلًا أنه كلَّم موسى وموجود في اللوح المحفوظ أن الله كلَّم موسى، كما دلَّ على ذلك حديث اختصام آدم

وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عن أبي هريرة قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقرَّبك نجيًّا، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أُخلق؟ قال موسى: بأربعين عامًا، قال آدم: فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى؟ قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملت عملًا كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟! قال رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فحج آدمُ موسى**»[1]، وكما أن القرآن الكريم كلام الله موجود في اللوح المحفوظ فإن كلام الله عَزَّوَجَلَّ متصف به سبحانه أزلًا، لكنَّ وقتَ الكلام كان لما جاء موسى لميقات ربه.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أي: سمع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الكلام من ناحية وادي الطور الذي بجوار جبل الطور، والأيمن بالنسبة إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي الآية الأخرى ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص:٤٤] و(جانب الغربي) أي: جانب جبل الطور.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ من المناجاة، أي: ليناجيه الله ويكلمه، ويسمع موسى كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ويطلب موسى منه ويدعوه ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه] فكانت مناجاة بين الله عَزَّوَجَلَّ وبين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقط بلا واسطة، وهذا شرف عظيم لسيدنا موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومن أشرف صفاته.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٢).

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء:١٠]، معنى ﴿ وَإِذْ ﴾ أي: اذكر حين، فهي صريحة في إثبات أن كلام الله له حين وله وقت، لا كما يزعم الأشاعرة، والسالمية، والكُلَّابية أن الكلام ليس له شأن بالزمن.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢]، أي: نادى سبحانه آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ حين وقعت الخطيئة وأكلا من الشجرة التي نُهيا عنها، وهذا النداء كان في وقت معين.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص:٦٢].

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٦٥] وهذا النداء يكون يوم القيامة، فينادي الله عَزَّوَجَلَّ الناس فيقول: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وهذا تبكيت للكفار وتكريم للمؤمنين.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٦]، دليل على أن القرآن كلام الله صراحة، وليس حكاية أو تعبيرًا، فالصوت صوت القارئ، والقرآن كلام الباري سبحانه عَزَّوَجَلَّ، والصوت واللسان والشفتان والحلق مخلوقون، وكذا الورق والحبر في المصاحف مخلوق، وأما الكلام الذي كُتِب في الكتاب فليس بمخلوق.

۞ وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ هذه الآية الكريمة المقصود بها اليهود -عليهم لعائن الله- والآية لها تفسيران؛ الأول: أن اليهود يسمعون التوراة ثم يحرفونها من بعد ما عقلوها، والقول الثاني في تفسيرها: أنهم يسمعون القرآن ثم يحرفون معانيه، لأنهم عاجزون أن يحرفوا ألفاظه، والظاهر الأول أن المقصود بذلك التوراة.

وهذا دليل على أن التوراة التي أنزلها الله كانت فيها كلام الله الذي تكلم الله به، ومن هنا نعرف أن الكتب السماوية ومنها التوراة التي جاء بها موسى كانت متضمنة لكلام الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك الإنجيل الذي نزل من عند الله تكلم به المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وليس هو الذي بأيدي النصارى اليوم، فإن الذي بين أيديهم اليوم هو كلام الحواريين عن المسيح، وكثير منها محرف، ويوجد فيها جزء من الحق، وكذا التوراة فيها بقية من حق لكنها حرفت.

وأهل الكتاب حرفوا بكل أنواع التحريف في الكتب المنزلة، فعندهم تحريف الكتابة، وتحريف اللسان، وتحريف المعاني.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٧٩] الآية، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٩] أي وهم يعلمون حقيقة ما أنزل الله وأنهم بدلوا.

۞ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا...﴾ هذه الآية الكريمة نزلت في المنافقين، فهم غايتهم التبديل وعدم إنفاذ كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة:٨٣] وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ...﴾ [الفتح:١٥] أي: لن تخرجوا معنا، وهذا كلام الله.

۞ وقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ...﴾ فإن القرآن وحي من عند الله، وهو كتاب الله المتضمن كلامه قبل أن يكتب، ولا تبديل له، وهو محفوظ بلا تبديل نهائيًا.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فالقرآن من عند الله، ويخبر بني إسرائيل عن أكثر ما اختلفوا فيه من الوقائع.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ الآية، ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الحشر:٢١] أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه في غاية الإتقان والإحكام.

۞ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل].

فكيف يُقال إن مَنْ جاء بهذا القرآن المعجز في فصاحته، وبلاغته، ومعانيه التامة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أُرْسِلَ أنه يتعلم من رجل أعجمي؟! بل لا يقول هذا مَنْ عِندَه ذرة من العقل، بل لا يشك عاقل في أن هذا القرآن غير مُتَرْجَم عن أي شيء آخر وقد رأى الناس ما هو حال المتَرْجَم، حيث إن التوراة والإنجيل الموجودَيْن اليوم وما فيهما من الركاكة في الترجمة، هو أكبر دليل على أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية.

قال الشيخ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة أن الله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء، وأن الكلام صفة

له قائمة بذاته، يتكلم بها بمشيئته وقدرته، فهو لم يزل ولا يزال متكلمًا إذا شاء، وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقًا منفصلًا عنه كما تقول المعتزلة، ولا لازمًا لذاته لزوم الحياة لها كما تقول الأشاعرة؛ بل هو تابع لمشيئته وقدرته.

والله سبحانه نادى موسى بصوت، ونادى آدم وحواء بصوت، وينادي عباده يوم القيامة بصوت، ويتكلم بالوحي بصوت، ولكن الحروف والأصوات التي تكلم الله بها صفة له غير مخلوقة، ولا تشبه أصوات المخلوقين وحروفهم؛ كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده؛ فإن الله لا يماثل المخلوقين في شيء من صفاته.

والآيتان الأُولَيَان هنا -وهما من سورة النساء- تنفيان أن يكون أحد أصدق حديثًا وقولًا من الله عَزَّوَجَلَّ، بل هو سبحانه أصدق من كلِّ أحدٍ في كل ما يخبر به؛ وذلك لأن علمه بالحقائق المخبر عنها أشمل وأضبط، فهو يعلمها على ما هي به من كل وجه، وعلم غيره ليس كذلك.

۞ وأما قوله: ﴿ **وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى** ... ﴾ إلخ؛ فهو حكايةً لما سيكون يوم القيامة من سؤال الله لرسوله وكلمته عيسى عما نسبه إليه الذين ألَّهُوه وأُمَّهُ من النصارى من أنه هو الذي أمرهم بأن يتخذوه وأُمَّهُ إلهين من دون الله.

وهذا السؤال لإظهار براءة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتسجيل الكذب والبهتان على هؤلاء الضالين الأغبياء.

۞ وأما قوله: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا** ﴾؛ فالمراد صدقًا في أخباره، وعدلًا في أحكامه؛ لأن كلامه تعالى إمَّا أخبار، وهي كلها في غاية الصدق، وإمَّا أمر ونهي، وكلها في غاية العدل الذي لا جور فيه؛ لابتنائها على الحكمة والرحمة.

والمراد بالكلمة هنا: الكلمات، لأنها أضيفت إلى معرفة، فتفيد معنى الجمع؛ كما في قولنا: رحمة الله ونعمة الله.

وأما قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ وما بعدها من الآيات التي تدل على أن الله قد نادى موسى وكلمه تكليمًا، وناجاه حقيقة من وراء حجاب، وبلا واسطة ملك؛ فهي ترد على الأشاعرة الذين يجعلون الكلام معنى قائمًا بالنفس؛ بلا حرف، ولا صوت!

فيقال لهم: كيف سمع موسى هذا الكلام النفسي؟

فإن قالوا: ألقى الله في قلبه علمًا ضروريًا بالمعاني التي يريد أن يكلمه بها؛ لم يكن هناك خصوصية لموسى في ذلك.

وإن قالوا: إن الله خلق كلامًا في الشجرة أو في الهواء، ونحو ذلك؛ لزم أن تكون الشجرة هي التي قالت لموسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه:١٢].

وكذلك ترد عليهم هذه الآيات في جعلهم الكلام معنى واحدًا في الأزل، لا يحدث منه في ذاته شيء، فإن الله يقول: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ فهي تفيد حدوث الكلام عند مجيء موسى للميقات، ويقول: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾؛ فهذا يدل حدوث النداء عند جانب الطور الأيمن.

والنداء لا يكون إلا صوتًا مسموعًا.

وكذلك قوله تعالى في شأن آدم وحواء: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ الآية؛ فإن هذا النداء لم يكن إلا بعد الوقوع في الخطيئة، فهو حادث قطعًا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ إلخ، فإن هذا النداء والقول سيكون يوم القيامة.

وفي الحديث: «**ما من عبد إلا سيكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان**»(١).

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾، ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾، وقوله: وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾، ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾.

۞ قوله: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ... ﴾ إلخ؛ هذه الآيات الكريمة تفيد أن القرآن المتلو المسموع المكتوب بين دفتي المصحف هو كلام الله على الحقيقة، وليس فقط عبارة أو حكاية عن كلام الله كما يقول الأشاعرة، وإضافته إلى الله عَزَّوَجَلَّ تدل على أنه صفة له قائمة به، وليست كإضافة البيت أو الناقة؛ فإنها إضافة معنى إلى الذات، تدل على ثبوت المعنى لتلك الذات؛ بخلاف إضافة البيت أو الناقة؛ فإنها إضافة أعيان، وهذا يرد على المعتزلة في قولهم: إنه مخلوق منفصل عن الله.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٥٩٥)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ودلت هذه الآيات أيضا على أن القرآن منزل من عند الله، بمعنى أن الله تكلم به بصوت سمعه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فنزل به، وأدَّاه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما سمعه من الرب جلَّ شأنه.

وخلاصة القول في ذلك: أن القرآن العربي كلام الله، منزل، غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، والله تكلم به على الحقيقة، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره، وإذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه في المصاحف لم يُخرِجْه ذلك عن أن يكون كلام الله؛ فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى مَنْ بَلَّغَهُ مؤديًا، والله تكلم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه، ليس شيء منه كلامًا لغيره، لا لجبريل، ولا لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا لغيرهما، والله تكلم به أيضًا بصوت نفسه، فإذا قرأه العباد قرءوه بصوت أنفسهم، فإذا قال القارئ مثلًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله، لا كلام نفسه، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله.

وكما أن القرآن كلام الله، فكذلك هو كتابه؛ لأنه كتبه في اللوح المحفوظ؛ ولأنه مكتوب في المصاحف؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة].

وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج].

وقال: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس].

والقرآن في الأصل مصدر كالقراءة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

ويُراد به هنا أن يكون عَلَمًا على هذا المُنَزَّل من عند الله، المكتوب بين دفتي المصحف، المُتَعبَّد بتلاوته، المُتحدَّى بأقصر سورة منه.

وقوله: ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ يدل أن ابتداء نزوله من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأن روح القدس جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ تلقاه عن الله سبحانه بالكيفية التي يعلمها) اهـ[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٥٠-١٥٥) ط. دار الهجرة.

٢٢- إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة]، **وقوله:** ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣]، **وقوله:** ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، **وقوله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

هذه الآيات الكريمة دليلٌ على رؤية الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة، وهذه المسألة من العلامات المميزة في الفرق بين أهل السنة وأهل البدع عبر التاريخ، كغيرها من المسائل التي حدثت فيها معارك بين أهل السنة وبين المبتدعة، وكانت مسألة العلو والفوقية أول مسائل الخلاف في الصفات بين المنتسبين إلى القبلة. وأول انحراف للجهمية كان في إنكار علو الله عَزَّوَجَلَّ وفوقيته واستوائه على العرش.

- وأحد المسائل الخطيرة التي أنكرها أهل البدع هي رؤية المؤمنين لله عَزَّوَجَلَّ في الجنة، وهذا متعلق بمسألة العلو؛ فإن أهل البدع نفوا علو الله عَزَّوَجَلَّ بزعم نفي الجهة، فقالوا إن المرئي لابدَّ أن يكون في جهة ولابدَّ أن يتحيز، وهذا الكلام الباطل بسبب أنهم تعاملوا مع النصوص الشرعية معاملة الرياضيات والمنطق اليوناني(١).

- لكن الاعتقاد الحق أن هذا أمر غيبي لا يدري الإنسان كيفيته، بل إن في عالم البشر وفي عالم الشهادة، البشر يدركون اليوم أشياء ما كانوا يدركونها بالأمس، مثل أجهزة الاستقبال والموجات الكهرومغناطيسية، ولا يلزم جهة معينة لرؤية ذلك، وكذلك فإن الإنسان يرى في منامه أشياء كثيرة ولا يلزم فيها للرؤية جهة معينة، وإذا كان هذا في رؤية

---

(١) طريقة (بما أن، إذن) في الاستنتاج الرياضي.

المخلوق للمخلوق وهو مشاهد لها في الدنيا؛ فلماذا يُنْكَر رؤية الله في الآخرة بزعم أن هذا يستلزم الجهة والجهة تستلزم التحيز، والتحيز يستلزم التجسيم؟! وكل هذه السلسلة من الشبهات الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: فيها النضرة والبهاء، ناظرة إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أعظم نعيم في الآخرة يمكن أن يناله الإنسان، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم** عَزَّوَجَلَّ»[1] الحديث.

والمعتزلة وأهل البدع أنكروا ذلك وأنكروا أن يكون هناك نعيم بالله عَزَّوَجَلَّ، كما أنكروا أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ محبوبًا وأنه يحب عباده، فأنكروا محبة الله لعباده، ومحبة العباد لربهم، وهم بذلك قد أنكروا سعادة الإنسان في الدنيا، وأنكروا كذلك سعادة الإنسان في الآخرة، فهم على أبشع صور الضلال.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ كلمة (نظر)، قد تستعمل بمعنى الانتظار، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ [فاطر:٤٣] أي: ينتظرون سنة الأولين، لكن إذا تعدَّت بحرف الجر (إلى) فإنها لا تحتمل إلا معنى الرؤية، والمعتزلة أوَّلوا الكلام فقالوا: إن (إلى) هنا ليست حرف جر، وإنما بمعنى النعمة وهي مفرد (آلاء) فجعلوا الآية معناها ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي تنتظر نعم ربها.

ولا شكَّ في بطلان ذلك؛ إذ إن أي عاقل يسمع هذا الكلام ينكر أن يكون المعنى كذلك، فضلًا عن المغالطة اللغوية في الفرق بين (آلاء) و(إلى).

فإن الآية الكريمة صريحة في رؤية الله عَزَّوَجَلَّ، ثم تفسير عامة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لهذه الآية على أنها النظر إلى وجه الله تعالى.

---

(١) رواه مسلم (٢٧١) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣] فأعظم ما ينظر إليه المؤمنون وهم على الأرائك هو وجه الله عَزَّوَجَلَّ، مع أنهم ينظرون إلى أشياء أخرى، والآية تعم كل ذلك، والآية ذكرت النظر في معرض النعيم، وأعظم نعيم هو النظر إلى وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الآية [يونس:٢٦] ثبت في الحديث الصحيح عن صهيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة! إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، قالوا: ألم يُبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم**»(١).

فهذا تفسير النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لهذه الآية الكريمة، وإذا كان الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو من فسَّر الآية فلا يُلتفت إلى غير كلامه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإن الجنة هي الحسنى، وما الزيادة إلا النظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] ثبت عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في تفسير المزيد أنه النظر إلى وجه الله تعالى، ولا شكَّ أن هناك مزيدًا من كل أنواع النعيم لكن أعلى المزيد هو النظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ.

- ومسألة رؤية المؤمنين لله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة ثابتة بإجماع أهل السنة، ومسألة أن غير المؤمنين يرون الله عَزَّوَجَلَّ أم لا! مسألة خلافية، مع الاتفاق على أن مآل الكفار إلى الحجب في النار عن رؤية الله عَزَّوَجَلَّ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] والخلاف السائغ في رؤية أهل الموقف جميعًا له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأكثر أهل العلم

(١) رواه مسلم (٢٦٦).

لا يثبتون الرؤية للكافرين والمنافقين، وإن كان الراجح من ناحية الدليل هو رؤية أهل الموقف جميعًا يوم القيامة لله عَزَّوَجَلَّ، لكنَّ رؤية الكافرين والمنافقين تكون رؤية العبد الآبق من سيده الذي يريد الهرب ولا يريد أن يرى سيده ولا أن يراه سيده، وليست رؤية تكريم ونعيم؛ ليعلم الكافرون والمنافقون أنهم كانوا كاذبين، وليعلموا أن وعد الله حق، فيرى الكافر ربه رؤية تبكيت وعقاب، ثم يُلقى في جهنم مدحورًا مغضوبًا عليه.

والأدلة على ذلك كما في حديث أبي هريرة قال: قالوا يا رسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة: «**قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة**»، قالوا: لا، قال:«**فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة**»، قالوا: لا، قال: «**فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما**» قال: «**فيلقى العبد فيقول: أي فُلْ! ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل، والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى**»، قال: «**فيقول: أفظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فُلْ! ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل، والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول: يا رب آمنت بك، وبكتابك، وبرسلك، وصليت، وصمت، وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع فيقول: هاهنا إذن. قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليَّ؟ فيُختم على فيه، ويُقال لفخذه، ولحمه، وعظامه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك لِيُعذَر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه**»[١].

(١) رواه مسلم (٢٩٦٨).

فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر الكافر والمنافق ولقاءهما لله عَزَّ وَجَلَّ بعد ذكر الرؤية مباشرة، وهذا صريح في أن كل أهل الموقف يرون ربهم عَزَّ وَجَلَّ؛ ليعلم الكافرون والمنافقون أنهم كانوا كاذبين.

وكما في حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا كان يوم القيامة أذَّن مؤذن: لِتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يَبْق إلا من كان يعبد الله من بَرٍّ وفاجر وغُبَّر أهل الكتاب، فيدعى اليهود، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا، فاسقنا، فيشار إليهم: ألا تَرِدُون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فيتساقطون في النار، ثم يدعى النصارى، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا، فاسقنا، قال: فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب، يحطم بعضها بعضًا، فيتساقطون في النار حتى إذا لم يَبْق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر، أتاهم رب العالمين** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **في أدنى صورة من التي رأوه فيها قال: فماذا تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا، فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا (مرتين أو ثلاثًا)، حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خَرَّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، ثم يضرب الجسر**

على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم، سلم». قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «**دحضٌ مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، تكون بنجد فيها شويكة يقال لها: السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناجٍ مسلَّم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم**»(١).

فهذا دليل على أن الأمم جميعًا قبل الانفصال يرون ربهم عَزَّوَجَلَّ، وهذه رؤية أهل الموقف جميعًا، وظاهر هذه الأحاديث أن المنافقين يرونه كذلك، وعلى هذا فالخلاف بين أهل السنة في مسألة من يرى الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة على ثلاثة أقوال؛ **الأول**: أن المؤمنين فقط هم من يرون ربهم، **والثاني**: أن المؤمنين والمنافقين يرون ربهم مع أن رؤية المنافقين رؤية توبيخ وعقاب، ثم يحجب بعد ذلك المنافقون، **والقول الثالث**: أن الرؤية لأهل الموقف جميعًا.

وهذه المسألة كما قدَّمنا يسوغ فيها الخلاف عند أهل السنة، ولا يبدع ولا يضلل فيها المخالف، ومن جهة الدليل أن الرؤية لأهل الموقف جميعًا، وتكون للكافرين والمنافقين رؤية تبكيت كرؤية العبد الآبق لسيده -كما قدَّمنا- ثم يُحجبون في النار بعد ذلك لظاهر الآية: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾.

والمُجمع عليه رؤية المؤمنين ربهم عَزَّوَجَلَّ في عرصات القيامة، وبعد دخولهم الجنة، وهذه الرؤية للمؤمنين مَن خالف فيها ونفاها فإنه يُبدَّع ويُضَلَّل خصوصًا إذا كان النفي بزعم الجهة والتحيز، ومثل هذه الافتراضات الباطلة.

ونحن لا نثبت أن الله يُرَى في جهة إلا أنه سبحانه فوقهم، وإثبات الفوقية يكون -كما وردت- بلا إثبات كيفية معينة وبغير تحيز، كما قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣) واللفظ لمسلم.

«والرؤية حقٌّ لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة]»(١).

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (هذه الآيات تثبت رؤية المؤمنين لله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة في الجنة.

وقد نفاها المعتزلة؛ بناءً على نفيهم الجهة عن الله؛ لأن المرئي يجب أن يكون في جهة من الرائي، وما دامت الجهة مستحيلة، وهي شرط في الرؤية؛ فالرؤية كذلك مستحيلة.

واحتجوا من النقل بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وقوله لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين سأله الرؤية: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣].

وأمَّا الأشاعرة، فهم مع نفيهم الجهة كالمعتزلة يثبتون الرؤية، ولذلك حاروا في تفسير تلك الرؤية، فمنهم من قال: يرونه من جميع الجهات، ومنهم من جعلها رؤية بالبصيرة لا بالبصر، وقال: المقصود زيادة الانكشاف والتجلي حتى كأنها رؤية عين.

وهذه الآيات التي أوردها المؤلف حجة على المعتزلة في نفيهم الرؤية؛ فإن الآية الأولى عُدِّي النظر فيها بـ(إلى)، فيكون بمعنى: الإبصار؛ يقال: نظرت إليه وأبصرته بمعنى، ومُتَعَلق النظر هو الرب جَلَّ شأنه.

وأمَّا ما يتكلفه المعتزلة من جعلهم (ناظرة) بمعنى منتظرة و(إلى) بمعنى النعمة. والتقدير: ثواب ربها منتظرة؛ فهو تأويل مضحك.

وأمَّا الآية الثانية؛ فتفيد أن أهل الجنة، وهم على أرائكهم -يعني: أسرتهم، جمع أريكة- ينظرون إلى ربهم.

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (ص٢٠٧) ط. الرسالة.

وأمَّا الآيتان الأخيرتان؛ فقد صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله عَزَّ وَجَلَّ.

ويشهد لذلك أيضًا قوله تعالى في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، فدلَّ حجب هؤلاء على أن أولياءه يرونه.

وأحاديث الرؤية متواترة في هذا المعنى عند أهل العلم بالحديث، لا ينكرها إلا ملحد زنديق.

وأمَّا ما احتج به المعتزلة من قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ فلا حجة لهم فيه؛ لأن نفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية، فالمراد أن الأبصار تراه، ولكن لا تحيط به رؤية؛ كما أن العقول تعلمه، ولكن لا تحيط به علمًا؛ لأن الإدراك هو الرؤية على جهة الإحاطة، فهو رؤية خاصة، ونفي الخاص لا يستلزم نفي مطلق الرؤية كذلك استدلالهم على نفي الرؤية بقوله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ لا يصلح دليلًا، بل الآية تدل على الرؤية من وجوه كثيرة؛ منها:

١- وقوع السؤال من موسى، وهو رسول الله وكليمه، وهو أعلم بما يستحيل في حق الله من هؤلاء المعتزلة، فلو كانت الرؤية ممتنعة لما طلبها.

٢- أن الله عَزَّ وَجَلَّ علَّق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلي وهو ممكن، والمعلق على الممكن ممكن.

٣- أن الله تجلى للجبل بالفعل، وهو جماد، فلا يُمتنع إذا أن يتجلى لأهل محبته وأصفيائه.

وأما قولهم: إن ﴿لَن﴾، لتأبيد النفي، وإنها تدل على عدم وقوع الرؤية أصلًا؛ فهو كذب على اللغة، فقد قال تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة:٩٥]، ثم قال: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧]، فأخبر عن عدم تمنيهم للموت بـ(لن)، ثم أخبر عن تمنيهم له وهم في النار.

وإذًا؛ فمعنى قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾: لن تستطيع رؤيتي في الدنيا؛ لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته سبحانه، ولو كانت الرؤية ممتنعة لذاتها؛ لقال: إني لا أرى، أو لا يجوز رؤيتي، أو لست بمرئي ونحو ذلك، والله أعلم) اهـ[١].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٥٦-١٥٨).

وهذا الباب في كتاب الله تعالى كثير، ومن تدبَّر القرآن طالبًا للهدى فيه تبين له طريق الحق.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **[وهذا الباب]** -أي: باب الأسماء والصفات- في كتاب الله كثير، لا تخلو سورة من ذكر صفات الله عَزَّوَجَلَّ، ومن تدبَّر القرآن طالبًا للهدى فيه تبين له طريق الحق.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية» تحت عنوان (مباحث عامة حول آيات الصفات): (إن الناظر في آيات الصفات التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستطيع أن يستنبط منها قواعدَ وأصولًا هامة يجب الرجوع إليها في هذا الباب:

الأصل الأول: اتفق السلف على أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى، وما دلَّت عليه من الصفات، وما ينشأ عنها من الأفعال.

مثال ذلك القدرة مثلًا، يجب الإيمان بأنه سبحانه على كل شيء قدير، والإيمان بكمال قدرته، والإيمان بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات.

وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذا النمط.

وعلى هذا؛ فما ورد في هذه الآيات التي ساقها المصنف من الأسماء الحسنى؛ فإنها داخلة في الإيمان بالاسم.

وما فيها من ذكر الصفات؛ مثل: عزة الله، وقدرته، وعلمه، وحكمته، وإرادته، ومشيئته، فإنها داخلة في الإيمان بالصفات.

وما فيها من ذكر الأفعال المطلقة والمقيدة، مثل: يعلم كذا، ويحكم ما يريد، ويرى، ويسمع، وينادي، ويناجي، وكلم، ويكلم؛ فإنها داخلة في الإيمان بالأفعال.

الأصل الثاني: دلَّت هذه النصوص القرآنية على أن صفات الباري قسمان:

١- صفات ذاتية لا تنفك عنها الذات، بل هي لازمة لها أزلًا وأبدًا، ولا تتعلق بها مشيئته تعالى وقدرته، وذلك كصفات: الحياة، والعلم، والقدرة، والقوة، والعزة، والملك، والعظمة، والكبرياء، والمجد، والجلال... إلخ.

٢- صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآن، وتحدث بمشيئته وقدرته آحاد تلك الصفات من الأفعال، وإن كان هو لم يزل موصوفًا بها، بمعنى أن نوعها قديم، وأفرادها حادثة، فهو سبحانه لم يزل فعَّالًا لما يريد، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الأمور، وأفعاله تقع شيئًا فشيئًا، تبعًا لحكمته وإرادته.

فعلى المؤمن الإيمان بكل مانسبه الله لنفسه من الأفعال المتعلقة بذاته؛ كالاستواء على العرش، والمجيء، والإتيان، والنزول إلى السماء الدنيا، والضحك، والرضى، والغضب، والكراهية، والمحبة. والمتعلقة بخلقه؛ كالخلق والرزق، والإحياء، والإماتة، وأنواع التدبير المختلفة.

الأصل الثالث: إثبات تفرد الرب جلَّ شأنه بكل صفة كمال، وأنه ليس له شريك أو مثيل في شيء منها.

وما ورد في الآيات السابقة من إثبات المثل الأعلى له وحده، ونفي الند والمثل والكفء والسمي والشريك عنه يدل على ذلك؛ كما يدل على أنه منزه عن كل نقص وعيب وآفة.

الأصل الرابع: إثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الصفات، لا فرق بين الذاتية منها؛ كالعلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر ونحوها، والفعلية؛ كالرضا والمحبة والغضب والكراهة، وكذلك لا فرق بين إثبات الوجه واليدين

ونحوهما، وبين الاستواء على العرش والنزول، فكلها ممَّا اتفق السلف على إثباته بلا تأويل ولا تعطيل، وبلا تشبيه وتمثيل.

والمخالف في هذا الأصل فريقان:

١- الجهمية: ينفون الأسماء والصفات جميعًا.

٢- المعتزلة: فإنهم ينفون جميع الصفات، ويثبتون الأسماء والأحكام، فيقولون: عليم بلا علم، وقدير بلا قدرة، وحي بلا حياة ... إلخ.

وهذا القول في غاية الفساد؛ فإن إثبات موصوف بلا صفة، وإثبات ما للصفة للذات المجردة محال في العقل؛ كما هو باطل في الشرع.

أما الأشعرية ومن تبعهم؛ فإنهم يوافقون أهل السنة في إثبات سبع صفات يسمونها صفات المعاني، ويدعون ثبوتها بالعقل، وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام.

ولكنهم وافقوا المعتزلة في نفي ما عدا هذه السبع من الصفات الخبرية التي صحَّ بها الخبر.

والكلُّ محجوجون بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة والقرون المفضلة على الإثبات العام) اهـ[1].

❁ ❁ ❁

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٥٩-١٦١).

الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من السنة

-فصل-

ثم في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالسنة تفسر القرآن، وتبينه، وتدل عليه، وتعبر عنه، وما وَصَف الرسول به ربه عَزَّوَجَلَّ مِن الأحاديث الصحاح، التي تلقاها أهل المعرفة بالقبول؛ وجب الإيمان بها كذلك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [**ثم في سنة رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] هذا عطف على قوله رَحِمَهُ اللَّهُ فيما تقدَّم [**وقد دخل في هذه الجملة ما وصف الله به نفسه في سورة الإخلاص**]، وما تلاها من الآيات، ثم دخل فيها -أي في هذه الجملة أيضًا- ما ورد في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا يدلنا على مصدر تلقي العقيدة السليمة في الأسماء والصفات؛ لأن هذين المصدرين هما المعصومان، وحتى الإجماع لا مدخل له في ذلك إلا في الفهم؛ فليس للأمة أن تُجمع على مسألة في وصف الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى من غير دليل، ولا يمكن أن يكون عن اجتهاد، فإن هذا الباب إنما أصله الإخبار عن الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك نقول إن إجماع السلف على رفض التأويل حجة، إنما ذلك من خلال الفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والسنة منزَّلة من عند الله كما أن القرآن منزَّل من عند الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ...﴾ الآية [النحل:٤٤]؛ فالسنة من الذكر، ودليل ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ الآية [الأحزاب:٣٤] فإن القرآن قد نزل، وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ إلى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذكر ليبين للناس ما نزل إليهم من القرآن.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] فالكتاب: القرآن، والحكمة السنة، ومن هنا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**»[(١)] أي مثله معه في التشريع وفي بيان الأحكام والعقائد عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الأمر لابدَّ من تأصيله ومعرفته؛ أن السنة كما هي مصدر في التشريع والعمل فهي مصدر في العقيدة الصحيحة، بل هي في باب الاعتقاد أولى من باب العمل؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ أولًا ليبين للناس عقيدتهم في الله عَزَّوَجَلَّ، وأول ما دعاهم إليه الإيمان، فكيف يكون بيانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للإيمان لا يفيد اليقين -كما يزعم منكروا السنة من أهل البدع ومعادوها-، في حين أن أوامره ونواهيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلزم منها العمل؟! فهذا غير متصور، بل لابد أن يكون خبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الله عَزَّوَجَلَّ -إذا ثبت وصحَّ- كخبر القرآن تمامًا عن الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما القرآن أشرف وأعظم؛ لأنه كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أمَّا السنة فمعناها وحيٌ من عند الله، وألفاظها كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- وكذلك من شرف القرآن ثبوته قطعيًا متواترًا محفوظًا حرفًا حرفًا، لفظًا ومعنى، ولذا كان مَنْ أنكر منه شيئًا كَفَرَ، وأمَّا السنة فمنها المتواتر معنًى أو لفظًا، ومنها ما ليس بمتواتر فهو خبرُ واحد.

- وخبر الواحد عند أهل البدع مردودٌ في العقيدة، لكن عند أهل السنة مقبول إذا ثبت وصحَّ سنده وتلقته الأمة بالقبول؛ فإنه يوجب عندهم العلم والعمل معًا، خلافًا

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٦٠٤)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» من حديث المقدام بن معد يكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأهل البدع الذين يقولون إن خبر الواحد يفيد العمل فقط ولا يفيد العلم، أي: يؤخذ به في الأمور العملية ولا يؤخذ به في الأمور الاعتقادية؛ لأنها تفيد الظن وليس العلم واليقين، لأنه في زعمهم ربما كذب الصادق وربما أخطأ الحافظ.

وهذا الاحتمال الذي افترضه أهل البدع لم يلتفت إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أمر الصحابة أن يبلغوا عنه العقائد ويبلغوا عنه الأحكام، بل كان يأمر أصحابه بأن يدعوا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أولًا إلى التوحيد، كما قال لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنك تَقْدُم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله** عَزَّ وَجَلَّ، **فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم...**»[(١)] الحديث، ولو كانت أخبار الآحاد المختصة بالقرائن التي تؤكد صدق ناقلها لا تكفي في معرفة العقيدة لما بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آحادًا من الناس لدعوة الناس وتعليمهم دينهم، بل لكان في كل مرة يرسل طائفة تفيد التواتر، حتى يُقبل خبرها ويلزم اعتقاد ما قالت به.

ومعلوم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يفعل ذلك، وإنما كان يرسل المُعلِّمين من أصحابه إلى البلاد والقبائل آحادًا وجماعاتٍ، وكان يرسل رسائله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع آحاد الناس إلى الملوك، ومَن ردَّ كتابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذَّبه ومزقه دعا عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أرسل كتابه مع واحد من أصحابه إلى كسرى فمزقه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مزق الله ملكه...**»[(٢)].

وقال في الكتاب الذي أرسله لقيصر ملك الروم: «**أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم الأريسين...**»[(٣)].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩) واللفظ لمسلم.

(٢) انظر: البداية والنهاية(٦/ ٤٨٥)، وأصل القصة عند البخاري (٦٤، ٢٨١٠، ٦٨٧٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وبلغه في الرسالة الآيات، وكذا كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع واحد -وهو الصحابي دحية الكلبي- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واحتفت القرائن بصدقه، فدلَّ ذلك على لزوم قبول خبره، وكما يلزم منه العمل يلزم منه العلم، ومن هنا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الجملة: «وما وصف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به ربه عَزَّ وَجَلَّ من الأحاديث الصحاح التي تلقاها أهل العلم بالقبول».

وهذا الوصف الذي يلزم منه أن علماء الأمة تلقت الحديث بالقبول، فهذا الإجماع منهم يؤكد صحة الحديث؛ لأن الأمة لا تُجمع على قبول خبر كاذب، بل يستحيل ذلك أن تجمع الأمة على حديث ليس بثابت عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإن كان في سند الحديث مقال، فإن شواهده تؤكد صحة معناه كما في أحاديث قد ذكرها شيخ الإسلام في جملة ما يذكره في هذه الأحاديث، وبعضها فيها اختلاف في تصحيحها بين العلماء، لكن معانيها قد تلقَّاها علماء الأمة بالقبول وليس عندهم ما يطعن فيها، وما ثبت فيها من المعاني مقطوع به حتى لو كان في سندها مقال، ولابدَّ من قبولها والعمل بها واليقين بها، وهي توجب الإيمان والعلم.

- والأحاديث من ناحية التواتر تكون متواترة لفظًا أو معنى، وأكثر الأحاديث المتواترة في كل طبقاتها هي متواترة تواترًا معنويًّا، مثل وجوب الصلوات الخمس، ومثل وجوب صوم رمضان، ووجوب الحج وتفاصيله... وكذا.

ومنها المتواتر لفظًا مثل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[(١)].

ومثل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المرء مع من أحب**»[(٢)] الحديث.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٢٢٩)، ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذا التواتر اللفظي يوجب العلم اليقيني، ويجب أن يوقن الإنسان به كما يؤمن بالقرآن تمامًا، ولذلك كان من كذَّب بشيء من السنة من الثابت المتواتر في كل طبقات المسلمين عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان كافرًا كمن كذَّب بالقرآن.

مثال ذلك: من كذَّب أن صلاة الصبح ركعتان، أو أن الظهر أربع، أو من كذَّب أن شهر رمضان هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، ونحو ذلك، فهو خارج عن ملة الإسلام؛ لأن السنة المتواترة المعلومة من الدين بالضرورة يجب قبولها.

ثم إن بعض التواتر يعلمه العلماء، وهذا قبوله واجب أيضًا، ويوجب العلم لمن بلغه، لكن لا يكفر المخالف فيه إلا أن تقام عليه الحجة.

وأمَّا النوع الثاني من الأحاديث وهو الآحاد فهي قسمان: قسم اتفقت الأمة على قبوله، وتلقاه أهل العلم بالقبول وأجمعوا على صحته وأثبتوها، وهذا كعامة الأحاديث الصحيحة في البخاري ومسلم إلَّا ما استدركه بعض العلماء، وهذا المستدرك أحاديث تُعَدُّ على أصابع اليدين، والصواب في أكثرها كان مع البخاري، وفي كل ما اعتمد عليه كان الصواب معه، أمَّا مسلم فبعض الأحاديث التي كان الصواب فيها مع من خالفه.

وهذه الأحاديث المستدركة -وهي قليلة- لا يجوز الطعن فيها! بل تلقت الأمة بالقبول كتابي البخاري ومسلم في الصحيح، ولذلك يُقال مصطلح (متفق عليه) أي: متفق على صحته بين إمامي الصحيح البخاري ومسلم، وتبعتهم الأمة على ذلك[1].

والأحاديث التي ذكرها شيخ الإسلام هنا في العقيدة الواسطية أكثرها في الصحيح، وبعضها ليس في الصحيح لكنه حسن مُتلَقَّى بالقبول، وقد جزم شيخ الإسلام أن هذه الأحاديث التي ذكرها هنا متلقاة بالقبول من الأمة، ولذا فإنها توجب العلم النظري

(١) بل يضرب المثل بصحة كتابي البخاري ومسلم فيقال على ألسنة الناس لمن أخطأ: (أخطأت في البخاري!) تعظيمًا لهذا الأمر.

لمن بلغته، ومن خالفها فهو مبتدع ضال، ويُذَمُّ ذمًّا شديدًا لتكذيبه لهذه الأحاديث؛ لأن الأمة لا تجتمع على ضلالة، وعلماؤها إذا اتفقوا على صحة هذا المعنى عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزم قبول هذا الإجماع وهذا الاتفاق وهذا التلقي بالقبول، وأوجب ذلك العلم، والاعتقاد، وأوجب اليقين بما تضمنته هذه الأحاديث من المعاني سواء كان فيما يتعلق بالصفات، أو ما يتعلق بالأحكام، وأن هذا النوع من الأحاديث حجة بلا شك في العقيدة، وهذا أصل مهم ومن أعظم الأمور تمييزًا بين أهل السنة وأهل البدع.

والتفريق بين العقيدة والعمل في تلقي الأحاديث وقبولها بدعة محدثة، ولذلك نجد كتب أهل البدع لا تذكر أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يستدلون به في العقائد ويكتفون بكلام أئمتهم ومشايخهم، فكانت كتبهم مظلمة بعدم وجود النور الذي يضيء فيها وهو الآيات والأحاديث.

- ولهذا كان من أصول أهل السنة كثرة الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بخلاف أهل البدع الذين أصل كلامهم في باب العقائد هو الفلسفة وعلم الكلام، وفي باب الأحكام كلام الأئمة والمشايخ والتقليد والأقيسة. بخلاف أهل السنة فإن طريقتهم الاستدلال بالنصوص ما أمكنهم ذلك.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية»: (والسنة هي الأصل الثاني الذي يجب الرجوع إليه، والتعويل عليه بعد كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، والمراد بالحكمة: السنة.

وقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:١٢٩].

وقال آمرًا لنساء نبيه: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

وقال صلوات الله وسلامه عليه وآله: «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**»[١].

وحكم السنة حكم القرآن في ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل؛ فإن السنة توضيح للقرآن، وبيان للمراد منه: تُفَصِّل مُجمله، وتقيد مطلقه، وتخصص عمومه؛ كما قال تعالى:﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ...﴾ [النحل:٤٤].

وأهل البدع والأهواء بإزاء السنة الصحيحة فريقان:

١- فريق لا يتورع عن ردِّها وإنكارها إذا وردت بما يخالف مذهبه؛ بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تفيد إلا الظن، والواجب في باب الاعتقاد اليقين، وهؤلاء هم المعتزلة والفلاسفة.

٢- وفريق يثبتها ويعتقد بصحة النقل، ولكنه يشتغل بتأويلها؛ كما يشتغل بتأويل آيات الكتاب، حتى يخرجها عن معانيها الظاهرة إلى ما يريده من معانٍ بالإلحاد والتحريف، وهؤلاء هم متأخرو الأشعرية، وأكثرهم توسعا في هذا الباب الغزالي، والرازي) اهـ[٢].

وكما ذكر الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النوع الثاني من ردِّ السنة عن الغزالي والرازي وهم أكثر من نقل عن الإمام الجويني الذي فتح باب هذا الأمر ثم رجع عن ذلك لكن بعدَه الغزالي والرازي وكذلك ابن رشد أيضًا كثُرَ كلامُهم في العقائد، وهؤلاء الثلاثة هم أكثر من نُقِلَ عنهم التأويل، وعنهم تقلَّد أكثر المتأخرين.

وإن كانوا في باب التأصيل يذكرون الكلام المأثور لكن يردونها بحجة أنها أحاديث آحاد، وإن كان الجويني حينما تكلم في الأمر يقول نقبلها لأجل ما فيها من العمل، وهذا خطأ أن يُقال: إن الحديث يُقبل فقط لأجل ما فيه من العمل! بل الحديث متلقى بالقبول

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٦٢-١٦٣).

لا يجوز رده، وطريقة السلف أنهم كانوا ينكرون على من يرد الأحاديث أو يتشكك فيها، ولا يقبلون أن يُقال فيها إنها أخبار آحاد تفيد الظن.

وإذا كان هناك حديث مختلف في تصحيحه وتضعيفه، فهذا لم يكن متلقى بالقبول وبالتالي لا يفيد العلم اليقيني، بل يفيد غلبة الظن عند من صحَّحه، ولا يكون مفيدًا لغلبة الظن عند من ضعَّفه واعتقد عدم صحته، وتكون المسألة فيها اجتهاد، للمجتهد المصيب فيها أجران، وللمجتهد المخطئ فيها أجر.

- وهذا يكون الفصل فيه يوم القيامة في من أخطأ ومن أصاب، وهذه هي المسائل التي يقال فيها: «كلامنا صواب يحتمل الخطأ، وكلام غيرنا خطأ يحتمل الصواب».

وكذلك حتى لو كانت المسألة من مسائل الاعتقاد؛ لأن العبرة في مسألة الاجتهاد الصواب والخطأ، ونيل أجرين أو أجر واحد، وكذا التبديع أو التكفير مبناهما على ثبوت الخبر وليس على نوع المسألة هل هي اعتقادية أو عملية، وإن كان أكثر مسائل العقيدة الكبرى فيها اتفاق، وأكثر مسائل العمل فيها اجتهاد.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (قوله: «وما وصف الرسول به...» إلخ؛ يعني: أنه كما وجب الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل؛ كذلك يجب الإيمان بكل ما وصفه به أعلم الخلق بربه وبما يجب له، وهو رسوله الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه وآله.

قوله: «كذلك»؛ أي: إيمانًا مثل ذلك الإيمان، خاليًا من التحريف والتعطيل، ومن التكييف والتمثيل، بل إثبات لها على الوجه اللائق بعظمة الرب جَلَّ شأنه) اهـ[1].

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٦٤).

١- ثبوت النزول الإلهي إلى سماء الدنيا على ما يليق بجلال الله سبحانه

فمن ذلك: مثل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**»(١) [متفق عليه].

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية»: (الكلام على هذا الحديث من جهتين؛ **الأولى**: صحته من جهة النقل؛ وقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه متفق عليه، ويقول الذهبي في كتابه «العلو للعلي الغفار»: «إن أحاديث النزول متواترة، تفيد القطع».

وعلى هذا؛ فلا مجال لإنكار أو جحود.

الثانية: ما يفيده هذا الحديث؛ وهو إخباره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنزول الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى كل ليلة... إلخ.

ومعنى هذا أن النزول صفة لله عَزَّ وَجَلَّ على ما يليق بجلاله وعظمته، فهو لا يماثل نزول الخلق؛ كما أن استواءه لا يماثل استواء الخلق.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره سورة الإخلاص: «فالرب سبحانه إذا وصفه رسوله بأنه ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة، وأنه يدنو عشية عرفة إلى الحجاج، وأنه كلم موسى بالوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وأنه استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا؛ لم يلزم من ذلك أن تكون هذه الأفعال من

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٦٤)، ومسلم (٢٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد رواه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو من ثمانية وعشرين صاحبيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

جنس ما نشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة حتى يقال: ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر»[١].

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بالنزول صفة حقيقية لله عَزَّوَجَلَّ، على الكيفية التي يشاء، فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التي ثبتت في الكتاب والسنة، ويقفون عند ذلك، فلا يكيفون ولا يمثلون ولا ينفون ولا يعطلون، ويقولون: إن الرسول أخبرنا أنه ينزل، ولكنه لم يخبرنا كيف ينزل، وقد علمنا أنه فعال لما يريد، وأنه على كل شيء قدير.

ولهذا ترى خواص المؤمنين يتعرضون في هذا الوقت الجليل لألطاف ربهم ومواهبه، فيقومون لعبوديته؛ خاضعين خاشعين، داعين متضرعين، يرجون منه حصول مطالبهم التي وعدهم بها على لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) اهـ[٢].

- وصفة نزوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صفة فعلية يفعلها الله عَزَّوَجَلَّ إذا شاء أن يفعلها، والقاعدة عند أهل السنة: الإيمان بذلك، مع تفويض الكيفية والإقرار بعدم العلم بها.

وهو نزول لا يخلو منه العرش كما صرح شيخ الإسلام، وكما ورد عن إسحاق بن راهوية: «أنه دخل على الأمير ابن طاهر فقال: ما هذه الأحاديث التي تروونها، قلت: أي شيء؟ أصلح الله الأمير، قال: تروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا، قلت: نعم رواه الثقات الذين يروون الأحكام، قال: أينزل ويدع عرشه؟ قال: فقلت: يقدر أن ينزل من غير أن يخلو العرش منه؟ قال: نعم، قلت: ولِمَ تتكلم في هذا؟!»[٣].

---

(١) انظر: «دقائق التفسير» (٦/ ٤٢٤).

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٦٤-١٦٥).

(٣) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٨٦)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٤٥٢).

والسلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم ينشغل بالهم بشبهات المتأخرين وأسئلتهم السخيفة وتشغيب أهل البدع على صفات الله عَزَّ وَجَلَّ ابتغاء نفيها، بل انشغل السلف بالعمل في هذا الوقت الذي ينزل فيه سبحانه نزولًا يليق بجلاله، وأن يستيقظوا في هذا الوقت يطيعون الله عَزَّ وَجَلَّ بالصلاة، والدعاء، والاجتهاد في السؤال والتضرع، والاستغفار لله عَزَّ وَجَلَّ، والحق أن هذا شرف عظيم للعبد ما بعده شرف أن الله عَزَّ وَجَلَّ كل ليلة يقول: «**من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**»، ولا يصح أن يفسر أو يُئَوَّل ذلك أنه ينادي منادٍ من قبل الله عَزَّ وَجَلَّ.

مع أنه لا مانع من أن الملائكة تردد ما يقوله الله عَزَّ وَجَلَّ لكن لا يُئَوَّل النزول ونداء الله بأنه منادٍ من قِبله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الحديث قد نصَّ على أنه سبحانه يقول: «**لا أسأل عن عبادي غيري**»[1] الحديث.

ولا يُئَوَّل أيضًا بنزول الملائكة، بل هذا من الباطل، كما أن زيادة تفسير النزول أنه نزول بذاته سبحانه لم يرد به دليل برغم أن بعض العلماء يقولون ذلك، لكن الأولى الاقتصار على ما ورد به الدليل أن يقال نزول وفقط، فنذكر ما ورد ونسكت عما لم يرد.

- وقد وردت الأحاديث أن هذا النزول بعد مضي ثلثي الليل، وأكثر الأحاديث على ذلك، وقد وردت أحاديث بعد مرور الثلث الأول، وبعضها ذكرت شطر الليل كما في حديث أبي هريرة عند مسلم في رواية: «**حين يمضي ثلث الليل الأول**»[2].

---

(١) **صحيح**: رواه الدارقطني في كتاب النزول (رقم ٥٤) من حديث عقبة بن عامر ورفاعة بن عرابة الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد السنة» (٦٠٤)، وابن خزيمة في «كتاب التوحيد» (١/ ٣١٣)، ورواه أحمد (٤/ ١٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٧٥)، وابن ماجه (١٣٦٧)، وصحَّحه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «صحيح ابن حبان» (٢١٢)، وصححه الشيخ مقبل الوداعي في «الصحيح المسند» (٣٤٣).

(٢) رواه مسلم (٧٥٨).

فالظاهر والله أعلم أنه نزول غير نزول، أي أن النزول متنوع فقد يكون سبحانه أقرب إلى عباده في ثلثي الليل الآخر، وهناك نزول في ثلث الليل الأول لكي لا يحرم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من يدعوه في هذا الوقت من الليل.

كما ثبت الدليل في نزوله سبحانه ودنوه من عباده الحجيج عشية يوم عرفة يباهي بهم الملائكة، كما في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ينزل الله إلى السماء الدنيا فيباهي بأهل الأرض أهل السماء فيقول: انظروا إلى عبادي شُعثًا غُبرًا ضاحين جاءوا من كل فج عميق لم يروا رحمتي ولم يروا عذابي، فلم أرَ يومًا أكثر عتقًا من النار من يوم عرفة...**»[(١)] الحديث.

كما ثبت نزوله سبحانه ليلة النصف من شعبان، والحديث في ذلك حسن بل صحَّحه بعض العلماء، فعن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ينزل الله إلى السماء الدنيا ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل شيء إلا رجل مشرك أو في قلبه شحناء**»[(٢)].



(١) **صحيح**: رواه البزار في «كشف الأستار» (١١٢٨)، ورواه ابن حبان (٣٨٤٢)، وأبو يعلى (٢٠٩٠)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٢) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٦٨)، والبزار في «مسنده» برقم (٨٠)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ص٩٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٩٩)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ١٣٥).

٢- إثبات صفة الفرح لله على ما يليق بجلاله سبحانه

وقوله ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته...**» **الحديث** [متفق عليه].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «**لله أفرح بتوبة عبده من رجل بأرض فلاة دَوِّيةٍ مَهْلَكَةٍ، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنزل عنها فقام وراحلته عند رأسه، فاستيقظ وقد ذهبت، فذهب في طلبها فلم يقدر عليها حتى أدركه الموت من العطش، فقال: والله لأرجعن فلأموتن حيث كان رحلي، فرجع فنام فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[1].

۞ قوله ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل بأرض فلاة دَوِّيَّةٍ مَهْلَكَةٍ**» أي: صحراء ليس فيها شيء، ومنقطعة ليس فيها سبيل للنجاة إلا راحلته وما عليها من الطعام والشراب، نزل عنها ليستريح فقام وراحلته عند رأسه، فاستيقظ فوجد راحلته غير موجودة، وانصرفت وتاهت، فذهب في طلبها يبحث عنها في كل اتجاه فلم يدركها، حتى أشرف على الموت من العطش، فقال: لأرجعن فأموت حيث كان رحلي، وحيث تركته ناقته، فرجع فنام فاستيقظ فإذا الراحلة عند رأسه، فوجدها وعليها طعامه وشرابه، فنجا بعد أن أيقن بالهلاك، فأراد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك، أي: أنت يا ربي الذي تفضلت عليَّ وأتيتني بها، فأخطأ من شدة فرحه فقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٩)، ومسلم في التوبة (٢٧٤٧).

هذا الحديث الشريف يدل على فرح الله عَزَّوَجَلَّ بتوبة عبده التائب، واللام في قوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**للَّه أشد فرحًا**» للتوكيد؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يحب عبده المؤمن ويحب طاعته له سبحانه، وهو عَزَّوَجَلَّ قدَّر المعصية على عبده المؤمن ليكسر بها دلال الطاعة وعُجبها، ويقدّر عليه من أنواع ذل العبودية.

- وذل العبودية ليس نوعًا واحدًا؛ بل أنواع متعددة: منها ذل المحبة؛ لأن الإنسان يكون خاضعًا لمن يحب، ومنها ذل الفقر والاحتياج عند الإنسان، وكذلك البلايا والمحن تذل الإنسان.

وهناك نوع آخر من الذل وهو ذل الانكسار للمخالفة والمعصية؛ لأن الطاعة أحيانًا يكون لها دلال يُدِلُّ بها صاحبها فيرى أن له منزلة ويرى أن له فضلًا، وهذا من أكبر أسباب العجب والكبر الذي هو مسخوط عند الله عَزَّوَجَلَّ أشد من سخطه سبحانه على أصحاب الشهوات، وهذا الكبر هو مرض إبليس وفرعون وسائر المتكبرين الذين عادوا ربهم عَزَّوَجَلَّ، وهو مرض عضال لابدَّ أن يتخلص منه العبد، فَيُقدر سبحانه على عبده السيئة لحكمة بالغة، فيذله بها، فينكسر لربه سبحانه ويعلم أنه لا يصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ إلا بفضله ورحمته لا بعمله، ويعلم أنه لن يدخل الجنة إلا أن يتغمده الله عَزَّوَجَلَّ برحمته، فليس له إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ نصيرًا ووكيلًا يتوكل عليه في أمر دينه قبل أمر دنياه، وفي أمر آخرته قبل أمر معاشه، وليس له ملجأ من الله إلا إليه سبحانه، فهو يحتاج إلى الله عَزَّوَجَلَّ ربًّا غفورًا رحيمًا توَّابًا كريمًا.

فإذا قدَّر الله عَزَّوَجَلَّ على عبده المؤمن ذلك، وفعل العبد ما يسخط الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ثم منَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليه بالتوبة، وأخذ بقلبه إليه فجاء العبد تائبًا نادمًا ذليلًا منكسرًا معترفًا بذنبه لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، عائدًا إلى طاعته سبحانه بعد أن كان على معصيته؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يفرح بتوبته فرحًا شديدًا.

وفِعْلُ الله عَزَّوَجَلَّ هذا ترتب على فعل العبد الذي هو أثر من أفعال الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الذي وفق العبد للتوبة، وهو سبحانه الذي أخذ بقلبه إليه وتاب عليه ليتوب، ففي النهاية هو فعل من أفعاله عَزَّوَجَلَّ وهو أثر لفعل من أفعاله عَزَّوَجَلَّ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة].

وتوبة العبد تكون بين توبتين من الله عَزَّوَجَلَّ؛ توبة قَبْلها وتوبة بعدها، وهذا الحديث من أعظم ما رغب به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصحابه وأمته في أن يتوبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن العبد إذا علم أن حبيبه ومولاه الذي يحبه أكثر من كل شيء يريد عودته إليه، ويحب إنابته إليه، ويحب رجوعه إلى طاعته ويفرح بها فرحًا عظيمًا، وكيف يتوانى ويتأخر عن الرجوع إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟!

- والإنسان في حياته ربما يخطئ في حق من له عليه حق، لكن يخشى إن رجع إليه أن يسيء إليه، وأن يتجهم في وجهه، وألَّا يحسن استقباله؛ فيتردد في الرجوع، ويظن في نفسه أن صاحب الحق لا يقبله، لكن إذا علم العبد أن صاحب الحق قد أخبر أخص جلسائه ومن عنده بأنه ينتظر هذا الشخص الذي له الحق عنده، وأنه إذا جاء فتح له بابه، وأنه سوف يستقبله بنفسه، وأنه يفرح بعودته فرحًا شديدًا إذا عاد إليه، فهل يبقى لهذا المحب -لو كان محبًّا صادقًا- عذرٌ في أن يرجع إلى صاحب الحق، وأن يتوب إلى من له عليه حق التوبة.

- فإذا أظهر العبد إلى ربه عَزَّوَجَلَّ الندم، وأظهر له اعترافه بالذنب والخطأ، وأظهر عزمه أنه لا يفارقه مرة أخرى وألَّا يعاود، وأقلع بالفعل عن الذنب، ربما كان منزلته بعد التوبة أفضل من منزلته قبل الذنب، وإذا به يُرفع بهذه التوبة التي هي عمل صالح يبدل الله به سيئات العبد حسنات، ويصير مكان كل معصية توبةٌ صادقة، وندمٌ على تلك المعصية، وعزمٌ على عدم العودة، وتركٌ وتخلٍّ عن المعصية.

- وإن كان الذنب في حقوق الآدميين قام بردها، فيصير بذلك مكان المعصية جملة من الطاعات، وبهذا يبدل الله سيئاته حسنات، ويوم القيامة يجد أثر ذلك أن هذه المعاصي -بعد أن يقر بها ويعترف مرة ثانية- قد بُدِّلَت حسنات، حتى ليتمنى أن كل ذنوبه تكون قد عرضت عليه، كما جاء في حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار وآخر أهل الجنة دخولًا الجنة، يؤتى برجل، فيقول: سلوا عن صغار ذنوبه واخْبَئُوا كِبَارَها. فيقال له: عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا، عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا**» قال: «**فيُقال: له فإن لك مكانَ كُلِّ سيئةٍ حسنةً**»، قال: «**فيقول يا رب لقد عملت أشياء ما أراها هاهنا**» قال: فلقد رأيت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ضَحِكَ حتى بدت نواجِذُهُ»[1].

ولذلك قال الله تعالى: ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [الفرقان:٧٠].

واختلف العلماء في معنى تبديل السيئات حسنات، منهم من قال: أن العبد صار يعمل الطاعات بدلًا من عمل المعصية، وهذا معنى صحيح، بل هو من لوازم التوبة، وبعض العلماء يجعله من شروطها، ومن لوازم صدقها أن يعمل الطاعات بدلًا من المعاصي في الدنيا، وأثر ذلك يظهر في الآخرة. والقول الثاني أن المعاصي نفسها تبدل

---

(١) رواه مسلم (١٩٠)، والترمذي (٢٧٢٣) من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وتصبح حسنات؛ لأن التوبة محتها، وأن التوبة نفسها عمل صالح، فصارت التوبة محل هذه السيئات: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ الآية.

وهذا كله يجعل العبد يعلم حكمة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته وفضله، ويوقن بفرحه عَزَّوَجَلَّ اللائق بجلاله، وهذا من أعظم ما يجعله يشتاق إلى أن يعود إلى الله سبحانه.

- وتبًّا وهلاكًا على من لا يقع في قلبه إلا التكذيب عند سماع هذا الحديث، فلا يقع في قلبه أبدًا أيُّ معنًى حسن، أو معنى جميل، فيقول إن الفرح لا يجوز على الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه قسوة وغلظة في القلب والطباع، فيكون أول ما يعلمه من الحديث أن يقول: لابدَّ من التأويل ولابدَّ أن يُصرف عن ظاهره؛ لأن ظاهره لا يليق بالله -زعمًا وكذبًا-.

فهؤلاء المؤولون يحرمون التائبين من أعظم ما يسعدون به، وهو أن يستشعر العبد أن ربه يفرح بتوبته. والعبد يجد آثار هذا الفرح بسعادة وسرور وراحة نفس واطمئنان قلب؛ لأن أثر فرح الرب عَزَّوَجَلَّ بتوبة العبد لابد أن يظهر عليه، وهكذا العبد يفرح فرحًا عظيمًا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قَبِلَهُ، وأنه وفَّقَهُ للخير بعد أن كان مخذولًا متروكًا موكولًا إلى نفسه وشيطانه، متروكًا مع الهمل الرعاع الذين لا خير فيهم، ثم اجتباه ربه واصطفاه واختاره بأن يبتعد عن هذا الهراء وهذا السخط مع التائهين والضائعين والهالكين، فلابدَّ أن تُظهر علامات الفرح على وجه التائب وقلبه.

- والعبد المؤمن ينبغي أن يحافظ دائمًا على رجوعه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فإن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هو المعصوم ومع ذلك يحافظ على مقام التوبة بشهود التقصير الدائم في حق الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان هذا التقصير في حقه عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ في ترك المستحبات، أو في ترك الأولى، أو الفتور عن الذكر، أو الخطأ في الاجتهاد، فهو صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يشاهد تقصيره دائمًا

حتى يقول للناس: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة**»[(١)].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إن كنا لنعد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجلس الواحد مائة مرة رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم**»[(٢)].

فإذا كان هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو لا يتعمد قطعًا أن يعصي الله عَزَّوَجَلَّ يرى نفسه مقصرًا مائة مرة في اليوم الواحد، فلابدَّ للعبد أن يحافظ على مقام الرجوع والتوبة ورؤية التقصير، وليحذر العبد أن يرى في عمله كمالًا فإن ذلك أضر عليه من المعصية.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية»: (وفي هذا الحديث إثبات صفة الفرح لله عَزَّوَجَلَّ، والكلام فيه كالكلام في غيره من الصفات: أنه صفة حقيقية لله عَزَّوَجَلَّ، على ما يليق به، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته، فيحدث له هذا المعنى المعَبَّر عنه بالفرح عندما يُحدِثُ عَبدُهُ التوبةَ والإنابةَ إليه، وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب، وقبوله توبته.

وإذا كان الفرح في المخلوق على أنواع؛ فقد يكون فرح خفة وسرور وطرب، وقد يكون فرح أشر وبطر؛ فالله عَزَّوَجَلَّ منزه عن ذلك كله، ففرحه لا يشبه فرح أحد من خلقه، لا في ذاته، ولا في أسبابه، ولا في غاياته، فسببه كمال رحمته وإحسانه التي يحب من عباده أن يتعرضوا لها، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود.

وأما تفسير الفرح بلازمه، وهو الرضا، وتفسير الرضا بإرادة الثواب؛ فكل ذلك نفي وتعطيل لفرحه ورضاه سبحانه، أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم، حيث توهموا أن هذه المعاني تكون فيه كما هي في المخلوق، تعالى الله عن تشبيههم وتعطيلهم) اهـ[1].

والثواب من لوازم الفرح بلاشكَّ، فإنَّ مَنْ فَرِحَ الله عَزَّوَجَلَّ بتوبته بلاشكَّ أنه يثيبه ويرضى عنه، لكن لا يُقال: الفرح لا يليق بالله، وأن الرضا لا يليق بالله، وإنما فقط إرادة التوبة: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ الآية [البقرة:١٤٠]، ولو كان الفرح معنى لا يليق بالله عَزَّوَجَلَّ لما قاله النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٦٦).

٣- إثبات صفة الضحك لله على ما يليق به سبحانه

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ**» [متفق عليه][1].

أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصفة الضحك لله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه الصفة من أعظم الصفات التي تجلب حسن الظن بالله، ورجاء الخير منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه لا يُعدم الخيرُ منه أبدًا عَزَّ وَجَلَّ، وقد سمع الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ هذه الصفة من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أخبرهم بأن الله عَزَّ وَجَلَّ يضحك فقالوا: «**لن نعدم من رب يضحك خيرًا**»[2].

فما دام أنه يضحك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلن نعدم الخير منه عَزَّ وَجَلَّ، وإنكار هذه الصفة دلالة على قسوة القلب، بل إن وجود الضحك في بني الإنسان فإذا شاء الإنسان أن يضحك على ما يليق بالمخلوقين فهذا كمال للإنسان بالنسبة لمن دونه من بقية المخلوقات، والله عَزَّ وَجَلَّ أولى بكل كمال، وكل كمال ثبت للمخلوق فالله عَزَّ وَجَلَّ أولى به، وكل نقص في حق المخلوق فالله عَزَّ وَجَلَّ أولى أن ينزه عنه. والضحك مرده إلى كمال الإرادة والرحمة والجود والكرم، والضحك في حق الإنسان إذا شاء دليل على الحكمة عند البشر، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ أولى بذلك أنه يضحك عَزَّ وَجَلَّ إذا شاء على ما يليق به عَزَّ وَجَلَّ، ليس ضحكًا يشبه ضحك المخلوقين، ولذلك تأثَّرَ الصحابة مباشرة لما سمعوا من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الصفة

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه (١٨١)، وأحمد في «مسنده»، والطبراني في «الكبير» (٤٦٩)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨١٠) من حديث أبي رزين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ولم يردوها كما وقع من المتأولين حينما يسمعون النصوص التي فيها إثبات الضحك، فيؤولونها إلى الإرادة أو الثواب، وهذا من التحريف، ومن الباطل.

وأمَّا أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتبعهم على ذلك أهل السنة فإنهم أول ما سمعوا أن الرب عَزَّ وَجَلَّ يضحك قالوا: «**لن نعدم من رب يضحك خيرًا**»[(١)] الحديث.

وهو سبحانه يُظهر حبه عَزَّ وَجَلَّ لعباده المؤمنين بضحكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا تجلى لهم يوم القيامة، كما في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء الرب** عَزَّ وَجَلَّ **إلى المؤمنين، فوقف عليهم، والمؤمنون على كوم، فيقول: هل تعرفون ربكم** عَزَّ وَجَلَّ**؟ فيقولون: إن عرَّفنا نفسه عرفناه. فيقول لهم الثانية: هل تعرفون ربكم؟ فيقولون: إن عرَّفنا نفسه عرفناه. فيضحك في وجوههم، فيخرون له سجدًا**»[(٢)]، وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يتجلى لنا ربنا** عَزَّ وَجَلَّ **يوم القيامة ضاحكًا**»[(٣)] فيفرحون بذلك أعظم الفرح، ويتنعمون بذلك أعظم النعيم الذي لا يوصف، وهذا النعيم لا يلتفت إلى ما دونه من أي نعيم مخلوق من مأكل ومشرب ومنكح وملبس، وهذا أعظم السعادة.

- وإذا كان العبد يستبشر ويسعد إذا ضحك له كبيرٌ أو صاحب جاه أو منزلة في الدين أو الدنيا، فما الظن إذا ضحك الرب عَزَّ وَجَلَّ إلى عباده؟! ولذا فإن أهل البدع حرموا أنفسهم، وحرَّفوا ذلك وأوَّلوه، فأنكروا أعظم أسباب السعادة التي ينالها العباد.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) **صحيح**: رواه ابن خزيمة في «التوحيد» (١٥٣)، وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٥٦).

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» (١٥٣)، وأحمد (٤/ ٤٠٧)، والآجري في «الشريعة» (٣٨٠)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٥٥).

وهذه الصفة شأنها شأن صفات الأفعال له عَزَّوَجَلَّ المعلقة على المشيئة، أنها أزلية النوع حادثة الأعيان، أي: أنه عَزَّوَجَلَّ له صفة الضحك أزلًا، لكن آحاد الضحك فيكون حين يشاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهذا الحديث بيَّن ذلك، أن المسلم قاتَلَ في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ فقتله الكافر، فدخل المسلم الجنة، ثم أسلم الكافر، وقاتل في سبيل الله مثل أخيه المسلم الأول الذي قُتِلَ على يديه حين كان كافرًا، ففعل الثاني نفس فعل الأول من الاستشهاد في سبيل الله، وأراد نفس مراده وهو الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام وإعلاء كلمة الله عَزَّوَجَلَّ وهداية الناس، فاجتماع الأمران كان سببًا لضحكه عَزَّوَجَلَّ.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (يثبت أهل السنة والجماعة الضحك لله عَزَّوَجَلَّ -كما أفاده هذا الحديث وغيره- على المعنى الذي يليق به سبحانه، والذي لا يشبهه ضحك المخلوقين عندما يستخفهم الفرح، أو يستفزهم الطرب؛ بل هو معنى يحدث في ذاته عند وجود مقتضيه، وإنما يحدث بمشيئته وحكمته؛ فإن الضحك إنما ينشأ في المخلوق عند إدراكه لأمر عجيب يخرج عن نظائره، وهذه الحالة المذكورة في هذا الحديث كذلك، فإن تسليط الكافر على قتل المسلم مدعاة في بادئ الرأي لسخط الله على هذا الكافر، وخذلانه، ومعاقبته في الدنيا والآخرة، فإذا مَنَّ الله على هذا الكافر بعد ذلك بالتوبة، وهداه للدخول في الإسلام، وقاتل في سبيل الله حتى يستشهد فيدخل الجنة؛ كان ذلك من الأمور العجيبة حقًّا.

وهذا من كمال رحمته وإحسانه وسعة فضله على عباده سبحانه؛ فإن المسلم يقاتل في سبيل الله، ويقتله الكافر، فيكرم الله المسلم بالشهادة، ثم يَمُنُّ على ذلك القاتل، فيهديه للإسلام، والاستشهاد في سبيله، فيدخلان الجنة جميعًا.

وأمَّا تأويل ضحكه سبحانه بالرضا، أو القبول، أو أن الشيء حلَّ عنده بمحل ما يضحك منه، وليس هناك في الحقيقة ضحك؛ فهو نفي لما أثبته رسول الله ﷺ لربه، فلا يلتفت إليه) اهـ[1].

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٦٧-١٦٨).

٤- إثبات صفة التعجب لله تعالى على ما يليق به سبحانه

وقوله: «عَجِبَ رَبُّنا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وقُرْبِ غِيَرِه، يَنْظُرُ إليكم أزلين قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُم قَرِيبٌ»[(١)] [حديث حسن].

هذا الحديث يثبت صفتين من صفات الرب عَزَّوَجَلَّ، يثبت صفة العَجَب، وهو عَجَب ليس كعجب البشر الناشئ عن الجهل، بل العجب في حق الله عَزَّوَجَلَّ بسبب اجتماع أمرين متناقضين، أو يستغرب في العادة لاجتماعهما، فهي صفة لائقة به عَزَّوَجَلَّ، والصفة الثانية التي أثبتها الحديث هي صفة الضحك -كما تقدَّم-.

فإن الرب عَزَّوَجَلَّ يعجب من يأس عباده بسبب عدم نزول المطر وقرب خيره وفرجه وتغير الحال إلى الأحسن للإنسان، وكذلك في كل مصيبة تنزل بالإنسان حتى يكاد ييأس منها ولا يدري ما المخرج منها، والفرج قريب بإذن الله، لأن مع العسر يسرًا، وهو عَزَّوَجَلَّ ينظر إلى يأس عباده من المطر ومن غيره من أنواع الخير، ويعلم عَزَّوَجَلَّ قرب تغير الأمر وقرب خيره سبحانه إلى عباده.

وقوله «**ينظر إليكم (أزِلين)**» الحديث؛ والأَزِل بمعنى: اليائس المشفق على نفسه.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١١)، وابن ماجه (١٨) من حديث أبي رزين، وفي إسناده ضعف فيه وكيع بن حدس، وقد وردت صفة العجب في حديث الضيف عند البخاري (٤٨٨٩) من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**لقد عجب الله أو ضحك من فلان وفلانة**»، وما رواه البخاري في الجهاد باب «الأسارى في السلاسل» (٣٠١٠) من حديث أبي هريرة مرفوعًا (٦/ ١٤٥): «**عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل**».

وقوله: «**قنطين**»الحديث؛ هذا توكيد معنوي، والاثنان بمعنى واحد أي: يائسين قد استسلموا للموت، ويعلم عَزَّوَجَلَّ أن الفرج الذي ينزل من عنده قريب.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (هذا الحديث يثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفة العَجَب، وفي معناه قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**عجب ربك من شاب ليس له صبوة**»[(١)]. وقرأ ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيرُه: «بل عجبتُ ويسخرون»[(٢)] بضم التاء على أنها ضمير للرب جلَّ شأنه.

وليس عجبه سبحانه ناشئًا عن خفاء في الأسباب، أو جهل بحقائق الأمور؛ كما هو الحال في عجب المخلوقين؛ بل هو معنى يحدث له سبحانه على مقتضى مشيئته وحكمته وعند وجود مقتضيه، وهو الشيء الذي يستحق أن يتعجب منه.

وهذا العجب الذي وصفَ به الرسولُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّه هنا من آثار رحمته، وهو من كماله تعالى، فإذا تأخر الغيث عن العباد مع فقرهم وشدة حاجتهم، واستولى عليهم اليأس والقنوط، وصار نظرهم قاصرًا على الأسباب الظاهرة، وحسبوا أن لا يكون وراءها فرج من القريب المجيب؛ فيعجب الله منهم.

وهذا محل عجيب حقًّا؛ إذ كيف يقنطون ورحمته وسعت كل شيء، والأسباب لحصولها قد توفرت؟! فإن حاجة العباد وضرورتهم من أسباب رحمته، وكذا الدعاء بحصول الغيث، والرجاء في الله من أسبابها، وقد جرت عادته سبحانه في خلقه أن الفرج

---

(١) في إسناده ضعف، رواه أحمد (٤/ ١٥١)، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٦٥٨)، والصفة ثابتة بأدلة أخرى صحيحة كما قدمنا.

(٢) ثبتت القراءة عند الحاكم بسند صحيح (٢/ ٤٣٠)، وقال هذا حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف من القراء، قال ابن الجزري: «واختلفوا في ﴿عَجِبْتَ﴾ فقرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء، والباقون بفتحها». اهـ. «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٥٦).

مع الكرب، وأن اليسر مع العسر، وأن الشدة لا تدوم، فإذا انضم إلى ذلك قوة التجاءٍ وطمع في فضل الله، وتضرُّعٌ إليه ودعاء؛ فتح اللهم عليهم من خزائن رحمته ما لا يخطر على البال.

والقنوط مصدر (قنط)، وهو اليأس من رحمة الله؛ قال تعالى: ﴿**وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ**﴾ [الحجر:٥٦].

قوله: «**وقرب خيره**»؛ أي: فضله ورحمته. وقد روي: «**غيره**». والغير: اسم من قولك: غَيَّر الشيء فتغير.

وفي حديث الاستسقاء: «**من يكفر بالله يلق الغِير**»(١)؛ أي: تغير الحال، وانتقالها من الصلاح إلى الفساد.

قوله: «**آزلين قنطين**»: حالان من الضمير المجرور في «**إليكم**».

و«**أزلين**»: جمع أَزِل، اسم فاعل من الأَزْل؛ بمعنى الشدة والضيق. يقال: أزل الرجل يأزل أزلًا، من باب فرح؛ أي: صار في ضيق وجدب) اهـ(٢).

❁❁❁

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ١٤٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٨).

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٧٠-١٧١).

٥- إثبات صفة الرِّجْل والقَدَم لله سبحانه على ما يليق بجلاله

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَزالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ** -وفي رواية: **عَلَيهَا قَدَمَهُ**- **فَيَنْزَوِي بَعضُها إلَى بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ**». [متفق عليه][1].

هذا الحديث فيه إثبات صفة القَدَم والرِّجْل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الله يضع رجله على جهنم، فجهنم لا تمتلئ بالناس، وكونها تقول: ﴿ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴾ [ق:٣٠] يظل بذلك الخوف مسيطرًا على العباد؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ وعدها أن تمتلئ ولا يزال يلقى فيها وهي تقول: ﴿ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴾، فيكون الإنسان في خوف ورعب أنها لابدَّ أن تملأ، ولا يكف طلبها لمزيد من البشر والجن والحجارة، ولا يوقف طلبها لمزيد إلا الله عَزَّوَجَلَّ حين يضع عليها قدمه، فحينئذ تسكت وتقول: «**قط قط**».

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴾ [ق:٣٠].

والآية لها تفسيران؛ الأول: أن تقول: هل من مزيد بعد أن يضع عليها قدمه، أي ليس عندي مزيد، والتفسير الثاني: الذي دلَّ عليه الحديث أنها تقول: هل من مزيد أي تطلب مزيدًا من وقودها من الناس والحجارة؛ لأنها كبيرة جدًّا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[2].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٦٦١)، ومسلم (٢٨٤٨) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (٥٠٨٠) من حديث عبد الله بن مسعود.

وهذا مع قوة الملائكة العظيمة، ولذلك لا ينقطع الخوف من قلوب أهل الإيمان، ولا تطمئن قلوبهم يوم القيامة إلا حين يضع الجبار قدمه على النار.

وهذا الحديث فيه إثبات صفة ذاتية لله عَزَّوَجَلَّ وهي صفة الرِّجْل، وتسمى أيضًا صفة القَدَم لله تَبَارَكَوَتَعَالَى، وهو عَزَّوَجَلَّ قَدَمُهُ ورِجْلُه وكذا ساقه عَزَّوَجَلَّ لا تشبه أقدام ولا أرجل ولا سُوقَ المخلوقين، وهذه الصفات تجري مجرى بقية الصفات أنها تُثْبَت لله عَزَّوَجَلَّ على الوجه اللائق بعظمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

والحكمة في أن يضع رجله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فيها -وفيها بمعنى عليها- أنه سبحانه قد وعد أن يملأها كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ الآية [هود:١١٩]، ولما كان مقتضى رحمته وعدله سبحانه أنه لا يعذب أحدًا بغير ذنب، وكانت النار في غاية العمق والسعة، فحقق وعده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لها فيضع عليها قدمه، فحينئذٍ ينزوي بعضها إلى بعض أي يجتمع بعضها إلى بعض، ولا يبقى فيها فضل عن أهلها.

وأمَّا الجنة فيبقى فيها فضل عن أهلها مع كثرة ما أعطاهم وأوسع لهم عَزَّوَجَلَّ، فينشئ الله عَزَّوَجَلَّ خلقًا آخرين كما ثبت في الحديث: «**لا تزال جهنمُ يُلقَى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط بعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة**»[1].

فهذا عدله وحكمته وهو العزيز الحكيم، وهذا فضله ورحمته وهو الغفور الرحيم.

❋❋❋

(١) تقدَّم تخريجُه.

٦- إثبات النداء والصوت والكلام لله عَزَّوَجَلَّ

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ**» [متفق عليه][1]، **وقوله**: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ**»[2].

كلام الرب عَزَّوَجَلَّ مع آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يثبت التكليم، ويثبت الكلام بصوت، والتصريح بذكر الصوت.

فقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فينادي بصوت**» صريح جدًّا في إثبات أنه عَزَّوَجَلَّ يتكلم بصوت، وصوته عَزَّوَجَلَّ غير مخلوق.

وقوله: «**لبيك وسعديك**»؛ يعني أنا في طاعتك يا رب.

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**».

هذا في تكليم الرب عَزَّوَجَلَّ لعباده، يكلمهم ليس بينه وبين أحد منهم من يترجم؛ لأن العبد سوف يفهم الكلام مباشرة، وربه عَزَّوَجَلَّ أعلم به.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (في هذين الحديثين إثبات القول والنداء والتكليم لله عَزَّوَجَلَّ، وقد سبق أن بيَّنَّا مذهب أهل السنة والجماعة في ذلك، وأنهم يؤمنون بأن هذه صفات أفعال له سبحانه تابعة لمشيئته وحكمته، فهو قال، ويقول، ونادى، وينادي، وكلم، ويكلم، وأن قوله ونداءه وتكليمه إنما يكون بحروف وأصوات

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٤٨٣)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يسمعها من يناديه ويكلمه، وفي هذا ردٌّ على الأشاعرة في قولهم: إن كلامه قديم، وإنه بلا حرف ولا صوت.

وقد دلَّ الحديث الثاني على أنه سبحانه سيكلم جميع عباده بلا واسطة، وهذا تكليم عام؛ لأنه تكليم محاسبة، فهو يشمل المؤمن والكافر والبر والفاجر، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٧٤]؛ لأن المنفي هنا هو التكليم بما يَسُرُّ المكلَّم، وهو تكليم خاص، ويقابله تكليمه سبحانه لأهل الجنة تكليم محبة ورضوان وإحسان) اهـ[(١)].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٧٣).

٧- إثبات علو الله عَزَّوَجَلَّ على خلقه وفوقيته واستوائه على عرشه

وقوله في رقية المريض: «رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ والأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنا وخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الوَجَعِ؛ فَيَبْرَأُ»[١]. [حديث حسن رواه أبو داود وغيره].

وقوله: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[٢] [حديث صحيح].

وقوله: «والْعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، واللهُ فَوْقَ العَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُم عَلَيهِ»[٣]. [حديث حسن رواه أبو داود وغيره]

وقوله للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟» قالتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قالتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[٤] [رواه مسلم].

هذه جملة من الأحاديث التي تُثبت علو الله عَزَّوَجَلَّ على خلقه. والحديث الأول وهو حديث الرقية، بعض أهل العلم تكلم في هذا الحديث بنوع من التضعيف إلَّا أنه في فضائل الأعمال قد حسنه بعض أهل العلم، ومعاني الحديث ثابتة في الكتاب والسنة فيمكن العمل به في هذا الباب، وهو صريح في إثبات علو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وفوقيته.

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٩٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٥٧)، والطبراني في «الأوسط» (٨/ ٢٨٠)، والحاكم في «المستدرك» (١٢٧٢) وصحَّحه من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) تقدَّم تخريجُه.

وقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «رَبَّنَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ...» هذا تصريح بأنه سبحانه في السماء، وقد تقدَّم أن هذا الأمر له أحد معنيين عند أهل العلم؛ إمَّا أن تكون «في» بمعنى (على) وتكون السماء ظرف مكان، أي: السماء المخلوقة والله عَزَّوَجَلَّ فوقها، وهو عَزَّوَجَلَّ فوق العرش، والمعنى الثاني: أن السماء مصدر بمعنى العلو وليست السماء المكان المخلوق، فهو عَزَّوَجَلَّ الذي في العلو أي له صفة العلو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

۞ «**تَقَدَّسَ اسْمُكَ**» أي: تَطَهَّر وتنزَّه اسمه عَزَّوَجَلَّ، والمقصود: جنس أسمائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كلها مطَهَّرَة منزهة عن كل نقص، وصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كلها عُليا لا نقص ولا عيب فيها بوجه من الوجوه.

۞ وقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ والأَرْضِ**» أمر الله عَزَّوَجَلَّ نافذ في السماء والأرض وفي كل خلقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا توسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بربوبيته، ثم ألوهيته، ثم توسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بعلوِّه سبحانه، ثم بِتَقَدُّس أسمائه الحسنى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبإقرار العبد، ومعرفته بأن أمر الله عَزَّوَجَلَّ في السماء والأرض، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾ [يس:٨٢] والظاهر أن الأمر المقصود في هذا الحديث هو الأمر الكوني، وهذا مناسب أن يُتَوسَّل به في شفاء المريض، فإن المرض إنما وقع بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، والشفاء يكون بأمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كذلك، لا يأمر غيره.

۞ قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ**» رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وسعت كل شيء سبحانه وبحمده، لكن توجد في السماء رحمة خاصة ليس فيها إلا الأرواح الطيبة والخلق الذين رضي الله عَزَّوَجَلَّ عنهم، فإن الكفار لا تفتح لهم أبواب السماء، ولا ينالون هذه الرحمة الخاصة، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ**﴾ [الأعراف:٤٠].

وإنما في السماء ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ وأرواح النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهؤلاء قد رُحِموا الرحمة الخاصة بتوفيقهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فوفقهم سبحانه حتى عبدوه، كما رحمهم سبحانه رحمة خاصة في أرزاقهم، وعطاياهم حيث يكون فيها البركة والعافية، ويجعل الله عَزَّوَجَلَّ كل ما قضى لهم قضاءً فيه خير، فهذا سؤال لأجل هذا النوع من الرحمة أن تكون في الأرض عند عباد الله المؤمنين، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أولى مَن تكون له هذه الرحمة الخاصة.

۞ قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وخَطَايَانَا**»؛ لأن المصائب ومنها المرض إنما تصيب العباد بسبب ذنوبهم، والاستغفار يرفع العقاب قال تعالى: ﴿ **وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى:٣٠].

والحُوب: هو الذنب الكبير، والخطايا: الذنوب دون ذلك، وأصل الغَفْر الستر، وغفران الذنوب سترها ومحوها، فلم يعاقب العبد عليها ووقاه الله عَزَّوَجَلَّ آثارها، ومن آثارها المصائب ومنها المرض، وإذا وقاه الله عَزَّوَجَلَّ شر ذنبه عافاه الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه التوسلات بين يدي السؤال بنزول الشفاء وطلبه كلها متناسبة مع نزوله.

۞ وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ**» توسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بربوبيته للطيبين، وهم الأنبياء والصالحون والملائكة، فإنما هذه ربوبية خاصة، وأصل معنى الربوبية: الإصلاح، فهو عَزَّوَجَلَّ ربهم، يصلحهم ويصلح أحوالهم.

وإصلاحه لهم عَزَّوَجَلَّ يختلف عن إصلاحه لغيرهم؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ يصلح لهم دينهم ودنياهم وآخرتهم، وربوبيته لهم في الحماية والحفظ أضعاف ما حفظ به غيرهم.

۞ وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الوَجَعِ فَيَبْرَأَ**» فعلى الرغم من المقال في سنده إلا أن هذا الدعاء من أجمع الأدعية، وعليه من نور النبوة ما يشهد بصحته.

والشاهد في هذا الموضع قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَبَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ**» دلَّ على علو الله عَزَّ وَجَلَّ على خلقه.

۞ وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ...**»(١).

هذا الحديث الصحيح فيه أبلغ الرد على من يطعنون في حديث الجارية -ويأتي ذكره-، حيث يزعمون أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبِلَ منها قولها «**أن الله في السماء**» لأجل جهلها ولأجل أنها تريد التفرقة بين الأوثان وبين الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس أن الله في السماء، وهذا كلام باطل فيما يزعمون؛ فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي نطق بأن الله في السماء، وليس أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سكت عن الإنكار عليها لهذه العلة الباطلة التي يذكرها من يُشَغِّب على حديث الجارية، بل إن هذا الكلام سوء أدب مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسوء ظن فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه يسمع كلامًا يزعمون أنه كفر، ومع ذلك يسكت ولا ينكر على الجارية! بل هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي سأل الجارية وقال: «**أين**»، فكيف يُقال إن هذا كفر، وأنه سكت عن إنكاره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

وهذا الحديث الصحيح «**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ...**» يدلُّ على علو الله عَزَّ وَجَلَّ، و«**في السماء**» قد تقدَّم تفسيرها. وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمين مستأمن من عند الله عَزَّ وَجَلَّ على الوحي وإبلاغ الرسالة فكيف لا يأمنه الناس على قَسْم الغنائم ونحوها؟!

(١) جزء من حديث أبي سعيد الخدري، رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

۞ وقوله: «**والعَرْشُ فَوْقَ الماءِ واللهُ فَوْقَ العَرْشِ وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُم عَلَيهِ**»[(١)].

فيه إثبات علو الله عَزَّوَجَلَّ، والتصريح بالفوقية، وبلفظة «**فوق**» وهذه اللفظة الثابتة بالكتاب والسنة صارت غُصَّة في حلوق المبتدعة؛ فهم ينفونها ولا يقبلونها، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [النحل:٥٠] فأهل البدع يأبون لفظ الفوقية على الرغم أنها فوقية لائقة بجلال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا تشبه فوقية المخلوق على المخلوق، ولا يلزم منها ما يزعمونه من التحيز والجهة المخلوقة.

ونحن نقول إن لفظ (الجهة) المستخدم عندهم بمعنى الجهة المخلوقة، فهذا لابدَّ من إنكاره ونفيه بلا شك، وإنما الوارد في الأدلة هو لفظ «**فوق**»، ولذلك مسألة الجهة لابدَّ من التفصيل فيها؛ فإن كان يقصد بها المكان المخلوق فإن الله عَزَّوَجَلَّ منزه عن ذلك، ولا يحلُّ في مخلوقاته سبحانه، وأمَّا إن كان المقصود بالجهة بمعنى ما وراء هذا العالم، وما فوق العرش، وليس مكانًا مخلوقًا يحلُّ فيه الرب عَزَّوَجَلَّ فهذا لابدَّ من إثباته كما ورد في الكتاب والسنة.

۞ وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للجارية: «**أَيْنَ اللهُ؟**»، قالت: في السماء، قال: «**مَنْ أَنا؟**»، قالت: «أنت رسول الله»، قال: «**فَأَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[(٢)].

فيه الشهادة بالإيمان لمن علم أن الله في السماء وشهد للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالرسالة، وإذا كان لا يجوز أن نسأل عن الله عَزَّوَجَلَّ بأين كما يزعم أهل البدع فلماذا سأل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟! وهو حديث ثابت صحيح، ولذلك أهل البدع إمَّا يطعنون فيه، وإمَّا يؤلونه على غير وجهه.

---

(١) ورد عن ابن مسعود بلفظ «**العرش فوق الماء والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم**» صحَّحه الذهبي في العلو، ووافقه الألباني في مختصر العلو (ص١٠٣)، والصحيح أنه موقوف على ابن مسعود، والذي في سنن أبي داود بلفظ «**إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سماواته**».

(٢) رواه مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (٥٣٧).

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (الحديث الأول والثاني صريح في علوه تعالى وفوقيته؛ فهو كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] وقد سبق أن قلنا: إن هذه النصوص ليس المراد منها أن السماء ظرف حاوٍ له سبحانه؛ بل ﴿فِي﴾ إما أن تكون بمعنى (على) ؛ كما قاله كثير من أهل العلم واللغة، و(في) تكون بمعنى (على) في مواضع كثيرة؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، وإمَّا أن يكون المراد من السماء جهة العلو، وعلى الوجهين فهي نص في علوه تعالى على خلقه.

وفي حديث الرقية المذكور تَوَسُّلٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالثناء عليه بربوبيته وإلاهيته، وتقديس اسمه وعلوه على خلقه، وعموم أمره الشرعي، وأمره القدري، ثم توسل إليه برحمته التي شملت أهل سماواته جميعًا أن يجعل لأهل الأرض نصيبًا منها، ثم توسل إليه بسؤال مغفرة الحوب -وهو الذنب العظيم-، ثم الخطايا التي هي دونه، ثم توسل إليه بربوبيته الخاصة للطيبين من عباده، وهم الأنبياء وأتباعهم، التي كان من آثارها أن غمرهم بنعم الدين والدنيا الظاهرة والباطنة.

فهذه الوسائل المتنوعة إلى الله لا يكاد يرد دعاء من توسل بها، ولهذا دعا الله بعدها بالشفاء الذي هو شفاء الله الذي لا يدع مرضًا إلا أزاله، ولا تعلق فيه لغير الله.

فهل يفقه هذا عباد القبور من المتوسلين بالذوات والأشخاص والحق والجاه والحرمة، ونحو ذلك؟!(١).

(١) ليس كل متوسل بالذات والأشخاص والحق والحرمة عابدًا للقبور، لكن عباد القبور يغالون في الأشخاص ويصرفون العبادات لأصحاب القبور، ويقولون نحن نتوسل بهم، أمَّا التوسل بالحق والجاه والذات فهو محل خلاف بين أهل العلم، والصحيح فيه أنه بدعة، ولم يرد عن السلف -رضوان الله عليهم- فضلًا عن أنه لم يرد في الكتاب ولا في السنة ولا عن أحد من الأنبياء أنه توسل بذات أحد، هذا إذا خلا من عبادة القبور، وأمَّا إذا عُبِدَ المتوسَّل به بأن صُرِفَ له عبادة من العبادات كالدعاء والاستغاثة والذبح والنذر ونحو ذلك؛ فلا يغني عنه أن يسميه توسلًا ولابدَّ أن يُفَرق بين أنواع التوسل؛ فمنه الشرك

وأمَّا قوله: «**والعرش فوق الماء...**»إلخ؛ ففيه الجمع بين الإيمان بعلوه تعالى على عرشه، وبإحاطة علمه بالموجودات كلها.

فسبحان من هو عليٌّ في دنوه، قريبٌ في علوه!

وأمَّا الحديث الرابع ؛ فقد تضمن شهادة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإيمان للجارية التي اعترفت بعلوه تعالى على خلقه، فدلَّ ذلك على أن وصف العلو من أعظم أوصاف الباري جلَّ شأنه، حيث خصَّه بالسؤال عنه دون بقية الأوصاف، ودلَّ أيضًا على أن الإيمان بعلوه المطلق من كل وجه هو من أعظم أصول الإيمان، فمن أنكره؛ فقد حُرِم الإيمان الصحيح.

والعجب من هؤلاء الحمقى من المعطلة النفاة زعمهم أنهم أعلم بالله من رسوله، فينفون عنه الـ(أين) بعدما وقع هذا اللفظ بعينه من الرسول مرة سائلًا غيره -كما في هذا الحديث-، ومرة مجيبًا لمن سأله بقوله: أين كان ربنا؟[(١)] اهـ[(٢)].

❁❁❁

الأكبر وهو صرف العبادة لغير الله، ومنه ما هو شرك أصغر وهو ذريعة للشرك الأكبر مثل أن يسأل المقبورين الدعاء، ومنه ما هو مختلف فيه والراجح أنه بدعة مثل السؤال بالحق والجاه فيلزم التنبيه.

(١) رواه الترمذي (٣١٠٩)، وابن ماجه (١٨٢)، وأحمد (٤/ ١١)، وحسَّنه الترمذي والذهبي، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الترمذي»، من حديث أبي رزين العقيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٧٥-١٧٧).

٨- إثبات معيَّة اللَّه عَزَّوَجَلَّ لخلقه وأنها لا تُنَافي علوّه فوق عرشه

وقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الإِيْمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ» [حديث حسن](١). وقوله: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ؛ فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ» [متفق عليه](٢)، وقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ والأَرضِ، وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، مُنَزِّلَ التَّورَاةِ والإِنْجِيلِ والقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيتِهَا، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْس قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْس بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْس فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وأَغْنِنِي مِنَ الفَقْرِ» [رواه مسلم](٣). وقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما رفع الصحابة أصواتهم بالذكر: «أَيُّهَا النَّاسُ! أَرْبِعوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيْعًا بَصِيْرًا قَرِيْبًا. إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(٤).

هذه الأحاديث ساقها شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ بعد أن ذكر أدلة علو الله عَزَّوَجَلَّ، قصد بذلك أن يثبت معها أدلة المعية والقرب حتى لا يُفهم أن هناك منافاةً بين علوه عَزَّوَجَلَّ وبين قربه من عباده قرب العلم والإحاطة ومعية السمع والبصر والعلم والقدرة وسائر

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨/ ٣٩٥)، ورواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٥٤١) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٠٦)، ومسلم (٤٧)، (٥٠) من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٣) رواه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٢٠٥)، (٧٤٣٤)، ومسلم (٢٧٠٤)، (٤٤) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

مقتضيات هذه المعية، وكذا معية النصرة والتأييد والإجابة، وهذا قربه سبحانه من داعيه ومناجيه.

۞ وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ؛ فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ**» [متفق عليه][(١)].

هذا الحديث ليس فيه تعارض بين أن الله عَزَّوَجَلَّ فوق العرش، وأنه عَزَّوَجَلَّ قِبَل وجه المصلي، فإنه عَزَّوَجَلَّ فوق العرش، وهو أيضًا قِبَل وجه المصلي، وهو سبحانه مع عباده حيثما كانوا يعلم ما هم عليه.

والظاهر أن المعية في حديث عبادة بن الصامت المتقدم «**أن تعلم أن الله معك حيثما كنت**»[(٢)] هي المعية العامة أي: معية السمع، والبصر، والعلم، والإحاطة، والمراقبة، وأما حديث ابن عمر: «**فإن الله قِبَلَ وجهه...**»[(٣)] الحديث، فهذا قرب خاص، ومعية خاصة أنه سبحانه يكون قِبَل وجه المصلي خاصة، حيث يدعوه ويناجيه ويتضرع إليه فيكون في هذا معنى العناية والرعاية، بالإضافة إلى إثبات علو الله تعالى على خلقه، فلا تعارض ولا تناقض بين نصوص الكتاب والسنة.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية»: (فيه دلالة على أن أفضل الإيمان هو مقام الإحسان والمراقبة، وهو أن يعبد العبد ربه كأنه يراه ويشاهده، ويعلم أن الله معه حيث كان، فلا يتكلم ولا يفعل ولا يخوض في أمر إلا والله رقيب مطلع عليه؛

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١].

---

(١) تقدَّم تخريجه.
(٢) تقدَّم تخريجه.
(٣) تقدَّم تخريجه.

ولا شكَّ أن هذه المعية إذا استحضرها العبد في كل أحواله؛ فإنه يستحيي من الله عَزَّوَجَلَّ أن يراه حيث نهاه، أو أن يفتقده حيث أمره، فتكون عونًا له على اجتناب ما حرَّم الله، والمسارعة إلى فعل ما أمر به من الطاعات على وجه الكمال ظاهرًا وباطنًا، ولا سيما إذا دخل في الصلاة التي هي أعظم صلة ومناجاة بين العبد وربه، فيخشع قلبه، ويستحضر عظمة الله وجلاله، فتقل حركاته، ولا يسيء الأدب مع ربه بالبصق أمامه أو عن يمينه.

قوله: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة...**» إلخ؛ دَلَّ على أن الله عَزَّوَجَلَّ يكون قِبَل وجه المصلي.

قال شيخ الإسلام في «العقيدة الحموية»: «إن الحديث حَقٌّ على ظاهره، وهو سبحانه فوق العرش، وهو قِبَل وجه المصلي، بل هذا الوصف يَثْبُتُ للمخلوقات؛ فإن الإنسان لو أنه يناجي السماء أو يناجي الشمس والقمر؛ لكانت السماء والشمس والقمر فوقه، وكانت أيضا قبل وجهه») اهـ[1].

۞ وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّماوَاتِ السَّبْعِ والأَرضِ، وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، مُنَزِّلَ التَّورَاةِ والإنْجِيلِ والقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيتِهَا، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وأغْنِنِي مِنَ الفَقْرِ**»[2].

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (تضمن الحديث إثبات أسمائه تعالى: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وهي من الأسماء الحسنى، وقد فسرها

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٨٠).
(٢) رواه مسلم برقم (٢٧١٣)، (٦١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما لا يدع مجالًا لقائل، فهو أعلم الخلق جميعًا بأسماء ربه، وبالمعاني التي تدل عليها، فلا يصح أن يُلتَفَت إلى قول غيره أيًّا كان.

وفي الحديث أيضًا يعلمنا نبينا -صلوات الله وسلامه عليه وآله- كيف نثني على ربنا عَزَّ وَجَلَّ قبل السؤال، فهو يثني عليه بربوبيته العامة التي انتظمت كل شيء، ثم بربوبيته الخاصة الممثلة في إنزاله هذه الكتب الثلاثة تحمل الهدى والنور إلى عباده، ثم يعوذ ويعتصم به سبحانه من شر نفسه ومن شر كل ذي شر من خلقه، ثم يسأله في آخر الحديث أن يقضي عنه دَيْنَه، وأن يغنيه من فقر) اهـ[1].

وهذه الأسماء لله عَزَّ وَجَلَّ وردت في سورة الحديد وهي من المسبِّحات، وفي الأثر الوارد عن العرباض بن سارية: (**أن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كان يقرأ المسبِّحات قبل أن يرقد، ويقول: «إنَّ فِيهِنَّ آيةً خَيْرٌ مِن ألفِ آيةٍ»**)[2].

ورجَّح ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية التي تعدل ألف آية هي الواردة في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿**هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد:٣].

وقد أحسن الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيانه للتعبد بهذه الأسماء الحسنى مع شرحها، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «طريق الهجرتين»: «فمعرفة هذه الأسماء الأربعة: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه، واعلم أن لك أنت أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، بل كل شيء فله أول، وآخر، وظاهر، وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس، وأدنى من ذلك وأكثر فأولية الله عَزَّ وَجَلَّ سابقة على أولية كل ما سواه وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٨٠-١٨١).

(٢) **حسن**: رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وحسَّنه الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي» رقم (٢٩٢١)، (٣٤٠٦)، (٣١٠١).

سَبْقُه لكل شيء، وآخريتُه بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريتُه سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة وهي إحاطتان زمانية ومكانية، فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده، فالأول قِدَمُه، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه، فسَبَق كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا توارى منه سماء سماءً ولا أرض أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهر باطنًا، بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية، فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

والتعبد بهذه الأسماء رتبتان:

الرتبة الأولى: أن تشهد الأولية منه تعالى في كل شيء، والآخرية بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه، فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب. والرب جَلَّجَلَالُهُ ليس دونه شيء أقرب إلى الخلق منه.

والمرتبة الثانية من التعبد: أن يعامل كل اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تعالى بأوليته لكل شيء وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إفراده،

وعدم الالتفات إلى غيره والوثوق بسواه والتوكل على غيره، فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا، حتى سمَّاك باسم الإسلام، ووَسَمك بسمة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقطعك في ذلك الغيب عمالات المؤمنين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد، ثم وجَّه وجهة قلبك إليه سبحانه دون ما سواه، فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدق في القِدَم أن يتم عليك نعمة هو ابتدأها وكانت أوليتها منه بلا سبب منك، واسْمُ بهمتك عن ملاحظة الاختيار، ولا تركنن إلى الرسوم والآثار، ولا تقنع بالخسيس الدون، وعليك بالمطالب العالية، والمراتب السامية التي لا تُنال إلا بطاعة الله، فإن الله سبحانه قضى أن لا يُنال ما عنده إلا بطاعته، ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقاه من بعيد، ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد، ثم اسْمُ بسرِّك إلى المطلب الأعلى، واقصر حبك وتقربك على من سبق فضله وإحسانه إليك كلَّ سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب، وهيأ لك وصرف عنك موانعها، وأوصلك بها إلى غايتك المحمودة، فتوكل عليه وحده، وعامله وحده، وآثر رضاه وحده، واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفًا بها مستلمًا لأركانها واقفًا بملتزمها.

فيا فوزك ويا سعادتك إن اطلع سبحانه على ذلك من قلبك، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخلَع أفضاله! اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، سبحانك وبحمدك، ثم تَعَبَّدْ له باسمه (الآخر) بأن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه ولا مطلوب لك وراءه، فكما انتهت إليه الأواخر وكان بعد كل آخر، فكذلك اجعل نهايتك إليه فإن إلى ربك المنتهى، إليه انتهت الأسباب والغايات فليس وراءه مرمى ينتهي إليه، وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه (الظاهر).

وأما التعبد باسمه (الباطن)؛ فإذا شهدت إحاطته بالعوالم، وقرب العبيد منه، وظهور البواطن له، وبدو السرائر، وأنه لا شيء بينه وبينها، فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهر له سريرتك؛ فإنها عنده علانية، وأصلح له غيبك؛ فإنه عنده شهادة، وزكِّ له باطنك، فإنه عنده ظاهر.

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعة جماع المعرفة بالله وجماع العبودية له! فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنته، فلا يَرى لغيره شيئًا إلا به وبحوله وقوته، وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو مما كان يستند إليه، أو يتحلى به، أو يتخذه عقدة، أو يراه ليوم فاقته، أو يعتمد عليه في مهمة من مهماته، فكل ذلك من قصور نظره وانعكاسه عن الحقائق والأصول إلى الأسباب والفروع كما هو شأن الطبيعة والهوى وموجَب الظلم والجهل والإنسان ظلوم جهول»[١].

۞ وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيها الناس! أربِعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنما تدعون: سميعًا، بصيرًا، قريبًا. إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[٢].

الظاهر من هذا القرب أنه قرب خاص بالداعين، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريب مجيب ممَّن دعاه، وأما القرب العام فهو لمن دعاه ومن لم يدعه، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القريب من خلقه بأنواع القُرْب المختلفة التي دلَّ عليها الكتاب والسنة.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (أفاد هذا الحديث قربه سبحانه من عباده، وأنه ليس بحاجة إلى أن يرفعوا إليه أصواتهم؛ فإنه يعلم السر

---

(١) «طريق الهجرتين» (٤٦-٥٠) ط. المجمع الفقهي بجدة، إشراف: الشيخ بكر أبو زيد.
(٢) تقدَّم تخريجُه.

والنجوى، وهذا القرب المذكور في الحديث قرب إحاطة، وعلم، وسمع، ورؤية، فلا ينافي علوه على خلقه) اهـ[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٨١).

٩- إثبات رؤية المؤمنين لربهم عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة

وقوله: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا**»[(١)].

[متفق عليه].

هذا الحديث في إثبات رؤية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الآخرة، وفيه تشبيه رؤيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ برؤية القمر ليلة البدر، وهذا ليس تشبيه المرئي بالمرئي، بل تشبيه الرؤية بالرؤية في الوضوح، وأنها واقعة قطعًا ويقينًا بغير مشقة.

۞ وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا تضامُّون**» بتشديد الميم وهو من الضم، وذلك أن الشيء الذي لا يُرى إلا بصعوبة من جهة واحدة يحتاج الناس أن يضم بعضهم إلى بعض حتى يتمكنوا من الرؤية، وأما الشيء الواضح الرؤية كالشمس، والقمر ليلة البدر فإن كل الناس يتمكنون من الرؤية دون أن ينضم بعضهم إلى بعض.

وأما رواية «**لا تضامون**» بتخفيف الميم فمشتق من الضيم وهو: التعب، والمشقة، والعنت، والمعنى: أي لا يصيبكم تعب ولا مشقة لأجل الرؤية؛ فسوف ترونه رؤية جلية ظاهرة. وفي رواية للحديث: «**تضارون**»[(٢)] بدلاً من «**تضامون**» بالتخفيف والتشديد وهو نفس المعنى.

وقد سبق أن بينا هذه المسألة في شرح الآيات، وهي من عقيدة أهل السنة والجماعة أن أعظم نعيم أهل الجنة رؤيتهم ربهم تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وسبق أيضًا ذكر الاختلاف في من يراه عَزَّوَجَلَّ هل هم أهل الموقف جميعًا، أم المؤمنون والمنافقون، أم المؤمنون فقط، فلا نزاع عند

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٥٤)، (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٠٨٨)، ومسلم (٢٦٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أهل السنة على رؤية المؤمنين ربهم عَزَّوَجَلَّ وهذا مجمع عليه ومقطوع به، ويُبَدَّع ويُضلَّل مَنْ خالفه، ووردت الأحاديث المتواترة الثابتة في ذلك عن أكثر من ثلاثين صحابيًّا، ومن بلغته تلك الأحاديث المتواترة فكَذَّب بها كان ذلك كفرًا إلا أن يكون هناك شبهة تأويل.

۞ وأما قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا...**» الحديث، إشارة إلى أن المحافظة على صلاة الصبح وصلاة العصر في الجماعة سبب لنيل الدرجات العلى عند الله في الجنان التي هي سبب لرؤية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وذلك كما قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**من صلَّى البردين دخل الجنة**»[(١)].

وذلك أن من حافظ على هاتين الصلاتين: الصبح، والعصر كان أدعى إلى المحافظة على غيرها من الصلوات الخمس.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (المراد تشبيه الرؤية بالرؤية، لا تشبيه المرئي بالمرئي؛ يعني: أن رؤيتهم لربهم تكون من الظهور والوضوح كرؤية القمر في أكمل حالاته، وهي كونه بدرًا، ولا يحجبه سحاب، ولهذا قال بعد ذلك: «**لا تضامون في رؤيته**»؛ روي بتشديد الميم من التضام؛ بمعنى: التزاحم والتلاصق، والتاء يجوز فيها الضم والفتح، على أن الأصل تتضامون، فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا، وروي بتخفيف الميم من الضيم؛ بمعنى: الظلم؛ يعني: لا يلحقكم في رؤيته ضيم ولا غبن.

وفي حثِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث على صلاة العصر، وصلاة الفجر خاصة إشارة إلى أن من حافظ عليهما في جماعة نال هذا النعيم الكامل، الذي يضمحل بإزائه كل نعيم، وهو يدلُّ على تأكيد هاتين الصلاتين كما دلَّ على ذلك الحديث الآخر: «**يتعاقبون**

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٤٩)، ومسلم (٦٣٥) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وصلاة العصر» [متفق عليه][(١)]) اهـ[(٢)].



(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٤٢٩) واللفظ له، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٨٢).

بيان منهج أهل السنة في تلقي الأحاديث التي فيها ذكر صفات الله تعالى

إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه بما يخبر به؛ فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه؛ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم الوسط في فِرَق الأمة؛ كما أن الأمة هي الوسط في الأمم.

❁ قوله رَحِمَهُ اللهُ: [**إلى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه بما يخبر به**]؛ أي: بالأسماء والصفات والأفعال.

❁ وقوله رَحِمَهُ اللهُ: [**فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك**]؛ وصف رَحِمَهُ اللهُ في أول هذا المصنف هذا الاعتقاد بأنه اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة، وهذه النجاة لأجل قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**... وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة وهي الجماعة...**»[1] الحديث.

وجاء أيضًا في وصفها قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة**»، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[2].

---

(١) **حسن**: رواه أبو داود (٤٥٩٧)، وغيره وصحَّحه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٥)، والشاطبي في الاعتصام (١/ ٤٣٠)، والعراقي في تخريج الإحياء (٣/ ١٩٩)، وحسَّنه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٥٩٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان.

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٢٦٤١)، وحسنه العراقي في تخريج الإحياء (٣/ ٢٨٤)، والألباني في صحيح الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو.

- وسبق بيان ذلك أنهم (أهل السنة)؛ لأنهم يلتزمون بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي المصدر الثاني للتشريع، ومنها يُتلَقَّى أمورُ الدين كلُّها من اعتقاد وعمل، بعد كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

- و(الجماعة) لأنهم كانوا على ما كانت عليه جماعة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وما أجمعوا عليه في أمور الاعتقاد والعمل أنه من الدين، ويأمرون بالاجتماع على ذلك، ويحثون على عدم التفرق والاختلاف.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [**كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه، من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل...**]؛ أي: كما قررنا هذا في بيان آيات القرآن نقرره في أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تحريف وميل عن الحق في تفسير هذه النصوص.

والتعطيل هو: النفي والإنكار لهذه النصوص. والتكييف هو: اعتقاد كيفية معينة لصفات الله عَزَّ وَجَلَّ، أو تصور شكل معين في ذلك، وإذا وقع في القلب شكل معين أو تصور لصفات الله فلابد من صرفه، وهو من الشيطان؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ومن غير تمثيل وتشبيه الله عَزَّ وَجَلَّ بخلقه.

❁ ❁ ❁

منزلة اهل السنة بين فِرَق الأمة

بل هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم فهم وسط في صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة، وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية.

كما أن أمة الإسلام وسط بين الذين شبهوا الله عَزَّوَجَلَّ بخلقه كاليهود والنصارى، وبين الذين نفوا صفات الله عَزَّوَجَلَّ من الفلاسفة، والملاحدة، والمعطلة، وأيضًا في باب النبوات فأهل الإسلام وسط؛ فلا يغالون في شأن الأنبياء كغلو النصارى، ولا يفرطون في حقهم، ولا يهينوهم، ولا يكذبونهم، ولا يقتلونهم كما فعل اليهود، فإن النصارى غالوا في نبيهم حتى ألهوه وعبدوه، وإن اليهود سعوا في قتله، بل قتلوا غيره من رسل الله وأنبيائه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

- وربنا عَزَّوَجَلَّ قد وصف هذه الأمة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ...﴾ الآية [البقرة:١٤٣]؛ ومعنى وسطًا أي: عدولًا، لأن الحق بين طرفين، والوسط: خيار الشيء أي: أفضله، وأمة الإسلام وسط بمعنى أنها أفضل أمة، وكذا أهل السنة أفضل المسلمين المنتسبين إلى القبلة، وهم بين الإفراط والتفريط، والغالي والجافي، وبين من يتجاوز الحدود ومن يقصر عنها، وهذا هو الصراط المستقيم.

- وبقية الثنتين وسبعين فرقة ينتسبون إلى الإسلام، وهم داخل دائرة أهل الإسلام، وإن دخلوا النار لا يلزم أن يخلدوا فيها ما دام أنهم من فِرَق الأمة، إلا أن يكون إنسان بعينه منافقًا في الباطن، أو أقيمت عليه الحجة في بدعة مكفرة فظل على بدعته وضلاله

وكفره وشركه فهذا يكون في النار مخلدًا فيها، وأما الباقون فهم مستحقون لدخول النار وهم في مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم ما دام أنهم ماتوا على التوحيد، وإلا فكثير منهم قد يموت على الكفر.

۞ **وقوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**فهم وسط في صفات الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **بين أهل التعطيل: الجهمية، وأهل التمثيل: المشبهة**]؛ أهل التعطيل هم الذين يغالون في النفي، فينفون صفات الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الثابتة في الكتاب والسنة بزعم أنهم ينزهون الله.

ولما كان جهم بن صفوان(١) هو أول من اشتهر عنه القول بالتعطيل، وإنكار علو الله عَزَّوَجَلَّ على خلقه، وإنكار الاستواء وتأويله بالاستيلاء صار اسمه علمًا على هذه الطائفة فصار كل من يعطل صفات الله عَزَّوَجَلَّ يُعرف بالجهمي نسبة إلى جهم بن صفوان الذي تقلد هذا المذهب الباطل في نفي صفات الله، وتحريف آيات القرآن، وإنكار ما وصف الله به نفسه، وغالى في نفي الأسماء والصفات، وقال إنها مخلوقة، وزعم أن الله عَزَّوَجَلَّ في كل مكان، فصار علمًا على هذا المذهب الباطل، وقد أخذ هذا المذهب الباطل عن الجعد بن

---

(١) هو جهم بن صفوان السمرقندي، ويُكنى بأبي محرز، حامل لواء الجهمية، ظهر بعد المائة الثانية، وكان ينكر صفات الله عَزَّوَجَلَّ، وأول من نشر القول بخلق القرآن.

قال عنه الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو الجهم بن صفوان السمرقندي، الكاتب المتكلم، أس الضلالة، ورأس الجهمية». وقال: «كان ينكر الصفات، وينزه عنها الباري بزعمه، ويقول بخلق القرآن» «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٦-٢٧) ط. الرسالة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أخذ مقالته هذه عنه بشر بن غياث المريسي شيخ المعتزلة -قبَّحه الله، وقبَّح من أخذ عنه- وهو أحد من أضل المأمون وإليه تنسب المريسية من المرجئة» «البداية والنهاية» (٩/ ٣٥١).

وتبنَّى الجهم بن صفوان أقوال الجعد بن درهم في نفي الصفات، والقول بخلق القرآن وزاد عليها بدعًا أخرى، فقال بالجبر وبأن الإيمان هو المعرفة وأن علم الله حادث.

وانظر: «الأعلام للزركلي» (٢/ ١٤١)، و«حاشية ميزان الاعتدال» (١/ ١٩٧)، و«الكامل» لابن الأثير: حوادث سنة ١٢٨هـ، و«لسان الميزان» لابن حجر (٢/ ١٤٢).

درهم[١]، والجعد بن درهم مآله في أخذ هذا المذهب الباطل في النهاية إلى بعض اليهود الذين أرادوا إفساد هذا الدين.

- وأما أهل التمثيل المشبهة كاليهود الذين يعتقدون أن الرب له صفات البشر، وأنه يمرض ويبكي ويندم ويصرع ويُغلب ونحو ذلك -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا- وكذا النصارى في اعتقادهم التشبيه لأنهم يقولون أن الرب هو المسيح.

- ومن المنتسبين للإسلام من المشبهة طوائف انقرضت ولم يعد لها وجود بحمد الله، لكن قد يوسوس الشيطان لبعض الناس بأنواع التمثيل والتشبيه، ويوقع في قلبه ذلك وإن لم يكن تلقاه كشبهة مأخوذة عن بعض من يقلده.

- وممَّن اتُّهم بالتشبيه وعُدَّ من طوائف المشبهة (مقاتل بن سليمان)[٢] المفسر حتى ذكر بعضهم طائفة مشبهة باسم (المقاتلية) نسبةً إليه، وتوقف في شأنه شيخ الإسلام

(١) هو شيخ الجهمية، وحقه أن تنسب إليه الفرقة، لكنها اشتهرت باسم تلميذه الضال الجهم بن صفوان، وإن كان الجعد هو الذي بذر هذا الشر في الأمة وتلقَّاه عنه كل جهمي، والمقالات الباطلة التي اشتهرت عنه: القول بالتعطيل، ونفي الاستواء، والخلة والكلام، والقول بالإرجاء.
قال ابن عساكر: (أصله من خراسان ويُقال إنه من موالى بني مروان، سكن الجعد دمشق كانت له دار بالقرب من القلانسيين إلى جانب الكنيسة).
وقال: (وكان أول من أظهر القول بخلق القرآن في أمة محمد، فطلبه بنو أمية، فهرب من دمشق، وسكن الكوفة، ومنه تعلَّم الجهم بن صفوان بالكوفة خلق القرآن).
وقال: (سئل أبو إسحاق إبراهيم بن محمد العسيلي ممن أخذ ابن أبي دؤاد، فقال: من بشر المريسي، وبشر المريسي أخذه من جهم بن صفوان، وأخذه جهم بن صفوان من الجعد بن درهم، وأخذه جعد بن درهم، من أبان بن سمعان، وأخذه أبان من طالوت ابن أخت لبيد وختنه، وأخذه طالوت من لبيد بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٧٢/ ٩٩).
وانظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥/ ٤٣٣)، وميزان الاعتدال للذهبي (١/ ٣٩٩)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٩/ ٣٨٢).

(٢) هو مقاتل بن سليمان بن بشر الأزدي البلخي صاحب التفسير يُكنى بأبي الحسن، أصله من بلخ، قدم إلى بغداد، وأخذ العلم عن عطاء بن أبي رباح، وابن شهاب الزهري، وعبد الله بن بريده، ونافع مولى ابن

ابن تيمية بل مال إلى تبرأته، واستبعد ما نقل عنه من القول بذلك، قال رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية»: (أما مقاتل فالله أعلم بحقيقة حاله، والأشعري ينقل هذه المقالات من كتب المعتزلة، وفيهم انحراف عن مقاتل بن سليمان فلعلهم زادوا في النقل عنه أونقلوا عنه أو نقلوا من غير ثقة، وإلَّا فما أظنه يصل إلى هذا الحد وقد قال الشافعي: «من أراد التفسير فهو عيال على مقاتل، ومن أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة » ومقاتل بن سليمان، وإن لم يكن ممن يحتج به في الحديث -بخلاف مقاتل بن حيان فإنه ثقة- لكن لا ريب في علمه بالتفسير وغيره، واطلاعه، كما أن أبا حنيفة وإن كان الناس خالفوه في أشياء وأنكروها عليه فلا يستريب أحدٌ في فقهه، وفهمه، وعلمه، وقد نقلوا عنه أشياء يقصدون بها الشناعة عليه، وهي كذب عليه قطعًا... وما يبعد أن يكون النقل عن مقاتل من هذا الباب»[1].

۞ وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **[وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية]**؛ أهل السنة وسط في باب أفعال الله عَزَّوَجَلَّ المتعلقة بالقدر -وهذه مسألة القضاء والقدر- فأهل السنة وسط في هذه المسألة بين الجبرية القائلين بالجبر وأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يفعل، والعباد ليس لهم فعل، فهم مقهورون مجبرون ولا دخل لهم في أفعالهم، وإنما تقع عليهم أفعال الرب، ولا دخل لهم بما يجري عليهم، وليس هناك إلا نوع واحد من الأفعال الإنسانية وهي الأفعال الاضطرارية، وهذا من أبطل المذاهب وأبعدها عما جاءت به الرسل، ويؤدي إلى تعطيل الشريعة بالكلية.

عمر، والضحاك بن مزاحم، وعمرو بن شعيب، وروى عنه سفيان بن عيينه وعبد الله بن المبارك. انظر: «تاريخ بغداد» للبغدادي (١٣/ ٣٦٢)، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (٧/ ٣٧٣).

(١) منهاج السنة (٢/ ٢١٨-٢٢٠).

وبين القدرية الذين هم في الطرف المقابل للجبرية، وسموا بالقدرية: لأنهم ينفون تقدير الله عَزَّوَجَلَّ لأفعال العباد، ويقولون: إن العبد هو الذي يُقَدِّر أفعاله ويخلقها، ولذلك سُمُّوا بالقدرية.

وكلا الطائفتين على باطل وضلال؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ...﴾ [الإنسان:٣١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ...﴾ [التكوير:٢٨]، فهاتان الآيتان الكريمتان وغيرهما فيهما ردٌّ على الطائفتين المنحرفتين في فهم القدر: الجبرية، والقدرية. فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ...﴾ ردٌّ على الجبرية منكري إرادة الإنسان لأفعاله الاختيارية، وكذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ...﴾ الآية [فصلت:٤٠]، وكذا قوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا...﴾ [آل عمران:٩٧] فأثبت سبحانه مشيئة واستطاعة للعباد.

وكذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ...﴾ فيه ردٌّ على القدرية نفاة القدر الذين ينفون تقدير الله عَزَّوَجَلَّ لأفعال العباد الاختيارية، وهؤلاء القدرية النفاة في بداية نشأتهم لم يكونوا مسلمين، بل زنادقة دخلوا في الإسلام لأجل إفساده، فنفوا علم الله عَزَّوَجَلَّ، ونفوا كتابة المقادير، ونفوا إرادة الله ومشيئته، ونفوا خلق أفعال العباد، ومن جاء من بعدهم أثبتوا علم الله مخافة الكفر إذا هم نفوه، وأثبتوا كتابة المقادير، لكنهم نفوا مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ لأفعال العباد الاختيارية، ولذا نُقل عن الشافعي وأحمد رَحِمَهُمَاٱللَّهُ القول عن نفاة القدر: «ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا...»[١] ونسب أيضًا هذا القول إلى عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُٱللَّهُ.

---

(١) ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان الأوسط، «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٣٤٩)، وذكره ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم»، وابن القيم في «طريق الهجرتين».

- وأفعال الإنسان نوعان: نوع يقع بغير اختياره وهي الأفعال الاضطرارية، وتُسمى بأفعال الإنسان مجازًا مثل: دَقَّ القلبُ، ومات الرجُل، وولدت المرأةُ، وجرى الدمُ في العروق، فهذه وغيرها أفعال لا دخل للإنسان فيها بل جرت عليه، وليس فاعلًا لها حقيقة، بل منفعل وقع عليه فعل الرب عَزَّوَجَلَّ.

والنوع الآخر من الأفعال: هو أفعال الإنسان الاختيارية التي يفعلها بإرادته واختياره، وهذه الإرادة توجد مع الإنسان منذ ولادته ضعيفة بسيطة ثم تكبر وتزيد كلما كبر.

- ولا أحد ينازع في الأفعال الاضطرارية، وإنما النزاع من أهل البدع في أفعال الإنسان الاختيارية التي يكون فيها الأمر والنهي، والطاعة والمعصية، فالجبرية يقولون: إن العباد كل أفعالهم ليس لهم فيها قدرة ولا إرادة، وزعموا بذلك توحيد الله وإفراده بالقدرة والإرادة، وغالوا في إثبات الربوبية، ونفوا أن يكون للإنسان قدرة أو اختيار في أفعاله، لكن هذا ليس توحيدًا في الحقيقة، بل هذا الاعتقاد يؤدي إلى الشرك؛ لأن معنى ذلك ومؤدَّاه أن الله قد ظلم العباد لما أمرهم ونهاهم؛ إذ كيف يأمرهم وينهاهم إن لم يكن للإنسان قدرة وإرادة مخلوقة له!

- وكذلك القدرية زعموا تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن أن يأمر الناس بأوامر من غير أن يكون لهم قدرة ولا إرادة، فكما أن الجبرية غالوا في إثبات الربوبية فنفوا إرادة الإنسان وقدرته، فإن القدرية غالوا في إثبات القدرة الإنسانية فنفوا إرادة الله، وخَلْقَهُ لأفعال العباد.

- والحق أن الإنسان له إرادة وقدرة مخلوقتان، ولا يتعارض ذلك مع قدرة الله عَزَّوَجَلَّ العظيمة المطلقة، وإرادته سبحانه النافذة الشاملة فهي صفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

- ومن الجبرية طائفة كانوا أقل في القول بالجبر ونفي إرادة الإنسان وقدرته، وهم الأشاعرة، فقالوا: للإنسان قدرة وإرادة لكن ليس لها أثر في الفعل، ويقولون بالاقتران

بين الاثنين، أي: بين إرادة الإنسان وبين الفعل نفسه ساعة وجوده، لكن دون تأثير أو علاقة بذلك الفعل، وهذا هو تعريف الكسب عند الأشاعرة الذي يفترق ويختلف عن تعريف أهل السنة للكسب، فإن الكسب عند أهل السنة: أن الإنسان له قدرة وإرادة بها يفعل ما يشاء، وفعله وإرادته وقدرته كل هؤلاء مخلوقون لله عَزَّوَجَلَّ، وأوضح مثال لذلك خلق الأب والأم وولدهما، فالذي خلق الثلاثة هو الله عَزَّوَجَلَّ، لكن الولد خلقه الله من خلال أبيه وأمه، وهما قد تسببًا في وجوده، ولهم أثر في وجوده بلاشك، فهؤلاء مثل إرادة الإنسان وقدرته، وفعل الإنسان الاختياري هو بمثابة الولد الذي تسبب فيه أبوه وأمه، وإرادة الإنسان وقدرته هما سبب وجود فعله الاختياري.

- أما الأشاعرة فيقولون في الكسب: إن الإنسان له قدرة وإرادة اقترنت بفعله ساعة خلق الفعل، أي: أن السكين لا تقطع وإنما خلق الله القطع ساعة إمرار السكين لكن السكين بذاتها لا تقطع، وكذلك النار هي بذاتها لا تحرق، بل يخلق الله الإحراق ساعة وجود النار.

وإذا أردنا توضيح كلام الأشاعرة الموافق لكلام الجبرية على مثال الأب والأم والولد فإن هذا المثال لا ينطبق، وإنما يمثل له بثلاثة إخوة لم يكن لأحدهم أثر في وجود الآخر، فالقدرة والإرادة الإنسانية عند الأشاعرة ليس لها تأثير في فعل الإنسان الاختياري.

- وهناك من يضرب مثالًا خاطئًا لمسألة القدر: بأن معلمًا شرح الدروس لتلاميذه، وهو يعرف مستوى هؤلاء التلاميذ، ثم وضع لهم امتحانًا ثم قبل أن يصحح إجابات التلاميذ وضع درجات التلاميذ بناءً على معرفته بمستواهم، ثم لما قام بتصحيح الإجابات وجد درجاتهم موافقة لما كتبه قبل تصحيح الإجابات. ومن يتكلم بهذا المثال ليشرح للناس مسألة القدر يقول: إن الفرق في هذا المثال أن الله عَزَّوَجَلَّ علمه علم يقين، والمعَلِّم في المثال علمه علم ظن.

وفي الحقيقة إن هذا المثال خطأ من عدة وجوه، أولًا: لأنه مشابه لما يقول به القدرية النفاة أن الله عَزَّوَجَلَّ ليس له دخل في أفعال الإنسان الاختيارية كما أن المعلم شرح الدرس ووضحه فقط، فأغفل قدرة الله وإرادته وخلق أفعال العباد.

وثانيًا: أن المثال ليس فيه التفريق بين الإرادة الشرعية والكونية؛ إذ إن المعلم يريد لجميع التلاميذ الإجابة الصحيحة، لكن الله عَزَّوَجَلَّ يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وهو سبحانه يعلم من يستحق الهداية ومن يستحق الضلال، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة**»[(١)].

ومن ذلك يتضح خطأ هذا المثال؛ لأنه وإن أثبت العلم والكتابة لكن لم يُثْبِتْ الإرادة والخلق، وهذا مشابه لاعتقاد القدرية النفاة.

- ومن أجل ذلك كان القدرية مجوس هذه الأمة كما ورد في حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة...**»[(٢)] الحديث.

قال الإمام البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن القدرية لما أثبتوا القدر لأنفسهم ونفوه عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونفوا عن الله عَزَّوَجَلَّ خلقه أفعالهم وأثبتوه لأنفسهم، فصاروا بإضافة بعض الخلق دون بعض مضاهين للمجوس في قولهم بالأصلين النور والظلمة، وأن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة، فصاروا ثنوية» اهـ[(٣)].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٢٠٧)، ومسلم (١١٢) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **حسن**: رواه أبو داود (٤٦٩١)، الحاكم (٢٨٦)، البيهقي (٢١٣٩١) وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٣) من كلام البيهقي بتصرف من كتاب الاعتقاد (ص٢٤٥).

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خالق الخير والشر جميعًا، لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته، فهما مضافان إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلقًا وإيجادًا، وإلى الفاعلين لهما من عباده فعلًا، واكتسابًا، وتسببًا وسيأتي مزيد بيان وتفصيل لهذه المسألة، وبيان مراتب الإيمان بالقدر.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (قال الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز بن مانع في تعليقه على هذه العبارة ما نصه: «اعلم أن الناس اختلفوا في أفعال العباد؛ هل هي مقدورة للرب أم لا؟

فقال جهم وأتباعه –وهم الجبرية–: إن ذلك الفعل مقدور للرب لا للعبد.

وكذلك قال الأشعري وأتباعه: إن المؤثر في المقدور قدرة الرب دون قدرة العبد.

وقال جمهور المعتزلة –وهم القدرية؛ أي: نفاة القدر–: إن الرب لا يقدر على عين مقدور العبد. واختلفوا: هل يقدر على مثل مقدوره؟ فأثبته البصريون؛ كأبي علي، وأبي هاشم، ونفاه الكعبي وأتباعه البغداديون.

وقال أهل الحق: أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة، وهي مخلوقة لله تعالى، والحق سبحانه منفرد بخلق المخلوقات، لا خالق لها سواه.

فالجبرية غلوا في إثبات القدر، فنفوا فعل العبد أصلًا.

والمعتزلة نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله، ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة.

وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فقالوا: العباد فاعلون، والله خالقهم وخالق أفعالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] اهـ[(١)].

(١) من تعليق الشيخ محمد عبد العزيز مانع رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الواسطية (ص١٤) ط. سعد الراشد – الرياض.

وإنما نقلنا هذه العبارة بنصها؛ لأنها تلخيص جيد لمذاهب المتكلمين في القدر وأفعال العباد) اهـ[١].

❁ ❁ ❁

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٨٧-١٨٨).

وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [**وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية**].

هاتان مسألتان مرتبطتان ببعضهما، الأولى: مسألة وعيد الله للناس، ومصيرهم في الآخرة.

والثانية: مسألة الأسماء أي: معرفة مسائل الإيمان والدين، ومعرفة المؤمن والكافر، والفاسق والعاصي، وكامل الإيمان وناقص الإيمان.

- والتفصيل في ذلك أنه لا نزاع بين أهل الإسلام أن من مات مشركًا بعد بلوغ الحجة الرسالية فإنه مخلد في النار ويُسمى كافرًا، وأن من استكمل الإيمان وأتى بجميع أركانه فهو في الجنة، ويدخلها لأول وهلة إذا زادت حسناته على سيئاته، وهذا مذهب أهل الحق.

ولكن اختلفت فرق أهل البدع والضلال عن أهل السنة في مسائل الوعيد، وحكم مرتكب الكبيرة، وحكم من زادت سيئاته على حسناته، وبعضهم يخالف أيضًا في حكم مرتكب المعصية.

وبداية ظهور هذا الخلاف في الأمة كان من الخوارج وهم أول فرقة ظهرت مخالفة لأهل السنة في أمر اعتقادي، وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بظهورهم، وقال عنهم: «**يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم**»[1] الحديث.

(١) رواه البخاري (٤٧٧٠) كتاب فضائل القرآن من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهم: «**يقتلون أهل الإسلام ويَدعون أهل الأوثان...**»[(١)] الحديث.

وتواترت الأحاديث في ذمهم، وهم أول من قال بأن مرتكب الكبيرة كافر ومخلد في النار، فخالفوا في المسألتين: في مسألة الوعيد، وفي مسألة الإيمان والدين، فقالوا: إن الإيمان هو كل قول واجب، وفعل واجب، واعتقاد واجب، إذا تُرك جزء فيه تُرك كله، فمن ترك أي فعل واجب، أو أي قول واجب، أو أي اعتقاد واجب، أو فعل أي كبيرة فهذا نقض للإيمان بالكلية، وقد زال الإيمان كله من قلبه، وصَرَّحوا بكفره وتخليده في النار، ومنهم من جعل ليس فقط ارتكاب الكبيرة، بل فِعْل أي محرم، وليس فقط فعل الكبيرة، أو الإصرار على الصغيرة، فقالوا بحبوط الإيمان بما سبق، وبالتالي إذا زال الإيمان فقد حل الإنسان عندهم في الكفر، فيكون كافرًا مخلدًا في النار.

- وعندهم لا يخرج أحد من النار قد دخلها أبدًا، ولذلك أَوَّلوا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ... ﴾ الآية [النساء:٤٨] قالوا: لمن شاء أي: لمن تاب؛ لأنهم لا يفرقون بين الشرك وبين ما دون الشرك، فكل المعاصي عندهم شرك وكفر بالله عَزَّوَجَلَّ. ولأجل أن هذا الاعتقاد الباطل يتعارض مع الأحاديث المتواترة في الشفاعة، فقد كذَّبوا بأحاديث الشفاعة، وقالوا: ليس هناك شفاعة إلا رفع الدرجات فقط أو في الإراحة من هول الموقف، أما شفاعة إخراج عصاة الموحدين من النار فهم لا يقولون أصلًا بوجود عصاة موحدين، ولا بوجود أحد يدخل النار ثم يخرج منها.

- والمعتزلة وافقوا الخوارج في الوعيد، فقالوا: إن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، لكن خالفوهم في أسماء الدين والإيمان، فقالوا: إن مرتكب الكبيرة فاسق فوافقوا الكتاب والسنة ووافقوا أهل الحق في مجرد وجود اسم الفاسق والذي عند أهل السنة

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٣٤٤٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أنه ليس بكافر، لكن المعتزلة في حقيقة الأمر وافقوا الخوارج في مصير هذا الفاسق، وفي حقيقة الإيمان في قلبه، إذ قالوا إن الفاسق عندهم ليس عنده شيء من الإيمان، لكن لوجود الآيات والأحاديث، وكذا الأحكام التي جاء فيها اسم الفاسق فلا يعامل معاملة الكافر، واخترعوا شيئًا أسموه (منزلة بين المنزلتين) وهي عندهم منزلة الفاسق الذي هو مخلد في النار وليس معه شيء من الإيمان، فلا هو مؤمن ولا هو كافر، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فيكون كما قال الخوارج إنه مخلد في النار.

فاتَّفق الخوارج والمعتزلة في الوعيد وإن اختلفوا في الأسماء، ولأجل ذلك سُموا «وعيدية»، ولأن المعتزلة «قدرية» في باب القدر وهذا الذي يشتهرون به فلأجل ذلك قال شيخ الإسلام: «وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم».

وأما أهل السنة فيقولون: إن المؤمن إذا ارتكب المعاصي، والذنوب، وفعل الكبائر فهو على أحوال؛ فإذا زادت حسناته على سيئاته ولو بواحدة دخل الجنة، لأن الحسنات يذهبن السيئات كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤].

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عن حاطب بن أبي بلتعة: «**إنه قد شهد بدرًا، ولعل الله اطَّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم...**»[١] الحديث.

وقال حذيفة وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ: «يُحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف! فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف»[٢].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٨٩٠)، مسلم (٤٧)، (١٤٦٨) من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص٢٨٠) ط. دار الكتب العلمية.

ففي الميزان يوم القيامة إذا رجحت حسنات العبد على السيئات دخل الجنة، وإن تساوت فهو من أصحاب الأعراف ومآله إلى الجنة، وإن زادت السيئات على الحسنات بواحدة، أو كان مرتكب كبيرة ولم يتب منها، ومات مُصرًّا عليها، ولم توجد حسنات ماحية، ولا مصائب مكفرة، ولا ابتُلي عند الاحتضار، ولا في عذاب القبر، وبقيت السيئات موجودة في كفة السيئات حتى رجحت على الحسنات، فهو مستحق لدخول النار، وهو في مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو المعنى الحق في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ...﴾ الآية [النساء:٤٨] فإنه سبحانه قسم الذنوب إلى: شرك، وما دون الشرك، وجعل ما دون الشرك في المشيئة، ولا يصح أن تكون الآية في التائب لأن التائب من الشرك بلاشك مغفور له، وقد كان أكثر الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ مشركين قبل إسلامهم، ولما تابوا قد غفر الله لهم، فإذا كان ذلك في الشرك لمن تاب منه، فمن تاب مما دون الشرك فهو أولى بالمغفرة، وإذا كان الشرك وما دونه مغفورًا بالتوبة، إذن فالآية في غير التوبة، بل هي في من مات مصرًّا على الشرك، ومصرًّا على ما دون ذلك، فمن مات مصرًّا على الشرك فهو غير مغفور له، ومن مات مصرًّا على ما دون ذلك فهو في المشيئة.

- ومعنى الإصرار أي: العزم على تكرار الذنب، وعدم الندم على فعله مع كونه معتقدًا حرمة ما يفعل. وفرقٌ بينه وبين الاستحلال الذي معناه: اعتقاد الإنسان حِلّ ما حرَّمَهُ الشرع، وكان معلومًا من الدين بالضرورة، فهذا الاستحلال كفر؛ لأنه تكذيب بالشرع.

- وأيضًا فرق بين الإصرار، وبين الإباء والاستكبار الذي معناه: رد الأمر على الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالى عن إبليس: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ...﴾ الآية [البقرة:٣٤].

- وكذلك الجحود ومعناه: الإنكار لما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به وهي كلمة قريبة من الاستحلال في المعنى.

فالإباء والاستكبار، وكذلك الاستحلال والجحود، هذه كلها من أنواع الكفر، وأما الإصرار على الذنب وكذلك التكرار فليس من أنواع الكفر.

- وهناك مصطلح سادس وهو المجاهرة أي: بفعل المعصية علانية والافتخار بها، فبلاشك أن المجاهرة بالمعصية تُعَظِّمها وتزيد العقاب، ولا يُعافَى صاحبها لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرون**»[1] لكن لا يخرج من الملة إلا أن يستحل أو يَأبى أو يجحد، وفرق بين المجاهرة وبين الاستحلال بدلالة هذه الآية: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ...﴾ الآية، وهذه الآية قد أتت على كل وعيد في الكتاب والسنة.

- والخوراج ينكرون أن هناك ذنوبًا تسمى دون الشرك، فيعتبرون أن كل الذنوب شرك، وكذلك المعتزلة متفقون معهم في المسألة، فقالوا: كل الذنوب تُدخِل النار وتُخَلِّدُ فيها مثل الشرك.

- والمعتزلة لهم أصول خمسة بنوا معتقدهم عليها، وهي عندهم: (التوحيد، والعدل، وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر).

والتوحيد عندهم يقصدون به نفي الصفات أي: التعطيل؛ فهم يثبتون الأسماء لله عَزَّوَجَلَّ دون الصفات، ويسمون ذلك تنزيهًا وتوحيدًا.

- وهم في القدر نفاة، ويسمونه العدل أي: أن الله لا دخل له بأفعال العباد فهذا مفهوم العدل عندهم، وهو في الحقيقة نفي للقدر.

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي باب الوعيد يقولون: إنفاذ الوعيد يقصدون قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا...﴾ الآية [الجن:٢٣]، وكذا في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً...﴾ الآية [البقرة:٨١].

وفهموا هذه الآيات فهمًا خاطئًا، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨١]؛ فإن السيئة المقصودة هنا هي سيئة الشرك، وهي الخطيئة التي تحيط بكل الحسنات فتبطلها؛ لأنه كفر بالله، وبأنبيائه، ورسله -ولو بواحدٍ منهم- فهنا أحاطت به خطيئته.

- والمنزلة بين المنزلتين وهذا في باب أسماء الإيمان والدين، فيقولون: إن هناك منزلة بين الإيمان وبين الكفر، وهي: الفسق، لكن تفسير الفسق عندهم ليس كما هو عند أهل السنة، فإنه كما قدمنا في حكم مرتكب الكبيرة عند أهل السنة أنه مستحق لدخول النار إذا رجحت سيئاته على حسناته ولو بواحدة وهو في المشيئة، فمِنهم من إذا شاء الله أن ينجيه أنجاه، ومنهم من يدخل النار قطعًا، وأحاديث الشفاعة تثبت أن هناك من يدخل النار من عصاة الموحدين، وهي أخبار لا تحتمل النسخ، ولا تحتمل الخطأ، ولا الكذب بل هي أخبار قطعية متواترة.

كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«من قال لا إله إلا الله نفعته يومًا من الدهر، يصيبه قبل ذلك ما أصابه»**[1].

ومجموع الآيات والأحاديث المتواترة في الشفاعة وإخراج عصاة الموحدين من النار تدل على ذلك، ولا خلاف بين أهل السنة أنه لا توجد منزلة فاصلة مستقلة بين

(١) **صحيح**: رواه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٢٧٤)، و«الصغير» (١/ ٢٤١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٤١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الكفر والإيمان، يكون الإنسان فيها ليس بمؤمن، وليس بكافر -كما يقول المعتزلة- بل الحق أن من خرج من الإيمان دخل في الكفر، ومن خرج من الكفر دخل في الإيمان.

- وإنما تعريف الفسق عند أهل السنة على ما ورد في الكتاب والسنة يأتي في النصوص، ويشمل: (الفسق الأكبر، والفسق الأصغر)، وهذا مثل (الكفر الأكبر، والكفر الأصغر)، و(الظلم الأكبر، والظلم الأصغر)، وهذه كلها قسمة دلَّت عليها أدلة الكتاب والسنة، قال عَزَّوَجَلَّ عن إبليس: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦ...﴾ الآية [الكهف:٥٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٨٤].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الآية [النور:٥٥].

ودليل الفسق الأصغر كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ...﴾ الآية [الحجرات:٦].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ...﴾ الآية [البقرة:٢٨٢].

والكلام هنا على الفسق الأصغر الذي يشمل مرتكب الكبيرة، والإصرار على الصغائر؛ فعند أهل السنة أنه فاسق مِلِّي أي: مؤمن ناقص الإيمان.

وتسميته مؤمنًا ليست بإطلاقٍ فتكون حينئذٍ مدحًا، وتثبت الكمال، وتقتضي دخول الجنة لأول وهلة، وإنما تكون مقيدة؛ فيُقال: مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن فاسق، أو مؤمن مستحق للعقاب إن مات بغير توبة، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويخرج الرجل

من الإيمان إلى الإسلام، فإن تاب رجع إليه الإيمان ولا يخرجه من الإسلام إلا الشرك بالله...»[(١)].

فالفاسق المِلِّي عند أهل السنة لا يكفر، ولا يخلد في النار، بل معه بقية من الدين والإيمان، لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث الشفاعة: «**فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه...**»[(٢)] الحديث.

فإن الإيمان يزيد وينقص كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة، وليس كما يقول المعتزلة، والخوارج، وغيرهم (أن الإيمان كلٌّ لا يتجزأ إمَّا أن يوجد كله، أو يزول كله).

فصل

وأما الفريق الآخر في قضية الوعيد فهم المرجئة الذين قالوا: لا يَضُرُّ مع الإيمان معصيةٌ، وأن مرتكب الكبيرة ليس مستحقًّا لأي وعيد، بل يدخل الجنة لأول وهلة. وسُمَّوا بالمرجئة لأنهم أرجأوا -أي: أخروا- العمل عن الإيمان، أو لتغليبهم الرجاء، فقالوا: لا يضر مع الإيمان معصية.

- وأهل الإرجاء على درجات؛ فعامَّتُهم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية كما قدمنا، وهؤلاء أصل بدعتهم نشأ من اعتقادهم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، مثل أصل بدعة الخوارج والمعتزلة، لكن أخذوا الطرف المقابل فقالوا: إن الإيمان كُلٌّ لا يتجزأ ومن أتى به فلا يضر معه معصية.

---

(١) من رسالة الإمام أحمد إلى مسدد بن مسرهد البصري أوردها ابن أبي يعلى الفراء في «كتاب الاعتقاد» (١/ ٣٤١-٣٤٥)

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

- وعامة هؤلاء القائلين (لا يضر مع الإيمان معصية) هم من الفرق المخالفة لأهل السنة لكن داخل الإسلام؛ لأنهم قالوا: إن المعاصي محرمة، والواجبات واجبة، لكن من فعل المعصية أو ترك الواجب فلا يضره ما دام معه قول لا إله إلا الله نطقًا واعتقادًا، وأنه لا يدخل النار أحد من أهل الإسلام.

- ومن المرجئة طائفة الغلاة الذين قالوا بإباحة المعاصي، فهؤلاء الإباحية اعتقدوا أنه يحل فعل أي معصية، فلا يوجد محرم عندهم، وهؤلاء الإباحية خارج دائرة الإسلام.

- وهناك مرجئة الفقهاء، وهم قريبون جدًّا من أهل السنة، وهؤلاء مثل الإمام أبي حنيفة وأصحابه، فالخلاف بينهم وبين أهل السنة قريب من الخلاف اللفظي في أن العمل من الإيمان أم من لوازم الإيمان، لكنهم متفقون مع أهل السنة أن مرتكب الكبيرة وصاحب المعصية في مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ إن شاء عذَّبه، وإن شاء غفر له، ومن أصحاب المعاصي من يدخل النار، وقالوا: إن الفاسق مستحق للعقاب.

- والفرق بين مرجئة الفقهاء وبين أهل السنة يمكن تمثيله بأن الإيمان تمثله دائرة كبيرة، والعمل تمثله دائرة صغيرة، فعند أهل السنة يكون العمل داخلًا في الإيمان، فتكون الدائرة الصغيرة بداخل الدائرة الكبيرة وهي جزء من أجزائها، وأما مرجئة الفقهاء فتكون دائرة العمل ليست داخل دائرة الإيمان وإنما ملاصقة لها ومماسة لها أينما ذهبت تذهب معها، لكنها ليست بداخلها، وإذا تخلفت عنها يستحق صاحبها العقاب.

وقد تواترت أدلة الكتاب والسنة على أن الإيمان قول وعمل، وأجمع العلماء على ذلك، وقد سمى ربنا عَزَّوَجَلَّ العبادات الظاهرة إيمانًا، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ** ...﴾ الآية [البقرة:١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس.

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه، في كتاب الإيمان باب: أداء الخُمس من الإيمان، وذكر حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في وفد عبد القيس، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام اصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تعطوا من المغانم الخُمس...**» الحديث[1].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صام رمضان إيمانًا، واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه**»[2].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قام رمضان إيمانًا، واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه...**»[3].

وكل هذه الأدلة دالة على دخول العمل الظاهر في الإيمان، وأنه جزء منه، ولذلك مما وقع من الخطأ ما ذكره الإمام الطحاوي[4] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في متن العقيدة الطحاوية في قوله: «والإيمان هو: الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان...»[5].

والإمام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر ذلك موافقًا لمذهب الإمام أبي حنيفة، ولم يُدخِل العمل فيما ذكر من بيان الإيمان ثم قال: «والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء».

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٨٧)، ومسلم (٣٨٢٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) **الإمام الطحاوي**: هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، توفي سنة ٣٢١هـ، «سير أعلام النبلاء»، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٥/ ٢٨).

(٥) «متن العقيدة الطحاوية».

لكن نَبَّهَ شارح الطحاوية الإمام ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١] على ذلك في شرحه للمتن، وهو من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

❁ ❁ ❁

وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **[والجهمية]**، هؤلاء هم المرجئة الأوائل الذين قالوا: الإيمان هو المعرفة، ولا يشترط النطق باللسان، بل كان جهم يقول: الإيمان معرفة أن هناك ربًّا فبذلك يصير مؤمنًا كامل الإيمان حتى ولو عبد الأوثان.

ولا يُشك في أن من لوازم هذا الكلام الكفر، وإلَّا فلماذا كانت دعوة الرسول وإنزال الكتب؟!

وكان الإمام أبو الحسن الأشعري في بدايته وهو يرد على المعتزلة يقول: إن الإيمان هو المعرفة. ومن المتأخرين من أتباع المذهب الأشعري من يذكر ذلك أن الإيمان هو المعرفة، وهذا باطل بلاشك؛ لأن النطق باللسان شرط في أصل الإيمان، وإلَّا فلماذا مات أبو طالب على الكفر على الرغم أنه كان يعتقد صدق النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلو كان النطق باللسان لكلمة لا إله إلا الله ليس شرطًا لما كان أبو طالب كافرًا، ولما كان من أصحاب الجحيم، والأدلة في اشتراط النطق بـ(لا إله إلا الله) أكثر من أن تحصى، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم دمه، وماله، وحسابه على الله**»[٢]. فدلَّ ذلك على اشتراط قول (لا إله إلا الله) في أصل الإيمان ما دام الإنسان كان قادرًا عليها، ومن يُعذَر في قولها هو الأبكم الذي لا ينطق، وكذا من نطق بمعناها بدلًا منها، كما في قصة بعث خالد بن الوليد لبني جَذيمة قال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (فدعاهم

---

(١) ابن أبي العز الحنفي: هو الإمام صدر الدين أبو الحسن علي بن علاء الدين الدمشقي الحنفي، توفي سنة ٧٩٢هـ.

(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان (٢٣) من حديث أبي مالك الأشجعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولوا: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم، ويأسر ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يومٌ أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يَقتل رجل من أصحابي أسيره حتى قدمنا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكرناه فرفع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يديه فقال: «**اللهم إني أبرأ إليك من صنع خالد**» مرتين)[1].

فهذا دليل قبوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معنى الكلمة لمن لم يُحسِن قولها، وهذا من أدلة اشتراط كلمة لا إله إلا الله، وليس مجرد تصديق القلب فضلًا عن مجرد المعرفة كما يقول الجهمية، وإلا فعند هؤلاء الجهمية يكون إبليس مؤمنًا كامل الإيمان؛ لأن إبليس يعرف وجود الله عَزَّ وَجَلَّ، بل ويقر بأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الخالق، بل ويقر باليوم الآخر والقيامة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن إبليس: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ...**﴾ الآية [الأعراف:١٢]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الحشر:١٦] فإبليس مقر بأن الله رب العالمين، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ [الأعراف:١٤]، فهل يقال إن إبليس ليس كافرًا؟! وإذا كان إبليس ليس كافرًا، فلا يوجد إذن في الدنيا شيء اسمه كفر.

- وكذلك على مذهب هؤلاء الجهمية الضُّلَّال يكون فرعون مؤمنًا كامل الإيمان قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾ [النمل:١٤]، وقال عَزَّ وَجَلَّ عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا**﴾ [الإسراء:١٠٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٦١٥)، وأحمد في السنن (٢/ ١٥١)، والنسائي (٥٤٠٥) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

- ويكون -على قول جهم- لا يوجد كفر على وجه الأرض، وكل الأقوام الذين ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه أنهم كذبوا رسله ليسوا كفارًا -على مذهب جهم- كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية عن مذهب الجهمية:

قالوا وإقرارُ العبادِ بأنه	خَلَّاقُهُمْ هو منتهى الإيمانِ
والناسُ في الإيمان شيءٌ واحدٌ	كالمشطِ عند تماثل الأسنانِ
فاسأل أبا جهلٍ وشيعتَه ومن	وَالاهُمُ مِن عابدي الأوثانِ
وَسَلِ الْيَهود وكُلَّ أقْلَفَ مشركٍ	عَبْدَ المسيح مُقَبِّلَ الصلبانِ
واسأل ثمودَ وعادَ بل سل قبلهم	أعداءَ نوحٍ أمةَ الطوفانِ
واسأل أبا الجنِّ اللعينَ أتعرف الـ	ـخَلَّاق أم أصبحت ذا نُكرانِ
واسأل شرار الخلق أغلى أمة	لوطية هم ناكحو الذكران
واسأل كذاك أمامَ كُلِّ مُعَطِّلٍ	فرعونَ مع قارونَ مع هامانِ
هل كان فيهم منكر للخالق الـ	ـرَّبِّ العظيم مكوّنِ الأكوانِ
فليبشروا ما فيهم من كافر	هم عند جهمٍ كاملوا الإيمانِ[(١)]

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى: «وقول جهم في الإيمان قول خارج عن إجماع المسلمين قبله، بل السلف كفَّروا من يقول بقول جهم في الإيمان»[(٢)].

- ومن غلاة المرجئة طائفة الكَرَّامية أتباع محمد بن كرام السجستاني[(٣)]، قالوا: «إن الإيمان هو نطق اللسان فقط من غير اعتقاد القلب» فسموا المنافق مؤمنًا.

(١) «النونية» لابن القيم المسماة بـ«الكافية الشافية».

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤١).

(٣) توفي سنة ٢٥٥هـ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى: «والكرامية توافق المرجئة والجهمية في أن إيمان الناس كلهم سواء، ولا يستثنون في الإيمان، بل يقولون: هو مؤمن حقًّا لمن أظهر الإيمان»[١].

قال الشيخ خليل هراس معلقًا على قول شيخ الإسلام في «العقيدة الواسطية»: (**وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم**) (يعني: أن أهل السنة والجماعة وسط في باب الوعيد بين المفرطين من المرجئة الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وزعموا أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب[٢]، وإن لم ينطق به، وسُمّوا بذلك نسبة إلى الإرجاء أي: التأخير؛ لأنهم أخروا الأعمال عن الإيمان، ولا شك أن الإرجاء بهذا المعنى كفر يخرج صاحبه عن الملة؛ فإنه لابد في الإيمان من قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، فإذا اختلَّ واحدٌ منها لم يكن الرجل مؤمنًا[٣].

قال: «وأمَّا الإرجاء الذي نُسِبَ إلى بعض الأئمة من أهل الكوفة: كأبي حنيفة وغيره، وهو قولهم: إن الأعمال ليست من الإيمان، ولكنهم مع ذلك يوافقون أهل السنة على أن الله يعذب من يعذب من أهل الكبائر بالنار، ثم يخرجهم منها بالشفاعة وغيرها، وعلى أنه لابد في الإيمان من نطق باللسان، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة يستحق

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤١).

(٢) في الحقيقة هذا كلام الجهمية، وليس كل المرجئة ولذا كان شيخ الإسلام دقيقًا في قوله باب الوعيد بين المرجئة وبين الوعيدية، وكان الأولى أن يذكر الشيخ هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسألة مرتكب الكبيرة، وليس جزئية أن الإيمان مجرد التصديق؛ لأن هذا معتقد الجهمية.

(٣) إذا اختلَّ العمل الظاهر لم يكن مؤمنًا كامل الإيمان، لكنه ناقص الإيمان إلا الخلاف في الأركان الأربعة: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج؛ فإن من علماء السنة من يقول: إن تاركها مجردًا أي: تكاسلًا أو بخلًا يكفر بذلك لكن جمهور أهل السنة يلحق هذه الأركان ببقية الأعمال وإن كان تركها أعظم في الذنب.

تاركها الذم والعقاب؛ فهذا النوع من الإرجاء ليس كفرًا، وإن كان قولًا باطلًا مبتدعًا؛ لإخراجهم الأعمال عن الإيمان»[(١)].

وأما الوعيدية؛ فهم القائلون: بأن الله يجب عليه عقلًا أن يُعذِّبَ العاصي؛ كما يجب عليه أن يثيبَ المطيع، فمن مات على كبيرة ولم يتب منها لا يجوز عندهم أن يغفر الله له، ومذهبهم باطل مخالف للكتاب والسنة؛ قال تعالى: ﴿**ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ**﴾ [النساء:٤٨].

وقد استفاضت الأحاديث في خروج عصاة الموحدين من النار ودخولهم الجنة.

فمذهب أهل السنة والجماعة وسط بين نفاة الوعيد من المرجئة، وبين موجبيه من القدرية، فمن مات على كبيرة عندهم؛ فأمره مفوض إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه؛ كما دلَّت عليه الآية السابقة.

وإذا عاقبه بها؛ فإنه لا يخلد خلود الكفار، بل يخرج من النار، ويدخل الجنة) اهـ[(٢)].

- وخلاصة ذلك أن مذهب أهل السنة والجماعة وسط بين هذين المذهبين؛ فمرتكب الكبيرة عندهم ناقص الإيمان، قد نقص من إيمانه بقدر ما ارتكب من معصية، فلا ينفون عنه الإيمان أصلًا كالخوارج، والمعتزلة. ولا يقولون بأنه كامل الإيمان كالمرجئة، والجهمية. وحكمه في الآخرة عندهم أنه إن مات ولم يتب فهو في مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ قد يعفو الله عَزَّوَجَلَّ عنه ويدخل الجنة ابتداءً، أو يُعَذَّب بقدر معصيته ثم يخرجه ويدخله الجنة،

(١) لم يذكر الشيخ هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الموضع مذهب عامة المرجئة الخُلَّص الذين قالوا: إن الإيمان هو اعتقاد القلب، ونطق اللسان، وأن مرتكب الكبيرة يدخل الجنة لأول وهلة. وهذا أصل مذهب الإرجاء ابتداءً وهذا المذهب من فرق أهل القبلة، وليس من الفرق الخارجة عن الملة، وأما الفرق الخارجة عن الملة هم الإباحية القائلين بإباحة المعاصي، والجهمية القائلين: إن فرعون، وإبليس مؤمنان كاملا الإيمان.

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٨٨-١٨٩).

وهذا الحكم وسط أيضًا بين من يقول بخلوده في النار، وبين من يقول إنه لا يستحق على المعصية عقابًا.



وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الروافض، وبين الخوارج.

أهل السنة والجماعة وسط في اعتقادهم في الصحابة رضي الله عنهم بين الرافضة الذين يغالون في على رضي الله عنه ويسبون أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم.

- وسموا رافضة لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين لما أعلن محبته وتوليته لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فخذلوه بالكوفة كما خذلوا جده من قبل.

- فأهل السنة وسط بين هؤلاء الروافض وبين الخوارج الذين يكفرون عليًّا رضي الله عنه، وهذه الوسطية لأهل السنة والجماعة ظاهرة في أمر علي رضي الله عنه، فهم يترضون عنه، ويترضون عن أبي بكر، وعمر، ولا يسبون أحدًا من أصحاب النبي ﷺ.

- والخوارج والرافضة متفقون على تكفير معاوية رضي الله عنه، وغالت الرافضة في علي وأولاده رضي الله عنهم، ومنهم من اعتقد ألوهية علي رضي الله عنه، و(هم السبئية) -أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي-، ولو لم يعتقد الرافضة الإلهية ولا النبوة في علي رضي الله عنه فإنهم يفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكذلك يعتقدون بطلان إمامة أبي بكر وعمر، وهذا كله من الغلو في علي رضي الله عنه.

قال الشيخ خليل هراس رحمه الله في «شرح الواسطية»: (المعروف أن الرافضة -قبحهم الله- يسبون الصحابة رضي الله عنهم، ويلعنونهم، وربما كفروهم أو كفروا بعضهم، والغالبية منهم -مع سبِّهم لكثير من الصحابة والخلفاء- يغلون في علي وأولاده، ويعتقدون فيهم الإلهية.

وقد ظهر هؤلاء في حياة علي رضي الله عنه بزعامة عبد الله بن سبأ الذي كان يهوديًّا وأسلم، وأراد أن يكيد للإسلام وأهله؛ كما كاد اليهود من قبل للنصرانية، وأفسدوها على أهلها، وقد حرَّقهم عليٌّ بالنار لإطفاء فتنتهم، وروي عنه في ذلك قوله:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرًا أججت ناري ودعوت قُنبرًا

وأمَّا الخوارج؛ فقد قابلوا هؤلاء الروافض، فكفَّروا عليًّا، ومعاوية، ومن معهما من الصحابة، وقاتلوهم واستحلُّوا دماءهم وأموالهم.

وأمَّا أهل السنة والجماعة؛ فكانوا وسطًا بين غلوِّ هؤلاء وتقصير أولئك، وهداهم الله إلى الاعتراف بفضل أصحاب نبيهم، وأنهم أكمل هذه الأمة إيمانًا، وإسلامًا، وعلمًا، وحكمةً؛ ولكنهم لم يغلوا فيهم، ولم يعتقدوا عصمتهم؛ بل قاموا بحقوقهم، وأحبوهم لعظيم سابقتهم، وحسن بلائهم في نصرة الإسلام، وجهادهم مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) اهـ[1].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٩٢-١٩٣).

وجوب الإيمان باستواء الله عَزَّوَجَلَّ على عرشه وعلوِّه على خلقه ومعيته لخلقه وأنه لا تنافي بينهما

فصل

وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله بما أخبر به في كتابه، وتواتر عن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأجمع عليه سلف الأمة من أنه سبحانه فوق سماواته على عرشه، بائن من خلقه، وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون، كما جمع بين ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]، وليس معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أنه مختلط بالخلق؛ فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته، وهو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان وهو سبحانه فوق عرشه، رقيب على خلقه، مهيمن عليهم، مطلع عليهم إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بائن من خلقه] أي: منفصل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن خلقه، لا يحلُّ بالمخلوقين، ولا يحلُّ المخلوقون فيه، ولا يتَّحِدون به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واعتقاد الحلول والاتحاد كلاهما كفر.

۞ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون].

هذه المعية معية حقيقية تليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يلزم منها حلول ولا اتحاد ولا مماسة، إذ هو معهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعلمه وسمعه وبصره وقدرته، ولا شكَّ أن المعية

شيء زائد على معنى العلم، وإنما قال السلف: «معهم بعلمه» لكي ينفوا ما قد يُتوهم من الظنون الفاسدة من الحلول والاتحاد.

۞ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**كما جمع بين ذلك...**].

أي: جمع عَزَّوَجَلَّ بين العلو والفوقية، وبين القرب والمعية في قوله تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الحديد:٤]].

فذكر عَزَّوَجَلَّ الاستواء الذي هو عند السلف: العلو والارتفاع، وذكر عَزَّوَجَلَّ العلم، وذكر المعية قال: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ فهو عَزَّوَجَلَّ معهم بعلمه وسمعه وبصره وقدرته.

وهذا في الحقيقة من أوضح الأمور؛ فإن لفظ المعية في قوله: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ**﴾ لا يلزم منه الحلول والاتحاد، بل ظاهره مخالفة الحلول والاتحاد؛ فإن الإنسان إذا قال: أنا مع فلان، فإن كل سامع قد فهم أنه لا يحل في فلان هذا، وأنه ليس مختلط به، وإذا كان ذلك في معية المخلوق مع المخلوق، فكيف يُتوهم معنى الاتحاد والحلول بين الله عَزَّوَجَلَّ وبين خلقه، والمثال الذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أوضح ما يبين هذه المسألة فإن القمر في السماء مع المسافر وغير المسافر.

۞۞۞

ما يجب اعتقاده في علوِّه ومعيَّته عَزَّوَجَلَّ
ومعنى أنه عَزَّوَجَلَّ في السماء وأدلة ذلك

وكل هذا الكلام الذي ذكره الله -من أنه فوق العرش وأنه معنا- حق على حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يُصان عن الظنون الكاذبة؛ مثل أن يُظَنَّ أن ظاهر قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أن السماء تظله أو تقله، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان؛ فإن الله قد ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وهو الذي ﴿يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر:٤١]، ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ [الحج:٦٥]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥].

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو على حقيقته] أي: هو على حقيقته؛ لأنه حق كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه سبحانه: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّ ...﴾ الآية [الأنعام:٧٣].

وكما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق...**» الحديث(١).

وبعض أهل العلم قد يضيف ألفاظًا في هذا تُوهِم معاني غير صحيحة، مثل أن يقول: هو معهم بذاته، وهذا لم يقله ربنا عَزَّوَجَلَّ ولم يقله النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكفانا ما قاله الله عَزَّوَجَلَّ وما قاله رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذ قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ ...﴾ الآية، ويُلاحظ هنا أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يقل إنه معهم بذاته، بل قال: (وأنه معنا حق على حقيقته) لأنه ينبغي أن يوقف عند ألفاظ الكتاب والسنة.

---

(١) جزء من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: «كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا قام لله الليل يتهجد قال....» رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**مثل أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أن السماء تظله أو تقله**].

معنى تقله: أي تحمله؛ ومعنى تظله: أي تكون فوقه بمعنى أنه يحُلّ فيها، والله عَزَّوَجَلَّ لا يحل في شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكل شيء محيط، والظن الفاسد يصان عنه كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد سبق بيان معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فِي ٱلسَّمَآءِ**﴾، وأنها إما على المصدرية أي: العلو، أو أن تكون السماء المخلوقة -على الظرفية- فتكون ﴿**فِي ٱلسَّمَآءِ**﴾ أي: فوقها.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (صرح المؤلف هنا بمسألة علو الله تعالى، واستوائه على عرشه، بائنًا من خلقه؛ كما أخبر الله عن ذلك في كتابه، وكما تواتر الخبر بذلك عن رسوله، وكما أجمع عليه سلف الأمة الذين هم أكملها علمًا وإيمانًا، مؤكدًا بذلك ما سبق أن ذكره في هذا الصدد، ومشددًا النكير على من أنكر ذلك من الجهمية، والمعتزلة، ومن تبعهم من الأشاعرة.

ثم بيَّن أن استواءه على عرشه لا ينافي معيته وقربه من خلقه؛ فإن المعية[1] ليس معناها الاختلاط والمجاورة الحسية.

وضرب لذلك مثلًا بالقمر الذي هو موضوع في السماء، وهو مع المسافر وغيره أينما كان؛ بظهوره واتصال نوره، فإذا جاز هذا بالنسبة للقمر، وهو من أصغر مخلوقات الله؛ أفلا يجوز بالنسبة إلى اللطيف الخبير الذي أحاط بعباده علما وقدرة، والذي هو شهيد مطلع عليهم يسمعهم، ويراهم، ويعلم سرهم ونجواهم، بل العالم كله سماواته، وأرضه

---

(١) ذكر الشيخ هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ المعية هنا وهي المعية العامة لجميع الخلق، وهي معية العلم والإحاطة والقدرة والسمع والبصر، أما المعية الخاصة بالمؤمنين فهي معية النصرة، والتأييد، والمحبة، والإكرام، وقرب الإجابة، وهذه خاصة بعباد الله المؤمنين.

من العرش إلى الفرش، كله بين يديه سبحانه؛ كأنه بندقة في يد أحدنا؛ أفلا يجوز لمن هذا شأنه أن يقال: إنه مع خلقه مع كونه عاليًا[١] عليهم بائنًا منهم فوق عرشه؟!

بلى؛ يجب الإيمان بكلٍّ من علوِّه تعالى ومعيته، واعتقاده أن ذلك كله حق على حقيقته، من غير أن يساء فهم ذلك، أو يحمل على معان فاسدة؛ كأن يفهم من قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ معية الاختلاط والامتزاج؛ كما يزعمه الحلولية! أو يفهم من قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أن السماء ظرف حاو له محيط به! كيف وقد وسع كرسيه السموات والأرض جميعا؟! وهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؟!

فسبحان من لا يبلغه وهم الواهمين، ولا تدركه أفهام العالمين) اهـ[٢].



(١) الصواب أن يقول: «عليًّا» لأن اسم الله عَزَّوَجَلَّ «العليّ» هو الوارد في القرآن.

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٩٥-١٩٦).

وجوب الإيمان بقرب الله عَزَّوَجَلَّ من خلقه وأن ذلك لا ينافي علوه وفوقيته

وقد دخل في ذلك الإيمان بأنه قريب مجيب؛ كما جمع بين ذلك في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...﴾ الآية [البقرة:١٨٧]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»(١). وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته، لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته؛ فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو عليّ في دنوه، قريب في علوه.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية»: (يجب الإيمان بما وصف الله به نفسه من أنه قريب مجيب، فهو سبحانه قريب ممن يدعوه ويناجيه، يسمع دعاءه ونجواه، ويجيب دعاءه متى شاء وكيف شاء، فهو تعالى قريب قرب العلم، والإحاطة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

وبهذا يتبين أنه لا منافاة أصلًا بين ما ذكر في الكتاب والسنة من قربه تعالى ومعيته، وبين ما فيهما من علوه تعالى وفوقيته.

فهذه كلها نعوت له على ما يليق به سبحانه، ليس كمثله شيء في شيء منها) اهـ(٢).

والذي يظهر -والله أعلم- أن القرب المذكور في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وكذلك في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبِّي

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) «شرح الواسطية» (١٩٧).

قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ الآية [هود:٦١] أي: قربه عَزَّوَجَلَّ ممن دعاه؛ أي: قرب الإجابة، وقرب التكريم، فهو عَزَّوَجَلَّ يقرب ممن تقرب منه، وهو قربٌ خاصٌّ.

وأما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ الآية؛ الصحيح أن الضمير: «نحن» عائد على الله عَزَّوَجَلَّ وهو الذي يدل عليه السياق، وإن كان هناك من قال إن الضمير يعود على الملائكة -وقال بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في بعض المواضع- لكن هذا ليس بظاهر، والصحيح أن القرب المذكور في الآية هو قرب الله عَزَّوَجَلَّ من خلقه، وهو قرب يليق بجلاله وعظمته عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه هو الخالق، وهو عَزَّوَجَلَّ الذي يعلم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

والسياق يقتضي أن الضمير يعود على من سبق منه الكلام، وهو عَزَّوَجَلَّ الذي خلق الإنسان، وهو الذي يعلم ما توسوس به نفسه، فهو عَزَّوَجَلَّ أقرب إلى الإنسان من نفسه، ويعلم سبحانه عنه ما لا يعلمه من نفسه.

❁ ❁ ❁

وجوب الإيمان بأن القرآن كلام الله حقيقة

ومن الإيمان بالله وكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود.

۞ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**منه بدأ...**] أي: تكلم الله عَزَّوَجَلَّ به.

[**وإليه يعود...**] أي: قبل يوم القيامة حين يُسرى به من المصاحف ومن الصدور، فلا يقدر الناس على حرف منه، وقد ذكر السلف -رضوان الله عليهم- هذه الكلمة: (منه بدأ وإليه يعود) قال سفيان بن عيينة: «سمعت عمرو بن دينار يقول: أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون: القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود»[1]، والأحاديث الدالة على الإسراء بالقرآن من المصاحف والصدور ثابتة؛ فعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَدْرُس الإسلام كما يَدْرُس وَشْيُ الثوب حتى لا يُدرى ما صيام، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، ولَيُسْرَى على كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير، والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها**»[2].

وعن عبد الله بن مسعود قال: «لَيُسْرَيَنَّ على القرآن ذات ليلة، فلا يُترك آية في مصحف ولا في قلب أحدٍ إلا رفعت»[3].

---

(١) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص٧)، والبيهقي في «الاعتقاد» (ص١٠٥)، والطبري في «صحيح السنة» (١٦)، وأبو القاسم التيمي في «الحجة» (٩١).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم في المستدرك (٨٤٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٦).

(٣) أخرجه الدارمي بسند صحيح (٣٢٠٩).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لينتزعن هذا القرآن من بين أظهركم»، قيل له: يا أبا عبد الرحمن: كيف ينتزع وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا؟ قال: «يُسْرَى عليه في ليلة فلا يبقى في قلب عبد ولا مصحف منه شيء، ويصبح الناس كالبهائم، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٦]»(١).



(١) **صحيح موقوف**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٦٩٨)، وصحَّحه ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ١٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٢٩): رجاله رجال الصحيح، غير شداد بن معقل وهو ثقة، وصحَّحه الألباني.

وأن الله تكلم به حقيقةً، وأن هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة، لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله، بل إذا قرأه الناس، أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**وأن الله تكلم به حقيقة...**] يعني بذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإنكار على طريقة الأشاعرة ومَن وافقهم كالكلَّابية بأنهم لا يثبتون الحرف والصوت، ولا يقولون أن الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم بحرف ولا بصوت، بل يقولون: هذه حروف مخلوقة، ولهذا قالوا: هذه الحروف هي حكاية عن كلام الله أو عبارة عنه، فيبطل شيخ الإسلام هذا الكلام.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصواب الذي عليه سلف الأمة، كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح في كتاب «خلق أفعال العباد»، وغيره، وسائر الأئمة -قبلهم وبعدهم- أتباع النصوص الثابتة، وإجماع سلف الأمة، وهو أن القرآن جميعه كلام الله، حروفه ومعانيه، ليس شيء من ذلك كلامًا لغيره ...، وأن الله يتكلم بصوت كما جاءت به الأحاديث الصحاح»[١].

❁ ❁ ❁

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١٢/ ٢٤٣-٢٤٤).

فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا.

الكلام ابتداءً هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ لكن قد يضاف إلى من قاله مبلغًا مؤديًا مع القرينة الدالة على ذلك، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ**﴾ [التكوير:١٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ...**﴾ [الحاقة:٤٠]؛ ففي الآيتين الكريمتين مرة نسب القول إلى رسول ملكي، ومرة نسبه إلى رسول بشري، وهذا بالقرينة يدل على أن الرسول قاله مؤديًا مبلغًا عن الله، فهذا من المجاز في الإضافة، لكن الكلام ابتداءً هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ.



وهو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف.

۞ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**وهو كلام الله حروفه ومعانيه**] إثبات الحرف ورد في السنة كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»(١).

وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الألفاظ المتينة القوية الواضحة البينة، واعتقاد أهل السنة من أن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه، وبذلك هم لا يقولون في إثبات صفة الكلام إنه كلام نفسي دون الحروف، أو إنه يريد معنًى واحدًا؛ فيكون عين الأمر وهو عين النهي، وعين الخبر هو عين الاستفهام، وهذا كله من كلام الأشاعرة ومن التناقض الذي يرده كل عاقلٍ ولا حاجة لنا به.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية»: (جعل المصنف الإيمان بأن القرآن كلامُ الله داخلًا في الإيمان بالله؛ لأنه صفة من صفاته، فلا يتم الإيمان به سبحانه إلا بها، إذ الكلام لا يكون إلا صفة للمتكلم، والله سبحانه موصوف بأنه متكلم بما شاء متى شاء، وأنه لم يزل ولا يزال يتكلم؛ بمعنى: أن نوع كلامه قديم، وإن كانت آحاده لا تزال تقع شيئا بعد شيء بحسب حكمته.

وقد قلنا فيما سبق: إن الإضافة في قولنا: القرآن كلام الله؛ هي من إضافة الصفة للموصوف، فتفيد أن القرآن صفة الرب سبحانه، وأنه تكلم به حقيقة بألفاظه ومعانيه، بصوت نفسه.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٩١٠)، وصححه الألباني من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فمَن زعم أن القرآن مخلوق من المعتزلة؛ فقد أعظم الفرية على الله، ونفى كلام الله عن الله وصفًا، وجعله وصفًا لمخلوق، وكان أيضًا متجنيًا على اللغة، فليس فيها متكلم بمعنى خالق للكلام.

ومن زعم أن القرآن الموجود بيننا حكاية عن كلام الله -كما تقوله الكلَّابية-، أو أنه عبارة عنه -كما تقوله الأشعرية-؛ فقد قال بنصف قول المعتزلة؛ حيث فرَّق بين الألفاظ والمعاني، فجعل الألفاظ مخلوقة، والمعاني عبارة عن الصفة القديمة؛ كما أنه ضاهى النصارى في قولهم بحلول اللاهوت -وهو الكلمة- في الناسوت -وهو جسد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ-؛ إذ قال بحلول المعاني التي هي الصفة القديمة في هذه الألفاظ المخلوقة، فجعل الألفاظ ناسوتًا لها.

والقرآن كلام الله؛ حيث تصرف، فمهما كتبناه في المصاحف، أو تلوناه بالألسنة لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله؛ لأن الكلام -كما قال المصنف- إنما يضاف إلى من قاله مبتدئًا؛ لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا.

وأمَّا معنى قول السلف: «منه بدأ وإليه يعود»؛ فهو من البدء؛ يعني: أن الله هو الذي تكلم به ابتداءً، لم يبتدأ من غيره، ويحتمل أن يكون من البدو؛ بمعنى الظهور؛ يعني: أنه هو الذي تكلم به وظهر منه، لم يظهر من غيره.

ومعنى: «إليه يعود»؛ أي: يرجع إليه وصفًا؛ لأنه وَصْفُهُ القائم به، وقيل: معناه يعود إليه في آخر الزمان، حين يرفع من المصاحف والصدور؛ كما ورد في أشراط الساعة.

وأمَّا كون الإيمان بأن القرآن كلام الله داخلًا في الإيمان بالكتب؛ فإن الإيمان بها إيمانًا صحيحًا يقتضي إيمان العبد بأن الله تكلم بها بألفاظها ومعانيها، وأنها جميعًا كلامه هو؛ لا

كلام غيره، فهو الذي تكلم بالتوراة بالعبرانية، وبالإنجيل بالسريانية، وبالقرآن بلسان عربي مبين) اهـ[١].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (١٩٨-٢٠٠).

وجوب الإيمان برؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة

وقد دخل أيضًا فيما ذكرناه من الإيمان به، وبكتبه، وبملائكته، وبرسله: الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عيانًا بأبصارهم، كما يرون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب، وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته، يرونه سبحانه وهم في عرصات القيامة، ثم يرونه بعد دخول الجنة؛ كما يشاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (تقدَّم الكلام على رؤية المؤمنين لربهم عَزَّوَجَلَّ في الجنة؛ كما دلَّت على ذلك الآيات والأحاديث الصريحة، فلا حاجة بنا إلى إعادة الكلام فيها.

غير أن قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يرونه سبحانه، وهم في عرصات القيامة» قد يوهم أن هذه الرؤية أيضا خاصة بالمؤمنين، ولكن الحق أنها عامة لجميع أهل الموقف؛ حين يجيء الرب لفصل القضاء بينهم؛ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ **هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ** ﴾ [البقرة: ٢١٠]، والعرصات: جمع عرصة، وهي كل موضع واسع لا بناء فيه) اهـ[(١)].

وقد فصَّلنا قبل ذلك في مسألة الرؤية وأنه لا خلاف عند أهل السنة في رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، وإنما أنكر ذلك أهل البدع، والخلاف السائغ في كون الرؤية للمؤمنين فقط أم للمؤمنين والمنافقين أم لأهل الموقف جميعًا مؤمنهم وكافرهم.

❁ ❁ ❁

---

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٠١).

ما يدخل في الإيمان باليوم الآخر

١- ما يكون في القبر

فصل

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يكون بعد الموت، فيؤمنون بفتنة القبر، وبعذاب القبر ونعيمه. فأما الفتنة: فإن الناس يُفتَنون في قبورهم، فيقال للرجل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فَيُثَبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، فيقول المؤمن: ربي الله، والإسلام ديني، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيي. وأما المرتاب؛ فيقول: هاه هاه؛ لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فيضرب بِمِرْزَبَّةٍ من حديد، فيصيح صيحة، يسمعها كل شيء؛ إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق. ثم بعد هذه الفتنة، إمَّا نعيم، وإما عذاب، إلى أن تقوم القيامة الكبرى، فتعاد الأرواح إلى الأجساد.

الإيمان باليوم الآخر يشمل عدة أمور:

۞ الإيمان بيوم القيامة وما فيه من: البعث، والنشور، والحساب، والجزاء، ثم الجنة والنار.

۞ الإيمان بما بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه.

۞ الإيمان بأشراط الساعة.

وهذه كلها من تفصيل الإيمان باليوم الآخر الذي بيَّنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- وذكر شيخ الإسلام هنا فتنة القبر ونعيمه، وذكر ما تضمنته الأحاديث المتواترة في هذا المقام، وقد دلَّ القرآن ودلت السنة على هذا الأمر.

فأما القرآن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ...﴾ الآية [إبراهيم:٢٧] والقول الثابت هو: لا إله إلا الله.

وتثبيت الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين في الدنيا أن يوفقهم للقول الثابت، وأن يثبتهم عليه إلى أن يموتوا عليه، وفي الآخرة أي: في القبر وهو أول منازل الآخرة، وقد ثبت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفسير هذه الآية بأنه التثبيت عند السؤال في القبر كما في حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**المسلم إذا سئل في القبر، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله:** ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾»[1].

والآيات التي تثبت عذاب القبر معظمها في القرآن المكي في عذاب الكفار، من ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ عن آل فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦].

ومن ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن المنافقين وهذا في القرآن المدني، إلا أنها في حق المنافقين الكفار: ﴿ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ﴾ [التوبة:١٠١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [الأنعام:٩٣].

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٩، ٤٦٩٩)، ومسلم (٢٨٧١)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣١٢٠)، والنسائي (١/ ٢٩٠)، ابن ماجه (٤٢٦٩)، والإمام أحمد (٤/ ٢٨٢) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: بالضرب، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ...﴾ الآية؛ دليل على أن عذابهم يبدأ من ساعة احتضارهم.

وقال عَزَّوَجَلَّ عن قوم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ [نوح:٢٥].

- وأما الأحاديث: فمتواترة رويت عن أكثر من ثلاثين صحابيًّا من طرق صحيحة فضلًا عن الضعيف، فإن ما ورد فيها أكثر مما يحتاج إليه في التواتر، ومن اطلع على هذه الأدلة، وأقيمت عليه الحجة، فكذب بعذاب القبر ونعيمه، وفتنته، وأنكره فهو كافر بعد استيفاء الشروط وانتفاء الموانع، وأما قبل إقامة الحجة فلا يكفر.

وأهل البدع الذين يطعنون في هذه الأحاديث ويزعمون أنها أحاديث آحادٍ، فهم على شفا هلكة إن لم يكونوا هلكوا بالفعل، لأن منكر عذاب القبر ضال[(١)].

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (إذا كان الإيمان باليوم الآخر أحد الأركان الستة التي يقوم عليها الإيمان؛ فإن الإيمان به إيمانًا تامًّا كاملًا لا يتحقق إلَّا إذا آمن العبد بكل ما أخبر به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من أمور الغيب التي تكون بعد الموت. والضابط في ذلك أنها أمور ممكنة أخبر بها الصادق صلوات الله عليه وسلامه وآله، وكل ممكن أخبر به الصادق يجب الإيمان بوقوعه كما أخبر؛ فإن هذه الأمور لا تستفاد إلا من خبر الرسول، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كله.

وأما أهل المروق والإلحاد من الفلاسفة والمعتزلة؛ فينكرون هذه الأمور؛ من سؤال القبر، ومن نعيم القبر، وعذابه، والصراط، والميزان، وغير ذلك؛ بدعوى أنها لم تثبت بالعقل، والعقل عندهم هو الحاكم الأول الذي لا يجوز الإيمان بشيء إلا عن طريقه،

(١) لمزيد فائدة انظر كتاب «عذاب القبر ونعيمه» د. ياسر برهامي، وهو شرح للأحاديث الواردة في كتاب (معارج القبول)، وفيه إثبات التواتر والأخبار الصحيحة الثابتة عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وهم يردون الأحاديث الواردة في هذه الأمور بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تقبل في باب الاعتقاد[١]، وأما الآيات، فيؤولونها بما يصرفها عن معانيها.

والإضافة في قوله: «بفتنة القبر» على معنى في؛ أي: بالفتنة التي تكون في القبر.

وأصل الفتنة: وضع الذهب ونحوه على النار لتخليصه من الأوضار والعناصر الغريبة، ثم استعملت في الاختبار والامتحان[٢].

وأما عذاب القبر ونعيمه؛ فيدلُّ عليه قوله تعالى في حق آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، وقوله سبحانه عن قوم نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾، وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار» والمرزبة -بالتخفيف-: المطرقة الكبيرة، ويقال لها أيضًا: إرزبة؛ بالهمزة والتشديد) اهـ[٣].

وننقل هنا كلام الشيخ حافظ حكمي[٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وما ذكره من أدلة في كتابه «معارج القبول شرح سُلَّم الوصول في التوحيد» في إثبات عذاب القبر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَأَنَّ كُلًّا مُقْعَدٌ مَسئُولُ

---

(١) لا شك أن هذه بدعة فضلًا عن كذب هذا القول؛ لأن هذه الأحاديث دالة على التواتر، وأما أحاديث الآحاد فيجب قبولها في الاعتقاد كما يجب قبولها في العمل، وإن كان الفرق في هذه المسألة -بين أحاديث المتواتر والآحاد- هو أن منكر الآحاد الصحيح الذي عاين صحته فهو مبتدع، وأما منكر المتواتر الذي وصل إليه تواتره فإنه يكفر بذلك. اهـ.

(٢) وتستعمل أيضًا في معنى الامتحان الذي ظهر منه سوء حال الممتحن، ومن هنا سمى الوقوع في المعاصي فتنة كمن فتن في دينه، ولذلك سمى الشرك فتنة لأنه أكبر الكبائر وأعظم المعاصي.

(٣) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٠٢-٢٠٤).

(٤) الشيخ حافظ بن أحمد حكمي أحد أعلام وعلماء شبه الجزيرة العربية، له مصنفات عدة منها: «منظومة سلم الوصول إلى علم الأصول في توحيد الله واتباع الرسول»، وشرحها في كتابه «معارج القبول في شرح سلم الوصول»، وله مصنفات أخرى، توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة ١٣٧٧هـ.

مَا الـرَّبُ مَا الـدِّيـنُ ومَـا الرَّسُولُ

وعِـنْـدَ ذَا يُـثَـبِّـتُ المُـهَـيْـمِـنُ

بِـثَـابِـتِ الـقَـوْلِ الَّـذِيـنَ آمَـنُـوا

ويُـوقِـنُ المُـرْتَـابُ عِـنْـدَ ذَلِـكْ

بِـأَنَّـهُ مَـوْرِدُهُ المَـهَـالِـكْ

[إثبات عذاب القبر]

في هذه الأبيات إثبات هذه المسألة العظيمة وهي إثبات سؤال القبر، وفتنته، وعذابه ونعيمه. وقد تظاهرت بذلك نصوص الشريعة كتابًا وسنةً، وأجمع على ذلك أئمة السنة والصحابة والتابعين فمن بعدهم من أهل السنة والجماعة وإن أنكر ذلك المريسي وأضرابه وأتباعهم من المعتزلة» اهـ[1].

بشر المريسي رأس من رؤوس المعتزلة، وهم من أضل أهل البدع الذي خالفوا أهل السنة في مسائل التوحيد، فأنكروا الصفات. وفي باب القدر نفوا قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ومشيئته والقدرة على أفعال العباد. وخالفوا في مسائل الوعد والوعيد؛ فقالوا: إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر، وأسموه فاسقًا في منزلة بين منزلتين في الدنيا، وهو مخلد في النار في الآخرة، فوافقوا الخوارج في تخليده في النار، وخالفوا أيضًا في الخروج على الأئمة دون مراعاة للضوابط الشرعية، ومن أصولهم تقديم العقل على النقل، فشوَّهُوا الأحاديث، وحرفوا الآيات بشبهات عقولهم السخيفة، وكان من ضمن ما أنكروه عذاب القبر؛ زعمًا منهم أنهم لا يشاهدون ذلك بأبصارهم، ولا يسمعونه بآذانهم، فنفوا ذلك بعقولهم، مع أن العقل السليم يقتضي أن يُسْكَت عن ذلك لأنه لا دليل عليه محسوس، فإذا اختلفت الأدلة الشرعية -وهي أعظم عند أهل الإيمان- مع الأدلة الحسية وجب تقديم الأدلة

(١) «معارج القبول شرح سلم الوصول» (ص٧١٢) ط. دار ابن القيم.

الشرعية، والإيمان بها، والإقرار بما دلت عليه، والعقل في هذه الحالة يُثبت؛ لأنه يُثْبِت ما أثبته الشرع الصحيح، فإنه ليس في العقول ما ينفي، بل فيها ما يؤكد صدق صاحب الرسالة وصاحب المعجزة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيلزم اتباعه على ذلك.

والمعتزلة لهم أقوال، كثيرٌ منها أقوال كفرية، ولكن لا يكفر المعين منهم إلا بعد إقامة الحجة، ومن هذه الأقوال إنكار عذاب القبر؛ لأن الأحاديث فيه تواترت، ولكن العلم بها بالضرورة صار متفاوتًا في الأزمان المختلفة، ولذلك هي متواترة عند من اطلع عليها.

فمَن كذَّب بعذاب القبر، أو كذَّب بسنَّة متواترة بعد بلوغ الحجة فهو كافر، أما قبل إقامة الحجة وقبل إزالة الشبهات فلا يكفر.

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وحملوا على فاسد فهمهم قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢].

قالوا في الآية الأولى: لو صاروا أحياءً في القبور لذاقوا الموت مرتين لا موتة واحدة، وقالوا في الآية الثانية: إن الغرض من سياقها تشبيه الكفرة بأهل القبور في عدم الإسماع ولو كان الميت حيًّا في قبره أو حاسًّا لم يستقم التشبيه، وأمَّا من جهة العقل فإنَّا نرى شخصًا يُصلَب ويبقى مصلوبًا إلى أن تذهب أجزاؤه ولا نشاهد فيه إحياءً ومسألة، والقول لهم بهما مع المشاهدة سفسطة[1] ظاهرة، وأبلغ منه من أكلته السباع والطيور وتفرقت أجزاؤه في بطونها وحواصله، وأبلغ منه من أُحرِق حتى يفتت وذريت أجزاؤه

(١) **السفسطائية**: مذهب فلسفي قديم يكابر في البديهيات، كأن يطلب دليلًا على وجود الشمس وظهورها وأصبحت الكلمة دلالة على كل من يجادل بالباطل، أو يطلب دليلًا على البديهيات.

المتفتتة في الرياح العاصفة شمالًا وجنوبًا، وقبولًا ودبورًا، فإنَّا نعلم عدم إحيائه ومسألته وعذابه ضرورة.

هذه خلاصة شبههم الداحضة ومحصلة آرائهم الكاسدة وأفهامهم الفاسدة، ولا عجب ولا استغراب ممن ألحد في أسماء الله وصفاته، وجحد ما صرح به تعالى في محكم آياته، ولا ما صح عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أقواله وأفعاله وتقريراته، وحَكَّم العقل في الشرع، وعارض الوحي الرحماني بالحدس الشيطاني، وقدم الآراء السقيمة على السنن المستقيمة، وآثر الأهواء الذميمة على المحجة القويمة، فليس بعجيب ولا غريب ممن هذا شأنه أن ينكر عذاب القبر وغيره من أنباء الغيب التي لا يشاهدها، وما له لا ينكر ذلك وهو لا يعرف الإنسان إلا هذا الجسم الذي هو الجلد، واللحم، والعظم والعروق والأعصاب، والشرايين، ونحوها مما يمتلئ بكثرة الطعام والشراب فيه ويخلو بقلتهما عليه، وما له لا ينكر ذلك وهو لا يقرُّ بموجود إلا مسموعًا متكلمًا به، مبصرًا، مشمومًا، ملموسًا[1]، وما له لا ينكر ذلك وطريقته في النصوص أبدا تأويل الصريح وتضعيف الصحيح وأنها آحاد ظنية لا تفيد اليقين، وليست بأصل بزعمه عند المحققين، ولا ذنب للنصوص، وما نقم منها إلا أنها خالفت هواه، وصرحت بنقض دعواه، وسدت عليه باب مغزاه، وأوجبت عليه نبذ أقوال شيوخه، وهدمت عليه ما قد بناه، وألزمته باطراح كل قول غير ما قاله الله أو رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونادت عليه بأبلغ صوت: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾[2] [الشورى:٢١] والجواب عن الشبهة الأولى: أن الآية لا تدل على مدعاهم بوجه؛ فإنها في صفة أهل الجنة وما لهم فيها

---

(١) الفلاسفة عندهم قضية الحس، والعالم المشهود هو الأصل، ويقولون بإنكار (الميتافيزيقيا) أو (ما وراء الطبيعة المحسوسة).

(٢) ذلك أن الذي يحكّم العقل ويرد الشرع قد جعله لله شريكًا في التشريع.

من كمال النعيم والخلد المقيم، وأنهم لا يذوقون فيها الموت بل ينعمون، ولا ييأسون، ويخلدون فلا يموتون، وأين هذا من نفي عذاب القبر الذي ادعوه!

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] تأكيد لنفي الموت عنهم في الجنة، وما المانع من كون الروح تتصل بالجسد في البرزخ اتصالًا خاصًّا، ليتألم الجسد بما يتألم به من دون أن تكون حياته كالحياة الدنيوية، بل ما المانع من كونها حياة مستقرة لا تشبه الحياة الدنيا، وهي أعظم منها، فحجب الله تعالى رؤية ذلك عن عباده رحمة منه بهم كما يدل عليه ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأحاديث الآتية من الإقعاد والمخاطبة والسؤال والجواب كفاحًا كما يشاء الله عَزَّوَجَلَّ، والفتح لباب الجنة للمؤمن، وفرشه منها، وفتح باب النار للمرتاب، وقمعه بالمطارق، والمرازب، وغير ذلك مما سيأتي إن شاء الله تعالى بسطه) اهـ[١].

وخلاصة الكلام في هذا الجواب عن هذه الشبهة: أن حياة البرزخ هي حياة خاصة لا تنافي الموت الذي هو موت الأبدان بمفارقة الروح للبدن، إذ إن الحياة الدنيا التي نحن فيها من ينتقل عنها يسمى قد مات، وقد خرجت روحه من بدنه، ثم يكون في البرزخ هناك اتصال بين الروح والبدن يشعر الإنسان من خلاله ببعض الأشياء، ويرى بعض الأشياء فهذا لا مانع منه شرعًا ولا عقلًا، فإن حياة البرزخ لا تنافى الموت الدنيوي.

ثم قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأيضًا فأهل الجنة المشار إليهم بقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦]. وقد وردت فيهم الأحاديث الصحيحة أن أرواحهم تسرح في الجنة في حواصل طيور خضر، كما روى الإمام أحمد عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي عن الإمام مالك بن أنس عن الإمام محمد بن شهاب الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إنما نَسَمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله تعالى إلى جسده يوم**

---

(١) «معارج القبول» (٧١٤) ط. دار ابن القيم.

يبعثه»[١]. وفيهم الشهداء الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ**﴾ [البقرة:١٥٤]) اهـ[٢].

وهذا الحديث الذي ذكره الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث عظيم الإسناد اجتمع في إسناده ثلاثة من الأئمة، رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن الزهري وهو أيضًا من كبار أئمة التابعين، لكن الحديث لا يدل على أن الأرواح في حواصل طير خضر، بل روح المؤمن هي نفسها تكون في شكل طائر كامل روح في جسد.

كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود ر لما سئل عن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران:١٦٩] قال: أما إنَّا قد سألنا عن ذلك، فقال: «**أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل**»[٣].

والفرق بين أرواح عامة المؤمنين في الجنة وبين أراوح الشهداء أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، فهم يعيشون حياة كاملة روحًا وجسدًا، وأما باقي المؤمنين في الجنة فأرواحهم هي التي في صورة طائر، كما قال ابن القيم في قصيدته النونية في الفرق بين الصورتين:

فالشأن للأرواح بعد فراقها ... أبدانَها واللهِ أعظمُ شان

إما عذابٌ أو نعيمٌ دائم ... قد نعمت بالروح والريحان

وتصير طيرا سارحا مع شكلها ... تجني الثمار بجنة الحيوان

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٣/ ٤٥٥)، قال الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٦٩٤): «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٢) «معارج القبول» (٧١٥).

(٣) رواه مسلم (٣٦١١).

وتظل واردة لأنهار بها	حتى تعود لذلك الجثمان
لكن أرواح الذين استشهدوا	في جوف طير أخضر ريان
فلهم بذاك مزية في عيشهم	ونعيمهم للروح والأبدان
بذلوا الجسوم لربهم فأعاضهم	أجسام تلك الطير بالإحسان
ولها قناديل إليها تنتهي	مأوى لها كمساكن الإنسان
فالروح بعد الموت أكمل حالة	منها بهذي الدار في جثمان
وعذاب أشقاها أشد من الذي	قد عاينت أبصارنا بعيان

فهذا من الكلام الطيب الحسن الذي يدل على أن حياة الشهداء حياة كاملة لكن في أجساد أخرى، وأما حياة المؤمنين فإن أرواحهم هي التي تكون في صورة الطائر وتتصل هذه الروح بالأبدان أو بما تبقى منها في الأرض، وهذا الاتصال لا ندري كيفيته، فإن حياة الشهداء أكمل ولذلك ذكر عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

ثم قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الله تعالى لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ فهل شعرتم بذلك يا معاشر الزنادقة دونهم؟ ويقول تعالى فيهم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩] الآيات، وذلك بخلاف الذين كفروا فإنهم كما قال الله تعالى فيهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر:١١] والموتة الثانية على أحد التفسيرين هي موتتهم بعد فتنة القبر. وتفسير الجمهور لا ينافي ذلك فإنهم حملوا الموتة الأولى إذ قالوا: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾على العدم الذي قبل وجودهم، والثانية على الخروج من الدنيا،

ولم يعدوا نومتهم بعد الفتنة في القبر موتة مستقلة؛ لأن حال البرزخ من الموتة الثانية وليس هو من دار الدنيا ولا دار الآخرة بل هو حاجز بينهما) اهـ[١].

وقول الجمهور في تفسير الآية هو الصحيح لأن حياة البرزخ من حياة الآخرة قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ الآية [إبراهيم:٢٧] كما قال عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن القبر أول منازل الآخرة....»[٢] الحديث. وأما تفسير الآية بأن الموتة الثانية تكون بعد فتنة القبر فهذا تفسير غير راجح -والله أعلم-؛ لأن على هذا القول يكون هناك ثلاث موتات؛ الأولى التي كان الإنسان فيها قبل ولادته، ثم بعد ذلك يولد ويعيش ثم يموت ثم يُسأل في القبر، ثم يموت فتكون ثلاث موتات، وثلاث مرات من الحياة.

وسمي القبر بالبرزخ؛ لأنه بين القيامة وبين الحياة الدنيا، لكنه من أمر الآخرة، والقول الثابت هو قول: لا إله إلا الله، والله عَزَّوَجَلَّ يثبت المؤمنين بلا إله إلا الله فقالوها حال الحياة الدنيا، وفي الآخرة إذا سئلوا في القبور فأجابوا بأن ربهم الله، ودينهم الإسلام، ومحمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله، فثبتوا في القبور، فهذا دليل على أن هذا من الثبات في الآخرة.

ومن قال إنهم ماتوا وأحيوا في القبور مرة ثانية ثم يموتوا فيه فيلزم من ذلك أن تكون ثلاث موتات، وهذا خلاف ظاهر القرآن، والصحيح أنه لا تعارض بين أن ينام العبد في القبر كما ورد في السنة أن المؤمن في قبره ويقال له من الملكين: «**نَمْ كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك...**»[٣] الحديث.

---

(١) المصدر السابق (ص٧١٥).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق مسند الإمام أحمد (١/ ٢٢٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي (١٠٧١)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال في تحفة الأحوذي: «وإنما شبه نومه بنومة العروس؛ لأنه يكون في طيب العيش» اهـ[١].

وإن كانت الحياة البزرخية لا نقول إنها مثل النوم المعهود في الدنيا تمامًا، لكن المعنى: أن الميت في قبره له شعور.

وعقلًا لا يمتنع ذلك، فإن العقل لا يمانع، بل ويقر أن النائم في الدنيا له شعور، بل قد يسمى النائم ميتًا بدرجة ما، وقد سمَّاه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالموت كما في الحديث: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور...**»[٢].

وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد أن ينام قال: «**باسمك اللهم أموت وأحيا...**»[٣].

فإن النوم هو أقرب شيء إلى الموت، والموت آية من آيات الله، وكذا النوم آية من آيات الله وجعله الله عَزَّوَجَلَّ دليلًا على البعث والنشور، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر البعث والنشور والموت مع النوم والاستيقاظ كما في الحديث: «**باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[٤].

والله عَزَّوَجَلَّ قد جمع بينهما فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر:٤٢].

---

(١) «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» للمباركفوري (٤/ ١٨٣) ط. دار الفكر.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٣٢٤)، مسلم (٢٧١١) من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٣٢٤)، مسلم (٢٧١١) من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وهذا أمر محسوس تمامًا ويثبته كل عاقل؛ أن الإنسان النائم يشهد في منامه ويرى تفاصيل كثيرة مع أنه نائم؛ لأن الروح لها شأن مختلف، بل ربما ظهر بعض التأثير من شدة ما يراه الإنسان في نومه، فقد يصرخ، أو ينازع، أو يتحرك، وهذا كله يثبته كل عاقل ولا يمانع فيه، فدلَّ ذلك على أن الحياة البرزخية وما يحدث فيها لا يستطيع العقل إنكارها أو الاحتجاج بأننا لا نراها على عدم حدوثها.

وكما أوضحنا تفسير الجمهور في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ...﴾ الآية [غافر:١١] فتكون الموتةُ الأولى قبل الحياة، والشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسميها عدمًا لكن الأصح أنها ليست عدمًا؛ لأن المقصود بها فترة وجود الإنسان ميتًا حين كان ترابًا من أصل خلقته من الأرض، والروح موجودة قبل بدنه من قديم الزمان حين مسح الله ظهر آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فجمع الله عَزَّوَجَلَّ خلق الإنسان من التراب والماء، ووجد الإنسان في بطن أمه جنينًا ثم نمت أجزاؤه، ثم يجعل الله عَزَّوَجَلَّ تلك الروح تستقر في هذا البدن فتكون الحياة، وقبل ذلك كان ميتًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨].

فيكون الموت الأول قبل الولادة، ثم الحياة بالولادة ثم الموت الثاني الذي هو الموت المعهود، ثم الحياة الثانية يوم القيامة، فيكون البرزخ من الموتة الثانية، وليس هو من دار الدنيا، بل هو من دار الآخرة.

ثم قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (رُوى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة قال: «إذا وضع يعني: الكافر في قبره يرى مقعده من النار. قال: فيقول: رب ارجعون أتوب

وأعمل صالحًا، فيقال: قد عُمِّرت ما كنت معمَّرًا. قال: فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنهوش ينام ويفزع، وتهوى إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها»[1]) اهـ[2].

المنهوش أي: الملدوغ، ويلتئم عليه قبره أي: يضيق جدًّا، ولا يجد منه متسعًا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ...﴾ الآية: «عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وأبو مالك، وهذا هو الصواب، الذي لا شكَّ فيه ولا مرية، وقال السُّدِّيُّ: أُمِيتوا في الدنيا، ثم أحيوا في قبورهم فخوطبوا، ثم أميتوا، ثم أحيوا يوم القيامة، وقال ابن زيد: أحيوا حين أُخِذ عليهم الميثاق من صلب آدم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة وهذان القولان من السدي وابن زيد ضعيفان لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات، والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما»[3]اهـ.

وخلاصة ذلك كما قدَّمنا أن قوله عَزَّوَجَلَّ عن أهل الجنة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ الآية، أنهم ذاقوا الموتة الأولى، وأن ذلك لا ينافي أن الإنسان في قبره له إدراك لأشياء معينة، ومن الأدلة على ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ عن الشهداء: ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ الآية [آل عمران:١٦٩]، فإنه عَزَّوَجَلَّ وصف الشهداء بأنهم أحياء، وبإجماع المسلمين أن الشهيد يورث، وإذا انتهت عدة امرأته جاز لها أن تتزوج غيره؛ فإن حياته حياة لا تنافي الموت لكن مع ذلك في موته يشعر ويدرك أشياءَ معينة بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) ذكره ابن كثير بسنده في تفسير (٣/ ١٣٠٥) ط. ابن حزم.
(٢) «معارج القبول» (٧١٥) ط. دار ابن القيم.
(٣) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٧٩)، (٤/ ١٦٣٦) ط. ابن حزم.

فهذا بالنسبة للجواب عن الشبهة الأولى.

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الشبهة الثانية فالجواب عنها من وجهين:

الأول: أن قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢] نفي لاستطاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن يسمعهم، وليس ذلك بمحال في قدرة الله أن يُسمعهم، كما أسمع أهل القليب تبكيته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا**»[1] وهذا إذا حمل على نفي مطلق السماع بالكلية» اهـ[2].

فالمعنى هنا أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لا يستطيع إسماعهم، لكن الله عَزَّ وَجَلَّ قدير أن يسمعهم، وهذا عند حمله على مطلق السماع.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الوجه الثاني:** أنه لم ينف مطلق السماع، وإنما نفى سماع الاستجابة كما يدل عليه قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في حديث القليب: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون**») اهـ[3].

والوجه الأول هو الصحيح؛ لأن قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾، نكرة في سياق النفي فأفادت نفي أي سماع.

والأصل أن أهل القبور لا يسمعون، وهذا عام يخصص منه ما ورد به الدليل، ومن أجل ذلك شُبِّه الكفار به، ولأجل أن نقول إن المقصود هو سماع الفهم وسماع الاستجابة فلابدَّ من إثبات الأصل أولًا، وهو أن مَن في القبور لا يسمعون سماع الاستجابة أو الفهم، لكن الحق أن الأموات لا يسمعون مطلقًا إلا ما خصصه الدليل، وليس أن المراد سماع الاستجابة أو الفهم.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٢٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

(٢) «معارج القبول» بتصرف يسير (٧١٦).

(٣) المصدر السابق (٧١٦).

ونستفيد من هذه المسألة، ويتفرع عنها: حكم مخاطبة الأموات، هل تجوز ابتداءً أم لا؟ فلو حملنا السماع في الآية على سماع الاستجابة لاحتج من يخاطب الأموات بذلك، وزعم أنه يخاطبهم خطابًا مجردًا، ولا يطلب منهم قضاء الحوائج، أو كشف الكربات، وإنما مجرد الخطاب والكلام ويطلب سماعهم المجرد.

ولكن الصواب أن المقصود بالسماع هو مطلق السماع، ولذا فإن الأموات لا يسمعون إلا ما ورد الدليل بثبوته، ومن ذلك سماع أهل القليب في بدر تبكيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن الصحابة تعجبوا أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاطب قتلى الكفار، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا رسول الله كيف يسمعوا، وأنى يجيبوا وقد جَيَّفوا؟» قال: «**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا**»[(١)].

فهذا دليل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقر بتعجبهم من مخاطبة الأموات ولم ينكره، لكن بيَّن لهم أنهم يسمعون، فدلَّ الدليل على هذا الأمر الخاص في هذا الموطن.

ومما ورد أيضًا في هذا الباب تحية أهل الإسلام من الأموات بصيغة الخطاب في حديث بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول: «**السلام عليكم، أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية**»[(٢)].

وحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا رسول الله كيف أقول لهم -يعني أهل القبور- قال: «**قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاءَ اللهُ بكم للاحقون**»[(٣)].

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣٧٠)، ومسلم (٢٨٧٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) رواه مسلم (٩٧٥).
(٣) رواه مسلم (٩٧٤).

ومما ورد أيضًا تبكيت الكفار عند المرور بقبورهم كما في حديث وفد بني المنتفق وفيه: «... **لعمر الله حيث ما أتيت على قبر كافر: عامري أو قرشي أو دوسي قل: أرسلني إليك محمد فأبشر بما يسوؤك تجر على وجهك وبطنك في النار...**»[(١)] الحديث.

وبلفظ آخر: «**حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار**»[(٢)].

فهذه حالات ورد بها الدليل في جواز مخاطبة الأموات، وهذا تخصيص لما ورد عامًّا في الآية: ﴿**وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ**﴾ ثم يظل الأمر على عموم النفي باستثناء ما ورد في هذه الأدلة المخصصة، ولذلك نبني على هذا عدم جواز طلب الدعاء من الأموات؛ ردًّا على أهل البدع الذين يجوزون ذلك، زاعمين الاستدلال بجواز طلب الدعاء من الأحياء، وما دام أن الشهداء أحياء فيجوز طلب الدعاء منهم، وهذا ضلال، وبدعة ما عمل به أحد من السلفK وهنا نحتج بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ**﴾ الآية.

ثم قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الكفار كانوا يسمعون كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسمعون منه كلام الله وهو يتلوه عليهم، ولكن ليس ذلك بسماع استجابة؛ ولهذا أثبت تعالى هذا السماع الظاهر لهم في قوله تعالى: ﴿**يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا**﴾ [الجاثية:٨] ولو كان الكفار لم يسمعوا مطلقًا لا سماع استجابة ولا مطلقًا لم يكن القرآن حجة عليه، ولم يكن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغهم؛ لأنهم ما سمعوه منه، ولا أفسد من قولٍ هذا لازمه.

(١) زوائد المسند (٤/ ١٣-١٤)، وابن أبي عاصم في السنة (ح(٦٣٦))، والطبراني في الكبير (١٥/ ٢١١) (ح٤٧٧) من حديث لقيط بن عامر. قال ابن القيم: هذا حديث كبير جليل تنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة.

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير» (١/ ١٩١)، وابن السنة في «عمل اليوم والليلة» (٥٨٨)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة»، وقال الهيثمي في «المجمع»: رجاله رجال الصحيح. (١/ ١١٧-١١٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأما شبهتهم العقلية: فهي لا تليق إلا بعقولهم السخيفة؛ فإن الروح التي عليها العذاب أو النعيم المتصل بالجسم ليس بمُدْرَكٍ في الدنيا، ولا يعلمه إلا الله، فمن كان لا يدرك روح من يمشي معه، ويكلمه، ويأتمنه، ويعامله، فكيف يدركه إذا صار من عالم الآخرة ليس من عالم الدنيا؟ وأيضًا فاحتجاب ذلك عن أهل الدنيا من حكمة الله تعالى البالغة ورحمته بهم، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله** عَزَّ وَجَلَّ **أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع**»[١]. وأيضًا فأكثر أمور الإيمان اعتقادات باطنة منا لأمور غائبة عنا، وهي أعلى صفات أهل الإيمان الذين يؤمنون بالغيب؛ وذلك غائب عنا في الحياة الدنيا، ونحن نعلمه عن الله علم اليقين، فإذا خرجنا من هذه الدار صار الغيب شهادة، ورأينا هذا عين اليقين. قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:٣٩] والذي أُحْرِقَتْ أعضاؤه وتفرَّقت أجزاؤه يجمعه الذي أبدأه مِن لا أجزاء ولا أعضاء) اهـ[٢].

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلق، وفيه يركب**»[٣].

ومن الرد على الشبهة الفاسدة التي يسوقها أهل البدع: أن الإنسان في حياته العادية توجد أشياء كثيرة حوله، لكن طبيعة الإنسان وخِلْقَتَه ليست مهيأة أو مستعدة لرؤية هذه الأشياء أو سماعها، فإذا أتيحت له إمكانات أو وسائل فإنه يدرك بها هذه الأشياء والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، مثل الموجات الكهرومغناطيسية، أو موجات الراديو والتلفزيون أو الاتصالات، وملايين الترددات من الأصوات التي لا تدركها أذن

---

(١) رواه مسلم (٢٢٦٧) من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «معارج القبول» (٧١٧).

(٣) رواه مسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإنسان المجردة، وملايين الأشياء التي لا تستطيع العين المجردة رؤيتها؛ فإن العقلاء مجمعون على وجودها، وليس عدم رؤيتها أو سماعها دليل على عدمها.

بل إن بعض الحيوانات قد تسمع أكثر من الآدمين، أو تدرك أشياء لا يدركها الإنسان كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... **إنهم ليعذبون عذابًا تسمعه البهائم...**»[(١)] الحديث.

وثبت ذلك بالعقل في العصور الحديثة، ولا يستطيع عاقل أن يمانع في ذلك أو ينفيه بل العقل السليم يُقِرُّ أنه لا يعلم بالشيء أو لا يدرك وجوده، لكن هذا ليس داعيًا لجحود وجود ذلك الشيء من أصله، فإذا جاءه الخبر من العليم الخبير على لسان الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلابدَّ أن يصدق به وإن لم يسمعه أو يشاهده، لكن الإنسان الجاهل والضال المتكبر، المعاند للحق هو الذي ينكر عذاب القبر بدعوى أن العقل لا يقبله وهذا كلام باطل مصادم للعقل وللشرع؛ فإن العقول السليمة تدلُّ على قبول نصوص الوحي، والوحي قد أخبرنا بأن هناك أشياء لا يدركها البشر في حياتهم.

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ** ﴾ الآية [الأعراف:٥٣] فيا أيها الطالب الحق، المتحري الإنصاف إليك نصوص الآيات المحكمة، والسنن القائمة، فألقِ لها سمعك، وأحضر قلبك وانظر بماذا عارضها الذين في قلوبهم زيغ، وكيف تتبعوا الذي تشابه منه[(٢)]، وأعرضوا عن المحكم ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٣٦٦)، ومسلم (٥٨٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) ومثال المتشابه هنا قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ... ﴾ أي: في الجنة، وأما أنهم في الدنيا أو ما قبل الجنة أميتوا وأحيوا فهذا ليس بممتنع.

كما أخبر الله تعالى عنهم فردُّوا المحكم بالمتشابه[١]، ولم يردوا على ما غرب عنهم علمه إلى عالمه، واحمدِ الله تعالى إذ هداك لما اختلفوا فيه، ووفَّقك لما انحرفوا عنه من الحق المبين، وقل كما قال الراسخون في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ...﴾ [الأنعام:٩٣]) اهـ[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ جواب (لو) محذوف تقديره: لرأيت أمرًا عظيمًا وهولًا.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الظلم هنا هو الظلم الأكبر -الكفر- أي لو ترى حين.

وفي قوله تعالى: ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ الغمرات: جمع غمرة؛ وهو ما يغمر الإنسان أي: يغطيه من كل جانب؛ فإن الموت قد أحاط به من كل جانب.

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال أئمة التفسير: ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: إليهم بالضرب، والنكال، وأنواع الأذى، وأنواع العذاب حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم) اهـ[٣].

لأن الأرواح تفزع فَتُنْزَع نزعًا، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ [النازعات:١] أي: نَزْعٌ بشدة ومبالغة؛ فإن أرواح الكفار تنزع نزعًا من أجسادهم، والملائكة تضربهم.

﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ هذا من باب الإهانة لهم.

(١) أهل البدع يردون المحكم بالمتشابه، ويتركون المحكم ويحرفونه، ثم يأخذون المتشابه ويحرفونه وفق أهوائهم، وأما أهل العلم فإنهم يردون المتشابه إلى المحكم لكي يفهموا معنى المتشابه فيتسق الكتاب كله.

(٢) «معارج القبول» (ص٧١٧).

(٣) «معارج القبول» (ص٧١٧).

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ هذا دليل على إثبات عذاب البرزخ بلاشك، وهم من ساعة الاحتضار يجزون ذلك، وهذا قول أئمة السلف، وقرأ ابن مسعود (عذاب الهوان).

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ وهذه تشمل كل ضال مضل يعتقد اعتقادًا فاسدًا كفريًّا، ويقول على الله غير الحق، مثل: ادِّعاء الصاحبة والولد، أو يقول على الله غير الحق فيما أحلَّ وحرَّم، وكلَّ قائل على الله عَزَّوَجَلَّ ما لم يقل، وأعظم ذلك ما كان يتعلق بأسماء الله وصفاته وحقوقه على العباد. وكلُّ مفتٍ بالباطل، وكلُّ مبتدعٍ في الدين له نصيب من هذه الآية.

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ وذلك أن الكافر إذا احتضر بشَّرته الملائكة: بالعذاب، والنكال، والأغلال، والسلاسل، والجحيم، والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتفرق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: اليوم تُهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله، وسيأتي في الأحاديث كيفية احتضار المؤمن والكافر قريبًا إن شاء الله. ووجه الدلالة من هذه الآية أنه إذا كان يُفعَل به هذا وهو محتضر بين ظهراني أهله صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وهم لا يرون شيئًا من ذلك ولا يسمعون شيئًا من ذلك التقريع والتوبيخ، ولا يدرون بشيء من ذلك الضرب، غير أنهم يرون مجرد احتضاره وسياق نفسه، لا يعلمون بشيء مما يقاسون الشدائد، فلأن يُفعَل به في قبره ذلك وأعظم منه ولا يعلمه من كشف عنه أولى وأظهر؛ لأنهم لم يطلعوا على ما يناله بين أظهرهم، فكيف وقد انتقل إلى عالم غير عالمهم، ودارٍ غير دارهم، فلابدَّ للمخالف من أحد أمرين: إمَّا أن يُقِرَّ بما أخبر الله تعالى به في المحتضر فيلزمهم ما ورد في عذاب القبر، أو يجحد

هذا وهذا فيكفر بتكذيبه الله ورسوله، فَبَشِّرْهُ بتأويل هذه الآية إذا صار إلى ما صار إليه المكذبون.

وقال: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧] وهذه الآية نصها في عذاب القبر بصريح الأحاديث الآتية، وباتفاق أئمة التفسير من الصحابة فالتابعين ومن بعدهم، وأن المراد بالتثبيت هو عند السؤال في القبر حقيقة، وأن من أنكر ذاك اعتمادًا على كونه لا يراه ولا يسمعه فقد أنكر أن يكون الله يفعل ما يشاء) اهـ[(١)].

والتثبيت بالقول الثابت هو: قول لا إله إلا الله في الحياة الدنيا -كما قدمنا- لما وَفَّقَ اللهُ عبادَه المؤمنين أن يقولوها وثبتوا عليها إلى الممات، وفي الآخرة في أول منازلها وهو القبر.

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون])[(٢)].

أي: كلا إنها مجرد كلمة يقولها المحتضر ولا يستجاب له فيها ولا يرجع.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾: ما ينتظرهم وهو البرزخ، وهو الفترة بين الدنيا والآخرة إلى النفخ في الصور إلى يوم يبعثون.

ثم قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (روى ابن أبي حاتم بسنده عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «ويل لأهل المعاصي من أهل القبور، تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أو

(١) «معارج القبول» (٧١٨).
(٢) «معارج القبول» (٧١٨).

دُهم، حية عند رأسه، وحية عند رجليه يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾»[(١)]) اهـ[(٢)].

هذا الحديث ضعيف الإسناد، لكن الآية تثبت أن هناك برزخًا بين الدنيا والآخرة.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ ذكر العيني هذه الآية في شرح هذا الباب من صحيح البخاري، وقال: «فإن الله تعالى ذكر الموتة مرتين وهما لا تتحققان إلا أن يكون في القبر حياة وموت حتى تكون إحدى الموتتين ويتحصل عقيب الحياة في الدنيا والأخرة ما يتحصل عقيب الحياة التي في القبر).

قلت: وهذا هو تفسير السُّدِّي في هذه الآية حيث قال: أُمِيتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم فخوطبوا، ثم أُمِيتوا فأحيوا يوم القيامة.

والآية تحتمله، لكن المشهور عن ابن مسعود، وابن عباس، والضحاك، وقتادة، وغيرهم أن هذه الآية كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨] وقد قدمنا الجمع بين هذين التفسيرين ولله الحمد والمنة)[(٣)].

ذكرنا أن هذا التفسير ضعيف ومرجوح، وأن الجمع غير ظاهر؛ لأن فيه اختلاف تضاد في التفسيرين، وترجيح ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقول ابن مسعود وابن عباس هو الظاهر والصواب، ولا تعارض بين قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ وبأن هناك حياة في القبر.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «الدر المنثور» (٦/ ١١٤)، وذكره ابن كثير (٣/ ٢٦٦) وفي سنده ضعف.

(٢) «معارج القبول» (ص٧١٨).

(٣) «معارج القبول» (ص٧١٩).

- وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [التوبة:١٠١] قال ابن مسعود، وأبو مالك، وابن جريج، والحسن البصري، وسعيد، وقتادة، وابن إسحاق ما حاصله: أن المراد بذلك: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب عظيم، وهو عذاب النار) اهـ[1].

المقصود هنا: المنافقون، وهذا هو تفسير جمهور السلف، وهو الصحيح؛ أنهم يعذبون مرة في الدنيا، ومرة في القبور، ثم يردون إلى عذاب عظيم يوم القيامة.

- وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١] قال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة يعني به: عذاب القبر) اهـ[2].

هذا الاستدلال ضعيف جدًّا؛ وذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فالمقصود هنا بالعذاب الأدنى أي: عذاب الدنيا: كالقحط، ونقص الأموال، والثمرات التي لعل الإنسان أن يرجع بسببها، أما عذاب القبر فأي رجوعٍ يكون عقبه؟!

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابن عباس: مصائب الدنيا، وأسقامها، وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه، وروي مثله عن أبي بن كعب، وأبي العالية، والحسن، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادة...» اهـ[3].

- قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى في قوم نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَحَاقَ

---

(١) «معارج القبول» (ص٧١٩).

(٢) «معارج القبول» (ص٧١٩).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ١٤٧٧) ط. ابن حزم.

بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر])[1].

هاتان الآيتان من أصرح الآيات في إثبات عذاب القبر؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أخبر أنهم أُدخلوا نارًا، وهذا للأرواح، وفي آل فرعون قال سبحانه: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ أي: صباحًا ومساءً.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ الآية، هذا أصرح دليل على إثبات عذاب القبر، لكن هذا في حق الكفار، وليست فيها دليل على عذاب القبر لأهل الإسلام، وإنما عذاب القبر في حق من استحقه من أهل الإسلام يثبت من أدلة أخرى تأتي.

- وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «إن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاءوا، وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت، تأوي إلى قناديل معلقة في العرش، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها)[2].

وفي حديث الإسراء الطويل الذي أخرجه البيهقي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال فيه: «**ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله عَزَّوَجَلَّ، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم مصفدون على سابلة آل فرعون**[3] **وآل فرعون يعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا**

---

(١) «معارج القبول» (٧١٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وذكره ابن كثير (٤/ ٨٨)، والحديث فيه ضعف.

(٣) أي: على طريق وسبيل آل فرعون.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ **وآل فرعون كالإبل المسومة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون**»[(١)].

وفي حديث عائشة في قصة اليهودية التي قالت لها: وقاك الله من عذاب القبر فأنكرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذلك فلما رأت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت له: فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا**»، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ثم قال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك: «**وإنه أوحي إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم**»[(٢)] وسيأتي إن شاء الله قريبًا) اهـ[(٣)].

أي: لا تعذبون في قبوركم، فأنكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه إنما أوحي إليه في الفترة المكية عذاب الكفار، فلم يَرِدْ حينئذٍ عذاب أهل الإسلام في القبور.

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «فيقال ما وجه الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلَّت على عرض الأرواح على النار غدوًّا وعشيًّا في البرزخ وليس فيها دلالة -يعني تامة- على اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصًّا بالروح، فأمَّا حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية. وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلَّت على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب. وهذا الجواب هو الراجح عندي لما يدلُّ عليه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما يفتن يهود**»[(٤)]، وذلك قبل أن يوحى إليه أن أمته أيضًا تفتن. والجواب الأول مرجوح؛ لأن الآيات أيضًا صريحة في اتصال عذاب القبر بالروح والجسد، وما ليس صريحًا منها فمحتمل يحمل على الصريح إذ لم يجئ في آية تخصيصه بالروح دون الجسد ونفيه عن

(١) أخرجه ابن جرير (١٥/ ١٣)، وأبو هارون العبدي متروك، وفي الصحيح غنية عنه.

(٢) رواه البخاري (١٨٤)، ومسلم (٩٠٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) «معارج القبول» (ص٧٢٠).

(٤) رواه مسلم (٥٨٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الجسد، وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم».

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، وكذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]) اهـ[(١)].

أي: تقول لهم الملائكة وذلك ساعة توفيهم فتكون الأرواح التي يحصل لها ذلك.

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر]) اهـ[(٢)].

فصل

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «معارج القبول»[(٣)]:

([ذكر نصوص السنة في إثبات عذاب القبر]

وأما نصوص السنة في إثبات عذاب القبر فقد بلغت الأحاديث في ذلك مبلغ التواتر؛ إذ رواها أئمة السنة، وحملة الحديث ونُقَّادُه عن الجمِّ الغفير، والجمع الكثير من أصحاب رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منهم: أنس بن مالك، وعبد الله بن عباس، والبراء بن

---

(١) «معارج القبول» (٧٢١)، وكلام ابن كثير (٢/ ١٠٦٠) ط. ابن حزم.

(٢) المصدر السابق (٧٢١).

(٣) المصدر السابق (٧٢١).

عازب، وعمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وعائشة أم المؤمنين، وأسماء بنت أبي بكر، وأبو أيوب الأنصاري، وأم خالد، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وسمرة بن جندب، وعثمان بن عفان، وعلي، وزيد بن ثابت، وجابر بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن أرقم، وأبو بكرة، وعبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبوه عمرو، وأم مبشر، وأبو قتادة، وعبد الله بن مسعود، وأبو طلحة، وأسماء أيضًا، وعبد الرحمن بن حسنة، وتميم الداري، وحذيفة، وأبو موسى، والنعمان بن بشير، وعوف بن مالك)[(١)].

ولو تتَّبع العدد لزاد على ذلك وهذا بالنظر إلى الطرق الصحيحة، وأما إذا قبلت الأحاديث الضعيفة فإن العدد يزداد، وفي باب التواتر لا يلزم أن تكون كل الأحاديث صحيحة، بل تُذكر الأحاديث الضعيفة أحيانًا لبيان أن الحديث قد بلغ مبلغ التواتر.

فهنا أكثر من اثنين وثلاثين صحابيًّا على الطرق الصحيحة في رواية الأحاديث، وهذا بالقطع أكثر من شرط التواتر بكثير؛ فهذا الجمع الغفير من الصحابة، وكذلك فإن النقلة عنهم من التابعين أضعاف هذا العدد، ومن هؤلاء الصحابة المذكورين من روى عدة أحاديث وليس حديثًا واحدًا.

ولذلك نقول إن من كذَّب بعذاب القبر، أو أنكره، أو من كذَّب بحياة البرزخ وأنكرها جملة بعد سماع الآيات الدالة على ذلك وتفصيلها والاطلاع على تلك النصوص ثم أصرَّ على الإنكار كان كافرًا.

وهذه من العقائد التي يُقطَع بإثباتها، فمكذبها بعد قيام الحجة كافر خارج من الملة، وأما قبل قيام الحجة فلابدَّ من تبيينها؛ لأن كثيرًا من البلاد لم ينتشر فيها العلم بإثبات عذاب القبر ونعيمه، لكن لو انتشر في بلد، وعلمه العام والخاص، وصار معلومًا من الدين

---

(١) «معارج القبول» (٧٢٢) ط. دار ابن القيم.

بالضرروة فلا يحتاج فيه إلى إقامة الحجة؛ لأنه صار معلومًا للعام والخاص، وكذلك كل مسائل الاعتقاد إذا علمت من الدين بالضرورة كانت الحجة قائمة بها على كل أحد.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأما حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فروى البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: في صحيحه عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«العبد إذا وضع في قبره، وتوَلَّى عنه أصحابه، حتى إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدًا خيرًا منه»**. قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فيراهما جميعًا. وأما الكافر أو المنافق، فيُقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»**[(١)])[(٢)].

وهذا الحديث يدل على أن لكل إنسان مؤمن أو كافر مقعدين: مقعد في الجنة، ومقعد في النار، فأما مقاعد الكفار التي في الجنة فيرثها المؤمنون قال تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ [المؤمنون].

قال ابن كثير: (عن مجاهد ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ** ﴾: ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبنى بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة، ويبنى بيته الذي في النار، وروى عن سعيد بن جبير ونحو ذلك)[(٣)].

---

(١) الحديث رواه البخاري (١٣٠٨) الجنائز باب «ما جاء في عذاب القبر».

(٢) «معارج القبول» (٧٢٢).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٢٩٢) ط. ابن حزم.

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم كلهم خُلِقوا لعبادة الله تعالى، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أُمِروا به مما خلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم.

- وقوله: «**كنت أقول ما يقول الناس، فيُقال: لا دريت ولا تليت...**» الحديث، أي: لا فهمت ولا اتَّبَعتَ من يفهم، أو يكون لا تليت القرآن من التلاوة.

- وقوله: «**ثم يضرب بمطرقة من حديد بين أذنيه، يسمعها من يليه إلا الثقلين**» المطرقة: هي آلة الطرق التي يستعملها الحداد لضرب الحديد.

وقد ذكرنا أن عدم سماع البشر والجن هذه الأصوات ليس دليلًا على عدم وجودها، لكن الثقلين طبيعة خلقتهم ليست مهيأة لسماعها، وهذا من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ورواه مسلم من طرف عن قتادة بنحوه، وزاد فيه: «قال قتادة: وذكر لنا أنه يُفسح له في قبره المؤمن سبعون ذراعًا -يعني المؤمن- ويُملأ عليه خَضِرًا إلى يوم يبعثون»[(١)])[(٢)].

وكلام قتادة لا يقال من قبل الرأي، بالإضافة إلى الشواهد الصحيحة التي تدل على صحته، قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (معنى خضرًا أي: نعمًا غضة ناعمة) اهـ[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٠).
(٢) «معارج القبول» (٧٢٢).
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي: (ولهما عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأعوذ بك من عذاب القبر**»[١]، ولمسلم عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه**»[٢]) اهـ[٣].

فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبر أنه خشيَ أن يترك الناس موتاهم بلا دفن خوفًا عليهم من العذاب والفتنة، وهذا تستحيل معه الحياة، ولولا ذلك لدعا الله عَزَّوَجَلَّ أن يُسمع الناس عذاب القبر، فهذا من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بالناس، وإنما أخبر الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدليل القاطع على ثبوته ليعتقدوا الحق، وتستمر حياتهم كذلك.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما حديث عبد الله بن عباس فقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن مجاهد عن طاوس قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مرَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قبرين فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما هذا فكان لا يستنزه من بوله، وأما هذا فإنه كان يمشي بالنميمة**» ثم دعا بعسيب رطب فشقة بإثنين، فغرس على هذا واحدًا وعلى هذا واحدًا، ثم قال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا[٤])[٥].

هذا الحديث أخرجه أيضًا النسائي، والترمذي، وابن ماجه، والبيهقي في «السنن الكبرى» وفي إثبات عذاب القبر، وهذا الحديث في خطر عدم التنزه من البول، وفي خطر النميمة.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٨٣٣)، ومسلم (٢٧٠٦).
(٢) رواه مسلم (٢٢٦٨).
(٣) «معارج القبول» (٧٢٢).
(٤) رواه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢).
(٥) «معارج القبول» (٧٢٣).

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنهما يعذبان في كبير...»** الحديث، له تأويلات: أحدها أنه ليس كبيرًا في ظنِّهما، أو ليس بكبير عليهما تركهما، بل كان سهلًا عليهما أن يتركا هاتين الكبيرتين.

وأما النميمة؛ فهي نقل الكلام بين الناس على وجه الإفساد فيما بينهم. والأمر الآخر: عدم التنزه من البول، وقد وردت الروايات: «**لا يستتر**»، و«**لا يستنزه**»، و«**لا يستبرئ**» وكلها روايات صحيحة، ويكون ذلك بترك الاستنجاء وإهماله، بل حتى إهمال الاستتار من البول فيصيبه رشاش البول على الثياب؛ لأن ذلك ربما أبطل الصلاة إذا كان عالمًا، وعامدًا، ولا يعبأ بأمر النجاسة، فيترتب على ذلك أن يكون مفرطًا فيما أمر الله به في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:٤] فعلى أحد وجوه التفسير أنها الثياب الظاهرة، ولا نزاع بين العلماء في لزوم تطهير الثياب من النجاسات ومن البول، والحديث نصَّ على ذلك، وهذان الأمران من الكبائر كما نص الحديث: النميمة، وعدم التنزه من البول، وإن ظنهما كثير من الناس أنها من الصغائر.

- وأما وضع العود الرطب على القبر فقد فعله بعض الصحابة، وقال به بعض العلماء، لكن الراجح أن هذا من خصوصيات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه شفع فيهما حتى يخفف عنهما مدة بقاء العودين رطبين، ثم يعاد العذاب عليهما، والجزاء من جنس العمل؛ فالعبد قد يستهين بأمر الاستنجاء حياة طويلة فيستحق عذابًا طويلًا، وكذا النميمة ضررها وفسادها مستمر حتى من بعد سكوت الإنسان عنها.

ولو كان أمر وضع العود الرطب مشروعًا على الدوام لجدد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضع العود الرطب بعد أن ييبس، بل لوضع شجرة، أو عودًا لم يشقه اثنين، وإنما وضع عودًا على كل قبر لأن ذلك من خصوصيته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

- واحتجَّ البعض بأن العلة من أجل تسبيح هذا النبات، ولا شكَّ أنه يسبح لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] فكل شيء يسبح، لكن هذا ليس حجة في هذا الموضع لمن يستدل بذلك على مشروعية وضع العود الأخضر على القبر لتخفيف العذاب؛ لأن الظاهر أنه من خصائص النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذين الرجلين.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولهما وللنسائي عن عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن، يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**»[1])[2].

هذا الحديث ليس عند البخاري من رواية ابن عباس، وإنما أخرجه مسلم، والإمام مالك في الموطأ، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد، وهو في البخاري من روايات أخرى غير رواية ابن عباس.

- وأما قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من فتنة المحيا والممات**»، قال ابن حجر في الفتح: «قال ابن دقيق العيد: فتنة المحيا ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتنان بالدنيا، والشهوات، والجهالات، وأعظمها: أمر الخاتمة عند الموت. وفتنة الممات يجوز أن يراد بها الفتنة عند الموت أضيفت إليها لقربها منه، ويكون المراد بفتنة المحيا على هذا ما قبل ذلك، ويجوز أن يراد بها فتنة القبر، وقد صحَّ معنى في حديث أسماء الآتي في الجنائز «**إنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبًا من فتنة الدجال**» ولا يكون مع هذا الوجه متكررًا مع قوله عذاب القبر؛ لأن العذاب مرتب على الفتنة، والسبب غير المسبب، وقيل: أراد بفتنة

(١) رواه البخاري (٨٣٣) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، ورواه مسلم (٥٩٠)، والنسائي (٢٠٣٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) «معارج القبول» (٧٢٣).

المحيا: الابتلاء مع زوال الصبر، وبفتنة المات: السؤال في القبر مع الحيرة، وهذا من العام بعد الخاص»[(١)] اهـ.

من ذلك نعلم أن «فتنة المحيا» لها تفسيران:

الأول: أن فتنة المحيا تشمل الحياة إلى قبيل الموت، وبذلك تكون فتنة المات هي الفتنة عند الموت.

والتفسير الثاني لفتنة المحيا: أنها تشمل إلى خروج الروح، فتشمل الفتنة التي عند الموت، وتكون فتنة المات هي التي بعد الموت، وتشمل: فتنة القبر، وسؤال الملكين، ثم يكون الجمع بينهما وبين عذاب القبر؛ أن الفتنة سبب للعذاب، ولذا قال ابن دقيق العيد كما نقل ابن حجر: أن السبب غير المسبب، وتكون الفتنة هنا بمعنى التي ظهر منها سوء حال الممتحن والتي يندم فيها العبد، ولهذا عبر عن ذلك بقوله: «السؤال مع الحيرة»، فيكون الدعاء وسؤال الله عَزَّوَجَلَّ -على هذا المعنى- بأن لا يفتن في قبره أي: لا يرسب في الامتحان، ولا يخذل عند سؤال الملكين، وليس أنه يطلب ألا يفتن مطلقًا بمعنى: أنه لا يمتحن؛ لأنه لا يوجد إنسان لا يسأل في قبره.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما حديث البراء بن عازب فقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ قال: «**إذا أقعد المؤمن في قبره أُتِيَ ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فذلك قوله** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:٢٧]» رواه في مواضع ووافقه عليه مسلم وغيره»[(٢)])[(٣)].

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣١٩).

(٢) **متفق عليه:** رواه البخاري (٤٤٤٣)، ومسلم (٢٨٧١).

(٣) «معارج القبول» (٧٢٣).

هذا الحديث رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد، والبيهقي في إثبات عذاب القبر، وهذه الآية الكريمة: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ ﴾ بأن وفقهم الله بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي الآخرة بأن يقولوها في القبور وعند القيام للنشور، وذلك أن القبر أول منازل الآخرة كما قال عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ودلالة الآية على إثبات سؤال القبر وفتنته مأخوذة من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فكما أضلهم في الدنيا بأن لم يشهدوا شهادة التوحيد، ولم يشهدوا لمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة، فيضلهم في القبر في الآخرة، وإذا قاموا إلى القيامة لا يزالون يعترفون على أنفسهم بالشرك، ولا يدرون حقيقة التوحيد والرسالة.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وروى الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولَمَّا يُلْحَد، فجلس رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطيرَ، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر** -مرتين أو ثلاثًا ثم قال- **إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحَنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان** -قال- **فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجِدَت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها**

على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الريح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان. بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى يُنْتَهَى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: «اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: فتعاد روحه، فيأتيه مَلَكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأتُ كتاب الله تعالى، فآمنت به وصدقت. فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد البصر -قال- ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك؛ هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير؟! فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: ربِّ أقم الساعة ربِّ أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي -قال- وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المُسُوحُ، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فَتُفَرَّق في جسده فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى يُنْتَهَى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له -ثم قرأ رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾

[الأعراف:٤٠]- **فيقول الله** عَزَّوَجَلَّ: «**اكتبوا كتابه في سجين في الأرض**». **السفلى فيُطرح روحه طرحًا** -ثم قرأ أي: نبي الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١] **فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كَذَب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر؟! فيقول: أنا عملك الخبيث فيقول: ربِّ لا تقم الساعة**».

زاد في رواية في قصة المؤمن: «**حتى إذا خرجت روحه صلَّى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفُتِحَت له أبواب السماء، وليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله** عَزَّوَجَلَّ **أن يعرج بروحه من قبلهم**»، وزاد في قصة الكافر: «**ثم يُقيَّض له أعمى أصم أبكم، في يده مِرْزبة لو ضُرِبَ بها جبلٌ كان ترابًا، فيضربه ضربة فيصير ترابًا. ثم يعيده الله** عَزَّوَجَلَّ **كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين**» -قال البراء- ثم يفتح له باب من النار ويمهد له فراش من النار»[١]) اهـ[٢].

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ٢٩٥)، وأبو داود (١٨٦٣٧)، والنسائي (٢٠٠١)، وابن ماجه (١/ ٤٩٤)، والبيهقي في «عذاب القبر» (ح٢٠)، والطيالسي (ص١٠٢/ ح٧٥٣)، والآجري في «الشريعة» (ص٣٦٧-٣٧٠)، والحاكم (١/ ٣٧-٤٠)، وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين. وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٢) «معارج القبول» (٧٢٥).

- وقوله: «ولَمَّا يُلْحَد»، اللحد: يكون شقًّا في جانب القبر من أسفل باتجاه القبلة ويوضع الميت في هذا الجانب، وسُمِّيَ لحدًا؛ لأنه ميل من الوسط إلى الجنب، وهذا هو السنة والأفضل لمن تمكن من ذلك، وإلَّا فإن الشق يجزئ، والمعنى المراد: أنهم أتوا ساعة ما يلحد.

- وقوله: «فجلس النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستقبل القبلة، وجلسنا معه كأن على رؤوسنا الطير» هذا يدل على مشروعية السكوت والتدبر ساعة الدفن، وليس الصياح. وأما ما يقع في كثير من الجنائز من الهتافات والمظاهرات فهو من البدع المحدثة -حتى ولو كانت جنازات سياسية- فهذا ليس من السنة، بل من السنة أن يدعو الإنسان في نفسه للميت

- وقوله: وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر** -مرتين أو ثلاثًا ثم قال- **إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة...**».

الحنوط: طِيب يكون للميت خاصًّا به، وهذا حنوط وكفن للروح، كما أن الناس يجهزون الميت ويعدون الكفن والطيب للبدن في الأرض، فإن الملائكة تعد كفنًا وحنوطًا للروح، وكما أن الجنازة تعد للبدن في الأرض، فهناك جنازة للروح تُعد للصعود بها إلى السماء.

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كأن وجوههم الشمس**» أي: في النور والإضاءة.

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حتى جلسوا منه مد البصر...**» أي: مرمى بصر المحتضر.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان** -قال- **فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السقاء**»، يعني: تسيل بسهولة كما تسيل قطرة ماء من فم القربة أو الإناء فتكون الروح المؤمنة في خروجها كذلك.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين**» هذا دليل على أن ملك الموت هو الذي يتولى قبض الأرواح كلها بنفسه، ثم إن الملائكة أعوانه يأخذون الروح، فأعوانه للمؤمنين ملائكة بيض الوجوه، وأعوانه للكفرة والمنافقين ملائكة سود الوجوه، وهذا يوافق قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ**﴾ [الأنعام:٦١] وصيغة الجمع دليل على أنهم رسل ملائكة وهذا مع قوله: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ** ...﴾ [السجدة:١١].

فهذا الحديث يبين كيف أن ملك الموت هو من يتولى قبض الروح، وهو كبير هؤلاء الملائكة، ولم يرد أن اسمه (عزرائيل) في حديث صحيح، بل هي آثار لا تقوم بها حجة، والثابت أن له أعوانًا من الملائكة تختلف صفاتهم ما بين قبض المؤمن والكافر.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كل سماء مقربوها**» أي: من أرواح الأنبياء والصالحين، ومن الملائكة المقربين، وفي كل سماء مقربون لله عَزَّ وَجَلَّ.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حتى يُنْتَهَى بها إلى السماء السابعة**» أي: التي فوقها العرش.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيقول الله** عَزَّ وَجَلَّ: **اكتبوا كتاب عبدي في عليين**».

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: «﴿**كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ**﴾ [المطففين:١٨] يعني: الجنة، وفي رواية العوفي عن ابن عباس قال: أعمالهم في السماء

عند الله. وقال قتادة: عليون ساق العرش اليمني. وقال: والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع)[١].

والله عَزَّوَجَلَّ أعلم بذلك، والجنة شاملة عرضها السماوات والأرض، فيكتب كتابه في مكان مرتفع عال متسع عند الله عَزَّوَجَلَّ وهذا من سعادة العبد.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، -قال:- فتعاد روحه...**».

هذا دليل على عودة اتصال الروح بالجسد بعد أن يُدفنَ الإنسان، وهذا الذي وقع من صعود الروح في المدة بين خروج الروح من البدن إلى دفن الإنسان فإن الروح تصعد إلى السماء، ثم تعاد تتصل بالبدن اتصالًا الله عَزَّوَجَلَّ أعلم بكيفيته، ويكون ذلك حين يُسأل العبد في قبره، وما شاء الله عَزَّوَجَلَّ، وكما ثبت أن أرواح الأنبياء في السماء، وأرواح المؤمنين في السماء، وهذا الاتصال غير الاتصال حال الحياة الدنيوية.

وقد تكون الروح موجودة في مكان، وتؤثر في البدن وتتأثر به، والبدن في مكان آخر فهذا ليس بممتنع، وهذا الاتصال يكون بجزء من البدن، أو بأجزاء منه، أو بالبدن كله، فإن كثيرًا من الأبدان تتفتت، لكن قد يبقى منها شيء.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فتعاد روحه فيأتيه ملكان، فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. **فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله تعالى فآمنت به وصدقت**».

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٧٢) ط. ابن حزم.

هذا دليل على مسائل القبر الثلاث: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

ولا يكفي التقليد فيها بل يقال: «وما علمك؟» أي: ما الدليل على أنه رسول الله، فيقول: قرأت كتاب الله، وهو أعظم المعجزات، وأعظم الأدلة أن الله عَزَّوَجَلَّ شهد لمحمد صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالرسالة في القرآن الكريم، وهذا دليل على كفر من كذَّب بالنبي صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ولم يشهد برسالته، ولم يتبعه، ولم يؤمن بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الكفار الذين يدينون بغير دين الإسلام يعذبون في قبورهم، ويعذبون في آخرتهم.

- وقوله صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي**»، أي: ينادي منادٍ بأمر الله يخبر عما أخبر الله به وأمر الله به.

- وقوله صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا من الجنة فيأتيه من رَوْحها...**»، الرَوْح هو: برد نسيم الريح، وكذلك يطلق على الفرح والسرور والإراحة، وهذا بخلاف الرُّوُح -بضم الواو-: التي هي في الإنسان وغيره من ذوات الأرواح.

- وقوله صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**وطيبها...**»، أي: الريح الطيب، وهذا مثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ**﴾ [الواقعة]، والآية نص في إثبات نعيم القبر، فإن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر احتضار العبد وبلوغ الروح الحلقوم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ**﴾ [الواقعة] والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أقرب لكل إنسان من نفسه، فضلًا عمن حوله، والملائكة أقرب إليه كذلك: ﴿**فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ**﴾ [الواقعة] أي: إن كنتم غير مُحاسَبين فارجعوا هذه الروح إن كنتم صادقين؛ لأن الذي يموت رغمًا عنه كيف يقول بأنه لا يُحاسَب؟ فمن أين له ذلك وهو لا يملك بقاء الروح في بدنه؟!

- وقوله صَلَّٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**معهم المسوح...**» جمع مِسح، وهو الكساء الغليظ من الشعر.

– وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**السَّفود...**» هو حديدة معقوفة يعلق فيها اللحم للشواء فإذا تعلق بها الصوف المبلول صَعُب جدًّا إخراجها منه إلا بالقطع، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ [النازعات:١] أي: تنتزع أرواح الكافرين بشدة.

– وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بأقبح الأسماء التي كان يُسمى بها في الدنيا...**»: كالكافر، والفاجر، والمجرم، والعاصي، والفاسق، والقاتل، وسافك الدماء، وقاطع الرحم. وكل تهمة اتُّهِمَ بها، ووصف قبيح وُصِفَ به في حقيقة الأمر فإنه يسمى باسمها.

– وقوله عَزَّ وَجَلَّ: «﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ**﴾»، هذا دليل على أن السماء الدنيا لها أبواب، بل كل سماء لها أبواب، وإنما لا يراها الناس، بل يرون ما أحاط بالسماء الدنيا من النجوم التي زُينت بها والمصابيح، وكل ما وصل إليه علم الناس من علوم الفضاء فهو في السماء الدنيا، والأبواب فوق ذلك.

– وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ ...**﴾ الآية.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة، وفي رواية زوج الناقة، وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خرق الإبرة، وكذا قال أبو العالية، والضحاك وكذا روى علي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عباس. والتفسير الآخر: أن الجمل أي: الحبل الغليظ الذي تربط به السفينة. والظاهر الأول أنه البعير؛ لأن ذلك هو الاستعمال الأكثر وهو أبعد في الاستحالة» اهـ[١].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٧٥٦) ط. ابن حزم.

۞ فيقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: اكتبوا كتابه في سجين**»، سجين من السجن قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ**﴾ [المطففين:٧] قال ابن كثير: «أي: أن مصيرهم ومأواهم لفي سجين، فعيل من السجن وهو الضيق» اهـ[١].

فيكون مصير روحه إلى مكان ضيق وحبس عياذًا بالله، وكلما نزل إلى أسفل ضاق الأمر. والعبد يكون في الدنيا منطلقًا في أرجاء الأرض، ثم إذا مرض حُبِس في بدنه على حد درجة المرض، ثم بعد ذلك يزداد المرض به إلى لحظة الاحتضار، ثم بعد ذلك يؤول الكافر إلى حال أشد وضيق أشد، فتكون الآخرة له سجنًا، وهذا السجن هو الذي ينبغي الفرار منه؛ وليس سجن الدنيا بشيءٍ بالنسبة إلى هذا السجن الذي يكون في القبر، ويكون مصيره يوم القيامة كذلك في أضيق مكان، وكثير من النفوس تفر من السجون لضيقها، مع أنه لا يعد العدة لسجن القبور.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فتطرح روحه طرحًا**»، أي: ترمى رميًا من أبواب السماء الدنيا إلى الأرض.

- «ثم قرأ -أي نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿**وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ**﴾ [الحج:٣١]».

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: تقطعه الطيور في الهواء، ﴿**أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ**﴾ أي بعيد مهلك لمن هوى فيه»[٢].

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فينادي منادٍ من السماء: كذب عبدي**» لأنه أخبر بالباطل.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيأتيه من حرها وسمومها**» السّموم: الريح الحارة التي تمكث كثيرًا.

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٩٧٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٧٣) ط. ابن حزم.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ويضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلاعه**» الخلاف المضادة، وتختلف الأضلاع، تتضاد أي: يأتي يمينها في الشِّمال، وشِمالها في اليمين من شدة الضم، ويشعر بشدة الضيق، وهذا متكرر في أحاديث كثيرة، وهو صريح في عذاب الجسد.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء...**» أي: كما أن المؤمنين يصلون على بدن الميت في الأرض فإن الملائكة تصلي على روحه في السماوات.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله** عَزَّ وَجَلَّ **أن يعرج بروحه من قِبَلِهم**»، أي: من ناحيتهم لطيب الريح، وللفرح بالمؤمن والسرور بلقائه، وهذا من سعادة الإنسان أن يلتقي من يحبهم، ومن أعظم سعادة أهل الجنة وجودهم في الرفيق الأعلى، وكيف الحال بمن تحبه الملائكة وأرواح المقربين!

كما أن من عذاب الكافر أنه مبغوض في الأرض، ومبغوض في القبر، ومبغوض يوم القيامة، بل نفسه تمقته والعياذ بالله، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر:١٠] فإن الكافر نفسه التي بين جنبيه تمقته، والأرض تمقته، والسماوات تمقته، وتريد أن تستريح منه، فلو لم يكن من عذاب إلا ذلك فكفى به عذابًا.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابًا**»، المِرْزَبة: هي المطرقة الكبيرة.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الثقلين**» أي: الإنس والجن.

وهذا من أجمع الأحاديث في عذاب القبر.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أما حديث عمر بن الخطاب فرواه مسلم، من طرق عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يرينا مصارع أهل بدر يقول: هذا مصرع فلان غدًا إن شاء الله تعالى. قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطئوا الحدود التي حدَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فجعلوا في بئر بعضهم على بعض، وانطلق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى انتهى إليهم فقال: «**يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقًّا؟ فإني وجدت ما وعدني الله حقًّا**»، قال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجسادًا لا أرواح فيها؟! قال: «**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا عليَّ شيئًا**»[1]) اهـ[2].

كما ذكرنا قبل ذلك لا تعارض بين هذا في الإخبار بمصارع المشركين، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤] وأن هذا من مفاتيح الغيب الخمس، لأن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علق ذلك على المشيئة، والحديث دليل على أنهم يسمعون تبكيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه دليل على استحباب تبكيت الكفار، وتبشيرهم بالعذاب والسوء إذا مر على قبورهم.

۞ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولأبي داود، والنسائي، وابن ماجه عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتعوذ: من الجبن، والبخل، وعذاب القبر، وفتنة الصدر[3])[4].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٣).

(٢) «معارج القبول» (ص٧٢٦).

(٣) **حسن**: رواه أحمد (١/ ٢٢)، وأبو داود (١٥٣٩)، والنسائي (٥٤٤٣)، باب «الاستعاذة من فتنة الصدر»، وباب «الاستعاذة من فتنة الدنيا والاستعاذة عند البخل»، وررواه ابن ماجه (٣٨٤٤)، وابن حبان (٢٤٤٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٤) «معارج القبول» (٧٢٦).

- «عنه» أي: عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث ضعَّفه بعض أهل العلم لكن له شواهد كثيرة ينبغي أن يحسن إسناده بها، ومعنى (فتنة الصدر): كل ما ينطوي عليه الصدر ممَّا لا يحبه الله عَزَّ وَجَلَّ وأعظمها سوء الاعتقاد، وكذلك الشكوك والوساوس، والغل والحسد للمؤمنين.

۞ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فرواه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي»: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة**»[1].

وله عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اطلع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أهل القليب فقال: «**هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟**» فقيل له: تدعو أمواتًا؟! فقال: «**ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون**»[2]) اهـ[3].

- «**أهل القليب**» هم قتلى بدر ومشركوهم الذين أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإلقائهم في بئر.

۞ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما حديث عائشة أم المؤمنين فقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «باب التعوذ من عذاب القبر في الكسوف»: عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يهودية جاءت تسألها فقالت لها: «أعاذك الله من عذاب القبر»، فسألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيُعَذَّب الناس في قبورهم؟**»، فقال رسول الله

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) **متفق عليه:** رواه البخاري (١٣٠٤)، ومسلم (٩٣٢).

(٣) «معارج القبول» (ص٧٢٦).

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائذًا بالله من ذلك -ثم ذكر حديث الكسوف بطوله وفي آخره- ثم أمرهم أن يتعوذوا من عذاب القبر، ورواه مسلم بنحوه»[١].

۞ «وروى البخاري عن عائشة أيضًا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر فسألت عائشة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عذاب القبر فقال: «**عذاب القبر حق**»، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «ما رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد هذا السؤال صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر». وروى مسلم هذا الحديث أيضًا عن عروة بن الزبير أن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: دخل عليَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعندي امرأة من اليهود وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور، قالت: فارتاع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**إنما تفتن اليهود**». قالت عائشة: فلبثنا ليال ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل شعرتِ أنه أوحي إليَّ أنكم تفتنون في القبور؟**» قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: فسمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد يستعيذ من عذاب القبر»[٢])[٣].

- وقوله: «أن يهودية جاءت» لعل هذه المرأة اليهودية من بقايا اليهود في المدينة ولم ترحل مع مَن رحل لعجزها عن الرحيل، فجاءت تسأل السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا الصدقة.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قد نزل عليه في الآيات المكية عذاب القبر للكفار، ولم يخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتى هذا الزمان بفتنة المؤمنين، ولذا فزع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن يُعَذَّب أحد من أمته أو يفتن، وأخبر بما علم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي الثابت قال: «**إنما تفتن اليهود**».

---

(١) **متفق عليه:** رواه البخاري (١٣٧٢)، ومسلم (٥٨٤).

(٢) الحديث السابق.

(٣) «معارج القبول» (٧٢٧) بتصرف.

ووجه الجمع بين هذه الأحاديث وبعضها أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**عذاب القبر حق**» أي: متراخيًا بعد السؤال، أو عذاب القبر حق للكفار، ثم أخبر أنه أيضًا لأهل الإسلام وأن هذا الأمر ليس خاصًّا بالكفار، وهذا الحديث صريح في أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوحي إليه في شأن فتنة القبر متأخرًا بالنسبة لأهل الإسلام، وأما قبل ذلك فكان يعلمه عن الكفار، وأوحي إليه بعد ذلك أن أمته أيضًا تفتن.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وروى مسلم أيضًا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخلت عليَّ عجوزان من عُجُز يهود المدينة فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا ودخل عَلَيَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت له: يا رسول الله إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا عليَّ فزعمتا أن: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم! قال: «**صدقتا إنهم يعذبون عذابًا تسمعه البهائم**» ثم قالت: فما رأيته صلَّى صلاةً إلَّا يتعوذ من عذاب القبر»[1])[2].

- وقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**ولم أنعم أن أصدقهما**» أي: لم أجب بنعم ولم أقبل بذلك، يقال: أنعم أي: أجاب بنعم، وهذا دليل على إثبات العذر بالجهل؛ أن من كذَّب بأمر لم يعلم أن الله أخبر به أو أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر به كان معذورًا لأنه لم يأته الخبر بعد، فكذبتهما عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأنها لم تسمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا أمر اعتقادي علمي من أمور الإيمان كذبت به عائشة قبل أن تعلم، فأخبرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصدقت وآمنت، ففيه أن المسلم قد يكون مكذِّبًا لأمور لا يعلم أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بها، فإذا علم صدَّق وآمن من ساعته، فيزداد بذلك إيمانًا ولا يكون قبل ذلك كافرًا، بل كان جاهلًا.

---

(١) رواه مسلم (٥٨٦).

(٢) «معارج القبول» (ص٧٢٨).

۞ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولها عنها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من: الكسل، والهَرَم، والمأْثَم، والمغرم، ومن فتنة القبر، وعذاب القبر، ومن فتنة النار، وعذاب النار، ومن شر فتنة الغِنَى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، اللهم اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد، ونَقِّ قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب**»[1])[2].

۞ وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الهَرَم**» هو: أقصى الكبر، «**والمأثم**» هو: الإثم، «**والمغرم**» هو: الدَّيْن، وقد فسَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبب استعاذته من المأثم والمغرم فقال: «**إن العبد إذا غَرِمَ حَدَّث فَكَذَبْ، ووعد فأخلف**»[3].

- وكما تقدَّم «**فتنة القبر**»: سؤاله، و«**عذاب القبر**»: سؤال مع الحيرة، فيتعوذ بالله من هذا السؤال الذي يكون مع الحيرة، وعذاب القبر الذي يعقبه، و«**فتنة النار وعذاب النار**» قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ** ﴾ الآية [الذاريات:١٣] مجرد عرض الإنسان على النار هو عذاب قبل أن يدخلها، بل توقع وقوع الإنسان في النار أمر مفزع، فكيف بأن يراها ويُعرَض عليها ويخبر بمكانه فيها، وأن يوقف عليها ثم يدخلها بعد ذلك؟ فهذا كله شدة واضطراب يتعوذ العبد بالله منه كما يستعيذ بالله من دخول النار نفسها.

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**شر فتنة الغنى، وشر فتنة الفقر**» فتنة الغنى: هي الطغيان، والكسب الحرام، وطلب المال الحرام، وإنفاقه في الشهوات المحرمة، وأما فتنة الفقر هو: الفقر الذي يجعل الإنسان يذل للخلق، ومن أجل المال يبيع دينه.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٣٦٨)، ومسلم (٥٨٩).

(٢) «معارج القبول» (ص٧٢٨).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٤٩) كتاب الأذان، رواه مسلم «المساجد ومواضع الصلاة» رقم (١٣٥٣) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

- وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**شر فتنة المسيح الدجال**» الدجال أي: الكذاب من الدجل، وسمي المسيح؛ لأن إحدى عينيه ممسوحة.

❁ وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وعن مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حديث الكسوف وفيه قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبته: «**ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضًا حين رأيتموني تأخرت، ورأيت فيها ابن لُحَيٍّ وهو الذي سيب السوائب**»[(١)])[(٢)].

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يحطم بعضها بعضًا**» من شدة تلاطم نيرانها وهي تحطم كل ما فيها، والحطمة من أسماء النار، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة] وهي تأكل كل ما فيها حتى إذا لم تجد شيئًا أكل بعضها بعضًا، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا ربِّ يأكل بعضي بعضًا فأذن لي بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير**»[(٣)].

وهي لا تزال تطلب المزيد مما يلقى فيها، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق:٣٠].

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أزيلت له الحجب، فرأى النار في موقفه ذلك يحطم بعضها بعضًا، وهذا يدل على أنها لم تمتلئ بعد.

- قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ورأيت فيها عمرَو بن لُحَيٍّ أول من سيب السوائب**» عمرو بن لحي أول مَن غيَّر دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

(١) رواه مسلم (٩٠٤).

(٢) «معارج القبول» (ص٧٢٨).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٠٨٧)، ومسلم (٦١٧).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال محمد بن إسحاق: السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر سُيبت فلم تُرْكَبْ، ولم يُجَزَّ وَبَرُها، ولم يُحلبْ لبنُها إلا الضيف. وقال أبو روق: السائبة: كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته سيب من ماله ناقة أو غيرها، فجعلها للطواغيت) اهـ[1].

فهذا عمرو بن لحي أول من غيَّر دين إبراهيم، ودخوله النار بروحه في البرزخ ثم تسلك روحه في جسده يوم القيامة فيدخل النار، وهذا الحديث يبين خطر سن السنن القبيحة السيئة، والبدع المنكرة وأسوأها الشرك بالله. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رأيت عمرو بن لحي يجر قُصْبَهُ في النار...**»[2]؛ أي: يجر أمعاءه في النار.

فإنه أول من شرع عبادة الأصنام، وقد مرت عشرة قرون بين إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى زمن عمرو بن لحي كلها على التوحيد، فأوحى الشيطان إليه بأماكن وجود وَدّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، فأخرجها وفرقها في قبائل العرب، ودعا إلى عبادتها لأنه كان مطاعًا، فأطاعوه.

وفي حديث الكسوف المذكور عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى صاحب المحجن الذي كان يسرق الحاج بمحجنه، ورأى صاحبة الهرة التي حبستها.

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: («أما حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: روى البخاري بسنده عن عروة بن الزبير أنه سمع أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تقول: قام

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٦٦٢) ط. ابن حزم.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٢٨٥٦).

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطيبًا فذكر فتنة القبر التي يفتتن فيها المرء فلما ذكر ذلك ضجَّ المسلمون[١] ضجة»[٢].

ولهما عنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حديث الكسوف بطوله، وفيه: «فلما انصرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «**ما من شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار، ولقد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور مثل** -أو: **قريبًا من- فتنة الدجال** -لا أدري أيتهما[٣] قالت أسماء:- **يؤتى أحدكم فيقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن** -لا أدري أي ذلك قالت أسماء- **فيقول: محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا، فيقال له: نم صالحًا فقد علمنا إن كنت لموقنا به، وأما المنافق أو المرتاب** -لا أدري أي ذلك قالت أسماء- **فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته**»[٤].

۞ وأما حديث أبي أيوب الأنصاري فرواه البخاري بسنده عن أبي أيوب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد وجبت الشمس فسمع صوتًا فقال: «**يهود تعذب في قبورها**»[٥].

۞ وأما حديث أم خالد فروى البخاري بسنده عن أم خالد أنها سمعت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يتعوذ من عذاب القبر[٦].

---

(١) أي: صاحوا مستغيثين، وبكوا من الفزع والخوف.

(٢) رواه البخاري (١٠٤٥).

(٣) الراوي أتى باللفظين المحتملين لأجل دقة الرواية، ولكي يذكر نص ما قالته أسماء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٠٠٥)، ومسلم (٩٠٥).

(٥) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣٧٥)، ومسلم (٢٨٦٩).

(٦) رواه البخاري (١٣٧٦).

۞ وأما حديث أبي هريرة فقال مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا حماد بن زيد حدثنا بديل عن عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها**» قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك، قال: «**ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك**[١] **وعلى جسد كنت تعمرينه. فينطلق به إلى ربه** عَزَّوَجَلَّ، **ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل**[٢]، قال: **وإن الكافر إذا خرجت روحه** -قال حماد: وذكر من نتنها وذكر لعنًا- **ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل**» قال أبو هريرة: فرد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَيْطة[٣] كانت عليه على أنفه هكذا)[٤].

(ولهما عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من عذاب النار وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال**»[٥])[٦].

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: باب ما جاء في عذاب القبر. حدثنا أبو سلمة يحيى بن خلف البصري أخبرنا بشر بن الفضل عن عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا قُبر الميت** -أو قال: **أحدكم- أتاه ملكان أسودان أزرقان يُقال**

---

(١) «**صلَّى الله عليك**» أي: أثنى الله عليك، وعلى الجسد الذي كنت تعمرينه ورحمك الله، فالصلاة من الله الثناء في الملأ الأعلى والرحمة، والصلاة من الملائكة الدعاء، قال ابن عباس: يصلون: يبركون. وقال غيره من أهل العلم: صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار.

(٢) أي: إلى انقضاء الدنيا.

(٣) **رَيْطة**: أي: ملاءة، فإن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضع ملاءة على أنفه تأكيدًا لهم على وجود الرائحة الخبيثة عند خروج روح الكافر.

(٤) رواه مسلم (٢٨٧٢).

(٥) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨).

(٦) «معارج القبول» بتصرف يسير (ص٧٣٠) ط. ابن القيم.

لأحدهما المنكَر والآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا. ثم يُفسَح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين ثم يُنوَّر له فيه، ثم يُقال له: نم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم. فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإذا كان منافقًا قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثله: لا أدري. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك. فيُقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذَّبًا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[١])[٢].

الزرقة تكون في العين، قال في لسان العرب: (الزرقة تكون في سواد العين، وقوله تعالى: ﴿**وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا**﴾ [طه:١٠٢] قال ابن سيده: وإنما قيل زرقًا لأن السواد يزرق إذا ذهبت نواظرهم) اهـ[٣].

فهذان الملكان أسودان أزرقان من شدة منظرهما.

- وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير...**» هذا حديث صحيح فيه التصريح: بتسمية فتاني القبر المنكر والنكير، وبيان لونهما؛ فالجسد أسود والعيون زرقاء.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللهُ: (وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: حدثنا حسين بن محمد عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الميت يحضره الملائكة، فإذا كان الرجل**

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (١٠٧١) وقال حديث حسن غريب، وابن حبان (٧٨٠)، ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٨٦٤)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٢) «معارج القبول» (٧٣١) ط. دار ابن القيم.

(٣) «لسان العرب» لابن منظور (١٠/ ١٣٩).

الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان. -قال:- **فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحبًا بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان،** -قال:- **فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى[1]. **فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بجحيم وغساق وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: هذا فلان، فيقولون: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة فإنها لا تفتح لكِ أبواب السماء، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر»**[2]) اهـ[3].

- قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أخرجي حميدة**» أي: محمودة، والرَّوْح هي: الراحة، والفرح، والسرور، والرحمة، «**الريحان**»: هو كل بقل طيب الرائحة، وكل ريح طيبة ريحان.

و(الغسَّاق): ما يغسق أي: يصب ويسيل وينزل من جلود أهل النار وصديدهم وقيحهم وحروقهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص:٥٧]: (أما الحميم: وهو الحار الذي انتهى حره، وأما الغساق: فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم، ولهذا قال: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص:٥٨] أي: وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يعاقبون بها.

---

(١) أي: التي فوقها الله عَزَّوَجَلَّ.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٣٦٤)، وابن ماجه (٣٤٥٦)، وقال الذهبي في «العرش» (٢٩): صحيح على شرط الشيخين. وصحَّحه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٦٢٧).

(٣) «معارج القبول» (٧٣١) ط. دار ابن القيم.

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لو أن دلوًا من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا**»[(١)]اهـ[(٢)].

فيجمع له من أنواع العذاب الشيء وضده، أي: الحر والبرد بسبب الحرق عند شدته، والغساق يجتمع فيه أنه بارد شديد البرودة ومنتن شديد النتن.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال ابن حبان في صحيحه: حدثنا عمر بن محمد الهمداني حدثنا زيد بن أخزم حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن قتادة عن قسامة بن زهير عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن المؤمن إذا قُبِضَ أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي إلى رَوْح الله، فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضًا يشمونه حتى يأتوا به باب السماء، فيقال: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قِبَلِ الأرض؟ ولا يأتون السماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين فَلَهُم أشد فرحًا به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم فيقول: قد مات أما أتاكم؟ فيقولون: ذُهِبَ به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض**[(٣)]»[(٤)].

زاد في رواية: «**وأما الكافر إذا قبضت نفسه وذهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحا أنتن من هذه فيبلغ الأرض السفلى**»[(٥)]) اهـ[(٦)].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٨٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٦١٢) ط. ابن حزم.
(٣) أي: الأرض السابعة.
(٤) **صحيح**: رواه ابن حبان في صحيحه (٧٣٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٥٥٩).
(٥) رواه ابن حبان (٧٣١).
(٦) «معارج القبول» (٧٣٢) ط. دار ابن القيم.

أي: أن أهل الإيمان من الأموات يسألون الروح التي صعدت إليهم حديثًا عمن تركوه بالأرض إن لم يكن أتى إليهم فيعرفون أنه ذهب به إلى النار.

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧] -قال- **ذلك إذا قيل له في القبر: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنت به، وصدقت فيقال له: صدقت على هذا عشت وعليه مت، وعليه تبعث**»[١].

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا: حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده إن الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولون عنه مدبرين، فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن يساره، وكان فعل الخيرات من: الصدقة، والصلة، والمعروف، والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل**»[٢]) اهـ[٣].

المعنى: أي ما قِبلي للعذاب مدخل، ولا ضرر ولا فزغ ولا خوف يأتي من قِبلي، وهذا دليل على حرص المؤمن على أداء الصلاة، وأنه مشغول بها وهي عنده من أعظم الأمور.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٢١٥)، وابن مردويه في «الدر المنثور» (٥/ ٣٢)، وابن القيم في «إعلام الموقعين» (١/ ١٦٤) وصحّحه.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) «معارج القبول» (٧٣٣) ط. ابن القيم.

۞ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ما قِبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قِبلي مدخل ثم يؤتى من رجليه فيقول فعل الخيرات: ما قِبلي مدخل، فيقال له: اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد دنت للغروب**».

- أي: جعل له مثال الشمس كأنه يراها قد أوشكت أن تغرب.

۞ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيقال: أخبرنا عما نسألك، فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقولون إنك ستفعل**».

- قوله: «**إنك ستفعل**» دليل على أنه سيفعل، فإنهما لا يعِدان كذبًا، وهذا يدل على أن من المؤمنين من يُمكَّن من الصلاة وبعض أنواع العبادات في قبره، وذلك ليس على سبيل التكليف بها لكن على سبيل التنعم والتلذذ بعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وخصوصًا الصلاة التي هي قرة عين المؤمن، كما ثبت في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أتيت** -وفي رواية: **مررت**- **على موسى ليلة أُسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره**»[1].

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أن بعض طلاب العلم رؤي في برزخه مستمرًّا في ذلك، وكذلك من كان مداومًا على قراءة القرآن فإنه يتلذذ بذلك أعظم من تلذذ أصحاب الشهوات بشهواتهم، ومن هنا كان يفعل ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ في قبره في الحياة البرزخية.

۞ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيقال له: إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك فيقول: وعمَّ تسألوني؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه وما تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فيقال له: نعم فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مِتَّ، وعليه تبعث إن شاء الله تعالى، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، ويُنوَّر له، ويفتح له باب إلى الجنة فيقال**

---

(١) رواه مسلم (٢٣٧٥) من حديث أنس.

له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورًا، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب، وهي: طير خضر يعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدأ من التراب وذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ** ﴾ [إبراهيم:٢٧]»[(١)].

- وهذا الحديث يدلُّ على أن أرواح المؤمنين مجتمعة في السماوات عند الله عَزَّوَجَلَّ.

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثم تجعل نسمته في النسم الطيب**» أي: تجعل روحه في الأرواح الطيبة معها وهي طير خضر يعلق بشجر الجنة فهي تدخل الجنة، وتأتي أحيانًا إلى القبر لتصلي هناك تتلذذ بذلك، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر ما قال في هذه الدنيا: «**اللهم اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى**»[(٢)]؛ والمعنى: أنه يريد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرافق من سبقه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أرواح النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

والحديث دليل على أن أرواح المؤمنين تشكل في صورة طير، وذكرنا قبل ذلك الفرق بينها وبين أرواح الشهداء، فإن أرواح الشهداء تُجعَل في حواصل طير فهي حياة كاملة روح في جسد، أما حياة عامة المؤمنين فإن الروح نفسها منفصلة عن الجسد، أو تتصل به اتصالًا خاصًّا، وتكون في الجنة بصورة هذا الطير.

وفي الحديث تثبيت الله للمؤمنين بشهادة أن محمدًا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحياة الدنيا بأن قالها المؤمنون، وفي القبر بأن ثبتوا على ذلك، ويوم القيامة يبعثون على ذلك كما دلَّ هذا الحديث، بخلاف من لا يشهد له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنبوة والرسالة فهو كافر مضل. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ** ﴾ [إبراهيم:٢٧].

---

(١) **حسن**: أخرجه ابن جرير (١٣/ ٢١٥-٢١٦)، ورواه ابن حبان (٧٨١)، والطبراني في «الأوسط» (٢٦٥١)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧٩)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترهيب والترغيب» (٣٥٦١).

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٥٦٧٤)، ومسلم (٢١٩١).

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال البزار رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: حدثنا سعيد بن محمد القراطيسي حدثنا الوليد بن قاسم حدثنا يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة -أحسبه رفعه[١]- قال: «**إن المؤمن ينزل به الموت، ويعاين ما يعاين فَيَوَد لو خرجت** -يعني نفسه- **والله يحب لقاءه، وإن المؤمن يُصعَد بروحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلانًا في الأرض أعجبهم ذلك، وإذا قال: إن فلانًا قد مات قالوا: ما جيء به إلينا!**»[٢])[٣].

- هذا دليل على أن أرواح المؤمنين تكون مجتمعة مستأنسة ببعضها مترافقة، وصدَّق هذا الحديث ما تقدَّم من حديث أبي هريرة السابق عند ابن حبان.

ومرافقة الصالحين هذا الذي يسأله الأنبياء وهم أعلى الناس قدرًا؛ فإن صحبة الصالحين من النعيم، وكذلك صحبة الكفرة والفجرة والفسقة من العذاب، وبذلك يزدادون عذابًا ببعضهم.

۞ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإن المؤمن يجلس في قبره فيسأل: من ربك؟ فيقول: ربي الله** عَزَّ وَجَلَّ**، ويُسأل: من نبيك؟ فيقول: محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **نبيي، فيقال: ماذا دينك؟ قال: ديني الإسلام. فيفتح له باب في قبره، فيقول أو يقال: انظر إلى مجلسك، ثم يرى القبر فكأنما كانت رقدة**»[٤].

- قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فكأنما كانت رقدة**» أي: أن فترة القبر كأنها كانت نومة استيقظ الإنسان منها وسرعان ما تمر كرؤية جميلة يراها الإنسان في نومه، ثم تعود روحه عند البعث إلى جسده مرة أخرى، فكأنها كانت رقدة.

---

(١) من كلام الراوي.
(٢) سيأتي تخريجه.
(٣) «معارج القبول» (٧٣٣) ط. ابن القيم.
(٤) «معارج القبول» (٧٣٣).

وشعور الناس بمدة البرزخ ضئيلة كأنهم مستيقظون من نومهم يقولون: لبثنا يومًا أو بعض يوم مع أن المكث قد يكون طويلًا، لكن عند الاستيقاظ يشعرون أن هذا الأمر وجيز، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ...﴾ الآية [الأنبياء:١] فإن الله عَزَّوَجَلَّ أخبر باقتراب الحساب وأنه قد اقتربت الساعة، وساعة موت الإنسان بعدها يشعر أنها قريبة جدًّا من ساعة بعث الأموات، وحينئذٍ يدرك الناس مدى قصر هذه الحياة الدنيا وحقارتها، وإذا كنا نرى ونستشعر ما مر من الدنيا بمئات وآلاف السنين فإنها حينئذٍ تظهر حقيقتها أنها أعجل من ذلك.

۞ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فكأنما كانت رقدة، وإذا كان عدوًّا لله نزل به الموت وعاين ما عاين فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبدًا، والله يبغض لقاءه فإذا جلس في قبره أو أُجْلس فيقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدري فيقال: لا دريت فيفتح له باب إلى جهنم، ثم يضرب ضربة تسمعها كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نم كما ينام المنهوش**»، -قلت لأبي هريرة: من المنهوش؟ قال: الذي تنهشه الدواب والحيات- **ثم يضيق عليه قبره**»[1])[2].

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما حديث أبي سعيد وسلمان فقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: حدثنا عبد الله بن أبي الأسود حدثنا معتمر سمعت أبي حدثنا قتادة عن عطية بن عبد الغافر عن أبي سعيد عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ذكر رجلًا فيمن سلف

---

(١) **صحيح**: رواه البزار (٨٧٤)، وقال السيوطي: سنده صحيح. «شرح الصدور» (ص٣٨)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٢٨).

(٢) «معارج القبول» (٧٣٤) ط. دار ابن القيم.

وفيمن كان قبلكم قال كلمةً -يعني: أعطاه الله مالًا وولدًا- «**فلمَّا حضرته الوفاة قال لبنيه: أيُّ أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإنه لم يبتئر عند الله خيرًا**»[(١)](٢).

- قال الراوي: «كلمة» لم يضبطها فرواها بالمعنى ونصَّ على أن هذا معناها يعني أعطاه الله مالًا وولدًا-

- قوله ﷺ: «**فإنه لم يبتئر**» يعني الرجل، لكن الراوي لكراهة اللفظ لم يقل: «فإني» على سبيل الحكاية، وهذا مثل قوله ﷺ عن الشيطان: «**يا ويله**»[(٣)]، وكما في قصة موت أبي طالب وهو يقول: «**هو على ملة عبد المطلب**»[(٤)] برغم أن النطق باللفظ حكاية ليس فيه شيء؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافر، والله عَزَّوَجَلَّ ذكر أقوال الكفار منسوبًا إليه، لكن وردت كراهة نسبة القول الكفري أو القبيح، والمحدثون وأهل العلم كانت عادتهم ذلك.

والمعنى: أي لم يقدم لنفسه خبيئة خير، يقال: بئر الشيء يبئره بئرًا وابتأره أي: خبأه وادخره، والمعنى: أنه لم يدخر عند الله خيرًا، ومعنى «**لم يبتئر**» أي: لم يقدم لنفسه خبيئة.

۞ قال ﷺ: «**... وإن يقدر الله عليه يعذبه، فانظروا إذا مت فأحرقوني حتى إذا صرت فحمًا فاسحقوني** -أو قال: **فاسحكوني**-».

- «**فاسحقوني** -أو: **فاسحكوني**-» هي بمعنى واحد أي: يجعلوه رمادًا.

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) «معارج القبول» (٧٣٤) ط. دار ابن القيم.

(٣) رواه مسلم (٨١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) رواه البخاري (١٤٢٦)، ومسلم (٢٤) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإن يقدِر الله عليه يعذبه**» يقدر من القدرة عند عامة أهل العلم من أهل السنة، وأما من يفسرها بالتقدير أي: التضييق مثل قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ...**﴾ الآية [الفجر:١٦] وقوله تعالى عن نبيِّه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ...**﴾ الآية [الأنبياء:٨٧]؛ فإن الكلام في هذا الموضع يكون غير مستقيم، ويكون المعنى: لئن يضيق عليه يعذبه، والعذاب تضييق فيكون تكرارًا للكلام، لكن المقصود بقوله: «**إن يقدر**» أي: من القدرة، وهذا شك في قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ كما سيأتي.

۞ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإذا كان يوم ريح عاصف فاذروني فيها** -وقال نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- **فأخذ مواثيقهم على ذلك وربي ففعلوا ثم أذروه في يوم عاصف، فقال الله** عَزَّ وَجَلَّ: **كن! فإذا هو رجلٌ قائمٌ، قال الله: أي عبدي، ما حملك على أن فعلت ما فعلت؟ قال: مخافتك أو فرق منك، فما تلافاه أن رحمه عندها**»(١).

- قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فما تلافاه**» أي: تداركه أن رحمه عندها، وقال مرة أخرى: «**فما تلافاه أن رحمه عندها**»، قال الراوي: فحدثت به أبا عثمان فقال: سمعت هذا من سلمان غير أنه زاد: «**اذروني في البحر**» أو كما حدَّث. وفي رواية له عن أبي سعيد قال: «**ففعلوا فجمعه الله** عَزَّ وَجَلَّ **فقال: ما حملك؟ قال: مخافتك فتلقاه برحمة**».

هذا الحديث ذِكْرُه في هذا الموطن في الاستدلال به على عذاب القبر محتمل، لكن فيه نظر، والذي يظهر بل الصحيح أن جمع هذا الرجل يكون في يوم القيامة -والله أعلم- والاحتمال الأدنى أن يكون ذلك في البرزخ، والأحاديث الأخرى مصرحة بأن هذا الرجل من آخر من يخرج من النار، وبالتالي فلو كانت الرحمة قد نالته في البرزخ لما كان عُذِّب يوم القيامة.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٣٨٤)، ومسلم (٢٧٥٦).

واحتمال أن هذا الأمر يكون في البرزخ بقوله في الحديث: «**فيقول الله له: قم، فإذا هو رجل قائم**»، لكن هذا محمول على أن الله يقول ذلك يوم القيامة، وهذا متكرر في الكتاب والسنة مثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ** ﴾ [القصص:٦٥]، ومثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ** ...﴾ [النحل:١] فيعبر بالفعل الماضي عن ما هو مستقبل، فالذي يظهر أنه يقع يوم القيامة.

وهذا الحديث يدلُّ على أن من مات وقد جهل صفة من صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أو اعتقد اعتقادًا مكفرًا نتيجة جهله الناشئ عند عدم بلاغ أدلة الشرع فإنه لا يكفر، وهذا الحديث من أصلح الأدلة على مسألة العذر الناشئ عند عدم البلاغ -حتى لو كان هذا الأمر المجهول من أمور العقيدة والتوحيد- فإن هذا الرجل جهل أو شك في قدرة الله عليه، وفي أمر بعث الأجساد، وظنَّ أن الجسد إذا تفرق إلى رماد لم يُبْعَثْ، وهذا ليس لخطأ في اللفظ كما يؤَوِّله البعض ويحمله على قول القائل: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك...**»[1] الحديث، وهذا أخطأ من شدة الفرح -مع أن هذا دليل على نفس المسألة- وإن كانت بمانع آخر من موانع التكفير وهو: مانع الخطأ، وهذا الرجل قد تلفظ بكلمتين هما كفر صراح، فقال: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك**» لكن في حديث الرجل الآخر لم يكن مخطئًا، وإنما تصرُّفُه وفعلُه بأمر أولاده أن يجعلوه رمادًا لكي يُضلَّ اللهَ كما في رواية ذكرها ابن حجر في شرح الحديث قال: «**لعلي أضل الله**»[2]، فكل الروايات فيها الكفر الصريح؛ **أحدها**: شكٌّ في القدرة وهذا كفرٌ بالله، **والثانية**: في بعث الأجساد وهذا كفر باليوم الآخر، فكلاهما كفر؛ أحدها بالله عَزَّوَجَلَّ والآخر كفر باليوم الآخر، وكلاهما ينقل صاحبه عن الملة بعد العلم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره ابن حجر في «الفتح» في شرح الحديث: (كتاب أحاديث الأنبياء) (٦/ ٦٠٣).

وإن أمكن تأويل الشك في القدرة وتأويلها بالتضييق -لو فرضنا ذلك جدلًا- فإنه لا يمكن تأويل الشك في بعث الأجساد وإلا لم يكن للقصة -أصلًا- معنى؛ إذ لو كان ذلك الرجل موقنًا ببعث الأجساد، فلماذا أمر بحرق نفسه وذرِها رمادًا وأن يُنثر في الريح في البر وفي البحر؟ فمن قال بأن هذا ليس كفر فهذا من الباطل.

- ومما سبق يدل ذلك على عدم تكفير من نطق بالكفر، أو اعتقده من داخله إذا لم يبلغه عن الله عَزَّوَجَلَّ أو عن رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خلافه، وهذا الحديث متلقى بالقبول، ولم يطعن فيه أحد من أئمة العلم، ولم يستدركه أحد على الصحيحين، فهو يفيد العلم، وصار حجة واضحة في هذه المسألة.

- وفي هذا الحديث أيضًا ردٌّ على من يقول بتكفير (تارك جنس العمل الظاهر)؛ لأن هذا الرجل قال عنه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لم يبتئر عند الله خيرًا**»، وفي رواية: «**لم يعمل حسنة قط**»، وعندما ذكر سبب نجاته كان السبب الوحيد هو خوفه من الله، فإن الله غفر له بسبب خوفه من الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يغفر له بصلاة، ولا بصدقة، ولا صوم، ولا شيء من العمل الظاهر، حتى إحسانه لبنيه لم يكن بنية وإلَّا كان ضمن الحسنات، بل كان منه أمرًا فطريًّا ولذا لا يثاب عليه.

وهو يعذب على ترك العلم الذي أدَّى به إلى هذا الجهل، وعُذِّبَ على تركه العمل الواجب، وعُذِّبَ على فعل الحرام والمنكرات، ولكن كان في نهاية أمره ناجيًا غير مخلدٍ في النار وهذا هو المقصود، والمقصود بالعذر هنا أي: العذر في عدم الخلود في النار، ولا يلزم أن لا يعذب مطلقًا، وإنما عُذر في عدم الكفر الناقل عن الملة.

- ويستفاد من الحديث التفرقة بين النوع والعين في قضايا التكفير؛ لأن هذين الاعتقادين عند هذا الرجل كلاهما كفر ناقل عن الملة؛ فإن الرجل شك في قدرة الله بل غلبة الظن عنده بأنه يُعجز الله عَزَّوَجَلَّ، وأيضًا عنده يأس من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، وظنَّ أنه لا

تناله رحمة الله وشكَّ في ذلك، مع ظنِّه واعتقاده في إنكار بعث الأجساد أو حتى جسده هو على الأقل.

وهذا الحديث شوكة في حلوق المبتدعة -دعاة التكفير- ويحاولون تأويله بشتى الطرق، ويحاولون ردَّه بأي طريقة، كأن يقولون: إن الحديث واقعة عين. والرد على ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لماذا ذكر الحديث، أو ليس لكي يبين للناس سعة رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقبل من عباده أحيانًا أدنى أعمال القلوب، وهذا من فضله ورحمته تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟!

فإنه انتفع بهذا العمل القلبي ونجا به من الخلود في النار على الرغم مما ارتكبه من فعل محرم بل كفر، وكما يذكر بعض العلماء عن بعض المبتدعة الذين يتعبدون بأعمال لم يرد بها الشرع وإنما يفعلونها زعمًا أنها محبة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه -بلاشكَّ- ملامٌ على هذه البدعة، معتوبٌ عليه فيها، قد يُعذَّب بسببها، لكن قد يكون له أجر العمل القلبي من المحبة أو الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو لا ينجو بهذه البدع وإنما ينجو بخوفه من الله ومحبته للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي الحقيقة فإن ما أوقعه في البدعة ليس محبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل الذي أوقعه في البدعة هو الجهل وليس المحبة، وقد يعذب بهذا الجهل أو لا يعذب.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في باب «كلام الميت على الجنازة»: حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن سعيد بن أبي سعيد عن أبيه أنه سمع أبا سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني، وإن كانت غير صالحة**

قالت: يا ويلها أين يذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان؛ ولو سمعها الإنسان لصُعِقَ»[(١)](٢).

- قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَصُعِق**»؛ لأن طاقة الإنسان لا تحتمل هذا الصوت كما ذكرنا في أول كلامنا على عذاب القبر.

وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر حدثنا عباد بن راشد عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: شهدنا مع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جنازة فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أيها الناس، إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فإذا الإنسان دفن فتفرق عنه أصحابه جاءه ملك في يده مطراق من حديد**»[(٣)](٤).

- قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مطراق**» أي: المطرقة وهو ما يستعمله الحداد، والطرق هو الضرب.

۞ قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**... فأقعده فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول له: صدقت، ثم يفتح له باب إلى النار فيقول: كان هذا منزلك لو كفرت بربك فأما إذ آمنت فهذا منزلك، فيفتح له بابًا إلى الجنة فيريد أن ينهض إليه فيقول له: اسكن اسكن ويفسح له في قبره**».

- الظاهر أن الروح هي التي تمكن من دخول الجنة أو بعض الأرواح للمؤمنين الكمَّل.

---

(١) رواه البخاري (١٣١٤).

(٢) «معارج القبول» (٧٣٥) ط. ابن القيم.

(٣) سيأتي تخريجُه.

(٤) «معارج القبول» (٧٣٥) ط. ابن القيم.

۞ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإن كان كافرًا أو منافقًا يقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا، فيقول: لا دريت، ولا تليت، ولا اهتديت، ثم يفتح له بابًا إلى الجنة فيقول: هذا منزلك لو كنت آمنت بربك فأما إذ كفرت به فإن الله** عَزَّ وَجَلَّ **أبدلك به هذا فيفتح له بابًا إلى النار ثم يقمعه قمعة بالمطراق**».

- أي: يضربه ضربةً ينقمع منها أي: ينكسر ويذل ويحصل له هوان بسببها.

۞ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيصيح صيحة يسمعها خلق الله** عَزَّ وَجَلَّ **كلهم غير الثقلين، فقال بعض القوم: يا رسول الله ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق إلا هيل عند ذلك**»، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت**»(١).

- ومعنى: «**هِيل**» أي: لا يثبت ولا يكون له عقل ولا حزم، يقال عن الرجل الذي لا حزم ولا عقل هائل، من الرمل الذي لا يثبت مكانه حتى ينهال ويسقط.

ولابن مردويه عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**»: «في القبر»(٢).

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا جرير بن حازم حدثنا أبو رجاء عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «**من رأى منكم الليلة رؤيا؟**»، قال: فإن رأى أحد قصَّها فيقول: «**ما شاء الله**» فسألنا يوما فقال: «**هل رأى أحد منكم رؤيا؟**» قلنا: لا...»(٣))(٤).

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٣٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٦٥)، والبزار في «كشف الأستار» (٨٧٢)، وذكره الهيثمي في «مجموع الزوائد» (٣/ ٤٧) وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه ابن مردوية «الدر المنثور» (٥/ ٢٨).

(٣) سيأتي تخريجه.

(٤) «معارج القبول» (٧٣٦) ط. دار ابن القيم.

- هذا فيه دليل على أن الرؤيا يستأنس بها، وفيه دليل سؤال العالم والإمام أصحابه هل رأوا رؤيا، يستبشر بذلك ويبين لهم ما فيها من الخير.

۞ قال ﷺ: «**لكني رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني إلى الأرض المقدسة**»، في رواية: «**إلى الأرض المقدسة المطهرة المباركة**» قال: «**فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده** -قال بعض أصحابنا عن موسى:- **بيده كلوب من حديد يدخله في شدقه**[١] **حتى يبلغ قفاه**».

- (**الكلَّوب**): هو الحديد ذو الخطاف الذي يُعَلَّق عليه اللحم، و(**الشِدْق**): هو جانب الفم من الداخل، فيدخل الكلوب ويشرشره حتى يبلغ قفاه، وهذا عذاب شديد.

۞ قال ﷺ: «**ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا، فيعود فيصنع مثله، قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخر فيشدخ بها رأسه**».

- **الفهر**: هو الصخر، **يشدخ رأسه**: أي يكسر رأسه، **والشدخ**: التكسير.

۞ قال ﷺ: «**فإذا ضربه تدهده الحجر**[٢]**، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه**[٣]**. قلت: من هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد تحته نارٌ، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة، فقلت: من هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم على وسط النهر ورجل**

---

(١) في رواية في الصحيح: «**ثم يشرشر منخره إلى قفاه ثم عينه إلى قفاه**»

(٢) يدحرج.

(٣) أي: للضرب.

بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فِيه فردَّه حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فِيه بحجر فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها، فصعدا بي الشجرة فأدخلاني دارًا لم أر قط أحسن وأفضل منها، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان، ثم أخرجاني منها فصعدا بي إلى الشجرة فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل فيها شيوخ وشبان، قلت: طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت. قالا: نعم، أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة تحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة. والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل بما فيه بالنهار، يُفعَل به ما رأيت إلى يوم القيامة، والذي رأيته في الثقب فهم الزناة. والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والصبيان حوله فأولاد الناس. والذي يوقد النار مالك خازن النار، والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك. فرفعت رأسي فإذا فوقي مثل السحاب قالا: ذاك منزلك. قلت: دعاني أدخل منزلي. قالوا: إنك قد بقي لك عمر لم تستكمله، فلو استكملت أتيتَ منزلك»[1].

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**روضة خضراء**»: بستان حسن، وأرض بها خضرة.

۞ وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فكذاب**»: يدل على خطر نشر الأكاذيب ومنها وسائل الإعلام الحديثة، وحيث كان الأمر قديمًا تحتاج الكذبة إلى وقت حتى تبلغ الآفاق، فالآن لا تحتاج إلى وقت كثيرٍ حتى تبلغ الآفاق، بل تُحمَل الكذبة عن صاحبها في اللحظة

---

(١) رواه البخاري (٧٠٤٧) من حديث سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والساعة، ومنها نشر الأكاذيب حول الإسلام وأهله والتي يتبوأ معظمَ إثمها اليهودُ والنصارى ومن والاهم من المنافقين، وهذا من أعظم الذنوب والآثام.

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل، ولم يعمل بما فيه بالنهار يفعل به ما رأيت إلى يوم القيامة»**.

أي: نام عن الصلاة المفروضة بالليل عمدًا كصلاة المغرب والعشاء، وفي رواية في الصحيح: **«فأما الذي رأيته يشدخ رأسه فرجل آتاه الله القرآن فرفضه ونام عن الصلاة المكتوبة»** أي: يقرأ القرآن للمصلحة الدنيوية، وينام عن الصلاة المفروضة عمدًا، وكذلك من يتعمد أن يستيقظ بعد طلوع الشمس.

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«والذي رأيته في الثقب فهم الزناة»** والجزاء من جنس العمل؛ فلما كشفوا عوراتهم في الدنيا جعلهم الله في القبور عرايا في هذا التنور، ولما تلذذوا بالحرام عاقب الله عَزَّ وَجَلَّ أجسادهم بعذاب الحرق لجميع أجزاء أبدانهم جزاءً وفاقًا.

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«والذي رأيته في النهر آكلو الربا»** فكما أن آكل الربا يضيق على الناس معايشهم، ويأكل أموال الناس بالباطل، صار يلقم الحجر ولا يستطيع الخلاص، يريد أن يخرج من التبعات فلا يستطيع، ويسبح في الدماء كما كان يسبح في حقوق الخلق، كما يحدث في المؤسسات الربوية فهي سلسلة تعاملات مع مئات الآلاف من البشر، ونهاية هذه السلسلة فقراء المسلمين، فتكون سلسلة مضاعفة من الحرام والإثم فيزداد فقراء المسلمين وضعفاؤهم فقرًا إلى فقرهم، وعناءً إلى معاناتهم، ويزيد الظلم العام على هؤلاء الفقراء.

- قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **والصبيان حوله فأولاد الناس»** هذا أوضح دليل لمذهب من قال إن أطفال الكفار الذين يموتون دون

البلوغ يموتون على الفطرة، وفي بعض طرق الحديث عند البخاري: قالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «**وأولاد المشركين**».

فيكونون في الجنة مع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا القول هو أرجح الأقوال، والأحاديث الواردة في امتحان الأطفال كلها روايات ضعيفة لا تثبت، وأما الصحيح امتحان من لم تبلغه الدعوة، وكذلك الأحمق، والأصم، وهذه كلها صحت بها أحاديث.

وأما قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أولاد المشركين: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»(١) فليس فيه أنه يحاسبهم على علمه السابق، فإنه عَزَّ وَجَلَّ لا يحاسب بذلك بل يحاسب على ما عمله الإنسان وكسبته يداه، وإنما المعنى: الله أعلم بما يعملون لو كانوا أحياءً، وهذا فيه تواضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورد العلم إلى الله، وقد ثبت هذا في حق أولاد المسلمين الذين لا خلاف فيهم، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لصبي من صبيان الأنصار: «طوبى له عصفور من عصافير الجنة» فقال: «**أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق خلقًا للجنة وهم في أصلاب آبائهم، وخلق خلقًا للنار وهم في أصلاب آبائهم**»(٢).

ومع أن الأدلة قد استفاضت أن أبناء المسلمين في الجنة، ولا خلاف فيه عند أهل السنة كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن أطفال المسلمين: «لا يختلف فيهم أحد أنهم من أهل الجنة»(٣).

وأما حديث «**الوائدة والموءودة في النار**»(٤)؛ فقد فسره العلماء بأن معناه الموءودة له أي: زوجها الذي رضى بذلك وأمر به، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٥٥٨)، مسلم (٢٦٥٩) من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه مسلم (٢٦٦٢).
(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره عن أبي يعلى الفراء الحنبلي (٣/ ١١٠٩) ط. ابن حزم.
(٤) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٧١٧) وصححه الألباني من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه أحمد في «المسند» من حديث سلمة بن يزيد الجعفي (١٥٤٩٣).

بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴾ [التكوير] فأنكر عَزَّوَجَلَّ عليهم قتلها بلا ذنب، فهو عَزَّوَجَلَّ لا يدخلها النار بلا ذنب، وهذا له نظير في اللغة وفي القرآن أيضًا، مثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء:٣٤] أي: مسئولًا عنه، وحُذِفَ الجار والمجرور.

- وتأويل آخر للحديث أن هذه من أولاد المشركين الذين يمتحنون -عند من يقول بامتحان المشركين- فيفشلون في الامتحان، لكن الأحاديث الصريحة في أنهم في الجنة ظاهرةٌ كما قدمنا.

- وهناك تأويل ثالث -كما في بعض طرق الحديث- أن هذه الموءودة قتلت بعد البلوغ فكانت كافرة حين قتلت.

وورد في الأثر عن ابن عباس في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ...﴾ الآية [الأعراف:١٧٢] قال: «ومن مات صغيرًا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول: على الفطرة...»(١).

والمسألة في أولاد المشركين مسألة خلافية بين أهل السنة لا يُبَدَّع ولا يُضَلَّل فيها المخالف، ولكن الكلام فيها بالرأي بغير أدلة مذموم، شأنها شأن كل مسائل العقيدة.

۞ وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**والذي يوقد النار مالك خازن النار، والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين**» أي: التي فيها رجال شيوخ، وشباب، وصبيان، ونساء.

۞ وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك فرفعت رأسي فإذا فوقي مثل السحاب قالا: ذاك منزلك**» هذا فيه علو منزلة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لأنه فوق الشهداء بما يشبه السحاب.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٧٩٨) ط. ابن حزم.

۞ وقوله ﷺ: «**قلت: دعاني أدخل منزلي، قالوا: إنه بقي لك عمر لم تستكمله، فلو استكملته أتيت منزلك**» وهذا دليل أن هذا في البرزخ وهذا الحديث صريح في ذلك.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما حديث عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال أبو داود عن عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «**استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل**»[(١)])[(٢)].

- والجمع بين هذا الحديث وبين قول النبي ﷺ: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع قرع نعالهم** -قال- **يأتيه ملكان فيقعدانه...**» الحديث[(٣)]، أن قوله: «**الآن**» أي: بعد قليل لقرب الزمان.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما حديث علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: أكثر ما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة في الموقف: «**اللهمَّ لك الحمد كالذي تقول وخيرًا مما نقول، اللهمَّ لك صلاتي، ونسكي، ومحياي، ومماتي، وإليك مآبي، ولك رب تراثي، اللهمَّ إني أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر، اللهمَّ إني أعوذ بك من شر ما تجيء به الريح**»[(٤)])[(٥)].

- هذا الحديث ليس فيه ما يستنكر من جهة المعنى وكلها من فضائل الأعمال، وضعفه ليس بالشديد.

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٣٢٢١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٢) «معارج القبول» (٧٣٧) ط. دار ابن القيم.

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) رواه الترمذي (٣٥٢٠)، وقال: حديث حسن غريب، ورواه ابن خزيمة في صحيحه (٢٨٤١)، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٩١٨).

(٥) «معارج القبول» (٧٣٨) ط. دار ابن القيم.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولك رب تراثي**» أي: ميراثي، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يرث الأرض ومن عليها.

۞ قال الشيخ حاظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما حديث زيد بن ثابت فقال مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (حدثنا يحيى بن أيوب وأبو بكر بن أبي شيبة جميعًا، عن ابن عُلية. قال ابن أيوب: حدثنا ابن علية، قال: وأخبرني سعيد الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري عن زيد بن ثابت، قال أبو سعيد: ولم أشهده من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أَقْبُر ستة أو خمسة أو أربعة قال: كذا كان يقول الجريري فقال: «**من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟**» فقال رجل: أنا، قال: «**فمتى مات هؤلاء؟**» قال: ماتوا في الإشراك، فقال: «**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه...**»[(١)])[(٢)].

- هذا دليل على أن أهل الجاهلية الذين ماتوا قبل بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشركون معذبون، وذلك لأنهم بلغتهم الحجة، وبلغتهم دعوة الأنبياء: إبراهيم، وموسى، وعيسى، وبلغتهم كلمة لا إله إلا الله، وكان من بين أقوامهم موحدون كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وكان مِنهم مَن كان على عقيدة التوحيد مِن أهل الكتاب، فدلَّ ذلك على قيام الحجة، والحجة في حقِّهم هي شهادة التوحيد.

۞ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «**تعوذوا بالله من عذاب النار**» قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، فقال: «**تعوذوا بالله من عذاب القبر**» قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «**تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن**» قالوا: نعوذ بالله

---

(١) سيأتي تخريجه.
(٢) «معارج القبول» (٧٣٨) ط. دار ابن القيم.

من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: «**تعوذوا بالله من فتنة الدجال**» قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال»[(١)].

ويستفاد من الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسمع صوت المعذبين، وبغلته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمعت ذلك، وفزعت فزعًا شديدًا حتى كادت أن تُسْقِط النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فوقها، وهذا السماع للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان خاصًّا به.

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما حديث جابر بن عبد الله فقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فَتَّانَي القبر فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا أدخل المؤمن قبره، وتولى عنه أصحابه جاءه ملك شديد الانتهار**[(٢)] **فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: إنه رسول الله وعبده. فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار؛ قد أنجاك الله منه، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراهما كليهما، فيقول المؤمن: دعوني أُبشِّرُ أهلي فيقال له: اسكن. وأمَّا المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري أقول كما يقول الناس، فيقال له: لا دريت، هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة؛ أبدلك مكانه مقعدك من النار**» قال جابر: فسمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يبعث كل عبد في القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه**»)[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٧).

(٢) ينتهره أي: يعنفه.

(٣) رواه أحمد (٣/ ٣٤٦)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» برقم (٢١٦)، وأخرج مسلم الجزء الأخير قوله: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**» (٢٨٨٧).

ولمسلم عنه من حديث الكسوف وفيه: «**عرضت علي النار فرأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تعذب في هرة لها ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**»[(١)]) اهـ[(٢)].

- الحديث دليل على تحريم تعذيب الحيوانات، فكيف بتعذيب الآدميين بغير حق، والخشاش: أي هوام الأرض، وهذه الصور التي رآها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي صور أرواح مصورة في صورة الأجساد، فإذا كان يوم القيامة تركت الأرواح في الأجساد، ثم أدخلت النار.

۞ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ورأيت أبا ثمامة عمرو بن مالك يجر قُصْبَه في النار**» عمرو بن لحي هو أول من أمر بعبادة الأصنام، وأول من غيَّر دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأول من سيب السوائب، والحديث فيه دليل على جواز تسمية الكافر بكنيته على غير سبيل التعظيم.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يجر قصبه**» أي: يجر أمعاءه.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي رواية: «**لقد جيء بالنار، وذلك حين رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيبني من لفحها. وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجر قصبه في النار، كان يسرق الحاج بمحجنه فإن فطن له قال: إنما تعلق بمحجني، وإن غفل عنه ذهب به، وحتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعًا**»[(٣)]).

(**المحجن**): هو العصا الملتوية، وقوله: «**جيء بالنار**» أي: رآها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورأى أرواحًا مصورة في صورة الأجساد وخشى من أن يصيبه لفح هذه النار.

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) «معارج القبول» (٧٣٩) ط. دار ابن القيم.

(٣) رواه مسلم (٩١٥).

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما حديث سعد بن أبي وقاص فرواه البخاري من عدة طرق عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلمنا هذه الكلمات كما تعلم الكتابة: «**اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أردَّ إلى أرذل العُمُر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر**»[١].

وأما حديث زيد بن أرقم فقال مسلم بن الحجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم ومحمد بن نمير -واللفظ لابن نمير-، قال إسحاق أخبرنا -وقال الآخران حدثنا- أبو معاوية عن عاصم عن عبد الله بن الحارث، وعن أبي عثمان عن زيد بن أرقم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**»[٢].

وأما حديث أبي بكرة فأخرجه النسائي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يقول في أثر الصلاة: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر، والفقر، وعذاب القبر**»[٣].

وأما حديث عبد الرحمن بن سمرة فقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في كتابه «نوادر الأصول»: حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن أبي فديك عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢٧).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٣) **صحيح**: رواه النسائي (٢٦٢٨)، وأحمد (٥/ ٣٦)، والحاكم في «المستدرك» وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح النسائي».

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم ونحن في مسجد المدينة فقال: «إني رأيت البارحة عجبًا؛ رأيت رجلًا من أمتي جاء ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرده عنه، ورأيت رجلًا من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك، ورأيت رجلًا من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ فخلصه من بينهم، ورأيت رجلًا من أمتي قد احتوشته(١) ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم، ورأيت رجلًا من أمتي يلتهب عطشًا كلما ورد حوضًا مُنِع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه، ورأيت رجلًا من أمتي من بين يديه ظُلْمة، ومن خلفه ظُلْمة، وعن يمينه ظُلْمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، وهو متحير فيها فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظُّلمة وأدخلاه النور، ورأيت رجلًا من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلة الرحم فقالت: يا معشر المؤمنين! كلموه فكلموه، ورأيت رجلًا من أمتي يتقي وَهَجَ النار وشررها بيديه عن وجهه فجاءته صدقته فصارت له سترًا على وجهه وظلًا على رأسه، ورأيت رجلًا من أمتي أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة، ورأيت رجلًا من أمتي جاثيًا على ركبتيه بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عَزَّ وَجَلَّ، ورأيت رجلًا من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله تعالى فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه، ورأيت رجلًا من أمتي قد خفَّ ميزانه فجاءته أفراطه(٢) فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلًا من أمتي قائمًا على شفير جهنم(٣) فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى، ورأيت رجلًا من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكت من خشية الله في الدنيا فأخرجته من النار، ورأيت رجلًا من أمتي قائمًا على الصراط كما ترعد السعفة(٤) فجاء حسن

---

(١) **احتوشته**: أحاطت به لتعذبه.

(٢) **الأفراط**: الأطفال الذي ماتوا صغارًا قبل البلوغ.

(٣) على حافة جهنم وحرفها.

(٤) **ترعد السعفة**: كما يضطرب غصن النخلة.

ظنه بالله فسكن رعدته ومضى، ورأيت رجلًا من أمتي على الصراط يزحف أحيانًا ويحبو أحيانًا فجاءته صلاته فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط، ورأيت رجلًا من أمتي انتهى إلى باب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب فأدخلته الجنة»(١))(٢).

- وقوله ﷺ: **«فجاءه بره بوالديه»** ثبت هذا المعنى من قول النبي ﷺ: **«من أحب أن يبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه»**(٣).

وهذا محمول عند أهل العلم على التأخير بالنسبة إلى (ما لم يكن لو كان كيف يكون) فيكتب أن أجله إن لم يصل رَحِمَه كذا من العمر، فإن وصلها فيكون عمره كذا زيادةً على الأول، وأما في علم الله السابق فأجله شيء واحد في اللوح المحفوظ الذي لا محو فيه ولا إثبات، ومكتوب فيه إذا كان واصلًا للرحم أم لا.

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فرواه النسائي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهَرم والمغرم والمأثم، وأعوذ بك من شر المسيح الدجال، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من عذاب النار»**(٤).

---

(١) هذا الحديث الذي يرويه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» -وهو غير أبي عيسى الترمذي صاحب كتاب «جامع الترمذي» المعروف بـ(السنن)-، والحديث رواه الحكيم الترمذي بإسنادين في كلٍّ منهما ضعف، لكن المعاني لها شواهد متعددة في أحاديث أخرى، وفيها معاني حسنة طيبة بالإضافة إلى أن كلًّا من الطريقين في الإسناد يتقوَّى بالآخر مع الشواهد الأخرى، لكن هذا الحديث بسياقه وجميعه عن عبد عبد الرحمن بن سمرة سنده ضعيف، وذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/ ٦٩٧)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٠٨٦).

(٢) «معارج القبول» (٧٤٠-٧٤١) ط. دار ابن القيم.

(٣) **متفق عليه:** رواه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس بن مالك.

(٤) **صحيح:** رواه أحمد (٢/ ١٨٥)، والنسائي (٨/ ٢٦٩) وشواهده في الصحيحين، وصحَّحه شعيب الأرناؤوط في «تخريج المسند» (٦٧٤٩).

وللحكيم الترمذي عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر: فتاني القبر، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتردُّ لنا عقولنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم، كهيئتكم اليوم**» فقال عمر: في فيه الحَجر»[(١)][(٢)].

فتانا القبر أي: منكر ونكير يسألان العبد.

- ومعنى «**في فِيه الحجر**» أي: سألقمه حجرًا يسكته، وذلك لقوة الإيمان واليقين عند عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ووضوح الحجة ما دام عقله كان معه.

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وروى البغوي عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا عليه: «إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله عَزَّوَجَلَّ ملكين، وأرسل إليه بتحفة من الجنة ويقال لها: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى روح وريحان ورب عنك راض فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه والملائكة على أرجاء السماء[(٣)] يقولون: قد جاء من الأرض روح طيبة -أو نسمة طيبة- فلا تمر بباب إلا فتح لها، ولا بملك إلا صَلَّى عليها[(٤)] حتى يؤتى بها الرحمن عَزَّوَجَلَّ فتسجد، ثم يقال لميكائيل: اذهب بهذه فاجعلها مع أنفس المؤمنين، ثم يؤمر فيوسع عليه قبره سبعون ذراعًا عرضه، وسبعون ذراعًا طوله، وينبذ له الريحان، وإن كان معه شيء من القرآن كفاه نوره، وإن لم يكن جعل له نور مثل الشمس في قبره، ويكون مثله مثل العروس ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله إليه. وإذا توفي

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٧٢)، والآجري في «الشريعة» (٣٦٧)، والحكيم الترمذي غير مسند في «نوادر الأصول» (ص٤١)، وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) «معارج القبول» (٧٤٢) ط. دار ابن القيم.

(٣) أي: على أطراف السماء بنواحيها.

(٤) أي: أثنى عليها ودعا لها، واستغفر لها.

الكافر أرسل الله إليه ملكين، وأرسل قطعة من بجاد[١] أنتن وأخشن من كل خشن، فيقال: يا أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى جهنم وعذاب أليم ورب عليك غضبان»[٢].

(وأما حديث أبيه عمرو بن العاص فرواه مسلم في قصة وفاته مطولًا، وفيه: «**فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا عليَّ التراب شنًّا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحَر جزور ويُقسَم لحمها، حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي** عَزَّوَجَلَّ»[٣])[٤].

- وقوله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لا تصحبني نائحة**»؛ لأن الميت يُعذَّب بنوح أهله عليه، وهذا أمرٌ منكَرٌ وكبيرة من الكبائر، ولا ينبغي أن يكون في الجنازة فُسَّاق يظهرون المنكر وإن كانوا يزعمون أنهم يحبون الميت، ولا ينبغي أن تُتْرَك النائحة تتبع الجنازة، بل لابدَّ من زجرها وردِّها، وكذلك لا تصحب الجنازة نار؛ لأن ذلك من شعار المجوس، إلا أن يحتاج الدفن للإنارة بها فليس داخلًا في النهي.

- قال: «**فشنوا عليَّ التراب شنًّا**» أي: صبوا عليَّ التراب.

وفي هذا الحديث استحباب المكث عند القبر لقوله: «**ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها**» وذلك لإيناس الميت حتى لا يفجأه المكان بمجرد انصراف أصحابه عنه؛ لأن الملكين إنما يأتيان الميت عند انصراف أصحابه.

وقد بقي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حول قبور بعض أصحابه مدة وعظ فيها أصحابه وذكرهم، وأمرهم بالدعاء للميت، والاستغفار له.

---

(١) **بجاد**: هو الكساء الغليظ الخشن من أكسية الأعراب التي يصنعونها من الوبر.

(٢) هذا الحديث في سنده ضعف؛ يرويه البغوي رَحِمَهُٱللَّهُ بغير إسناد وهو عادة ما يورد ذلك في تفسيره، لكن الحديث به أجزاء ثابتة من أحاديث صحيحة.

(٣) رواه مسلم (١٢١) موقوفًا على عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) «معارج القبول» (٧٤٢-٧٤٣) ط. دار ابن القيم.

ومن عقوبة المنافقين ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ... ﴾ [التوبة:٨٤] وكذلك هذا الأثر عن عمرو بن العاص دليل على ما ثبت في الأحاديث الصحاح أن الميت يستأنس ويسمع ما حوله في تلك اللحظات، وهذ الأثر شاهد على ما دلت عليه أدلة أخرى من أن الميت يستأنس بمن زاره؛ لأنه ورد الدليل في خطابهم وهذا يستلزم السماع، فيكون من أسباب إيناس الأموات كما دلَّ عليه هذا الحديث فإنه لا يقال من قِبل الرأي.

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما حديث أم مبشر فأخرجه عنها ابن أبي شيبة في مصنفه قالت: دخل عليَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا في حائط من حوائط بني النجار فيه قبور منهم قد ماتوا في الجاهلية، فخرج فسمعته يقول: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» قلت: يا رسول الله وللقبر عذاب؟ قال: «**إنهم ليعذبون عذابًا في قبورهم تسمعه البهائم**»[(١)].

- وأما حديث أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودي حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحاق عن عامر بن سعد البجلي عن أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧] الآية، قال: «**إن المؤمن إذا مات أُجلِس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: الله** عَزَّ وَجَلَّ**، فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فيقال له ذلك مرات، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك من النار لو زِغْت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك من الجنة إذ ثبت. وإذا مات الكافر أُجْلِسَ في قبره فيقال له: من ربك؟ من**

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٦/ ٣٦٢)، وابن حبان (٧٨٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٧٥)، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (١٠٨)، والآجري في «الشريعة» (٣٦٣)، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنة» (٨٧٥).

نبيك؟ فيقول: لا أدري كنت أسمع الناس يقولون، فيقال له: لا دريت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى منزلك من الجنة لو ثبت ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت. فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧]»[١])[٢].

- هذا الحديث فيه زيادة أن السؤال يكرر مرات، وهذا من الفتنة.

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الكافر: «**كنت أسمع الناس يقولون**» أي: كان مقلدًا للباطل الذي يدعيه قومه أو بلده أو عشريته.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما حديث عبد الله بن مسعود فقال مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الحسن عن عبيد الله عن إبراهيم بن سويد عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أمسى قال: «**أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له**»، أراه قال فيهن: «**له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر**»، وإذا أصبح قال ذلك أيضًا: «**أصبحنا وأصبح الملك لله**»[٣])[٤].

- وفي رواية أخرى لهذا الحديث: «**اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم وسوء الكبر وفتنة الدنيا وعذاب القبر**»[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وذكره ابن كثير، وابن منده، والطبراني في «الأوسط». «الدر المنثور» (٥/ ٣٠).
(٢) «معارج القبول» (٧٤٣) ط. دار ابن القيم.
(٣) رواه مسلم (٢٧٢٣).
(٤) «معارج القبول» (٧٤٤) ط. دار ابن القيم.
(٥) رواه مسلم (٢٧٢٣).

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال النسائي: أخبرنا محمد بن عبد العزيز قال حدثنا الفضل بن موسى عن زكريا عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود: كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوذ من خمس: من البخل، والجبن، وسوء العمر، وفتنة الصدر، وعذاب القبر»[(١)])[(٢)].

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سوء العمر**»: أن يصل إلى حد الهرم فيؤدي به إلى الخرف وذهاب العقل.

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فتنة الصدر**»: ما يوسوس به الشيطان والنفس الأمارة بالسوء في نفس العبد حتى يقع في الفتنة.

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وروى الطحاوي عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمِرَ بعبد من عباد الله أن يضرب في قبره مائة جلدة، فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة، فامتلأ عليه قبره نارا**»[(٣)].

۞ وأما حديث أبي طلحة فقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: حدثني عبد الله بن محمد سمع روح بن عبادة حدثنا سعيد بن أبي عروة عن قتادة قال: ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة: أن نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش فقُذِفُوا في طَوِيٍّ من أطواء بدر خبيث مُخْبِث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصَةِ ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحله ثم مشى واتبعه أصحابه

---

(١) رواه النسائي برقم (٢٥٦)، ورواه عن عمر بن الخطاب (٥٤٤٣)، وكذلك أبو داود (١٥٣٩)، وأحمد (١/ ٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧١٢)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٣/ ١٠٧٣).

(٢) «معارج القبول» (٧٤٤) ط. دار ابن القيم.

(٣) الحديث ذكره العيني في شرح البخاري، وعزاه في التبصرة إلى أبي القاسم الحريري، وتقدَّم حديث أم حبيبة وفيه الاستعاذة من عذاب القبر، وذكره القرطبي في «التذكرة» (ص١٣٧).

وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شَفَةِ الرَّكِيِّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «**يا فلان ابن فلان، يا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟**» قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»(١)، قال قتادة: أحياهم الله تعالى حتى أسمعهم قوله توبيخًا وتصغيرًا ونقمةً وحسرةً وندمًا»(٢))(٣).

- فيه مشروعية تبكيت الكفار في قبورهم بما ورد في ذلك، وتعنيفهم، وإخبارهم بسوء مآلهم.

وقول قتادة: «**أحياهم الله**» أي: اتصلت الأرواح بالأبدان في تلك اللحظة، والذي يظهر أن ساعة مرور المسلم على قبر المسلم فيسلم عليه، وعلى قبر الكافر فيبكته، أنه يقع اتصال بين الروح والبدن حتى يسمع ما يقول، ولا ندري كيفية ذلك ولا طبيعة هذه الحياة التي تختلف عن حياة الدنيا.

وهذا دليل على سماع الأموات ما ورد به الدليل -كما قدمنا قبل ذلك-.

وليست هذه الأدلة حجة للغلاة من الصوفية المبتدعة الذين يقولون بخطاب الأموات، وسؤالهم قضاء الحاجات، والدعاء، وتفريج الكربات، وغير ذلك بزعم سماع الأموات؛ فإن السماع هنا ما ورد به الدليل، وليس أن المسلم يطلب منهم الدعاء، فضلًا أن يدعوهم من دون الله، وما يزعمه أهل البدع من شبهات وحجج أهل الضلال الذين يجوزون الشرك بالله بمثل هذه الشبهات ليس من دين الله في شيء.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٩٢٨)، ومسلم (٢٨٧٥).

(٢) هذا من قتادة مرسل.

(٣) «معارج القبول» (٧٤٥) ط. دار ابن القيم.

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما حديث أسماء الآخر فقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون عن محمد بن المكندر قال: كانت أسماء -يعني بنت الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا- تحدث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: قال: «**إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمنًا أحف به عمله: الصلاة، والصيام** -قال:- **فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده، ومن نحو الصيام فيرده** -قال:- **فيناديه: اجلس فيجلس، فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل؟** -يعني النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- **قال: من؟ قال: محمد، قال: أشهد أنه رسول الله.** -قال:- **فيقول: على ذلك عشت وعليه مِت وعليه تبعث. وإن كان فاجرًا أو كافرًا جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يرده فأجلسه فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل؟ قال: أي رجل؟ قال: محمد،** -قال:- **يقول: والله ما أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته قال له المَلَك: على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث.** -قال:- **ويسلط عليه دابة في قبره معها سوط ثمرته جَمْرة مثل عرف البعير تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوته فترحمه**»[1])[2].

- قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَرُدّه**»: أي: لا تجعله يهجم عليه فيكون أهدأ نفسًا، وشعوره بأن هناك من يدفع عنه يطمئنه، فيثبت بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ.

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سوط ثمرته جمرة**» أي: طرف السوط جمرة من النار، كلما ضربته أحرقته.

- وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مثل عرف البعير**» أي: منبت شعر البعير من العنق.

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٦/ ٢٥٢-٢٥٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٨١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «ورجال أحمد رجال الصحيح» (٣/ ٥٤).

(٢) «معارج القبول» (٧٤٦).

۞ وقال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما حديث عبد الرحمن بن حسنة فقال أبو داود: حدثنا مسدد حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن يزيد بن وهب عن عبد الرحمن بن حسنة قال: انطلقت أنا وعمرو بن العاص إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخرج ومعه درقة[١]، ثم استتر بها، ثم بال، فقلنا: انظروا إليه يبول كما تبول المرأة، فسمع ذلك فقال: «**ألم تعلموا ما لقي صاحب بني إسرائيل؛ كانوا إذا أصابهم البول قطعوا ما أصابه البول منهم فنهاهم، فعذب في قبره**»[٢])[٣].

- الظاهر من هذا الحديث أن هذا الرجل نهاهم عن ما أمروا به من التشديد والآصار التي كانت على بني إسرائيل؛ أنهم إذا أصابهم البول في الثوب -وقيل الجلد- أمروا بقطعه، والأقرب -والله أعلم- أنه في الثوب، والذي يروى من رواية أبي موسى أن بني إسرائيل كانوا يؤمرون بقرض ما أصابه البول من جلدهم بالمقاريض، لذلك كانوا يبولون في قوارير[٤].

لذلك قال حذيفة: (**لوددت أن صاحبكم** -يعني: أبا موسى- **لا يشدد هذا التشديد فلقد رأيتني أنا والنبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **نتماشى، فأتى سباطة خلف حائط، فقام يبول كما يبول أحدكم حتى فرغ**)[٥].

فثبت أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بال قائمًا وبال جالسًا، لكن بحسب المكان الذي يبول فيه، فإذا خشي أن يصيبه البول بأن يترشرش عليه كان يبول جالسًا؛ لأنه أبعد عن إصابة

---

(١) أي: درع يستتر به أثناء قضاء الحاجة.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ١٩٦)، وأبو داود (٢٢)، وابن ماجه (٣٤٦)، والنسائي (٣٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١١/ ٤١٦).

(٣) «معارج القبول» (٧٤٦) ط. دار ابن القيم.

(٤) «صحيح ابن حبان» (٣/ ٣٦٨).

(٥) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦)، ومسلم حديث (٧٣، ٧٤)، وأحمد (٤/ ٢٤٦).

البول، فبيَّن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الرجل من بني إسرائيل لما نهاهم عن فعل ما أمروا به من قطع ما أصاب الثوب من البول وقَصِّه وعدم استعماله ثانية -فعذب ذلك الرجل في قبره لأنه كان واجبًا عليهم.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما حديث تميم الداري فرواه أبو يعلى الموصلي بسنده عنه مطولًا، بسياق عجيب، ومتن غريب، وغالب معناه في الأحاديث الصحيحة، فلا نطيل بسياقه استغناءً عنه بغيره ولله الحمد والمنة.

۞ وأما حديث حذيفة فقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: حدثنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش قال: قال عقبة لحذيفة: ألا تحدثنا ما سمعت من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: سمعته يقول: «**إنّ رجلًا حضره الموت لما يئس من الحياة أوصى أهله: إذا مِتُّ فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا، ثم أوروا نارًا، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فخذوها فاطحنوها، فذروني في اليم في يوم حار -أو: راحٍ-**»[1])[2].

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أو راح**»: أي: يوم شديد الريح؛ لأنه أنسب في نشر الرماد وهذا الحديث مضى من رواية أبي سعيد الخدري.

۞ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فجمعه الله فقال: لم فعلت؟ قال: خشيتك فغفر له**»، قال عقبة: وأنا سمعته يقول حدثنا موسى حدثنا أبو عوانة حدثنا عبد الملك وقال: «**في يوم راح**»).

- هذا الحديث، والذي يليه حديث أبي هريرة ذكرنا أن الاستدلال به على عذاب القبر فيه نظر؛ إذ الظاهر أن الكلام يكون يوم القيامة بعد أن يُعذَّب هذا الرجل في النار ويخرج منها، فيغفر له بعد ذلك.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) «معارج القبول» (٧٤٧) ط. دار ابن القيم.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد رواها رواه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أيضًا من حديث أبي هريرة، فقال: حدثني عبد الله بن محمد حدثنا هشام أخبرنا معمر عن الزهري، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مِتُّ فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله إن قدر علي ربي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا، فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله تعالى الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم فقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا ربي خشيتك حملتني فغفر له**» وقال غيره: «**مخافتك يا رب**»[(١)]، ومحل هذا الحديث مع أحاديث أبي هريرة المتقدمة فلينقل إلى هناك

وأما حديث أبي موسى فرواه أحمد والترمذي، وحسنه والحاكم وصححه وهذا لفظ أحمد: عن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الميت يعذب ببكاء الحي إذا قالت النائحة: واعضداه، واناصراه، واكاسباه، جُبِذَ الميت وقيل: أنت عضدها، أنت ناصرها، أنت كاسبها؟**» ولفظ الترمذي: «**ما من ميت يموت فيقوم باكيه فيقول: واجبلاه، واسنداه** -أو نحو ذلك- **إلا وكل به ملكان يلهزانه: أهكذا كنت؟**»[(٢)])[(٣)].

- قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن النائحة: «**واعضداه...**» أي: يا عضدي الذي اعتضد به، وناصري الذي ينصرني، والذي يأتي بالكسب والرزق.

۞ وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جبذ الميت**» أي: يُشَدُّ من ملابسه ويغلظ عليه، وذلك لأنه ليس العضد وليس الناصر وليس الكاسب، فيبكت على ذلك إذا كان مفرطًا في الوصية،

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) **حسن**: رواه أحمد (٤/ ٤١٤)، والترمذي (١٠٠٣)، وابن ماجه (١٥٩٤)، وحسَّنه الألباني في «الترغيب والترهيب» وقال: حسن لغيره (٣٥٢٢)، (٣٥٢٣).

(٣) «معارج القبول» (٧٤٨) ط. دار ابن القيم.

أو إذا كان قد أوصى بالنياحة عليه كما كانت عادة أهل الجاهلية أنه يوصي الرجل أهله أن ينوحوا عليه، وأن يعددوا عليه بعد موته.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما حديث النعمان بن بشير فرواه الشيخان البخاري ومسلم عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**أُغمي على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عمرة تبكي: واجبلاه، واكذا واكذا تعدد عليه فقال حين أفاق: ما قلت شيئًا إلا قيل لي: آنت كذلك؟ فلمَّا مات لم تبك عليه** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ»[1]).

- لعل هذا -والله أعلم- كان بمنزلة الرؤيا الحق التي يراها المؤمن، فرآها عبد الله بن رواحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حال إغمائه كما يرى النائم، فيكون هذا مصداقًا لما قاله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين يقال للميت، حتى يكون في ذلك التحذير من هذا الفعل وقد كان، فإنه لما مات رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم تبك عليه أخته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، والمؤمن يرى الرؤيا الحق فيما يُستقبل، فأخبرها بما حدث له بالفعل لتنزجر، ولا يقع منها ذلك عند موته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

۞ قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما حديث عوف بن مالك فقال مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حدثني هارون بن سعيد الأيلي أخبرني ابن وهب أخبرني معاوية بن صالح عن حبيب بن عبيد عن جبير بن نفير سمعته يقول: سمعت عوف بن مالك يقول: صلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جنازة، فحفظت من دعائه وهو يقول: «**اللهم اغفر له، وارحمه، وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا**

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٧)، وليس عند مسلم.

من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر، ومن عذاب النار»[١] قال حتى تمنيت أن أكون ذلك الميت. وفي رواية: «**وقه فتنة القبر وعذاب النار**»[٢])[٣].

- هذا الحديث أصح ما ورد فيما يقال في دعاء الجنازة، ومن أشمله وأجمعه.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أكرم نُزُلَهُ**»؛ (النُّزُل): هو ما يعد للضيف، إذا كان نزلًا كريمًا.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وسع مُدخله**» المُدخل: المكان الذي يدخل فيه، فإذا كان واسعًا لم يُضَيَّقْ عليه، ودخل الجنة من أبواب واسعة.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**واغسله بالماء والثلج والبرد**» البَرَد: هو الماء المعروف، والثلج: ما يكون غير متجمد، ولا شكَّ أن هذا مع شدة الحر الذي يكون في القبور، فإذا كان الإنسان مغسولًا بالماء والثلج والبرد من ذنوبه كان ذلك على أحسن حال.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس**» الدنس: هو القذر والوسخ.

- وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وزوجًا خيرًا من زوجه**» حتى لو كانت زوجته صالحة يدعى بهذا الدعاء أن تكون يوم القيامة خيرًا منها في الدنيا، فتكون في الجنة على خير حال.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم (٩٦٣).

(٢) رواه مسلم (٩٦٣).

(٣) «معارج القبول» (٧٤٨) ط. دار ابن القيم.

القيامة الكبرى وما يقع فيها

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأجمع عليها المسلمون، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاةً، عراةً، غُرْلًا، وتدنو منهم الشمس، ويلجمهم العرق، فتنصب الموازين، فتوزن بها أعمال العباد، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون]، وتنشر الدَّواوين، وهي صحائف الأعمال، فآخِذٌ كتابَه بيمينه، وآخِذٌ كتابَه بشماله، أو من وراء ظهره؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء].

ويحاسب الله الخلائق، ويخلو بعبده المؤمن، فيقرره بذنوبه؛ كما وصف ذلك في الكتاب والسنة. وأما الكفار؛ فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنه لا حسنات لهم، ولكن تُعَدُّ أعمالُهم، فتحصى، فَيُوقَفون عليها ويُقَرَّرون بها.

وفي عرصات القيامة الحوض المورود للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ماؤه أشدُّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء، طوله شهر، وعرضه شهر، من يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا. والصراط منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدوًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يُخطف خطفًا ويلقى في جهنم؛ فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم. فمن

مرَّ على الصراط؛ دخل الجنة، فإذا عبروا عليه؛ وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتَصُّ لبعضهم من بعض، فإذا هُذِّبوا ونقوا أُذِن لهم في دخول الجنة.

ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإيمان بالقيامة، وبعث العباد، ثم أهوال الموقف من دنو الشمس من العباد قدر ميل، وصفة الحشر أن العباد يحشرون: حفاةً، عراةً، غرلًا، يلجمهم العرق، ثم ذكر الميزان، ثم ذكر الصحف وأخذ الكتب بالأيمان أو بالشمائل، وذكر حساب المؤمن وحساب الكافر، وذكر حوض النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكر الصراط، وهذه كلها أمور يجب الإيمان بها لثبوتها عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وما ذكره شيخ الإسلام هنا هو نصوص الأحاديث الصحيحة الثابتة في هذا المقام.



أول من يستفتح باب الجنة وأول من يدخلها وشفاعة النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

وأول من يستفتح باب الجنة محمد صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأول من يدخل الجنة من الأمم: أمته، وله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في القيامة ثلاث شفاعات: أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الأنبياء؛ آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم عن الشفاعة حتى تنتهي إليه. وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وهاتان الشفاعتان خاصتان له. وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها. ويخرج الله من النار أقوامًا بغير شفاعة؛ بل بفضله ورحمته، ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا، فينشئ الله لها أقوامًا فيدخلهم الجنة.

ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُاللَّهُ الشفاعة وأنواعها، وهذه كلها من تفاصيل الإيمان باليوم الآخر، وذكر أن أول من يدخل الجنة من الأمم هم أمة محمد صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ له في القيامة ثلاث شفاعات:

الأولى: شفاعته صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أهل الموقف جميعًا حتى يُقضى بينهم.

والشفاعة الثانية: في أن يدخل أهل الجنةِ الجنةَ، وهو صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أول من يستفتح باب الجنة.

وأما الشفاعة الثالثة: فهي فيمن استحق دخول النار، وأوضح أنها تتضمن نوعين من الشفاعة؛ شفاعة لمن استحق دخول النار ألَّا يدخلها، والذي يظهر أن الشفاعة على الصراط هي للرسل، ونوعًا من الشفاعة في إخراج عصاة الموحدين من النار وهذه للأنبياء والصالحين والملائكة.

- وله شفاعات أخرى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

مِنها الشفاعة في رفع الدرجات، وهي لكل أهل الجنة. وكذا الشفاعة في دخول أناس من أمته الجنة بغير حساب ولا عذاب وهم السبعون ألفًا، ومع كل ألفٍ سبعون ألفًا. وكذا له شفاعة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التخفيف عن عمه أبي طالب، فيُجعل في ضحضاح من نار -أي: شراكين من نار- يغلي منهما دماغه، ولولا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكان في الدرك الأسفل من النار.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية»: (قوله: «**وتقوم القيامة**»؛ يعني: القيامة الكبرى، وهذا الوصف للتخصيص، احترز به عن القيامة الصغرى التي تكون عند الموت؛ كما في الخبر: «**من مات فقد قامت قيامته**»(١).

وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا أذن بانقضاء هذه الدنيا؛ أمر إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ينفخ في الصور النفخة الأولى، فيصعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وتصبح الأرض صعيدًا جرزًا، والجبال كثيبًا مهيلًا، ويحدث كل ما أخبر الله به في كتابه، لا سيما في سورتي التكوير والانفطار، وهذا هو آخر أيام الدنيا.

ثم يأمر الله السماء، فتمطر مطرًا كمني الرجال أربعين يومًا، فينبت منه الناس في قبورهم من عَجْبِ أذنابهم، وكل ابن آدم يبلى إلا عَجْبَ الذَّنَبِ.

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٦٧)، والديلمي في «مسند الفردوس» (١/ ٢٨٥)، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١٦٦).

حتى إذا تم خلقهم وتركيبهم؛ أمر الله إسرافيل بأن ينفخ في الصور النفخة الثانية، فيقوم الناس من الأجداث أحياء، فيقول الكفار والمنافقون حينئذ: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ ويقول المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

ثم تحشرهم الملائكة إلى الموقف حفاةً غير منتعلين، عراةً غير مكتسين، غرلًا غير مختتنين؛ جمع أغرل، وهو الأقلف، والغرلة: القلفة.

وأول من يكتسي يوم القيامة إبراهيم؛ كما في الحديث، وهناك في الموقف تدنو الشمس من رؤوس الخلائق، ويلجمهم العرق، فمنهم من يبلغ كعبيه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ ثدييه، ومنهم من يبلغ ترقوته؛ كلٌّ على قدر عمله، ويكون أناس في ظل الله عَزَّوَجَلَّ.

فإذا اشتدَّ بهم الأمر، وعظم الكرب، استشفعوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالرسل والأنبياء أن ينقذهم مما هم فيه، وكل رسول يحيلهم على من بعده؛ حتى يأتوا نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فيقول: «**أنا لها**»، ويشفع فيهم، فينصرفون إلى فصل القضاء.

وهناك تنصب الموازين، فتوزن بها أعمال العباد، وهي موازين حقيقية، كل ميزان منها له لسان وكفتان[1]، ويَقْلِبُ الله أعمال العباد -وهي أعراض- أجسامًا؛ لها ثقل، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

---

(١) لكن بطريقة لا نعلمها، ويوزنون هم وأعمالهم وكتبهم على الصحيح.

ثم تُنشر الدواوين، وهي صحائف الأعمال، فأما من أوتي كتابه بيمينه؛ فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا، وينقلب إلى أهله مسرورًا، وأما من أوتي كتابه بشماله[١] أو من وراء ظهره، فسوف يدعو ثبورًا، ويصلى سعيرًا ويقول: يا ليتني لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه؛ قال تعالى: ﴿ **وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ [الكهف:٤٩].

وأما قوله تعالى: ﴿ **وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ** ﴾؛ فقد قال الراغب: «أي: عمله الذي طار عنه من خير وشر».

ولكن الظاهر أن المراد بالطائر هنا نصيبه في هذه الدنيا[٢]، وما كتب له فيها من رزق وعمل؛ كما في قوله تعالى: ﴿ **أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ** ﴾ [الأعراف:٣٧]؛ يعني: ما كتب عليهم فيه) اهـ[٣].

وقال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قوله: «**والصراط منصوب ... إلخ**»: أصل الصراط الطريق الواسع؛ قيل: سمي بذلك لأنه يسترط السابلة؛ أي: يبتلعهم إذا سلكوه، وقد يستعمل في الطريق المعنوي؛ كما في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ** ﴾ [الأنعام:١٥٣].

---

(١) الذي يظهر -والله أعلم- أن الذي يؤتى كتابه بشماله هو الذي يأخذها من وراء ظهره وليسوا قسمين، وقوله: (أو) التي توهم الاختلاف غير ظاهر، فهو يؤتى كتابه بشماله وراء ظهره.

(٢) الظاهر أن المراد هو القول الأول أي: ما عمله من عمل يصير لازمًا له في عنقه.

(٣) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٠٥-٢٠٨).

والصراط الأخروي الذي هو الجسر الممدود على ظهر جهنم بين الجنة والنار[١] حق لا ريب فيه لورود خبر الصادق به، ومن استقام على صراط الله الذي هو دينه الحق في الدنيا استقام على هذا الصراط في الآخرة، وقد ورد في وصفه أنه: «**أدق من الشعرة، وأحد من السيف**»[٢]) اهـ[٣].

ثم هناك قنطرة بين الجنة والنار يوقف عليها المؤمنون الذين نجوا من المرور من الصراط لحقوق كانت بينهم في الدنيا، فالصحيح أن الصراط هو الجسر المضروب على جهنم، وهو كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دحض مزلة**»[٤]؛ أي: تدحض الأقدام وتزل فيه.

ويمر الناس عليه بأعمالهم؛ منهم مَن يمر كالبرق، ومنهم مَن يمر كلمح البصر، ومنهم مَن يمر كالركاب أي كالإبل، ومنهم كَعَدْو الرجال، ومنهم مَن يمشي، ومنهم من يخطو خطوة وتصفعه النار خطوة، ومنهم المخدوش في نار جهنم.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهمَّ سلِّم.. سلِّم**» قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «**دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسَلّم، ومكدوس في نار جهنم**»[٥].

---

(١) قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «بين الجنة والنار» فهو ليس مصرحًا به في الحديث وإنما هو مضروب على ظهر جهنم، ومن نجا منه نجا من النار.

(٢) قال أبو سعيد الخدري: «بلغني أن الجسر أدق من الشعر، وأحد من السيف». مسلم (١٨٣).

(٣) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢١٢) ط. دار الهجرة.

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧١٢٠)، ومسلم (٣٠٢)، وأصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) رواه مسلم (٣٠١) كتاب الإيمان من حديث أبي سعيد الخدري.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (قوله: «**وأول من يستفتح باب الجنة محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...»؛ يعني: أول من يحرك حِلَقَها طالبًا أن يفتح له بابها؛ كما قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة، فأدخلها ويدخلها معي فقراء أمتي**»[(١)].

يعني: بعد دخول الرسل والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يكون فقراء هذه الأمة أول الناس دخولًا الجنة.

وأما قوله: «**وله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في القيامة ثلاث شفاعات**»؛ فأصل الشفاعة من قولنا: شفع كذا بكذا إذا ضمه إليه، وسمي الشافع شافعًا؛ لأنه يضم طلبه ورجاءه إلى طلب المشفوع له.

والشفاعة من الأمور التي ثبتت بالكتاب والسنة، وأحاديثها متواترة؛ قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]؛ فنَفْيُ الشفاعة بلا إذن إثبات للشفاعة من بعد الإذن.

قال تعالى عن الملائكة: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

فبيَّن الله الشفاعة الصحيحة، وهي التي تكون بإذنه، ولمن يرتضي قوله وعمله.

وأمَّا ما يتمسك به الخوارج والمعتزلة في نفي الشفاعة من مثل قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:١٢٣]، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء:١٠٠]... إلخ؛ فإن الشفاعة المنفية هنا هي الشفاعة في أهل

---

(١) الحديث له شواهد صحيحة من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. رواه الترمذي (٣٦١٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» إلا قوله: «**فأدخلها ويدخلها معي فقراء أمتي**».

الشرك، وكذلك الشفاعة الشركية التي يثبتها المشركون لأصنامهم، ويثبتها النصارى للمسيح والرهبان، وهي التي تكون بغير إذن الله ورضاه.

وأما قوله: «**أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف حتى يقضى بينهم**»؛ فهذه هي الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود الذي يغبطه به النبيون، والذي وعده الله أن يبعثه إياه بقوله: ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا**﴾ [الإسراء:٧٩]؛ يعني: يحمده عليه أهل الموقف جميعًا.

وقد أمرنا نبيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سمعنا النداء أن نقول بعد الصلاة عليه: «**اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودا الذي وعدته**»[(١)].

وأما قوله: «**وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة**»؛ يعني: أنهم -وقد استحقوا دخول الجنة- لا يؤذن لهم بدخولها إلا بعد شفاعته.

وأما قوله: «**وهاتان الشفاعتان خاصتان له**»؛ يعني: الشفاعة في أهل الموقف، والشفاعة في أهل الجنة أن يدخلوها.

وتنضم إليهما ثالثة: وهي شفاعته في تخفيف العذاب عن بعض المشركين؛ كما في شفاعته لعمه أبي طالب، فيكون في ضحضاح من نار؛ كما ورد بذلك الحديث.

وأما قوله: «**وأما الشفاعة الثالثة؛ فيشفع فيمن استحق النار...**» إلخ؛ وهذه هي الشفاعة التي ينكرها الخوارج والمعتزلة؛ فإن مذهبهم أن من استحق النار؛ لابدَّ أن يدخلها، ومن دخلها؛ لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغيرها، والأحاديث المستفيضة المتواترة ترد على زعمهم وتبطله) اهـ[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٥٧٩) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢١٤-٢١٨) ط. دار الهجرة.

بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشفاعة الصحيحة وهي لا تكون إلا بإذنه سبحانه، ولمن يرتضي قوله وعمله، **وشروطها: أولًا**: أن تكون بعد الإذن لمن أذن الله أن يشفع، وأولهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم الأنبياء يشفعون، والمؤمنون يشفعون، والملائكة تشفع في خروج عصاة الموحدين من النار، **والشرط الثاني**: الإذن فيمن يُشْفَعُ فيه، **والثالث** وهو أهل التوحيد فلا يُشْفَعُ في كافر أن ينجو من النار، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...** ﴾ [النساء:٤٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ** ﴾ [المدثر:٤٨] فهذه شروط الشفاعة الشرعية وهي ملك لله عَزَّوَجَلَّ، وحقيقتها أن الله هو الذي يغفر لأهل التوحيد والإخلاص عن طريق دعاء الشافع ليريهم منزلته.

- والشفاعة الباطلة المنفية هي الشفاعة الشركية التي يثبتها المشركون لمعبوداتهم الباطلة، أو فقدت شرطًا من شروط الشفاعة، مثل: أن يثبتها أحد أنها مملوكة للشافع من دون الله، أو يثبتها فيمن لم يأذن الله أن يشفع فيه، كما يشبهها أهل الشفاعة الشركية بشفاعة الوزراء عند الملوك، فيمن غضب عليهم الملوك وفيمن لا يرضى أن يُشْفَعَ فيه، ولكن لحاجتهم للشافعين أنهم من أركان ملكه فيضطر إلى قبول شفاعتهم مراعاةً لهم ولمصلحته التي عندهم، فهذه شفاعة شركية باطلة، لكن الله عَزَّوَجَلَّ له الشفاعة جميعًا.

- وذكر شيخ الإسلام الشفاعة الثالثة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذه في الحقيقة نوعان؛ منها الشفاعة فيمن استحق دخول النار قبل أن يدخلها، والذي يظهر أنها الشفاعة على الصراط كما في الحديث: «**ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون: اللهم سلِّم سلِّم...**»(١).

فلا يتكلم حينئذٍ إلا الرسل، وهذا يدل على أن الشفاعة على الصراط هي خاصة بالرسل، وهي فيمن استحق دخول النار ألَّا يدخلها.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

وأما النوع الثاني من هذه الشفاعة -ويمكن أن نسميها نوعًا رابعًا-: فهي الشفاعة في خروج عصاة الموحدين من النار الذين دخلوها فعلًا، وهذه للرسل والأنبياء والملائكة والمؤمنين، فإن المؤمنين يشفعون في إخوانهم عصاة الموحدين الذين في النار، يقولون: «**ربنا كانوا يصلون معنا، ويصومون، ويحجون، فيقول الله: أخرجوا من قد عرفتم، فيخرج الله صورهم على النار فيخرجون خلقًا كثيرًا...**»[(١)].

وكما في حديث أبي هريرة قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيخرجونهم، ويعرفونهم بآثار السجود، فيخرجون من النار، فكل ابن آدم تأكله النار إلَّا أثر السجود؛ فيخرجون من النار...**»[(٢)].

وهناك شفاعات أخرى: منها الشفاعة في رفع الدرجات، قال الله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ** ﴾ [الطور:٢١]؛ فهذه رفع درجات الأدنى إلى الأعلى كما في الأثر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل ليَقَرَّ بهم عينه ثم قرأ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ** ﴾ [الطور:٢١]»[(٣)].

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المؤمن إذا أُدْخل الجنة سأل عن أبيه، وابنه، وأخيه، أين هم؟ فيُقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل، فيقول: إني إنما عملت لي ولهم، فَيُلْحَقون

---

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدم. سبق تخريجه.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري برقم (٧٠٤٠)، ومسلم برقم (٥٤٠٤)، وأصحاب السنن.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، وذكره ابن كثير (٤/ ١٧٧١) ط. ابن حزم، والبيهقي (١٠/ ٢٦٨)، وأخرجه الطحاوي في المشكل (٣/ ١٠٧)، وذكره ابن جرير في تفسير الآية (٢١/ ٢٧٩).

به في الدرجة ثم تلا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَـلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [غافر:٨]»[١].

وهذا النوع من الشفاعة في رفع الدرجات يُقِرُّ بها حتى أهل البدع.

❁ ❁ ❁

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٦٣٦) ط. ابن حزم.

تفاصيل ما تتضمنه الدار الآخرة مذكور في الكتاب والسنة

وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب، والثواب والعقاب، والجنة والنار، وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء، والآثار من العلم المأثور عن الأنبياء، وفي العلم الموروث عن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك ما يشفي ويكفي، فمن ابتغاه وجده.

أصل الجزاء على الأعمال معلوم بالعقل والسمع معًا، وهذا توسط بين المعتزلة، وبين الأشاعرة الذين ينكرون دلالة العقل على أيٍّ من أركان الإيمان في مثل هذا المقام. والصحيح أن العقل يدل على ثبوت الجزاء، ولكن لا يحاسب العباد إلَّا بعد بلوغ دعوة الرسل.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على كلام شيخ الإسلام: (وأما قوله: «وأصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب...» إلخ؛ فاعلم أن أصل الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل كما هو ثابت بالسمع، وقد نبَّه الله العقول إلى ذلك في مواضع كثيرة من كتابه؛ مثل قوله تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴾ [المؤمنون:١١٥]، ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى** ﴾ [القيامة:٣٦].

فإنه لا يليق في حكمة الحكيم أن يترك الناس سُدًى مُهْمَلين، ولا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؛ كما لا يليق بعدله وحكمته أن يسوي بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر؛ كما قال تعالى: ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص:٢٨].

فإن العقول الصحيحة تأبى ذلك وتنكره أشد الإنكار، وكذلك نبههم الله على ذلك بما أوقعه من أيامه في الدنيا من إكرام الطائعين، وخذلان الطاغين.

وأما تفاصيل الأجزية ومقاديرها؛ فلا يدرك إلا بالسمع والنقول الصحيحة عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله[١].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢١٨-٢١٩) ط. دار الهجرة.

الإيمان بالقدر وبيان ما يتضمنه

وتؤمن الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره، والإيمان بالقَدَر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين؛ فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى عليم بالخلق، وهم عاملون بعلمه القديم، الذي هو موصوف به أزلًا وأبدًا، وعَلِمَ جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق، فأول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام، وطويت الصحف؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠]، وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]. وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملةً وتفصيلًا؛ فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء. وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه؛ بعث إليه ملكًا، فيؤمر بأربع كلمات، فيقال له: اكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد. ونحو ذلك، فهذا التقدير قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا، ومنكره اليوم قليل...

الإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان، ومردُّه إلى الإيمان بأسماء الله وصفاته، وما ذكره شيخ الإسلام هنا من اعتقاد أهل السنة والجماعة في القدر والإيمان به يتضمن درجتين، وكل درجة تتضمن شيئين.

وهاتان الدرجتان: **الإيمان بعلم الله** عَزَّوَجَلَّ، **وكتابة المقادير**؛ فإن العلم الأول السابق على وجود الخلق يجب الإيمان به؛ فإنه عَزَّوَجَلَّ علم كل شي سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا

يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩]؛ وهذه الآية الكريمة تتضمن الإيمان بالعلم والكتابة.

واستدل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه بقوله تعالى: ﴿**أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ**﴾ [الحج:٧٠]؛فذكر العلم وذكر الكتاب.

وهذا العلم السابق على وجود المخلوقات لا يعذب الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ العباد عليه ولا بمقتضاه، وإنما أخبرنا بذلك سبحانه لنعلم سعة علمه عَزَّوَجَلَّ وضعف علم البشر وعجزهم وفقرهم، وأن علم الخلائق إلى علم الله عَزَّوَجَلَّ كما قال الخضر لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال: «**يا موسى! ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر**»[1]، بل وأقل من ذلك.

والعبد إذا استحضر علم الله عَزَّوَجَلَّ، عَلِمَ هو عجزه وضعفه وجهله فيقول صادقًا من قلبه: «**اللهم اغفر لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني...**»[2].

وكذلك ليعلم العباد أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أحاط بكل شيءٍ علمًا، وأن الأمر قد سبق منه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فيزدادون خوفًا ورجاءً لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ؛ لأنهم علموا أن الأمور قد سبقت بها المقادير، وكذلك إذا علموا أن الله كتب ذلك لم يدخل على أعمال العباد العجب ولا الغرور، بل يوقنون أنه سبحانه هو الذي وهب تلك الأعمال قبل وجودهم، ولا ينسبون ذلك لأنفسهم، ولذلك لا يفرحون فرح الغرور والبطر، كما في الآيات التي ذكرها شيخ

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

(٢) جزء من حديث متفق عليه، رواه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٩) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

والضمير في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ يعود على الأرض أو الأنفس أو المصيبة أو مجموع ذلك، والراجح كما ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «والأحسن عَوْدُه على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليها» اهـ[1].

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لِنعلم عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال سبحانه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣] فإذا علم العبد أن الأمر مُقدَّر قبل أن يولد، وعلمه الله وكتبه، فإنه لا يأسى على ما فاته أي: لا يحزن، ويرضى بما قسمه الله عَزَّوَجَلَّ له، ولا يفرح فرح البطر والغرور والكبر والإعجاب بالنفس وهذه كلها أمراض إبليس. فإن شهود العبد فضل الله الأول، ورجوعه إلى سبق فضل الله عَزَّوَجَلَّ يمحصه ويخلصه من دنس هذه الأمراض.

ثم وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض المراتب في كتابة المقادير فقال: **[اكتب في اللوح المحفوظ ما شاء]**، أي: كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**»[2]، ثم ذكر الكتاب عند نفخ الروح في الجنين، وهناك تقديرات قبل ذلك:

أولًا: منها التقدير يوم القبضتين؛ كما في الحديث قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا**

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٣) ط. ابن حزم.

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أبالي» فقال قائل: يا رسول الله! فعلى ماذا نعمل؟ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«على مواقع القدر»**، وفي رواية: «**أخذ قبضة بيمينه فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وأخذ قبضة بشماله وقال: هؤلاء في النار ولا أبالي»**[(١)].

ثانيًا: ومنها التقدير قبل خلق آدم بهبوط الإنسان على ظهر الأرض، كما في حديث احتجاج آدم وموسى عند أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احتج آدم وموسى** عَلَيْهِمَا السَّلَامُ **عند ربهما فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض** -في لفظة قال: «**يا آدم أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة...**»- **فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله: برسالته، وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقرَّبك نجيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ الله كتب التوراة قبل أن أُخلق؟ قال موسى: بأربعين عامًا، قال آدم: فهل وجدت فيها: وعصى آدم ربه فغوى؟ قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملت عملًا كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟!**» قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فحج آدم موسى**»[(٢)].

وهذا -عند النظر- احتجاج بالقدر على ذنب ترتبت عليه المصيبة، لكنه قد تاب من الذنب، والمصيبة لا قدرة له على دفعها، وقد فعل ما يجب عليه من التوبة، فهنا يصح الاحتجاج بالقدر؛ لأن القدر يُحتج به في المصائب لا في المعائب، والذنب بعد التوبة أصبح مصيبة وليس عيبًا؛ لأنه تاب ورجع إلى الله، فهو بمنزلة المصيبة، فأما قبل التوبة فلا يزال في المعائب فلا يحتج عليه بالقدر.

فهذا الحديث فيه التقدير بنزول الإنسان إلى الأرض قبل خلق آدم بأربعين سنة.

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ١٨٦)، وابن حبان في صحيحه (١٨٠٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٠) من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ثالثًا: ومنها الكتابة والإنسان جنين في بطن أمه، والصحيح أنها كتابتان؛ واحدة عند مرور اثنتين وأربعين ليلة، كما في الحديث عن حذيفة بن أَسِيد قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها مَلَكًا فصوَّرها، وخلق سمعها، وبصرها، وجلدها، ولحمها، وعظامها، ثم قال: يا ربِّ أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا ربِّ أجله فيقول: ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا ربِّ رزقه فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص**»[1].

وهناك كتابة ثانية والإنسان جنين في بطن أمه عند نفخ الروح فيه إذا بلغ مائة وعشرين يومًا، كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حدثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الصادق المصدوق «**إن أحدكم يُجمَع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه المَلَك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد، فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[2].

وهذا الحديث عند التأمل فيه يَعْظُم الخوف من مكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وأيضًا لا يقنط أحد من رحمة الله، وكذلك فإن الإنسان لا يُنزِل الناس ما ليس له أن ينزلهم، فإن المنازل في الآخرة بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٥).

(٢) رواه البخاري (رقم ٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

رابعًا: ومنها الكتابة السنوية في ليلة القدر؛ وهي المتعلقة بما يجري في السنة قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقضي فيها أمر السنة كلها: من يموت ومن يولد، ومن يعز ومن يذل، وسائر أمور السنة»(١).

خامسًا: ومنها التقدير اليومي، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، عن أبي الدرداء عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ قال: «**مِنْ شأنه أن يغفرَ ذنبًا، ويفرجَ كربًا، ويرفعَ أقوامًا، ويضع آخرين**»(٢).

- وهذه التقديرات كلها تابعة للتقدير الأول، وكلها تابعة لعلم الله عَزَّوَجَلَّ.

بوَّب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب القدر قال: «باب جف القلم على علم الله وأضله الله على علم»

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (والإيمان بالقدر خيره وشره من الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أحد الأركان الستة التي يدور عليها فلك الإيمان؛ كما دلَّ عليه حديث جبريل وغيره، وكما دلَّت عليه الآيات الصريحة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وقد ذكر المؤلف -أي: شيخ الإسلام- هنا أن الإيمان بالقدر على درجتين، وأن كلا منهما تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بعلمه القديم(٣) المحيط بجميع الأشياء، وأنه تعالى علم بهذا العلم القديم الموصوف به أزلًا وأبدًا كل ما سيعمله الخلق فيما لا يزال، وعلم به

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٢٢١).

(٢) **حديث حسن:** رواه ابن حبان في صحيحه حديث (٦٩٥)، وابن ماجه (١٦٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

(٣) الأَوْلى أن يُقال (علمه الأول) بدلًا من لفظ القديم.

جميع أحوالهم من: الطاعات، والمعاصي، والأرزاق، والآجال. فكل ما يوجد من أعيان وأوصاف ويقع من أفعال وأحداث فهو مطابق لما علمه الله عَزَّوَجَلَّ أزلًا.

ثانيًا: أن الله كتب ذلك كله وسجله[١] في اللوح المحفوظ، فما علم الله كونه ووقوعه من مقادير الخلائق، وأصناف الموجودات، وما يتبع ذلك من الأحوال والأوصاف والأفعال، ودقيق الأمور وجليلها قد أمر القلم بكتابته؛ كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»[٢].

وكما قال في الحديث الذي ذكره المؤلف: «**إن أول ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**»[٣].

و«**أول**» هنا بالنصب على الظرفية، والعامل فيه «**قال**»؛ أي: قال له ذلك أول ما خلقه، وقد روي بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره القلم، ولهذا اختلف العلماء في العرش والقلم؛ أيهما خَلَقَ أولا[٤] وحكى العلامة ابن القيم القولين واختار أن العرش مخلوق قبل القلم، قال في النونية:

والناس مختلفون في القلم الذي ... كتب القضاء به من الديان

---

(١) كلمة «سجله» لم ترد في حديث صحيح.

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي (٢١٥٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي»، و«السلسلة الصحيحة» (١٣٣)، و«شرح الطحاوية» من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) الذي لا شكَّ فيه أن الصحيح رواية الرفع؛ لأن (إن) لا تدخل على الجملة الفعلية وإنما تدخل على الجملة الاسمية والذي في نص متن الواسطية: «**أول ما خلق الله القلم**»، وأما رواية: «**إن أول ما خلق الله القلم**» صريحة في أنها جملة اسمية، وأنها منصوبة على أنها اسم (إن) وليس كما ذكره الشارح موافقًا لشيخ الإسلام لكن الصحيح أن أول المخلوقات القلم لصحة الحديث برواية: «**إن أول ما خلق الله القلم**» [صحيح رواه أبو داود (٤٧٠٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي»، والسلسلة الصحيحة (١٣٣)، وشرح الطحاوية (ص٢٦٤)].

هل كان قبل العرش أو هو بعده ... قولان عند أبي العلا الهمداني

والحق أن العرش قبل لأنه ... وقت الكتابة كان ذا أركان

وكتابة القلم الشريف تعقبت ... إيجاده من غير فصل زمان[(١)]

وإذا كان القلم قد جرى بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة بكل ما يقع من كائنات وأحداث؛ فهو مطابق لما كتب فيه، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ كما جاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره، وهذا التقدير التابع للعلم القديم تارة يكون جملة؛ كما في اللوح المحفوظ؛ فإن فيه مقادير كل شيء، ويكون في مواضع تفصيلًا يخص كل فرد؛ كما في الكلمات الأربع التي يؤمر الملك بكتابتها عند نفخ الروح في الجنين؛ يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد.

فهذا تقدير خاص، وهذا التقدير السابق على وجود الأشياء قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا؛ مثل: معبد الجهني[(٢)]، وغيلان الدمشقي[(٣)]، وكانوا يقولون: إن الأمر أُنُف[(٤)].

ثم إن اختلاف أهل السنة في أي المخلوقات خُلِقَ أولًا العرش أو القلم أو الماء يدل على اتفاقهم على أن هناك أول مخلوق، ورواية: «**إن أول ما خلق الله القلم**» نص في المسألة وهو ظاهر جدًّا.

(١) هذا الكلام فيه نظر -والله أعلم-؛ لأن الحديث ذُكر فيه: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»، والواو لا تفيد الترتيب ولا يلزم وقت الكتابة أن يكون العرش موجودًا، والصحيح أن القلم هو أول مخلوق، والعطف هنا لا يقتضي الترتيب؛ بل مطلق العطف.

(٢) هو معبد بن عبد الله بن عليم الجهني البصري، أول من قال بالقدر، نهى الحسن عن مجالسته، وقال: «هو ضال مضل»، قتله الحجاج سنة (٨٠هـ) ، وقيل: صلبه عبد الملك بن مروان. «الأعلام» للزركلي (٧/ ٢٦٤).

(٣) هو غيلان بن مسلم بن أبي غيلان، أبو مروان الدمشقي، كاتب بليغ، ثاني من تكلم في القدر، أخذه عن معبد الجهني، صلبه هشام بن عبد الملك بدمشق بعد عام (١٠٥هـ). «الأعلام» للزركلي (٥/ ١٢٤).

(٤) أي جديد وغير مقدر.

ومنكر هذه الدرجة من القدر كافر؛ لأنه أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع) اهـ[١].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٢٠-٢٢٤).

الإيمان بمشيئة الله النافذة

وهي المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر

وأما الدرجة الثانية: فهي مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنه سبحانه على كل شيء قدير، من الموجودات والمعدومات، ما من مخلوق في الأرض، ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره، ولا رب سواه. ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته. وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد.

هذه هي المرتبة الثالثة إذا أعددنا مرتبة الإيمان بالعلم الأُولى، ومرتبة الإيمان بالكتابة المرتبة الثانية، **فالمرتبة الثالثة الإيمان بمشيئة الله وقدرته الشاملة.**

وهاتان الصفتان من صفات الله عَزَّوَجَلَّ وهما صفة الإرادة وصفة القدرة لابدَّ من الإيمان بهما، ولكن مع الإيمان بتلك الدرجة وإثباتها، لابدَّ من التنبيه أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أمر العباد بطاعته ونهاهم عن معصيته، والمعنى: أنه لابدَّ من الإيمان وإثبات الإرادة الكونية، ونثبت أيضًا الإرادة الشرعية.

- وهاتان الإرادتان لله عَزَّوَجَلَّ يلزم الإيمان بهما، ولا يجوز الإيمان بواحدة والكفر بالأخرى، بل يجب الإيمان بهما جميعًا.

– وإرادة الله الشرعية هي التي تقتضي محبته عَزَّوَجَلَّ، وقد توجد وقد لا توجد، وهي التي يكون بها الأمر بالطاعة وتشريع الشرائع.

– والإرادة الكونية هي التي تكون بكلمة (كن)، ولابدَّ من وقوعها ولا يلزم فيها المحبة.

– وإرادة الله الشرعية قد تجتمع مع إرادة الله الكونية وقد لا تجتمع، فهما يجتمعان في طاعة المطيع ويفترقان في معصية العاصي؛ وذلك أن طاعة المطيع أمر الله بها شرعًا، وهو عَزَّوَجَلَّ الذي أراد وجودها كونًا قبل أن تكون، وأما معصية العاصي فإن الله نهى عن ذلك شرعًا ولم يأمر به ولم يُرِدْه شرعًا، ومع ذلك قدَّر وجودها كونًا لحكمة بالغة.

– فيجب في هذه المرتبة أن نثبت الإرادة الشرعية التي تتبع المحبة، ولذلك قال شيخ الإسلام: (**وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء** –أي بالأمر الشرعي– **ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد**).

– وهذا التنبيه؛ لأن كثيرًا من الناس يظنُّ أن الرضا والمحبة من الله عَزَّوَجَلَّ نابعان من الإرادة الكونية، كأنهم يزعمون أن الله أحب وجود الكفر من الكفار، وهذا باطل فإنه سبحانه لا يحب الكافرين ولا يحب الكفر، وإنما قدَّر وجوده كونًا ولم يأمر به شرعًا ولم يحبه.

ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدَّر على وجود ذلك الكفر الحِكَمَ والأمورَ المحبوبة له سبحانه، من جهاد المؤمنين للكفار، ومن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، ودعوتهم إلى الله، وبَذْل المؤمنين أنفسهم وأموالهم في سبيله، وكل هذه الأمور محبوبة له سبحانه، وقدر وجود الكفر من أجلها.

- لكن الله عَزَّوَجَلَّ لا يحب الكفر، ولا يحب الفساد، ولا يحب الكافرين والمفسدين وهو عَزَّوَجَلَّ أرسل إليهم رسلًا، وأنزل إليهم كتبًا، وأعطاهم عقولًا يدركون بها الخطأ من الصواب، فإذا اختاروا بعد ذلك طريق الفساد -وإن كان ذلك بقدرة الله- فإنهم لم يُظلموا.

والعباد فاعلون حقيقةً، والله خلق أفعالهم، والعبد هو: المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، والمصلي، والصائم.

هذه هي المرتبة الثانية في الدرجة الثانية **أو المرتبة الرابعة** في الإيمان بالقدر وهي **إثبات خلق أفعال العباد**، وأن العباد فاعلون حقيقة، وكلمة (**حقيقةً**) للرد على من يقول: إن العباد فاعلون مجازًا مثل الجبرية، والأشاعرة يوافقونهم في حقيقة الأمر إذ يثبتون إرادة للعباد لا أثر لها في الفعل، وقدرة لا أثر لها في فعل الإنسان.

- واعتقاد أهل السنة أن الفعل الإنساني فعل حقيقي؛ يقع بإرادة وقدرة للإنسان، وكل هذا مخلوق لله عَزَّوَجَلَّ، وهو سبحانه الذي قدَّر ذلك، وأراده، وجعلهم يفعلونه. وأما الفعل المجازي مثل: مات الرجل، سقطت الورقة، تزلزلت الأرض... هذه أفعال لم تقع بإرادة فاعليها.

- ولهذا أثبت شيخ الإسلام في كلامه أن العباد فاعلون حقيقة؛ لأن الله أثبت أعمالهم كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ**﴾ الآية [النحل:٣٢]، وقال: ﴿**جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ**﴾ الآية [السجدة:١٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ في أهل النار: ﴿... **بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ**﴾ الآية [الأعراف:٣٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ**﴾ الآية [النمل:٩٠].

فالله أثبت أفعال العباد، وجعلهم فاعلين لها، وما أثبته سبحانه فهو حق على حقيقته.

وهو عَزَّوَجَلَّ خالق أفعال العباد؛ لأنه خالق كل شيء، قال تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ** ﴾ [الصافات:٩٦]، وقال: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ**﴾ [القمر:٤٩] وهذه الآية سبب نزولها المخاصمة في القدر؛ روى أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر]»[1].

فالآية متعلقة بأفعال العباد؛ لأنه داخل فيها سبب نزولها بالقطع والأولى، فلا يمكن أن يكون سبب النزول خارجًا عن عمومها، لكن لا يعني ذلك أنهم ليست لهم إرادة، فلا تنافي بين إرادة الله عَزَّوَجَلَّ وخلقه لأفعال العباد، وبين إثبات أن الخلق فاعلون حقيقة بقدرةٍ ومشيئةٍ خلقها الله عَزَّوَجَلَّ لهم.

ولذلك قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**والعبد هو: المؤمن، والكافر**] فهذه صفة العبد، وأفعال تقوم به.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**والبر والفاجر والمصلي والصائم**] أي: هذا بَرٌّ، وهذا فاجرٌ، هذا مؤمن وهذا كافر، هذا مصلٍ صائم، والآخر زانٍ وشارب للخمر، فإنما استحقوا أسماء الفاعلين؛ لأن أفعالهم قامت بهم حقيقة.



(١) رواه مسلم (٢٦٥٦).

إثبات قدرة العباد وإرادتهم
وأنه لا منافاة بين ذلك وبين إثبات القدر

وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وقدرتهم وإرادتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير].

۞ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة**] وهذا بنص القرآن، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ...﴾ الآية [المائدة:٣٤].

۞ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**والله خالقهم وقدرتهم وإرادتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير]**].

في هذه الآية الكريمة قضية القدر واضحة تمام الوضوح؛ فأثبتت مشيئة العبد في الاستقامة، وأثبتت فعله وهو: الاستقامة، وأثبتت أن ذلك لا يكون إلا بمشيئة الرب سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (قوله: «**وأما الدرجة الثانية من القدر...إلخ**»؛ فهي تتضمن شيئين أيضًا:

أولهما: الإيمان بعموم مشيئته تعالى، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يقع في ملكه ما لا يريد، وأن أفعال العباد من الطاعات والمعاصي واقعة بتلك المشيئة العامة التي لا يخرج عنها كائن -سواء كان مما يحبه الله ويرضاه أم لا-.

وثانيهما: الإيمان بأن جميع الأشياء واقعة بقدرة الله تعالى، وأنها مخلوقة له؛ لا خالق لها سواه، لا فرق في ذلك بين أفعال العباد وغيرها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

ويجب الإيمان بالأمر الشرعي، وأن الله تعالى كَلَّف العباد، فأمرهم بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته.

ولا منافاة أصلًا بين ما ثبت من عموم مشيئته سبحانه لجميع الأشياء، وبين تكليفه العباد بما شاء من أمر ونهي؛ فإن تلك المشيئة لا تنافي حرية العبد[1] واختياره للفعل، ولهذا جمع الله بين المشيئتين بقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير].

كما أنه لا تلازم بين تلك المشيئة وبين الأمر الشرعي المتعلق بما يحبه الله ويرضاه، فقد يشاء الله ما لا يحبه، ويحب ما لا يشاء كونه:

فالأول: كمشيئته وجود إبليس وجنوده.

والثاني: كمحبة إيمان الكفار، وطاعات الفجار، وعدل الظالمين، وتوبة الفاسقين، ولو شاء ذلك لوجد كله؛ فإنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وكذلك لا منافاة بين عموم خلقه تعالى لجميع الأشياء، وبين كون العبد فاعلًا لفعله؛ فالعبد هو الذي يوصف بفعله، فهو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم، والله خالقه، وخالق فعله؛ لأنه هو الذي خلق فيه القدرة والإرادة اللتين بهما يفعل.

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي -غفر الله له وأجزل مثوبته-:

---

(١) كلمة حرية فيها نظر، وذلك لأن العبد له قدرة واختيار ولكن ليس حرًّا بإطلاق؛ إنما هو عبدٌ مخلوقٌ مملوكٌ وحريته بلا شكَّ مقيدةٌ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير].

«إن العبد إذا صلى، وصام، وفعل الخير، أو عمل شيئا من المعاصي؛ كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح، وذلك العمل السيء وفعله المذكور بلا ريب؛ قد وقع باختياره، وهو يحس ضرورة أنه غير مجبور على الفعل أو الترك، وأنه لو شاء لم يفعل، وكان هذا هو الواقع؛ فهو الذي نصَّ الله عليه في كتابه، ونص عليه رسوله؛ حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلى العباد، وأخبر أنهم الفاعلون لها، وأنهم ممدوحون عليها -إن كانت صالحة- ومثابون، وملومون عليها -إن كانت سيئة- ومعاقبون عليها.

فقد تبيَّن بلا ريب أنها واقعة منهم باختيارهم، وأنهم إذا شاءوا فعلوا، وإذا شاءوا تركوا، وأن هذا الأمر ثابت: عقلًا، وحسًّا، وشرعًا، ومشاهدةً.

ومع ذلك؛ إذا أردت أن تعرف أنها وإن كانت كذلك واقعة منهم كيف تكون داخلة في القدر، وكيف تشملها المشيئة؟! فيقال: بأي شيء وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها؟ فيقال: بقدرتهم وإرادتهم؛ هذا يعترف به كل أحد. فيقال: ومن خلق قدرتهم وإرادتهم ومشيئتهم؟ فالجواب الذي يعترف به كل أحد أن الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم، والذي خلق ما به تقع الأفعال هو الخالق للأفعال.

فهذا هو الذي يحل الإشكال، ويتمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار.

ومع ذلك؛ فهو تعالى أمدَّ المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة، وصرف عنهم الموانع؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أما من كان من أهل السعادة؛ فَسَيُيَسَّر لعمل أهل السعادة»**[1].

---

(١) جزء من حديث متفق عليه، رواه البخاري (٤٩٤٨)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك خذل الفاسقين، ووكلهم إلى أنفسهم؛ لأنهم لم يؤمنوا به، ولم يتوكلوا عليه، فولاهم ما تولوا لأنفسهم) اهـ.

وخلاصة مذهب أهل السنة والجماعة في القدر وأفعال العباد ما دلَّت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن الله سبحانه هو الخالق لكل شيء من: الأعيان، والأوصاف، والأفعال، وغيرها، وأن مشيئته تعالى عامة شاملة لجميع الكائنات؛ فلا يقع منها شيء إلا بتلك المشيئة، وأن خلقه سبحانه الأشياء بمشيئته إنما يكون وفقًا لما علمه منها بعلمه القديم، ولما كتبه وقَدَّرَهُ في اللوح المحفوظ، وأن للعباد قدرةً وإرادةً تقع بها أفعالهم، وأنهم الفاعلون حقيقة لهذه الأفعال بمحض اختيارهم، وأنهم لهذا يستحقون عليها الجزاء: إما بالمدح والمثوبة، وإما بالذم والعقوبة، وأن نسبة هذه الأفعال إلى العباد فعلًا لا ينافي نسبتها إلى الله إيجادًا وخلقًا؛ لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التي وقعت بها» اهـ[1].

❁ ❁ ❁

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٢٥-٢٢٩) ط. دار الهجرة.

وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية، الذين سماهم النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: مجوس هذه الأمة، ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات، حتى سلبوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية»: (وضل في القدر طائفتان كما تقدم:

الطائفة الأولى: القدرية نفاة القدر، الذين هم مجوس هذه الأمة؛ كما ورد ذلك في بعض الأحاديث مرفوعًا وموقوفًا(١)، وهؤلاء ضلوا بالتفريط وإنكار القدر، وزعموا أنه لا يمكن الجمع بين ما هو ثابت بالضرورة من اختيار العبد في فعله ومسئوليته عنه، وبين ما دلَّت عليه النصوص من عموم خلقه تعالى ومشيئته؛ لأن ذلك العموم في زعمهم إبطال لمسئولية العبد عن فعله، وهدم للتكاليف، فرَجَّحوا جانب الأمر والنهي، وخصصوا النصوص الدالة على عموم الخلق والمشيئة بما عدا أفعال العباد، وأثبتوا أن العبد خالق لفعله بقدرته وإرادته، فأثبتوا خالقين غير الله، ولهذا سُمُّوا مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس يزعمون أن الشيطان يخلق الشر والأشياء المؤذية، فجعلوه خالقًا مع الله، فكذلك هؤلاء جعلوا العباد خالقين مع الله.

والطائفة الثانية: يقال لها: الجبرية، وهؤلاء غلوا في إثبات القدر، حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل حقيقة، بل هو في زعمهم لا حرية له، ولا اختيار، ولا فعل؛ كالريشة في مهب الرياح، وإنما تسند الأفعال إليه مجازًا، فيقال: صلى، وصام، وقتل، وسرق؛ كما يقال: طلعت الشمس، وجرت الريح، ونزل المطر، فاتهموا ربهم بالظلم وتكليف العباد

---

(١) من ذلك ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر عن رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا، فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**» حسَّنه الألباني بمجموع طرقه، في «الطحاوية» (ص٢٧٣)، و«السنة» لابن أبي عاصم (١/ ١٤٩).

بما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث في تكليف العباد، وأبطلوا الحكمة من الأمر والنهي، ألا ساء ما يحكمون) اهـ[1].

❁ ❁ ❁

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٢٩-٢٣٠) ط. دار الهجرة.

اعتقاد أهل السنة
في مسائل الإيمان والكفر

فصل

ومن أصول الفرقة الناجية أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح. وأن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وهم مع ذلك لا يكفّرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر؛ كما يفعله الخوارج؛ بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي؛ كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٧٨]، وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠]. ولا يسلبون الفاسق المِلِّي اسم الإيمان بالكلية، ولا يخلدونه في النار، كما تقول المعتزلة. بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان؛ كما في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]. وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن**»[(١)] ونقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق، ولا يسلب مطلق الاسم.

---

(١) سيأتي تخريجه.

في هذا الفصل فصَّل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدةَ مسائل وأصول مهمة، وهي أحد أهم الأصول والمسائل التي وقع فيها اختلاف بين أهل السنة وأهل البدع، بل هي أول مسائل الاعتقاد التي وقع فيها مفارقة أهل البدع لأهل السنة؛ إذ إن -تاريخيًّا- أول بدعة ظهرت في مسائل الاعتقاد هي بدعة الخوارج، ثم قابلتها بدعة المرجئة، ثم ظهرت بدع المعتزلة، وكلها متعلقة بمسائل الإيمان والدين.

والمسألة الأولى في هذا الفصل: أن الإيمان قول وعمل، وفصَّل ذلك شيخ الإسلام بأنه قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان الجوارح.

- وقول القلب: هو تصديقه ومعرفته ويقينه، وهي كلها ألفاظ قريبة من الترادف وإن كان بعضها أخصَّ من بعض في المعاني، لكن أصلها التصديق والعلم والمعرفة، وكلما عرف الإنسان شيئًا من أصول الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وصدَّق بذلك ازداد يقينًا فحصل عنده العلم -فكل ذلك من الإيمان.

- والتصديق من أصول الإيمان؛ إذ لا يقوم الإيمان بغير تصديق، ولو علم الإنسان شيئًا من القرآن أو سمع شيئًا من كلام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو علمه عنه بطريقٍ قطعيٍّ لزمه أن يصدق به إجمالًا، وأولَ ما يبلغه أمر التوحيد أنه لا إله إلا الله وخبر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزمه التصديق ونطق الشهادة، وبهذا يثبت له حكم الإسلام والإيمان الباطن، ثم يصدق تفصيلًا بما بلغه بعد ذلك من تفاصيل الدين والإيمان، وكل تفصيل بلغه بطريقٍ قطعيٍّ فهو كالمعلوم من الدين بالضرورة.

فإن لم يؤمن به نقض التصديق الأول، لكن إذا بلغه بما يحتمل تكذيبًا للناقل -ككذب الرواة مثلًا- فلا يكون كافرًا بذلك.

- وقول القلب أي: تصديقه، ومعرفته، ويقينه، وعلمه، فيه التفاوت بالنقص والزيادة من جهة الكمية؛ بحيث إن من علم شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ أكمل إيمانًا ممن لم يعلم ولم يصدق، أو اعتقد خلاف ما جاء به الرسول ﷺ نتيجة شبهة، فهو يعتقد خلافه لا تكذيبًا للرسول ﷺ ولا كفرًا به؛ ولكن يظنُّ أن الرسول لم يأت بهذا بل أتى بعكسه، فإن هذا ينقص إيمانه.

- وأيضًا فيه التفاوت بالنقص والزيادة من جهة الكيفية؛ فإن التصديق يزيد وينقص على الصحيح من أقوال العلماء، وهو أن التصديق يزيد بتظاهر الأدلة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ الآية [البقرة:٢٦٠] فدلَّ ذلك على وجود درجة الطمأنينة وهي أعلى درجات التصديق، فليس المُخبَر كالمعاين، فأراد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يصل إلى المعاينة التي هي فطرة البشر فيما جبله الله عَزَّوَجَلَّ، وطلبَ أعلى درجات اليقين والعلم.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ عن نبيه ﷺ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم:١٢]، وقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨] فدلَّ ذلك على كمال يقينه ﷺ لأنه رأى من آيات ربه الكبرى.

- فلو أن الإنسان أُخْبِرَ مِن أحد يصدقه وهو ثقة عنده بخبر، ثم جاء ثانٍ وثالثٍ ورابعٍ فلا شكَّ أنه يزداد تصديقًا عن تصديق الأول، ولم يكن مكذبًا للأول، ثم إذا شاهد بعينه أو لمسه بيده أو باشره بأي من حواسه ازداد تصديقًا مما كان عليه، وازداد يقينًا.

- وأصل التصديق أن يعلم العبد أن لا إله إلا الله، وبدون ذلك لا يثبت أصل الإيمان قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ الآية [محمد:١٩] فمن لم يعلم أنه لا إله إلا الله لم يكن مؤمنًا، كذلك إذا بلغته «محمد رسول الله» لزمه أن يؤمن بها، وإذا بلغه عن كل رسول لزمه الإيمان به، وإذا بلغه الإيمان بالملائكة

لزمه ذلك، وكذلك الكتب، وكذلك الإيمان باليوم الآخر وتفاصيله، وكذلك القدر، وهكذا في كل أصول الإيمان -كما قدَّمنا- إذا بلغه فلم يصدقه فهو ينقض تصديقه الأول بلا إله إلا الله ما دام أنه بلغه بطريقٍ قطعيٍّ.

- **أما قول اللسان:** فهو نطق الشهادة، وخُصَّ بذلك مع أنه في الحقيقة عمل؛ لأن له حكم خاص، وهذا متفق عليه عند أهل السنة؛ أن من أبى أن ينطق بلا إله إلا الله لا يكون مسلمًا في الظاهر ولا في الباطن -حتى ولو كان مصدقًا في باطنه- ولا يثبت له حكم الإسلام في الدنيا ولا في الآخرة إلا بنطقها ما دام قدر على ذلك.

- وإنما يُقبَل غيرها مما يدلُّ عليها إذا كان عاجزًا عنها كالكناية، أو كمن قال: صبأنا يقصد عبدنا الله وحده كما في واقعة بني جذيمة: روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «**بعث النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجلٍ منَّا أسيره، حتى إذا كان يومٌ أمر خالد أن يقتل كل رجل منَّا أسيره فقلت: «والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره»، حتى قدمنا على النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **فذكرناه فرفع النبي** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يده فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» مرتين**»[(١)].

فدلَّ ذلك على أن الكناية مع النية لمن لا يحسن شهادة أن لا إله إلا الله تجزئ عنها حتى يحسنها فيجب عليه أن يقولها.

وأما من أبى أن يقول لا إله إلا الله فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ الآية [الصافات:٣٥] فكان ذلك من أسباب كفرهم، كما أن أبا طالب عم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يعلم في نفسه صدق الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأن لا إله إلا الله،

---

(١) رواه البخاري (٤٣٣٩).

لكن لما أبى أن يقولها ظلَّ على حكم الكفر وهو مخلد في النار كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحيحة.

- وقول اللسان يتصور فيه الزيادة والنقصان من جهة معرفة الرسل -صلوات الله عليهم جميعًا- فأصل الإيمان يثبت بلا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله أكملُ إيمانًا ممن لم يبلغه خبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يؤمن به، ولم ينطق بلسانه الشهادة له بالرسالة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- **أما عمل القلب:** فهو سائر عبادات القلب وأحواله الإيمانية التي هي روح الإيمان وحقيقته من: الحب، والخوف، والرجاء، والإخلاص، والصبر، والتوكل، والزهد في الدنيا، والشكر لنعمة الله، وغيرها، ولاشكَّ أن التفاوت فيها أظهر من أن نستدل عليه قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ...﴾ [البقرة:١٦٥].

دلَّ ذلك على أن الحب يزيد ويشتد، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

والأدلة من الكتاب والسنة على وجوب الخوف والحب والرجاء وعلى سائر عبادات القلب ظاهرة جدًّا وأكثر من أن تُحصى.

- **وأما عمل اللسان:** فهو مثل: التسبيح، والتحميد، والتكبير، وقراءة القرآن، والذكر، والدعاء، والبسملة، والاستعاذة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

- **وعمل الجوارح:** هو كل عبادة تكون بجارحة من جوارح الإنسان أمره الله عَزَّوَجَلَّ بها: كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والجهاد، وغيرها.

المسألة الثانية: أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية -كما قدَّمنا- في حدوث الزيادة والنقصان في التصديق كمًّا وكيفًا، وزيادة قول اللسان، وزيادة عمل القلب. وأما عمل اللسان والجوارح فلا نزاع عند من أثبت أن الإيمان قول وعمل في وجود الزيادة والنقصان؛ لأنه أمر ضروري يعرفه كل أحد، وهو ظاهرٌ فيه التفاوت، فإنه كلما ازداد الإنسان طاعةً ازداد إيمانًا، وكلما عمل معصيةً نقص إيمانه، وقد سمى الله عَزَّوَجَلَّ الصلاة إيمانًا، وسمى أداء الخمس إيمانًا، وسمى صيام رمضان إيمانًا، وقيامه إيمانًا، وصرَّح القرآن بالزيادة في أكثر من موضع قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ...﴾ الآية [الفتح:٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الآية [التوبة:١٢٤].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا ...﴾ الآية [المدثر:٣١] وما احتمل الزيادة احتمل النقصان، وصرح النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بنقصان الدين فقال: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكن**» الحديث[١].

المسألة الثالثة: أن أهل السنة لا يكفرون أحدًا من أهل القبلة، ومعنى أهل القبلة أي: الذين يرون وجوب الصلاة إلى القبلة، وهو كل من ثبت له حكم الإسلام بنطق الشهادتين، وهذا في الحكم الظاهر، وأما الحكم الباطن فهو عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما المعاملة بالإسلام والحكم بأنه من أهل القبلة تكون على الظاهر لكل من نطق الشهادتين ما لم تثبت عليه ردة.

وأما في الباطن فيعتقدون أيضًا أن من نطق الشهادتين واعتقد دين الإسلام الذي يشمل التصديق، ويشمل العمل القلبي اعتقادًا جازمًا، فلا يكفرونه بمطلق المعاصي والكبائر ولو أصرَّ عليها.

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٤٦٢)، ومسلم (٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

- والنزاع من الخوارج إنما هو في المُصِرِّ وليس التائب؛ فإن الخوارج يثبتون إسلام من تاب، ولكن أهل السنة يرون أن الذنوب على قسمين كما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ...﴾ الآية [النساء:٤٨] فالآية بينت أن الشرك لا يغفر لمن مات عليه، وأما من من تاب فيقبل الله توبته، وأنه ﴿ **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ...﴾ الآية [النساء:٤٨].

أي: لمن مات على ذلك؛ لأن الشرك إذا غُفِر لمن تاب فإن ما دون الشرك أولى بالمغفرة، فدلَّ ذلك على أن الآية إنما هي فيمن مات مصرًّا على ما دون الشرك، ولابدَّ من التصديق لما جاء في القرآن.

- ومن الأدلة الضرورية على ذلك: أن حكم الزاني، والسارق، وشارب الخمر يختلف عن المشرك؛ إذ هؤلاء يُقام عليهم الحدود الشرعية، ولا يكونون مرتدين، وأحاديث الشفاعة متواترة تدلُّ على خروج عصاة الموحدين من النار، وهذه أحكام المصرِّ على الكبائر وقد مات بغير توبة؛ أنهم لا يكفرون في الدنيا، ولا يخلدون في النار في الآخرة.

- واستدل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي في قوله تعالى في القاتل عمدًا: ﴿ **فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ** ...﴾ الآية [البقرة:١٧٨].

فجاز أداء الدية في القتل عمدًا إذا عفا الولي عن القصاص، والقصاص لا يكون إلا في القتل العمد فدلَّ ذلك على أن الأخوة الإيمانية باقية رغم وجود ذنب من أكبر الكبائر وهو قتل النفس المؤمنة بغير حق، وقال الله عَزَّوَجَلَّ في الطائفة الباغية: ﴿ **وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ** ﴾ [الحجرات].

فأثبت وجود الإيمان رغم وجود القتال الذي قال عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[(١)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض...**»[(٢)].

فدلَّ ذلك على أن الكفر هنا هو كفر دون كفر، فهو كفر لا يخرج من الملة.

۞ وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: [**ولا يسلبون الفاسق الملي**] أي: المنتسب إلى ملة الإسلام، بخلاف الفاسق الكافر الخارج عن الملة مثل إبليس، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ الآية [الكهف:٥٠].

- وكل خارج عن الدين فهو فاسق، لكن الاصطلاح خصَّ الفاسق بالفاسق الملِّي فإذا قيل فاسق وأطلق، ولم يطلق الكفر، فهو الفاسق الملِّي المنتسب إلى الملة ولم يخرج منها؛ لأنه لم يرتكب كفرًا بل ارتكب كبيرة، أو أصرَّ على صغيرة حتى حُكِمَ بفسقه، فهو مسلم فاسق، ويقال عنه أيضًا: مؤمن فاسق، ولا يخلدونه في النار، بل عنده من الإيمان ما ينجو به من الخلود في النار، لكن المعتزلة يقولون: إن الفاسق الملي مرتكب الكبيرة في منزلة بين منزلتين، فليس مؤمنًا وليس كافرًا، بل في منزلة بينهما هذا في أحكام الدنيا، وفي أحكام الآخرة يقولون إنه مخلد في النار وليس عنده أصل الإيمان.

۞ وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [**بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق**].

كلمة المطلق في اصطلاح شيخ الإسلام تعني غالبًا الكامل، لكن قد يستعمله في غير ذلك كما استعمله هنا، وهو هنا أتى بكلمة المطلق كوصف لكلمة (اسم) وليس (للإيمان) والمعنى أي: يدخل في مطلق اسم الإيمان أي: في عمومه، مثل قوله تعالى:

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النساء:٩٢] أي: ولو كان فاسقًا، فلو كان العبد فاسقًا جاز إعتاقه وأجزأ.

وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق هنا على اصطلاح الإيمان الكامل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا...﴾ الآية [الأنفال].

فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ...﴾ الآية؛ هذا القصر يدل على أنه الإيمان الكامل، ولا شكَّ أن الفاسق ليس مؤمنًا حقًّا، بل مؤمن ناقص الإيمان.

❁ قال: [**قوله** ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...**»[1] **الحديث**]؛ أي: خرج من الإيمان وبقي عليه اسم الإسلام؛ فهو مسلم ليس بمؤمن من الإيمان الكامل الواجب، ولذلك قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**ونقول هو مؤمن ناقص الإيمان**] فهذا تعبير لابدَّ منه، فليس مؤمنًا بإطلاق أي: بلا قيد.

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**فلا يعطى الاسم المطلق**] أي: اسم الإيمان المطلق الكامل الخالي من القيود الذي يقتضي الكمال الواجب أو المستحب، ولكن لابدَّ من القيد.

❁ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**ولا يسلب مطلق الاسم**] أي: لا يسلب أصله.

مسألة:

أعمال الجوارح داخلة في مسمى الإيمان باتفاق أهل السنة، ولكن هل يزول الإيمان بالكلية بزوالها أو زوال شيء منها؟

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧، ١٠٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أعمال الجوارح على قسمين: قسم فيه اتفاق عند أهل السنة أنه لا يزول الإيمان بزوالها، بل ينقص بترك الواجب منها، وهي ما سوى الأركان الأربعة، وبلا نزاع بين أهل العلم أن من ترك شيئًا منها -الترك المجرد- لم يكفر. وقسم آخر وهو المباني الأربعة: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وهذا فيه خلاف بين أهل العلم من أهل السنة فمِنهم مَن يُكفِّر تارك الصلاة فقط، ومنهم مَن يُكفِّر تارك الصلاة والزكاة، ومنهم مَن يُكفِّر تارك الزكاة إذا قاتل عليها الإمام.

والصحيح -وهو قول جمهور العلماء- أن ترك المباني الأربعة تكاسلًا من أكبر الظلم والفسق، لكن لا يخرج صاحبه من الملة وذلك لأدلة خروج عصاة الموحدين من النار، وهو كفر دون كفر، لكن المسألة خلافية عند أهل السنة.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (سبق أن ذكرنا في مسألة الأسماء والأحكام أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، وأن هذه الثلاثة داخلة في مسمى الإيمان المطلق.

فالإيمان المطلق يدخل فيه جميع الدين: ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، فلا يستحق اسم الإيمان المطلق إلا من جمع ذلك كله ولم ينقص منه شيئًا.

ولما كانت الأعمال والأقوال داخلة في مسمى الإيمان؛ كان الإيمان قابلًا للزيادة والنقص؛ فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؛ كما هو صريح الأدلة من الكتاب والسنة، وكما هو ظاهر مشاهد من تفاوت المؤمنين في عقائدهم وأعمال قلوبهم وأعمال جوارحهم، ومن الأدلة على زيادة الإيمان ونقصه أن الله قَسَّمَ المؤمنين ثلاث طبقات، فقال سبحانه:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٣٢][١].

فالسابقون بالخيرات هم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وهؤلاء هم المقربون. والمقتصدون هم: الذين اقتصروا على أداء الواجبات وترك المحرمات. والظالمون لأنفسهم هم: الذين اجترءوا على بعض المحرمات وقصروا ببعض الواجبات مع بقاء أصل الإيمان معهم[٢].

ومن وجوه زيادته ونقصه كذلك أن المؤمنين متفاوتون في علوم الإيمان، فمنهم من وصل إليه من تفاصيله وعقائده خير كثير، فازداد به إيمانه، وتم يقينه، ومنهم من هو دون ذلك، حتى يبلغ الحال ببعضهم لا يكون معه إلا إيمان إجمالي لم يتيسر له من التفاصيل شيء، وهو مع ذلك مؤمن.

وكذلك هم متفاوتون في كثير من أعمال القلوب والجوارح، وكثرة الطاعات وقلتها[٣].

(١) هذا دليلٌ على تفاضل الإيمان بين أهل الإيمان، وهو مستلزم الزيادة والنقصان؛ فإن تفاضلهم فيه يدلُّ على أن السابقين قد كملوا إيمانهم وزاد إيمانهم حتى سبقوا من دونهم.

(٢) لابدَّ من التنبيه على أن هذه الواجبات والمستحبات ظاهرة وباطنة، فإن التفاضل بأعمال القلوب أعظم بكثير من التفاضل بالأعمال الظاهرة، فهم أدوا الواجبات والمستحبات الباطنة والظاهرة، وتركوا المحرمات والمكروهات الظاهرة والباطنة.

(٣) ما ذكر من التفاوت في العلم هو ضمن الزيادة والنقصان أو التفاضل في الإيمان فيما يتعلق بالعلم والتصديق الباطن أنهما يتفاوتان كمًّا وكيفًا، وكُلَّما بلغ الإنسان شيءٌ مما جاء به النبي ﷺ من الكتاب أو من السنة فيما يتعلق بالإيمان أو بالإسلام، أو بالإحسان بأعمال القلوب فإنه يزداد العبد به إيمانًا إذا صدَّقه، وإذا انقاد له ازداد إيمانًا من جهة العمل، وإذا لم يعلم وقلبه جازم بأن الرسول ﷺ لا يأمر إلا بحقٍّ ولا يخبر إلا بصدقٍ فإن معه أصل الإيمان وأصل التصديق الإجمالي.

وما ذكره الشيخ هراس هو الإيمان المجمل الذي هو أصل الإيمان، وربما يكون العبد قد حقق الواجب عليه إذا لم يقصر في طلب علم التفصيل، وربما كان هذا الإيمان المجمل ناقصًا عن قدر الواجب إذا كان مقصرًا في طلب العلم.

وأما من ذهب إلى أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب، وأنه غير قابل للزيادة أو النقص؛ كما يروى عن أبي حنيفة وغيره؛ فهو محجوج بما ذكرنا من الأدلة، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة؛ أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»(١).

وحديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَدرُس الإسلام كما يدرس وَشْي الثوب، حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، ولَيُسْرَى على كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها فقال له صلة: ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة، فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثًا كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلة تنجيهم من النار ثلاثًا**» رواه ابن ماجه (٤٠٤٩)، وصححه الألباني.

فهؤلاء معهم الإيمان المجمل الواجب عليهم؛ لأنه لا يدري في الأرض ما صوم، ولا صلاة، ولا صدقة لذا فهم ناجون من أول وهلة كما هو ظاهر الحديث.

وقد يكون هذا في بعض الأزمنة وبعض الأمكنة مع التقصير فيكون مستحقًّا للعقاب؛ لأنه لا يكفي الإجمال مع لزوم التفصيل، ولكن يكفي الإجمال إذا عجز عن التفصيل.

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري في الإيمان (٩)، رواه مسلم (٣٥) من أحاديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..

وهذا الحديث صريح في أن الإيمان قول وعمل، وبالتالي فهو ليس مجرد التصديق بالقلب ولا حتى التصديق بالقلب وقول باللسان.

وقوله: «كما يُروى عن أبي حنيفة» يقصد: أنه غير قابل للزيادة أو النقصان، وإلَّا فإن أبا حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ يقول أن الإيمان قول واعتقاد، ولم يقل أن الإيمان مجرد التصديق، بل لم يقل أحد من أهل العلم بذلك حتى أبو حنيفة، وإنما هو قول الجهمية.

وأما الخلاف بين أهل السنة وبين الأحناف ومرجئة الفقهاء عمومًا في هذه المسألة فهو خلاف قريب من الخلاف اللفظي؛ إذ إنهم يقولون -يعني: مرجئة الفقهاء- إن الإيمان هو التصديق الظاهر والباطن ويجعلون العمل من لوزامه، ويرون أن من لم يعمل الواجب أو من عمل المحرم فهو مستحق الوعيد، ويثبتون دخول عصاة الموحدين النار وخروجهم منها، بخلاف المرجئة الذين فارقوا أهل السنة في هذا الأصل، ولذا كان الخلاف لفظيًّا كما يرجحه شيخ الإسلام أو هو قريب من اللفظي، وقد يثبت أن الخلاف حقيقي جماعات من أهل العلم، لكن عمومًا الخلاف قريب إن شاء الله بسبب أنهم يثبتون دخول عصاة الموحدين النار، ويثبتون خطر المعاصي، وترك الواجبات، وأن صاحبها إذا زادت سيئاته عن حسناته فهو في المشيئة.

ومع أن الإيمان المطلق مركب من الأقوال والأعمال والاعتقادات [١].

فهي ليست كلها بدرجة واحدة؛ بل العقائد أصل في الإيمان، فمن أنكر شيئًا مما يجب اعتقاده في الله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر أو مما هو معلوم من الدين بالضرورة؛ كوجوب الصلاة، والزكاة، وحرمة الزنا، والقتل... إلخ؛ فهو كافر، قد خرج من الإيمان بهذا الإنكار [٢].

وأمَّا الفاسق الملي الذي يرتكب بعض الكبائر مع اعتقاده حرمتها؛ فأهل السنة والجماعة لا يسلبون عنه اسم الإيمان بالكلية، ولا يخلدونه في النار؛ كما تقول المعتزلة والخوارج، بل هو عندهم مؤمن ناقص الإيمان، قد نقص من إيمانه بقدر معصيته، أو هو مؤمن فاسق، لا يعطونه اسم الإيمان المطلق، ولا يسلبونه مطلق الإيمان.

وأدلة الكتاب والسنة دالة على ما ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ثبوت مطلق الإيمان مع المعصية؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١]؛ فناداهم باسم الإيمان، مع وجود المعصية، وهي موالاة الكفار منهم... إلخ [٣].

---

(١) وقوله: «ومع أن الإيمان مركب من الأقوال والأعمال والاعتقادات» أي: يشملها، وليس على مصطلح التركيب عند الأصوليين الذين يقولون إن المركب إذا زال بعض أجزائه زال الاسم عنه كما تتركب العشرة من عشرة آحاد، فإذا زال واحد منها لم تكن عشرة، بل صارت تسعة. لكن أهل السنة يقولون إن الإيمان كقطعة الفضة إذا أخذت منها قطعة نقصت عما كانت عليه لكن لم تزل تسمى فضة، وأما التركيب على اصطلاح الأصوليين فغير مراد.

(٢) نبَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أجزاء الإيمان ليست كلها بدرجة واحدة، وذكر إنكار المعلوم من الدين بالضرورة فيما يتعلق بالإيمان أو الإسلام أو غيرها، ولا شكَّ أن هذا القيد وهو كلمة (معلوم من الدين بالضرورة) شرط فيما يتعلق بكل الأمور، فلو أنكر شيئًا ممَّا يجب اعتقاده في الله عَزَّوَجَلَّ وهو ليس معلومًا من الدين بالضرورة ولم ينتشر علمه بين المسلمين فلا يكفر وإن كان مبتدعًا، وكذا فيما يتعلق بالملائكة، والكتب، أو الرسل، أو اليوم الآخر.

(٣) موالاة الكفار المقصود بها هنا الموالاة غير المكفرة والمقصود هنا في الآية هي التي وقعت من حاطب كالتجسس للكفار؛ فإنها كبيرة من الكبائر فغُفِر لحاطب لأجل أنه شهد بدرًا، ولكن ليس هذا بالكفر الخارج عن الملة.

فائدة: الإيمان والإسلام الشرعيان متلازمان في الوجود، فلا يوجد أحدهما بدون الآخر، بل كلما وجد إيمان صحيح معتد به، وجد معه إسلام، وكذلك العكس بالعكس، ولهذا قد يستغنى بذكر أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما إذا أفرد بالذكر؛ دخل فيه الآخر، وأما إذا ذكرا معا مقترنين؛ أريد بالإيمان التصديق والاعتقاد، وأريد بالإسلام الانقياد الظاهري من الإقرار باللسان وعمل الجوارح(١).

ولكن هذا بالنسبة إلى مطلق الإيمان، أما الإيمان المطلق؛ فهو أخصُّ مطلقًا من الإسلام، وقد يوجد الإسلام بدونه؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤] فأخبر بإسلامهم مع نفي الإيمان عنهم(٢).

وفي حديث جبريل ذكر المراتب الثلاث: الإسلام، والإيمان، والإحسان، فدلَّ على أن كلًّا منها أخصُّ ممَّا قبله» اهـ(٣).



(١) هذا في الأغلب الأعم، وإلَّا فقد يذكرا معًا أحيانًا ويقصد بهما المعنى الشرعي الحقيقي لكلٍّ منهما، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢] فلا يبشر من نطق بلسان وعمل بجوارحه دون وجود الإيمان في القلب، وإنما يبشر من كان مؤمنًا مسلمًا.

(٢) بمعنى أن الإسلام أعمُّ من كل وجه من الإيمان المطلق من جهة الأفراد، أما جهة الأعمال فالإيمان يشمل الإسلام وهو يزيد عليه الأحوال والعقائد الباطنة، والمقصود أن الإيمان أخصُّ مطلقًا من جهة الأشخاص، فيكون الإيمان المطلق أخصُّ مطلقًا، والإسلام يكون أعم مطلقًا، فالمسلمون أعم من المؤمنين إذ المؤمنون جزء من المسلمين وقد يوجد مسلم ليس بمؤمن، لكن كل مؤمن مسلم.

(٣) «شرح العقيدة الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٣١-٢٣٦) ط. دار الهجرة.

عقيدةُ أهل السنة والجماعة في أصحاب الرسول ﷺ وذكرُ فضائلهم

فصل

ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ، كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وطاعة النبي ﷺ في قوله: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نَصِيفه**»[(١)]. ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، ويفضِّلون من أنفق من قبل الفتح -وهو صلح الحديبية- وقاتل، على من أنفق من بعد وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار. ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر -وكانوا ثلاث مئة وبضعة عشر-: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[(٢)]. وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة؛ كما أخبر به النبي ﷺ، بل لقد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربع مئة، ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله ﷺ، كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماس، وغيرهم من الصحابة. ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر، ثم عمر، ويُثَلِّثُون بعثمان، ويُرَبِّعُون بعلي رضي الله عنهم؛ كما دلَّت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة، مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي رضي الله عنه.

وعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا **-بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر- أيهما أفضل؟ فقدم قوم عثمان: وسكتوا، أو ربعوا بعلي، وقدم قوم عليًّا، وقوم توقفوا لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان، ثم علي. وإن كانت هذه المسألة -مسألة عثمان وعلي- ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن التي يضلل فيها: مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ**: أبو بكر، وعمر، ثم عثمان، ثم علي ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء؛ فهو أضل من حمار أهله.**

۞ قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: [**سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ] استنبط شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ هذه الجملة من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر:١٠] فسلامة اللسان من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، وسلامة القلوب من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وإن الذين يطعنون في الصحابة الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بألسنتهم يخالفون القرآن، والله عَزَّوَجَلَّ أمرنا أن ندعو لهم، وأن نستغفر لهم، وأن نشهد لهم بصدق الإيمان وأنهم إخوة لنا في الإيمان، والذين يحقدون عليهم بغرورهم ويبغضونهم، فهؤلاء قد جعل الله في قلوبهم غلًّا للذين آمنوا، وهذا من خصال النفاق كما قال الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**آية المنافق بغض الأنصار، وآية المؤمن حب الأنصار**»(١).

وكما قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «والذي فلق الحبَّة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمين صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إليَّ أن لا يحبني إلَّا مؤمن، ولا يبغضني إلَّا منافق»(٢).

---

(١) رواه البخاري (١٧)، ومسلم (٧٤)، والنسائي (٥٠٣٤) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (٧٨)، والترمذي (٣٧٣٦)، النسائي (٥٠١٨)، مسند أحمد (١/ ٨٤).

وهذه الآية الكريمة المذكورة آنفًا ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ ...﴾ الآية؛ دليل واضح ونَصٌّ على بقاء أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في الجملة على الهدى بعده عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إنما أخبر عن الذين جاءوا من بعدهم، ولو كان عَزَّ وَجَلَّ يعلم عنهم إنهم يرتدون -كما يدعي ويزعم ضُلَّالُ الشيعة الرافضة- أو أنهم يفسقون ويفجرون، فكيف يمدح الله عَزَّ وَجَلَّ من يستغفر لهم ممن جاء بعدهم؟! ولا يقال: جاء بعدهم إلا لمن جاء بعد مماتهم وكان في زمن بعدهم، ولهذا نقول: إن قول الشيعة في الآيات القرآنية في فضائل الصحابة أنها كانت في زمن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لما كانوا معه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ فقط -فهذا من ضلالهم قطعًا؛ لأن هذه الآية إنما مدحت من جاء بعدهم.

- وكذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ ...﴾ [التوبة:١٠٠] فمن لقى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ مؤمنًا كان من أصحابه والذين اتبعوهم بإحسان هم من جاءوا بعدهم، فدلَّ ذلك على بقاء المهاجرين والأنصار على الإيمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ.

- وكذلك في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ [الفتح:١٨] وهذا الرضا منه سبحانه مانع لإرادة تعذيبهم، ومستلزم لإكرامهم ومثوبتهم؛ لأن الله لا يقول هذا في كتابه الذي يتلى إلى يوم القيامة في قوم يعلم أنهم ارتدوا -كما يزعم أهل الضلال-.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية»: (إن من أصول أهل السنة والجماعة التي فارقوا بها من عداهم من أهل الزيغ والضلال أنهم: لا يُزْرون بأحد من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ولا يطعنون عليه، ولا يحملون له حقدًا ولا بغضًا ولا احتقارًا، فقلوبهم وألسنتهم من ذلك كله براء، ولا يقولون فيهم إلا ما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ الآية [الحشر:١٠]؛ فهذا

الدعاء الصادر ممَّن جاء بعدهم ممَّن اتبعوهم بإحسان يدلُّ على كمال محبتهم لأصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وثنائهم عليهم، وهم أهل لذلك الحب والتكريم: لفضلهم، وسبقهم، وعظيم سابقتهم، واختصاصهم بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولإحسانهم إلى جميع الأمة؛ لأنهم هم المبلغون لهم جميع ما جاء به نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما وصل لأحد علم ولا خبر إلا بواسطتهم، وهم يوقرونهم أيضا طاعة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث نهى عن سبِّهم والغضِّ منهم، وبيَّن أن العمل القليل من أحد أصحابه يفضل العمل الكثير من غيرهم، وذلك لكمال إخلاصهم، وصادق إيمانهم. وأما قوله: «**ويفضلون من أنفق من قبل الفتح** -وهو صلح الحديبية- **وقاتل على من أنفق من بعده وقاتل**»؛ فلورود النص القرآني بذلك، قال تعالى في سورة الحديد: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ**﴾ [الحديد: ١٠].

وأما تفسير الفتح بصلح الحديبية؛ فذلك هو المشهور، وقد صحَّ أن سورة الفتح نزلت عقيبه، وسمي هذا الصلح فتحًا؛ لما ترتب عليه من نتائج بعيدة المدى في عزة الإسلام، وقوته وانتشاره، ودخول الناس فيه.

وأما قوله: «**ويقدمون المهاجرين على الأنصار**»؛ فلأن المهاجرين جمعوا الوصفين: النصرة والهجرة، ولهذا كان الخلفاء الراشدون وبقية العشرة من المهاجرين، وقد جاء القرآن بتقديم المهاجرين على الأنصار في سورتي التوبة والحشر، وهذا التفضيل إنما هو للجملة على الجملة، فلا ينافي أن في الأنصار من هو أفضل من بعض المهاجرين.

وقد روي عن أبي بكر أنه قال في خطبته يوم السقيفة: «نحن المهاجرون، أول الناس إسلامًا، أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن عليكم، فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء»[١].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٨/ ٢١) ط. مؤسسة الرسالة، وأصل القصة رواها البخاري في صحيحه (٣٦٦٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وأما قوله: «**ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر...**» إلخ؛ فقد ورد أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أراد قتل حاطب بن أبي بلتعة وكان قد شهد بدرًا لكتابته كتابًا إلى قريش يخبرهم فيه بمسير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما يدريك يا عمر؟ لعلَّ الله اطَّلعَ على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(١).

وأما قوله: «**وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة...**» إلخ؛ فلإخباره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، ولقوله تعالى: ﴿**لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ...**﴾ [الفتح:١٨] الآية؛ فهذا الرضا مانع من إرادة تعذيبهم، ومستلزم لإكرامهم ومثوبتهم.

وأما قوله: «**ويشهدون بالجنة لمن شهد له الرسول** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ **كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماس، وغيرهم من الصحابة**».

أما العشرة؛ فهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح. وأما غيرهم؛ فكثابت بن قيس، وعكاشة بن محصن، وعبد الله بن سلام، وكل من ورد الخبر الصحيح بأنه من أهل الجنة) اهـ(٢).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية»: (ويؤمنون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر؛ فقد ورد أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ذلك على منبر الكوفة، وسمعه منه الجم الغفير)(٣).

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٢٥٩)، ومسلم (٤٥٥٠).

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٣٧-٢٤٢) ط. دار الهجرة.

(٣) المصدر السابق (٢٤٣).

وعند البخاري من حديث محمد بن الحنفية وهو ابن علي بن أبي طالب قال: **(قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؟ قال: «أبو بكر»، قلت: ثم من؟ قال: «عمر»، وخشيت أن يقول عثمان قلت: ثم أنت؟ قال: «ما أنا إلا رجل من المسلمين»)**[١].

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **إلا جلدته حد المفتري»**[٢].

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما قوله: **«ويثلثون بعثمان، ويربعون بعلي...»** إلخ؛ فمذهب جمهور أهل السنة أن ترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل على حسب ترتيبهم في الخلافة، وهم لهذا يفضلون عثمان على عليٍّ، محتجين بتقديم الصحابة عثمان في البيعة على علي.

وبعض أهل السنة يفضل عليًّا؛ لأنه يرى أن ما ورد من الآثار في مزايا علي ومناقبه أكثر، وبعضهم يتوقف في ذلك.

وعلى كل حال؛ فمسألة التفضيل ليست -كما قال المؤلف- من مسائل الأصول التي يضلل فيها المخالف، وإنما هي مسألة فرعية يتسع لها الخلاف[٣].

وأما مسألة الخلافة؛ فيجب الاعتقاد بأن خلافة عثمان كانت صحيحة؛ لأنها كانت بمشورة من الستة الذين عيَّنهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليختاروا الخليفة من بعده، فمن زعم أن

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧١).

(٢) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (١٣١٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢١٩)، والبيهقي في الاعتقاد (ص٣٥٨).

(٣) رغم أنها مسألة اعتقادية لكن يقصد بذلك أن المخالف فيها لا يبدع ولا يضلل.

خلافة عثمان كانت باطلة، وأن عليًّا كان أحق بالخلافة منه؛ فهو مبتدع ضال يغلب عليه التشيع؛ مع ما في قوله من إزراء بالمهاجرين والأنصار) اهـ[١].

(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٤٤) ط. دار الهجرة.

عقيدة أهل السنة والجماعة
في أهل بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ويحبون أهل بيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حيث قال يوم غدير خُم: «أذكركم الله في أهل بيتي»[(١)]، وقال أيضا للعباس عمه -وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم- فقال: «والذي نفسي بيده؛ لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي»[(٢)]، وقال: «إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[(٣)]، ويتولون أزواج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة: خصوصًا خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أم أكثر أولاده، وأول من آمن به وعاضده على أمره، وكان لها منه المنزلة العالية، والصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، التي قال فيها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[(٤)]، ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون: إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون. وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) رواه بنحوه أحمد (١/ ٢٠٧) من حديث عبد المطلب بن ربيعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصحَّح إسناده الشيخ أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٣/ ٢١٠)، ورواه الطبراني في «الكبير» (١٢٢٢٨)، وابن أبي شيبة (٣).

(٣) رواه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) **متفق عليه**: رواه البخاري (٣٣٣٧)، ومسلم (٢٤٤٦) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم -إن صدر-، حتى إنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم، وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون، وأن المُد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبًا ممن بعدهم، ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب؛ فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له؛ بفضل سابقته، أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلي ببلاء في الدنيا كفر به عنه، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة؛ فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين: إن أصابوا؛ فلهم أجران، وإن أخطأوا؛ فلهم أجر واحد، والخطأ مغفور، ثم إن القَدْر الذي يُنكَر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم؛ من الإيمان بالله، ورسوله، والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع، والعمل الصالح. ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما مَنَّ الله عليهم به من الفضائل؛ علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (أهل بيته ﷺ هم من تحرم عليهم الصدقة، وهم: آل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس، وكلهم من بني هاشم، ويلحق بهم بنو المطلب؛ لقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**إنهم لم يفارقونا جاهليةً ولا إسلامًا**»[١].

فأهل السنة والجماعة يرعون لهم حرمتهم وقرابتهم من رسول الله ﷺ؛ كما يحبونهم لإسلامهم، وسبقهم، وحسن بلائهم في نصرة دين الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) رواه أحمد (٤/ ٨١)، والنسائي (٤٣٢٠).

و«**غدير خُم**» -بضم الخاء-؛ قيل: اسم رجل صباغ أضيف إليه الغدير الذي بين مكة والمدينة بالجحفة. وقيل: خم اسم غيضة هناك نسب إليها الغدير، والغيضة: الشجر الملتف.

وأما قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ لعمه: «**والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتي**»[(١) (٢)]؛ فمعناه: لا يتم إيمان أحد حتى يحب أهل بيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لله:

أولًا: لأنهم من أوليائه وأهل طاعته الذين تجب محبتهم وموالاتهم فيه.

وثانيًا: لمكانهم من رسول الله، واتصال نسبهم به) اهـ[(٣)].

وقال رَحِمَهُ اللهُ في «شرح الواسطية»: (وأزواجه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هن من تزوجهن بنكاح[(٤)]، فأولهن خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، تزوجها بمكة قبل البعثة، وكانت سِنّهُ خمسًا وعشرين، وكانت هي تكبره بخمسة عشر عامًا، ولم يتزوج عليها حتى توفيت، وقد رزق منها بكل أولاده إلا إبراهيم، وكانت أول من آمن به، وقوّاه على احتمال أعباء الرسالة، وقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين عن خمس وستين سنة، فتزوج بعدها سودة بنت زمعة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وعقد على عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وكانت بنت ست سنين، حتى إذا هاجر إلى المدينة بنى بها وهي بنت تسع.

---

(١) رواه أحمد بنحوه (١/ ٢٠٧) وصحَّحه أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٣/ ٢١٠).

(٢) والإيمان المنفي في هذا الحديث هو الإيمان الواجب؛ إذ أقسم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يؤمن أحد إلا من يحب أهل بيته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الله عَزَّ وَجَلَّ ولأجله ثم كذلك لقرابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٣) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٤٦-٢٤٧).

(٤) أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن تزوجهن بنكاح وبقيْن في عصمته إلى مماته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما من تزوجها بنكاح ثم طلقها فليست معدودة في أمهات المؤمنين.

ومن زوجاته أيضا أم سلمة رَضِيَاللَّهُعَنهَا، تزوجها بعد زوجها أبي سلمة.

وزينب بنت جحش تزوجها بعد تطليق زيد بن حارثة لها، أو[١] على الأصح زوجه الله إياها.

وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي، وحفصة بنت عمر، وزينب بنت خزيمة، وكلهن أمهات المؤمنين، وهن أزواجه صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ في الآخرة، وأفضلهن على الإطلاق خديجة وعائشة رَضِيَاللَّهُعَنهُمَا[٢]) اهـ[٣].

وقال رَحِمَهُاللَّهُ في «شرح الواسطية»: (وقوله: **«ويتبرأون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل»** يريد أن أهل السنة والجماعة يتبرأون من طريقة الروافض التي هي الغلو في علي وأهل بيته، وبغض من عداه من كبار الصحابة، وسبهم، وتكفيرهم.

وأول من سمَّاهم بذلك زيد بن علي رَحِمَهُاللَّهُ؛ لأنهم لما طلبوا منه أن يتبرأ من إمامة الشيخين أبي بكر وعمر ليبايعوه أبى ذلك، فتفرقوا عنه، فقال: «رفضتموني»، فمن يومئذ قيل لهم: رافضة. وهم فرق كثيرة: منهم الغالية، ومنهم دون ذلك[٤].

---

(١) كلمة (أو) ليست صحيحة وليس هناك أصلًا فرق بين كونه قد تزوجها صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ وقد زوجها الله عَزَّوَجَلَّ؛ فالتزوج فعل النبي صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ والتزويج فعل الله عَزَّوَجَلَّ.

(٢) الصحيح أن خديجة أفضل من عائشة رَضِيَاللَّهُعَنهَا؛ لقول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: **«كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد»** رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١) وغيرهم من حديث أبي موسى رَضِيَاللَّهُعَنهُ، وقوله صَلَّاللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: **«خير نسائها مريم ابنة عمران وخير نسائها خديجة»** رواه البخاري (٣٤٣٢)، ومسلم (٢٤٣٠) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَاللَّهُعَنهُ.

(٣) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٤٧-٢٤٨).

(٤) الغلاة من الرافضة هم الذين يؤلهون عليًّا بن أبي طالب أو غيره من أئمتهم: كالعلويين، والنصيريين الذين يصرحون بتأليه علي، وأصلهم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ؛ ألهوا عليًّا في حياته وحرقهم علي رَضِيَاللَّهُعَنهُ، وهؤلاء لا نزاع في كفرهم قولًا واحدًا.

ويتبرأون كذلك من طريقة النواصب الذين ناصبوا أهل بيت النبوة العداء لأسباب وأمور سياسية معروفة، ولم يعد لهؤلاء وجود الآن[(١)].

- وكذلك من فرق غلاة الرافضة الدروز؛ الذين يؤلهون الحاكم بأمر الله، وهم إحدى فرق الإسماعيلية، وهؤلاء الإسماعيلية بصفة عامة يؤلهون الأئمة جملة، وهم غلاة في نفي صفات الله عَزَّوَجَلَّ، وهم من نفاة النقيضين يقولون: لا موجود ولا ليس موجود، ولا حي ولا ليس بحي... وهم جاحدون وتاركون للشريعة جملة، وكل الشرائع عندهم غير لازمة، وعندهم باطن خلاف الظاهر من الشريعة، وهؤلاء الباطنية -ومنهم الإسماعيلية وكل هذه الفرق الباطنية- كفار نوعًا وعينًا وليسوا من أهل الإسلام.
- وكذلك من الغلاة مَن يدَّعون خطأ الوحي، وأن الوحي كان ينبغي أن ينزل على عليٍّ فأخطأ جبريل أو خان الرسالة ونزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -تعالى الله عن كفرهم علوًّا كبيرًا-.
- وكذلك من قال بنبوة غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فمِن فرق الروافض تفرعت ملل البابية والبهائية والقاديانية، ولهم وجود إلى زماننا هذا، ولا شكَّ في كفرهم جميعًا.
- وأما الروافض الذين دون ذلك؛ فهم الذين يسبون الصحابة وكثير منهم يكفرونهم، ولا شكَّ أن هذا اعتقاد في حقيقته كفر (خصوصًا تكفير أبي بكر وعمر وعثمان وهم مقطوع لهم بالجنة)، لكن لكثرة الجهل فيهم وورود التأويل، ولأن مسلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع الخوارج الذين كفروا عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يكن تكفيرهم بالعموم، ولا يكفر المعين منهم حتى يقام عليه الحجة، فالروافض الذين ليسوا من الغلاة عقائدهم فيها كفر، لكن لا يكفر المعين حتى تقام عليه الحجة.
- وأما الشيعة المفضلة وهم الزيدية؛ فمن جهة موقفهم من الصحابة فهم لا يُكفَّرُون، ولكن يبدعون في تفضيلهم عليٍّ على أبي بكر وعمر، وإن أقروا بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان من باب صحة خلافة المفضول.

(١) قد كان من بني أمية الذين يسبون عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المنابر، وهؤلاء انقرضوا بحمد الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن أسباب النزاع الذي وقع بين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان علي هو المصيب؛ حاول كثير من أبناء علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابتداءً من الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم من كثير من ذريته... حاول عدد منهم مرات القيام بثورات لكنها كلها لم تنجح، وأدَّى إلى وقوع هذه العداوة، وظهرت الناصبة الذين يسبون أهل بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويمسك أهل السنة والجماعة عن الخوض فيما وقع من نزاع بين الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؛ لا سيما ما وقع بين علي وطلحة والزبير بعد مقتل عثمان، وما وقع بعد ذلك بين علي ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم[(١)]) اهـ[(٢)].

وقال رَحِمَهُٱللَّهُ في «شرح الواسطية»: (وهم[(٣)] مع ذلك لا يدَّعون لهم العصمة من كبار الذنوب وصغارها، ولكن ما لهم من السوابق والفضائل وصحبة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والجهاد معه قد يوجب مغفرة ما يصدر منهم من زلات؛ فهم بشهادة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خير القرون، وأفضلها، ومد أحدهم أو نصيفه أفضل من جبل أحد ذهبا يتصدق به من بعدهم، فسيئاتهم مغفورة إلى جانب حسناتهم الكثيرة.

يريد المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ أن ينفي عن الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أن يكون أحدهم قد مات مصرًّا على ما يوجب سخط الله عليه من الذنوب، بل إذا كان قد صدر الذنب من أحدهم فعلًا؛ فلا يخلو عن أحد هذه الأمور التي ذكرها؛ فإمَّا أن يكون قد تاب منه قبل الموت، أو أتى بحسنات تذهبه وتمحوه، أو غفر له بفضل سالفته في الإسلام؛ كما غفر لأهل بدر وأصحاب الشجرة، أو بشفاعة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهم أسعد الناس بشفاعته، وأحقهم بها، أو ابتلي ببلاء في الدنيا: في نفسه، أو ماله، أو ولده فكُفِّر عنه به. فإذا كان هذا

---

(١) الإمساك عن الخوض: أي: في تفصيلها؛ وأما مجرد ذكر ما ثبت في الأحاديث الصحيحة من ورود هذه الوقائع مثل قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق**» رواه مسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري، وكذا كل ما ثبت من الأحاديث الصحيحة فإنها تذكر، ولكن نعلم أن أكثر التفاصيل المنقولة ليست ثابتة بأسانيد صحيحة، والآثار المروية في مساويهم كلها كذب أو محرفة عن وجهها.

- ومع أن قول الجمهور من أهل السنة أن المجتهد المصيب عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلَّا أن شيخ الإسلام كأنه يميل إلى التوقف في ذلك وعدم التصريح بتصويب علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على الرغم من ذلك، يقول: وهم مع ذلك لا يدَّعون لهم بعصمة من كبار الذنوب وصغارها... إلخ.

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٥١).

(٣) أي: أهل السنة.

هو ما يجب اعتقاده فيهم بالنسبة إلى ما ارتكبوه من الذنوب المحققة؛ فكيف في الأمور التي هي موضع اجتهاد، والخطأ فيها مغفور؟!

ثم إذا قيس هذا الذي أخطأوا فيه إلى جانب ماهم من محاسن وفضائل؛ لم يعد أن يكون قطرة في بحر؛ فالله الذي اختار نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي اختار له هؤلاء الأصحاب، فهم خير الخلق بعد الأنبياء، والصفوة المختارة من هذه الأمة التي هي أفضل الأمم) اهـ[١].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٥١-٢٥٢) ط. دار الهجرة.

عقيدة أهل السنة والجماعة
في كرامات الأولياء

ومن أصول أهل السنة: التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات، كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة.

التصديق بكرامات الأولياء من اعتقاد أهل السنة والجماعة، وهو فرع على التصديق بالنبوات؛ وذلك أن كرامات الأولياء هي معجزات للأنبياء، ودالة على صحة ما جاءوا به من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

- **والفرق بين المعجزة والكرامة:** أن المعجزة تجري على يد نبي من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهو يذكرها كدليل للنبوة، وهي من تصديق الله عَزَّوَجَلَّ له بالنبوة. وأما الكرامة: فهي أمر خارق للعادة تكون لغير النبي، يجريه الله على يد وليٍّ من أوليائه في أمر دينه أو دنياه، ولا تقترن بدعوى الرسالة.

- وأما ما يقع على أيدي السحرة والمشعوذين والكهان فإن الفرق بينها وبين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء: هو صفة وفعل هؤلاء ابتداءً كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ** ﴾ [الشعراء]؛ فإن صفاتهم أول ما يُفرَّق به بين خوارق العادات التي تجري على أيديهم بمعاونة الشياطين، وبين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، ثم إن جنس معجزات الأنبياء لا يقدر عليه الناس، كما آمن السحرة عندما رأوا ما أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ

لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من المعجزة فعلموا أنه ليس في قدرة بشرٍ ولا جنٍّ أن يأتيَ بمثل ما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من تغيير الخلق، وأن تصبح العصا حيةً تسعى، وإنما هم يلبِّسون على الناس، ويسحرون أعينهم حتى يظنوا أنهم قادرون على تغيير الخلق.

- وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ نوعين من خوارق العادات: **الأول**: أنواع العلوم والمكاشفات، **والثاني**: أنواع القدرة والتأثيرات، وكلاهما ثابت كما دلَّت عليه أدلة الكتاب والسنة.

الأول: أنواع العلوم والمكاشفات وما يقذف الله عَزَّوَجَلَّ به في قلوب أوليائه من العلم بأشياء غابت عن الناس ولا يدركونها، ويكشف لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأسماعهم وأبصارهم ما لا يطلع عليه غيرهم.

الثاني: وهو أنواع القدرة؛ فإنهم يقدرهم الله عَزَّوَجَلَّ على أفعال لا يقدر عليها الناس.

- وقضية الكرامة متعلقة أساسًا بالإيمان والهداية، فلا يلزم جريان خوارق العادات حتى يكون الإنسان وليًّا مكرمًا عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما أعظم الكرامة أن يوفق الإنسان لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، كما أن أعظم الكشف: الكشف عن طريق الحق، وأعلى الإلهام هو الإلهام للرشد.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية»: (وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة، ودلَّت الوقائع قديمًا وحديثًا على وقوع كرامات الله لأوليائه المتبعين لهدي أنبيائهم.

والكرامة: أمر خارق للعادة، يجريه الله على يد ولي من أوليائه؛ معونة له على أمر ديني أو دنيوي، ويفرق بينها وبين المعجزة بأن المعجزة تكون مقرونة بدعوى الرسالة، بخلاف الكرامة.

ويتضمن وقوع هذه الكرامات حكم ومصالح كثيرة؛ أهمها:

أولًا: أنها كالمعجزة، تدلُّ أعظم دلالة على كمال قدرة الله، ونفوذ مشيئته، وأنه فعال لما يريد، وأن له فوق هذه السنن والأسباب المعتادة سننًا أخرى لا يقع عليها علم البشر، ولا تدركها أعمالهم؛ فمن ذلك قصة أصحاب الكهف، والنوم الذي أوقعه الله بهم في تلك المدة الطويلة، مع حفظه تعالى لأبدانهم من التحلل والفناء.

ومنها ما أكرم الله به مريم بنت عمران من إيصال الرزق إليها وهي في المحراب؛ حتى عجب من ذلك زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسألها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران:٣٧]، وكذلك حملها بعيسى بلا أب، وولادتها إياه، وكلامه في المهد، وغير ذلك[١].

ثانيًا: أن وقوع كرامات الأولياء هو في الحقيقة معجزة للأنبياء؛ لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعتهم لأنبيائهم، وسيرهم على هديهم.

ثالثًا: أن كرامات الأولياء هي البشرى التي عجلها الله لهم في الدنيا؛ فإن المراد بالبشرى كل أمر يدلُّ على ولايتهم وحسن عاقبتهم، ومن جملة ذلك: الكرامات.

هذا؛ ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع في هذه الأمة إلى يوم القيامة، والمشاهدة أكبر دليلًا.

(١) الذي يظهر -والله أعلم- أن حمل عيسى بغير أب وكلامه في المهد أنه من معجزاته عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأيضًا هناك خلاف بين أهل العلم في مريم هل هي نبيَّة أم وليَّة من أولياء الله.

وأنكرت الفلاسفة كرامات الأولياء كما أنكروا معجزات الأنبياء، وأنكرت الكرامات أيضا المعتزلة، وبعض الأشاعرة؛ بدعوى التباسها بالمعجزة، وهي دعوى باطلة؛ لأن الكرامة -كما قلنا- لا تقترن بدعوى الرسالة.

لكن يجب التنبه إلى أن ما يقوم به الدجاجلة والمشعوذون من أصحاب الطرق المبتدعة الذين يسمون أنفسهم بالمتصوفة من أعمال ومخاريق شيطانية؛ كدخول النار، وضرب أنفسهم بالسلاح، والإمساك بالثعابين، والإخبار بالغيب... إلى غير ذلك؛ ليس من الكرامات في شيء؛ فإن الكرامة إنما تكون لأولياء الله بحق، وهؤلاء أولياء الشيطان) اهـ[1].



(١) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٥٣-٢٥٤).

صفات أهل السنة والجماعة وأصول الاستدلال عندهم

فصل

ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باطنًا وظاهرًا، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة»(١).

ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هدي كل أحد. ولهذا سُمُّوا أهل الكتاب والسنة، وسُمُّوا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسمًا لنفس القوم المجتمعين. والإجماع هو الأصل الثالث الذي يُعتمد عليه في العلم والدين، وهم يَزِنُون بهذه الأصول الثلاثة جميعَ ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة ممَّا له تعلق بالدين. والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح؛ إذ بعدهم كثر الاختلاف، وانتشر في الأمة.

هذا الفصل ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ لبيان أصول الاستدلال عند أهل السنة؛ فذكر ما أجمعوا عليه من اتباع آثار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي أحاديثه الثابتة عنه من: أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخَلقية والخُلقية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم يتبعون ذلك في الباطن أي: في الاعتقاد، وأعمال القلوب، والأخلاق، وأمور المقامات، والأحوال،

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (١٧١٤٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه (٤٣)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الظاهر أي: في الهدي الظاهر في العبادات، وفي المعاملات، وفي السلوك، وفي اللباس، والطعام، والشراب، ولا يفرقون -كأهل البدع- بين ظاهر وباطن، أو يزعمون أن الباطن يغني عن الظاهر، أو أن الظواهر أمور تافهة؛ بل هدي أهل السنة اتباع آثار الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما اتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار؛ فلأنه التطبيق العملي لسنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والفهمُ الصحيح، ولا يصحُّ فهم نصوص الكتاب والسنة إلا من خلال فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم.

- ولذلك نقول إن منهج أهل السنة هو التزام الكتاب والسنة بفهم أعلم الناس بالكتاب والسنة سلفِ الأمة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وكذلك هدي الخلفاء الراشدين؛ فإن هديَهم هو من الفهم الصحيح لسنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتطبيق الواضح لهذه الأمة، وإلَّا فليست هي سنة مستقلة بالتشريع؛ فهم لا يصنعون شيئًا من قِبل أنفسهم على سبيل التشريع، بل هم ناقلون عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أُجمع عليه فهو حجة؛ لأنهم لا يُجمعون على الضلالة.

- وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تقديم كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كل كلام؛ لأن كلام الله غير مخلوق، ولا شكَّ في تقديم الكتاب على السنة، وهذا من جهة شرف القرآن ومنزلته العظيمة، وأما من جهة التشريع فهما بمنزلة واحدة كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا إن ما حرم رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **كما حرم الله...**» الحديث[1]. والقرآن هو أصدق الكلام، وقد تعهد الله عَزَّ وَجَلَّ بحفظه فقال: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ**﴾ [الحجر:٩].

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٦٦٤) وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٨٧٠) من حديث المقدام بن معد يكرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

- ويقدمون هدي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هدي كل أحد، فكلُّ أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- ولا يجوز نصب الخلاف بين سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبين قول أحد من الناس، بل كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «توشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول لكم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتقولون قال أبو بكر وعمر!»(١).

- وقد تضمنت أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحث على تجنب البدع، وذلك لأن البدع سبب انحراف الأمة في العقائد، وفي العبادات، وفي أصول المعاملات.

- ثم ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ الإجماع، وذكر أن أهل السنة والجماعة سموا بذلك لالتزامهم بالسنة ولالتزامهم بإجماع السلف رضوان الله عليهم، وألمح إلى القياس بقوله: (وهم يَزِنُون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس) والأصول الثلاثة أي: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس الصحيح داخل في أصول الاستدلال.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح الواسطية»: (هذا بيان المنهج لأهل السنة والجماعة في استنباط الأحكام الدينية كلها، أصولها وفروعها، بعد طريقتهم في مسائل الأصول، وهذا المنهج يقوم على أصول ثلاثة:

أولها: كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، الذي هو خير الكلام وأصدقه، فهم لا يقدمون على كلام الله كلام أحد من الناس.

---

(١) الأثر بهذا اللفظ أورده شيخ الإسلام في «الفتاوى» (٢٠/ ٢١٥)، (٢٦/ ٥٠، ٢٨١)، وابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٣٨)، وزاد المعاد (٣/ ١٠٦٣)، وأورده الشيخ محمد عبد الوهاب في «كتاب التوحيد» باب: من أطاع العلماء والأمراء...، واللفظ الصحيح لأثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أراهم سيهلكون أقول قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقول نهى أبو بكر وعمر» رواه أحمد (١/ ٣٣٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢٣٧٨)، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (٣٧٩).

وثانيها: سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أُثِر عنه من هدي وطريقة، لا يقدمون على ذلك هدي أحد من الناس.

وثالثها: ما وقع عليه إجماع الصدر الأول من هذه الأمة قبل التفرق والانتشار وظهور البدعة والمقالات، وما جاءهم بعد ذلك مما قاله الناس وذهبوا إليه من المقالات وزنوها بهذه الأصول الثلاثة[١] التي هي الكتاب، والسنة، والإجماع، فإن وافقها؛ قبلوه، وإن خالفها ردوه؛ أيًّا كان قائله، وهذا هو المنهج الوسط، والصراط المستقيم، الذي لا يضل سالكه، ولا يشقى من اتبعه، وسط بين من يتلاعب بالنصوص، فيتأول الكتاب، وينكر الأحاديث الصحيحة، ولا يعبأ بإجماع السلف، وبين من يخبط خبط عشواء، فيتقبل كل رأي، ويأخذ بكل قول، لا يفرق في ذلك بين غث وسمين، وصحيح وسقيم) اهـ[٢].



(١) كان الواجب أن يضم إلى هذه الأصول الثلاثة القياس الصحيح فإنه معتدٌّ به باتفاق السلف وإنكاره كليةً معدودٌ في البدع.

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٥٧) ط. دار الهجرة.

بيان الصفات العملية لأهل السنة والجماعة

فصل

ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويرون إقامة الحج، والجهاد، والجمع، والأعياد، مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا، ويحافظون على الجماعات، ويدينون بالنصيحة للأمة، ويعتقدون معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص؛ يشد بعضه بعضًا»[1]، وشبك بين أصابعه، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[2]، ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بِمُرِّ القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقًا»[3]، ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك. ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والرفق بالمملوك. وينهون عن الفخر، والخيلاء، والبغي، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق. ويأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفسافها. وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا وغيره؛ فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة، وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن لما أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة؛ كلها في النار؛ إلا واحدة، وهي الجماعة، وفي حديث عنه أنه قال: «هم

---

(١) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي (١١٦٢)، وأحمد (٦٤٠٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٣٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[(١)]؛ صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السنة والجماعة. وفيهم الصديقون، والشهداء، والصالحون، ومنهم أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، أولو المناقب المأثورة، والفضائل المذكورة، وفيهم الأبدال، وفيهم أئمة الدين، الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم؛ حتى تقوم الساعة»[(٢)]. نسأل الله أن يجعلنا منهم وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب. والله أعلم، وصلَّى الله على محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

هذا الفصل ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان جملة من الأمور العملية وإدخالها في الاعتقاد، وهذا من أعظم ما يبين ويوضح مفهوم العقيدة والإيمان عند أهل السنة فهو لا يقتصر فقط على الأمور العلمية، بل يُدخِل في أصولهم أيضًا القيام بالمجمع عليه والذي دلَّ عليه الكتاب والسنة من الأمور العملية، والأخلاق والسلوك.

- وهذا أمر في غاية الأهمية في شمول فهم منهج أهل السنة؛ فإن دين الإسلام الذي هو سبيل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشمل صلاح الفرد ظاهرًا وباطنًا، عقيدةً وعملًا، وأخلاقًا وسلوكًا، أفرادًا وجماعةً، وليس فقط أن منهج أهل السنة منهج نظري، أو مجرد أقوال، ويكون السلوك والعمل مختلفًا عن هذا الاعتقاد، فإن هناك أمورًا واجبة أوجبها الشرع، وأدلتها مستفيضة في الكتاب والسنة والإجماع، وهي داخلة ضمن هذه الأصول، ولا يكون ملتزمًا بمنهج أهل السنة مَن خالفها حتى ولو كان اعتقاده في قضية الأسماء

---

(١) سبق تخريجُه.

(٢) سبق تخريجُه.

والصفات أو الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أو القدر اعتقادًا موافقًا في ألفاظه لمنهج أهل السنة، لكن لا يكفي ذلك حتى يكون متبعًا في سلوكه وعمله وأخلاقه.

- فذكر شيخ الإسلام أولًا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأضاف عبارة: «**على ما توجبه الشريعة**» تحرزًا عن أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بطريقة منكرة كطريقة الخوارج، والمعتزلة، الذين يرون القتال في إنكار المنكر مهما أدى إلى مفاسد، ولا يراعون ضوابط المصالح والمفاسد، ولا يراعون قضية الضرر المتعدي، وهذه مسائل لابدَّ من فهمها؛ لأن أهل السنة يبنون أمر الحسبة، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على العلم، وهذا مما أوجبته الشريعة قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ [يوسف:١٠٨].

وكذلك يبنون الأمر على ما أوجبته الشريعة من مراعاة المصالح والمفاسد، واحتمال أدنى المفسدتين لدفع أعظمهما، ويمكن احتمال تفويت أدنى المصلحتين لجلب أكبرهما فإنهم يراعون المصالح والمفاسد، وكذلك يراعون قضية القدرة والعجز، والعجز عندهم يشمل: العجز الحسي، وما في معنى العجز الحسي من حصول الضرر البالغ في النفس أو المال أو الجاه لنفسه، أو لمن حوله من أقاربه أو المسلمين.

وأيضًا قضية (مراعاة الضرر المتعدي) الذي قد يصل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى درجة التحريم إذا كان الضرر المتعدي إلى الأبرياء المتضررين من المسلمين أعظم مما يرجى من تحقيق مصلحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه بعض المسائل التي من أجلها زاد قوله (**على ما توجبه الشريعة**)[١].

وأما قوله: [**ويرون إقامة الحج، والجهاد، والجمع، والأعياد، مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا...**] وذلك لأن المحافظة على كيان الأمة المسلمة والطائفة المسلمة أمر

(١) يُنصح بمراجعة كتاب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للمؤلف.

ضروري وواجب، وبه يندفع العدو، وطالما بقى الأمراء داخل دائرة الإسلام فلابدَّ أن يُعَاوَنوا على إقامة ما يقيمونه من الدين: كالحج، والجهاد، والجمع، والأعياد، ما داموا كانوا يقيمون ذلك على دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما دام أنهم أقاموا شرع الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الأمور حتى لو مُنِعوا بسبب فجورهم حق الطاعة فيما يعاوَنون به على المعصية، فلا يُعان أحد على معصية الله، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[1]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا طاعة في معصية؛ إنما الطاعة في المعروف**»[2] ولا طاعة لمن عصى الله، ولكنهم يُطاعون ويجابون إلى ما أمروا به وطلبوه وفعلوه من البر والتقوى، تحقيقًا لقول الله: ﴿**وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ**﴾ [المائدة:٢].

۞ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**ويحافظون على الجماعات**] فهذا من السمات العملية لأهل السنة على الخلاف الفقهي الذي بينهم في وجوب صلاة الجماعة؛ لكن لا تجد أحدًا من أهل السنة مفرطًا في صلاة الجماعة مع القول بالوجوب، أو السنية والتأكيد، لكن من سِمَتهم العملية المحافظة على صلاة الجماعة، فمن وجدته يتخلف عن صلاة الجماعة ويصلى في بيته بغير عذر فتأكد أنه ليس على المنهج، وانفض يدك منه حتى لو ادَّعى الانتساب إلى السلف.

۞ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**ويدينون للنصيحة للأمة، ويعتقدون معنى قوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعض ببعضا» وشبَّك بين أصابعه**[3]، **وقوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد...» الحديث**[4]].

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٣١)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **متفق عليه**: رواه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠).

(٣) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) **متفق عليه**: البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

هذان الحديثان مع هذه القضية من أعظم معاني الإيمان؛ وذلك أنها ثمرة الحب في الله عَزَّوَجَلَّ؛ فالمؤمن الصادق لابدَّ أن يشعر بإخوانه المسلمين وينصح لهم، ويؤدي حقهم، ويهتم لأمرهم، ويفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، ويشعر بأن ما أصابهم قد أصابه، فليست الأمة مفككة، وليس المسلم منفصلًا عما يجري لإخوانه في مشارق الأرض ومغاربها.

- ووحدة الأمة قضية عظيمة الأهمية، ولا يُتصوَّر رجلٌ صادقُ الانتماء لأهل السنة لا يهتم بقضايا المسلمين، ولا تشغله أحوالهم في المشارق والمغارب، ولا يبحث عن مصلحتهم، ولا يتصور ذلك لمن ادَّعى الانتساب إلى السنة والسلف، وكثير من الناس يظن أن المنهج السلفي أو السلفية هي مجرد قضايا نظرية تُقَرَّر، ويكون الإنسان عديم الإحساس بما يصيب الأمة في مشارقها ومغاربها، ولا يبحث لها عن مخرج، ولا يفكر في الخروج من الأزمات التي تكون فيها.

- والمسلم الناصح لا يكون أبدًا فيه تلك الصفات الذميمة؛ بل المسلم الناصح يدين لله عَزَّوَجَلَّ بأن ينصح للأمة، وهذا مصداق قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدين النصيحة**» قلنا: لمن؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**»(١).

فالجسد الواحد يتألم، وتتألم أجزاؤه من أجل جزء، وكله شيء واحد وكيان واحد.

۞ وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [**ويأمرون بالصبر على البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمُرِّ القضاء**] فهذه من الأعمال القلبية الواجبة والمستحبة؛ فالصبر عند البلاء من أوجب الأعمال، وأَمَرَ الله به في مواضع مختلفة من كتابه، والرضا مستحب على الراجح، وفيه قدر واجب وهو الرضا بالله عَزَّوَجَلَّ ربًّا مدبرًا، والبشر في هذه الأرض لا يخلو حالهم من بلاء أو نعمة.

---

(١) رواه مسلم (رقم ٥٥) من حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- والمؤمن يجمع دائمًا بين الصبر والشكر؛ فعند نزول البلاء هو صابر يحبس نفسه عن الجزع، ويحبس لسانه عن الشكوى لغير الله، ويحبس جوارحه عن فعل المعصية، وكذلك في السراء يعرف نعمة الله عَزَّوَجَلَّ بقلبه، ويعظمه، ويحمده، ويحبه عليها، ويجري لسانه بالثناء على الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ هو سبحانه الذي أنعم بالنعم، ثم يصرف جوارحه في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ بهذه النعم.

۞ وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [**ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»[1]].

هذا في باب معاملة الناس، لابدَّ أن تكون بالخلق الحسن، وذكر جملة منها فيما يتعلق بالمندوب والمستحب؛ فالمندوب: أن يصل الإنسان من قَطَعه، ويعطي من حرمه، ويعفو عمَّن ظلمه.

- ولا شكَّ أن الوسطية التي جاء بها الإسلام في الندب إلى الفضل والأمر بالعدل، فهذا الذي تقوم به حياة العباد وهو صلة من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمَّن ظلم مع جواز الانتصار للمظلوم، لكن الندب هو الأولى والأفضل، وبه يرتفع المؤمن درجات وينال الحظ العظيم.

- وأما الأمر ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والرفقة بالمملوك، فكلها من حسن الأخلاق الواجبة، وليست كل الأخلاق الحسنة كلها مستحبة فقط، بل هناك قدر واجب مثل هذه الأخلاق التي دلت أدلة الشرع على وجوبها.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (١١٦٢١)، والإمام أحمد (٢/ ٤٧٢) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣/ ٨٨٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والمسلم يخالق الناس بالخلق الحسن كما أمر النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإذا وجدت شتامًا طعَّانًا، قاطعًا للرحم، عاقًّا لوالديه، يسيء إلى الجوار، يسيء إلى مَن يعاملهم، ولا يحسن إلى اليتامى والمساكين، ولا يرفق بمن تحته، فاعلم أنه ليس من أهل السنة حتى لو كان يزعم الانتساب إليهم.

- وأما الأخلاق المنكرة: فهي منبعها من الصفات الإبليسية الشيطانية، وقد توجد في كثير من النفوس: كالفخر، والخيلاء، والبغي، والاستطالة على الخلق بغير حق، والكبر على الخلق الذي ذرة واحدة منه تمنع من دخول الجنة.

- ثم ذَكَر شيخ الإسلام رَحِمَهُاللَّهُ قضية الاتباع للكتاب والسنة في الأقوال والأفعال، وهذا يدلُّ على أن قضية المتابعة ليست قضية مقتصرة على الأمور الاعتقادية، بل القضية قضية منهج حياة في كل أمر من الأمور.

وبيَّن أن أهل السنة على هذه الطريقة التي هي دين الإسلام، وبيَّن سبب التسمية بأنهم أهل السنة والجماعة أن ذلك وقع لما افترقت الأمة، لكن في الحقيقة إن ما هم عليه هو دين الإسلام المحض الخالص الذي لم يُشَب بغيره، وأما غيرهم فقد انتسب إلى الإسلام وشابته البدع والضلالات، فهنا احتيج إلى التفرقة والتسمية.

- وهذه التسمية ليست بديلًا عن اسم الإسلام، لكنها توضيحٌ لحقائقه، كما أن السلفية ليست بديلًا عن أهل السنة ولا بديلًا عن الإسلام، ولا أنها حزبية ممقوتة، ولكنها بيان لما جاء به النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبيان للطريقة الواجب اتباعها، وليست بالتعصب المذموم الذي هو التقليد الأعمى، وإنما يكون المؤمن وإخوانه عصبة على الحق يتعاونون عليه، ويحبون الخير للناس ويدعون إليه، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

- وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أهل السنة فيهم: الصديقون، والشهداء، والصالحون، لكن غيرهم ممَّن خالف طريقتهم حتى ولو كان عنده بعض الحسنات فلا يصدق عليه وصف الصلاح بإطلاق، وإن كان شهيدًا ففيه نقص، ولا يصدق عليه أيضًا وصف الصدِّيق حتى وإن كان عنده صدق في بعض الأمور، فإن أهل البدع يُذَمُّون ولا يُمْدَحون، وإن كانت لهم حسنات فهم على خطر، ولا يصح مدحهم بإطلاق.

- لكن أهل السنة فيهم الصديقون والشهداء والصالحون بإطلاق، منهم أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، كالأئمة من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وهم أئمة هذه الأمة بعد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وباقي العشرة المبشرين بالجنة.

- وكما سبق في فضل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وأئمة التابعين، ثم تابعي التابعين، ومَنْ بعدهم: كالأئمة الأربعة -رضي الله تعالى عنهم- وهم معدودون في تابعي التابعين، وأئمة الحديث: كالبخاري، ومسلم، وأصحاب السنن، وغيرهم ممن لهم المناقب المشهورة والفضائل المذكورة.

- وأما ذكر **(الأبدال)** فهذا ورد به بعض الأحاديث على مقال فيها، والصحيح أن بعض السلف كان يُعَدُّ من **(الأبدال)**، وليس هذا على ما يعتقده الصوفية في الأبدال أنهم يتبادلون التصرف في الكون، وإنما المعنى الصحيح لـ**(الأبدال)** أي: يخلف بعضهم بعضًا في القيام بالحق، والقيام بهذا الدين علمًا وعملًا وحالًا واتباعًا للكتاب والسنة، وإذا مات أحدهم أو قضى نحبه فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقيم غيره بدلًا منه ممن يقوم بالدين، فلا ينقطع هذا من الأمة بفضل الله عَزَّوَجَلَّ.

- وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أهل السنة هم الطائفة المنصورة، وهذا النصر والظهور هو ظهور الحجة والبيان، وظهور القوة والسنان.

فإذا ذُكِر في مقام المنهج والسنة فالمقصود به ظهور الحجة وهم أهل العلم وأهل الحديث، وهم أهل السنة والجماعة.

جعلنا الله عَزَّوَجَلَّ منهم، وألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، وأن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب.

قال الشيخ خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (جمع المؤلف في هذا الفصل جماع مكارم الأخلاق التي يتخلق بها أهل السنة والجماعة؛ من الأمر بالمعروف: وهو ما عرف حسنه بالشرع والعقل، والنهي عن المنكر: وهو كل قبيح عقلًا وشرعًا؛ على حسب ما توجبه الشريعة من تلك الفريضة؛ كما يفهم من قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**من رأى منكم منكرًا؛ فليغيره بيده، فإن لم يستطع؛ فبلسانه، فإن لم يستطع؛ فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[(١)].

ومن شهود الجُمَعِ والجماعات والحج والجهاد مع الأمراء أيا كانوا؛ لقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**صلوا خلف كل بر وفاجر**»[(٢)] ومن النصح لكل مسلم؛ لقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**الدين النصيحة**»[(٣)].

ومن فهم صحيح لما توجبه الأخوة الإيمانية من تعاطف وتوادٍّ وتناصر؛ كما في هذه الأحاديث التي يُشَبِّه فيها الرسول المؤمنين بالبنيان المرصوص المتماسك اللبنات، أو بالجسد المترابط الأعضاء من دعوة إلى الخير، وإلى مكارم الأخلاق، فهم يدعون إلى الصبر على المصائب، والشكر على النعماء، والرضا بقضاء الله وقدره... إلى غير ذلك مما ذكره. وأما قوله: «**وفيهم الصدّيقون...**» إلخ؛ فالصديق صيغة مبالغة من الصدق، يراد به الكثير التصديق، وأبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هو الصديق الأول لهذه الأمة.

---

(١) رواه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **ضعيف**: رواه أبو داود (٥٩٤)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف أبي داود».

(٣) تقدَّم تخريجُه.

وأما الشهداء: فهو جمع شهيد، وهو من قُتِل في المعركة.

وأما الأبدال: فهم جمع بدل، وهم الذين يخلف بعضهم بعضا في تجديد هذا الدين والدفاع عنه؛ كما في الحديث: «**يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها**»[١] والله أعلم، وصلىَّ الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيًرا) اهـ[٢].

تمَّ الشرح



(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٢٩١)، وصحَّحه السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٤٩)، والألباني في «السلسة الصحيحة» (٥٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «شرح الواسطية» للشيخ خليل هراس (٢٥٩-٢٦٢) ط. دار الهجرة.